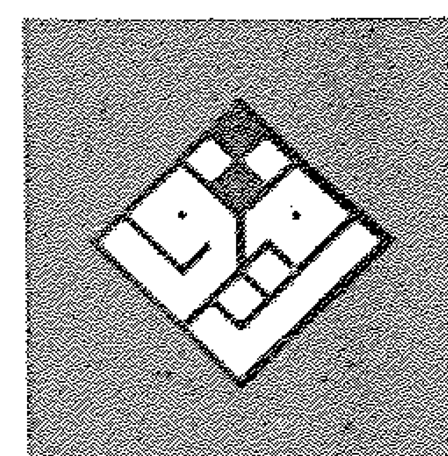




المشروع القومي للترجمة

مسلمو مملكة غرناطة

بعد عام 1492

تأليف: خوليو كارو باروخا

ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن

597

إهـــــداء ٢٠٠٦

المجلس الأعلى للثقافة

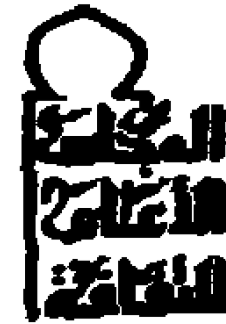
المشروع القومى للترجمة

مسلمو مملكة غرناطة

بعد عام ١٤٩٢

تـــألـــيـــف : خوليو كارو باروخا

ترجمة وتقديم : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٩٧
- مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢
- خوليو كارو باروخا
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٣

هذه ترجمة كتاب :

Los moriscos del reino de Granada,

المؤلف : **Julio Caro Baroja**

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

فهرس الكتاب

تقديم المترجم	9
مقدمة الطبعة الثانية	15
الفصل الأول	35
هوامش الفصل الأول	51
الفصل الثانى	59
هوامش الفصل الثانى	74
الفصل الثالث	83
هوامش الفصل الثالث	106
الفصل الرابع	121
هوامش الفصل الرابع	141
الفصل الخامس	153
هوامش الفصل الخامس	172
الفصل السادس	181
هوامش الفصل السادس	200
الفصل السابع	211
هوامش الفصل السابع	232
الفصل الثامن	245
هوامش الفصل الثامن	261
الخاتمة	269

إلى ذكرى صـــديقى الراحـل رافـائيـــل روبينيس

أو «عـمى إدريس» الذى رحل عن عـالمنا ودفن فـى مـقـابر

المسلمين فى إشبيلية .

المترجم

تقديم المترجم

لعلنا لا نضيف جديدا حين نقول إن الكتاب الذى نقدم له الآن لا غنى عنه لمن يريد التعرف على جوانب محنة مسلمى الأندلس بعد سقوط دولتهم. والكتاب يكتسب أهميته الكبيرة لسببين: شخصية المؤلف ، والموضوع الذى يطرحه.

مؤلف الكتاب هو خوليو كارو باروخا عالم الاجتماع المعروف فى إسبانيا وأوروبا ، وهو صاحب مؤلفات عديدة فى تخصصه ، نذكر منها " تزييف التاريخ" و "محاكم التفتيش والشعوذة" و "إقليم نابارا فى القرن الثامن عشر" و "اليهود فى إسبانيا فى العصر الحديث" و"مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢" ، هذا إلى جانب عدد هائل من المقالات والمحاضرات المنشورة فى مجلات علمية. والمؤلف كان أستاذا بجامعة مدريد ومديرا لمتحف الشعب الإسبانى، وكان عضوا بأكاديمية اللغة الإسبانية وبالأكاديمية الملكية للتاريخ ، وقد حصل على أرفع الجوائز العلمية التى تمنحها الحكومة الإسبانية : جائزة الدولة فى الآداب وجائزة أمير أستورياس فى العلوم الاجتماعية.

كانت رحلة الحصول على موافقة أسرة المؤلف على ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية صعبة إلى حد ما ، لا لأن الأسرة اعترضت أو اشترطت شيئا – فهى لم تفعل ذلك – وإنما كانت صعوبة الوصول إلى عناوينهم وإلى معرفة الشخص الذى يمكن الحصول منه على الموافقة.

أسرة باروخا معروفة جدا فى عالم الفكر والأدب ، فهى التى أنجبت الروائى بيو باروخا عم خوليو كارو باروخا صاحب هذا الكتاب. بدأت الرحلة انطلاقا من المجلس الأعلى للبحث العلمى فى مدريد، وقد عرفنى زملائى هناك على الدكتورة كارمن أورتيث الأستاذة بالمجلس والتى أعدت رسالة الدكتوراه تحت إشراف البروفيسور

باروخا. وقد قدمت لى الدكتورة كل عون وتحدثت عن أستاذها حديث التلميذة الوفية ، فلم تتوقف أبدا عن التعبير عن امتنانها لأستاذها الراحل. أمدتنى الدكتورة أورتيث بعناوين الأسرة وهكذا أمكن الحصول على موافقتهم على ترجمة الكتاب ونشره ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة.

أما الكتاب فيمثل أحد المراجع التى لا غنى عنها للباحث عن تاريخ الأندلس بعد عام ١٤٩٢ ، أى بعد سقوط غرناطة الإسلامية. ويجد كل من القارئ العادى والباحث المتخصص أسبابا ينزل بمقتضاها هذا الكتاب منزلة خاصة.

ألف باروخا هذا الكتاب فى وقت لم تكن الدراسات الموريسكية قد حظيت بالاهتمام الذى تحظى به الآن ، و من ثم فهو أحد رواد هذه الدراسات. وقد سار كثير من الباحثين على نهجه ، ويندر أن نجد بحثا عن الموريسكيين يخلو من إشارة إلى كتاب باروخا الذى نقدم له الآن.

لا يسعى المؤلف إلى معالجة مشكلة مسلمى الأندلس فى مجملها، وإنما يكتفى بدراسة ما حل بأهل غرناطة فى إسبانيا قبيل غزو مملكتهم الإسلامية وبعده ، ثم ما تعرضوا له فى منفاهم الإجبارى. رغم ذلك فإننا نؤكد أن معظم ما ذكره المؤلف ينطبق على مسلمى الأقاليم الأخرى فى إسبانيا. تختلف حدة الوضع من إقليم إلى آخر ، لكن جوهر المشكلة يظل هو نفسه فى كل الأقاليم: يتمسك المسلمون بدينهم ويبذلون الغالى والنفيس فى الذود عنه ، ويتحايلون فى سبيل استمرار ممارستهم لشعائر الإسلام.

يحاول باروخا فى مقدمة الكتاب الاقتراب من مصطلح "نقاء الدم" حتى يمكن للقارئ أن يفهم بعدا جديدا للمشكلة الموريسكية ، فالموريسكى – حتى لو أصبح مسيحيا مخلصا – سيظل ابنا لسلالة غير مسيحية ، وبالتالى "غير نقى الدم" ، أى سيظل فى وضع "أقل شأنا" بالنسبة للمسيحيين القدامى. إن هذه المعلومة التى لا يكاد يتعرض لها أحد بشكل موضوعى توضح أن كل مسلمى الأندلس – سواء من تنصر منهم حقيقة أو من حافظ على إسلامه فى الخفاء – قد تعرضوا لمحنة.

ربما كان من أهم جوانب الكتاب توقفه عند قضية التراث الإسلامي لغرناطة رغم رحيل المسلمين عنها طوعا أو كرها. إن انتماء التراث الغرناطي بشكل أو بآخر إلى الحضارة العربية الإسلامية كان أمرا لا يقبل الجدل حتى وقت قريب، لكن هناك من حاول تبسيط المسألة وزعم أن أهل غرناطة المسلمين قد تم ترحيلهم إلى مناطق إسبانية أخرى و تم استبدال مواطنين من الشمال الإسباني بهم ، وخلص إلى نتيجة مفادها أن ما يظنه الناس تراثا إسلاميا في غرناطة ليس إلا ثقافة إسبانية محضة. إن باروخا يؤكد في هذا الكتاب المرة تلو المرة أن الأمر لم يكن بهذه البساطة وأن التراث الإسلامي لم يفارق غرناطة أبدا ، فالوثائق تؤكد عودة الكثيرين من أهل غرناطة إلى بيوتهم بعد طردهم منها، ولو أن تلك العودة كانت بعيدا عن أعين رجال السلطة. ويستدل باروخا في ذلك بالتشابه الواضح بين عادات أهل غرناطة وأهل المغرب العربي في المأكل والملبس والمعاملات والزخرفة.

لا يخشى المؤلف أن يشير إلى خطأ المؤرخين الإسبان القدامى ، ويذكر – في صراحة غير معهودة في البحث التاريخي الإسباني المعاصر له – أن الظروف السياسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تحول دون أن يكتب المؤرخون بموضوعية. يشير باروخا إلى أن المؤرخين الإسبان قد حذفوا من مذكرة نونييث مولاي كل العبارات التي تهاجم الكنيسة.

هناك شيء يلفت النظر في هذا الكتـــاب: المؤلف يحـــاول الربط بين الواقع الاجتماعي في شمال إفريقيا ووضع الموريسكيين في إسبانيا. إذا كان فهم قضية مسلمي غرناطة ضروريا لفهم تاريخ إسبانيا بكل أبعاده ، فإن دراسة "الآخر" ، أي المسلم المغاربي، تعد وسيلة ضرورية لفهم تاريخ الموريسكيين ، وبالتالي لفهم التاريخ الإسباني بشكل موضوعي. هذا هو النهج الذي سيسير عليه غوثاليبس بوستو في كتاب عن الموريسكيين في المغرب ربما تنشر ترجمته العربية قريبا بإذن الله. إذن فالباحث الأوربي يرى – ولا نظن أنه يخطئ – أن معرفة "الآخر" تسهم كثيرا في معرفة الذات.

يركز باروخا على جانب لم يهتم به أحد ، وهو جانب العلاقات الطيبة التي ربطت بين مسلمين ومسيحيين في إسبانيا حتى بعد سقوط غرناطة، وكيف أن هذه العلاقات

كان لها أثر فى تخفيف وطأة الحياة على المسلمين الذين كانوا يتعرضون لملاحقة محاكم التفتيش. ونذكر فى هذا الإطار الرسالة التى بعث بها موريسكى من الجزائر إلى صديق مسيحى فى إسبانيا. نذكر كذلك أن كوسمى بن عامر لم يجد مشكلة فى العثور على ضامن مسيحى حينما اشترطت محكمة التفتيش ذلك ، والجدير بالذكر أن الموضوعين موجودان فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة منذ شهور.

لعل باروخا هو أول من أشار إلى الأثر الإسلامى الواضح فى أمريكا الجنوبية. أشار إلى ذلك منذ ستين عاما تقريبا، ولم تهتم الدراسات الموريسكية بهذا الموضوع إلا فى السنوات الأخيرة.

على أن إعجابنا بباروخا وكتابه لا يجوز أن ينسينا أن المؤلف – فى رأينا– قد جانبه الصواب فى بعض الأحيان .

المؤلف ينزع دون شك إلى الموضوعية ، لكنها موضوعية لا تخلو من تعسف فى بعض الأحيان، فهو يتعاطف مع أصحاب المشكلة، لكنه لا يتعامل مع الإسلام باعتباره دينًا سماويا ، وبالتالى فإننا نلمح فيه رفض محكمة التفتيش التعسفية وتبنى وجهة نظر الكنيسة من الناحية الروحية ، أى أنه لا يعارض تنصير المسلمين ، لكنه يرى أن تتم عملية التنصير دون عنف. إن بعض الباحثين الأوروبيين المعاصرين يتبنون وجهة نظر باروخا ولا يعترضون على التنصير فى حد ذاته وإنما يعترضون على الوسيلة التى اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق ذلك خلال القرن السادس عشر.

إن عدم اعتبار الإسلام دينًا سماويا هو الذى أبعد كثيرا من المؤرخين عن الطريق الموضوعى الصحيح لفهم أبعاد المشكلة. وخوليو كارو باروخا قد بذل جهدا ملحوظا فى عرض المشكلة الموريسكية بموضوعية ، غير أنه فى الصفحات التى تناول فيها الشعائر الدينية لم يتمكن من المحافظة على هذه الموضوعية.

هناك عدم تفهم لجوانب الثقافة الإسلامية ، حيث يخلط باحثون أوروبيون بين المبادئ التى يأمر بها الدين وبين الخرافات التى يبتدعها البعض ، ففى بعض الكتابات الإسبانية حديث عن احتفال المسلمين بعيد الأضحى بذبح طفل مسيحى،

وهناك حديث عن دفن المسلم ومعه طعام وشراب فى قبره، وهناك حديث عن كتابة فقهاء المسلمين لنبوءات تتحدث عن وصايا جديدة بعث بها النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى الأمة.

إن عدم فهم الدين الإسلامى هو الذى جعل بعض الباحثين الأوروبيين يظنون أن المسلم لا يحترم السيدة مريم العذراء ، ومن نافلة القول أن هذا الخطأ لا يقع فيه أى دارس جاد للإسلام و للآيات القرآنية التى تحدثت عن السيدة مريم.

يتميز كتاب باروخا بالإشارة إلى مصادر وفيرة ، وهذا شىء محمود ، غير أن بعض تلك المصادر لا يمكن الاستناد إليها لأنها - كما يشير باروخا نفسه فى مواضع أخرى - لا تتمتع بالمصداقية . وقد رأينا بالفعل أن كثيرا من كتابات القرن السادس عشر الإسبانى يغلب عليها الجانب الدعائى. الشىء الغريب حقا هو أن يبنى باروخا بعض أحكامه عن المسلمين على كتابات لمسيحيى إسبانيا لم يقصد أصحابها سوى المبالغة والسخرية من المسلمين.

قد نتفق أو نختلف مع المؤلف فيما ذهب إليه ، أما ما لا خلاف عليه فهو قيمة الكتاب بصفته نموذجًا متميزاً فى دراسات علم الاجتماع وعلمًا موسوعيا (إنه ببساطة يتوقف عند كل موضوع بالدرس والتحليل ، ثم هذا الكم الهائل من المصادر القديمة والحديثة التى يعرضها الكتاب).

وهناك ملمح آخر فى هذا الكتاب : يلفت نظرنا فى أسلوب باروخا ، عنصر التشويق والربط بين الفقرات والفصول، مما يجعل قراءة الكتاب - على الأقل فى نسخته الأصلية - سهلة وممتعة.

هكذا أصل إلى نهاية المقدمة وأترك الكتاب بين يدى القارئ ، ولا يفوتنى أن أعبر عن امتنانى لكل من السيدة كارمن كارو باروخا والسيد بيو كارو باروخا لتعاونهما فى سبيل أن تخرج الترجمة العربية لهذا الكتاب إلى النور.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

مقدمة الطبعة الثانية

نُشِرَ هذا الكتاب للمرة الأولى عام١٩٥٧ ، وقد نفدت الطبعة منذ فترة. وفي السنوات الأخيرة فكرت في تعديله أو في إصدار طبعة ثانية. أما بالنسبة للمشروع الأول فلا أجدني مستعدا له حاليًا ، وأما بالنسبة للاقتراح الثاني فقد رأيت ألا أقدم الكتاب للقارئ بعد عشرين عامًا من إصدار الطبعة الأولى دون أن أكتب شيئًا عن الفكرة الأصلية للكتاب ، وعن الدراسات الموريسكية التي نشرها باحثون إسبان وأجانب منذ عام ١٩٥٧ وحتى الآن.

موضوع الموريسكيين(*) موضوع جديد دائمًا ، لكنني لم أكتب في هذا الموضوع سيرًا وراء " موضة " أو لأسباب تتعلق بالحنين إلى الماضي الإسلامي. إن كتابتي عن هذا الموضوع مبعثها تجارب شخصية بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٤ ؛ فقد ظللت طيلة ستة أعوام على اتصال وثيق بأندلوثيا الشرقية ، وبمدن مغربية كانت تحت الحماية الإسبانية ، وبأراضي جفني Jfni ، وبالصحراء الغربية. واليوم تبدو لي كل تلك التجارب والمعايشات أطياف خيال ، وأتساءل أحيانًا كيف كتبتُ مجلدًا كاملاً عن بدو الصحراء وعن موضوعات أخرى بعيدة عن عالمي الداخلي والخارجي.

لقد نسيت الكلمات العربية الدارجة التي تعلمتُها حينذاك ، وأحيانًا أتصفح كتابي عن البدو كما لو كان كتابًا ألفه شخصٌ آخر. أما موضوع الموريسكيين فهو أقرب إليّ: أولاً لأنني لازلت أتردد على مواقع الأحداث التي يرويها كتابي . وثانيًا لأنني قد كتبتُ فيما بعد موضوعات متصلة بالموريسكيين . وثالثًا لأن الباحثين في موضوعات متعلقة بالحضارة الإسلامية ممَّن قرأوا كتابي قد أرسلوا إليَّ معلومات توصلوا إليها. لقد تابعتُ هذه المعلوماتَ عن قُرب وأرشدتُ إليها آخرين. كتاب " مسلمو غرناطة

(*) الموريسكي هو المسلم الذي ظل في إسبانيا بعد سقوط غرناطة وحافظ على أداء شعائر الإسلام في الخفاء بعد أن أُجبر على اعتناق المسيحية . (المترجم)

بعد عام ١٤٩٢" كتاب لعالم أجناس أكثر مما هو كتاب مؤرخ : هنا بالتحديد تكمن أصالته. من ناحية أخرى يجب أن نعتبر هذا الكتاب شيئًا منفصلاً . بعد وقت قصير سيظهر إلى الضوء كتاب لكل من أنطونيو دومينغيث أورتيث وبيرنارد فينسينت ، وهو كتاب يعالج القضية الموريسكية في مجملها ، ويتعرض لجوانب اجتماعية واقتصادية لم يتعرض لها أحد ، واكتفى المؤلفان بالإشارة إليها في دراساتهما (١) . سأشير إلى هذين المؤلفين وإلى غيرهما في ملاحظات جديدة أدخلها على النص القديم. والآن أعتقد أنه من المفيد إبداء بعض ملاحظات تهدف إلى توضيح موقفي من القضية الموريسكية من وجهة نظر علم الأجناس.

- ٢ -

كان من الشائع تعريف علم وصف الأجناس Entografia على أنه دراسة جنسٍ ما من وجهة نظر وصفية ، وتعريف علم الأجناس البشرية Etnologìa على أنه كلام نظري عن الأجناس .

والإنجليز حينما يستخدمون هذين المصطلحين حاليًا فإنهم يعنون بالمصطلح الأول مناقشة قضايا ثقافية وصفية ، ويستخدمون المصطلح الثاني للإشارة إلى جوانب التطور التاريخي . إذا استعرضنا المفاهيم الحديثة فيمكننا أن نتبنى فكرة أن الحديث عن " مجموعة بشرية من عنصرٍ ما " تعني الحديث عن الصفات الجسدية لأفراد تلك المجموعة بالإضافة إلى صفاتها الاجتماعية والثقافية. وفي كل حالة يكون تحديد المجموعة بناء على دراسات من وجهات نظر مختلفة. فعوامل تحديد عنصر الباسك أو الإنجليز ليست العوامل التي تحدد العنصر الموريسكي أو المدجن أو المستعرب ، رغم وجود قواسم مشتركة هي اللغة والزي والعادات.

إن تحديد عنصر بشريٍ ما - كالموريسكيين - يتم غالبًا على أساس ديني : إنها مفاهيم دينية مختلفة عن المفاهيم الدينية للمدجنين(*) والمستعربين(**) ، وقد كان المستعربون يعيشون في ظروف مشابهة(***) .

(*) المدجن هو المسلم الذي يُقيم في ممالك النصارى بالشمال . (المترجم)

(**) المستعرب هو المسيحي المقيم في مملكة إسلامية . (المترجم)

(***) لا نتفق مع المؤلف حين يُقارن الموريسكي بالمدجن والمستعرب، فلا المدجن ولا المستعرب كان يتعرض لحملة شرسة تهدف إلى أن يغير أيٌ منهما دينه. (المترجم)

لكى نصل إلى هذا التحديد لا يكفى مجرد عرض ملاحظات وصفية ، بل يجب القيام بدراسة تمهيدية نحلل فيها المفاهيم الأساسية التى لم يتوقف عندها المؤرخون. من المؤكد أن تداخل الموضوع الدينى فى المشكلة معقد إلى أقصى حد ، ويكشف إلى أى مدى ارتبطت المفاهيم الدينية بالصفات الجسدية . وسأفصل ذلك فيما بعد.

إن العلاقة بين بعض الكلمات وبعض المؤسسات تُصوِّر أحيانًا بشكل يؤدى إلى تناقضات ظاهرية. هذا ما يحدث على سبيل المثال مع كلمة سلالة casta، وهو موضوع درسه علماء الاجتماع والمؤرخون وعلماء اللغة ولم يصلوا فيه إلى نتائج حاسمة. هناك نموذج فى البحث اللغوى يقدمه لنا ح. كوروميناس فى معجمه الشهير[٢] حيث يستبعد أن يكون لفظ "casta" الإسبانى مشتقا من castus و castitas فى اللاتينية ، ويرى أن اللفظ أصله جرمانى. أعترف الآن أننى أميل إلى الأصل اللاتينى.

أشير كذلك إلى لفظ مشتق من كلمة casta وهو لفظ أصلى castizo . هذا اللفظ موجود بكثرة فى كتابات أميريكو كاسترو [٣]. وفى السنوات الأخيرة كتب صديقى العزيز جوليان بيت ريفرز صفحات رائعة عن موضوع السلالة [٤].

لن أتعرض لهذا الموضوع الآن ، لكننى أشير إلى أنه عندما يتحدث إسبانى أو برتغالى عن سلالة casta فهو يشير – ضمنًا – إلى صفة طيبة أو صفة سيئة ، ولهذا فهناك حديث عن سلالة جيدة buena casta وسلالة رديئة mala casta .

هناك مفهوم أن السلالة تنتقل بالوراثة ، ويُضاف هذا المفهوم إلى مفهوم آخر يقول إن الصفات الدينية تُتوارث ، وهذا يعنى أن سلالةً ما تكون طيبة وعالية ، وسلالةً أخرى تكون شريرة وفى طبقة أدنى.

هذا يفسر أن البرتغاليين – عندما وجدوا أنفسهم فى مواجهة نظام اجتماعى فى أمريكا الجنوبية لا يمكن مقارنته بنظم أخرى – قالوا إنه نظام لا يوصف ، وكذلك أطلقوا عليه لقب casta "سلالة" وهو أفضل مصطلح لتقريب النظام الأمريكى الجنوبى إلى الأذهان. ومع ذلك فإن المتخصصين فى شئون الهنود الحمر قالوا إن كلمة casta تصلح لوصف الطبقات الاجتماعية هناك لكنها لا يمكن استخدامها كاسم [٥] . ومنذ عام ١٥١٦ تقريبًا استخدم البرتغاليون كلمة casta على أنها صفة ، وتبعهم فى

ذلك الإسبان والإيطاليون والفرنسيون والإنجليز والألمان. وقد دخل المصطلح مجال العلوم الاجتماعية.

من المهم الآن أن نؤكد أن مصطلح casta أصله أيبيرى ، ولهذا فقد استخدمته البلاد ذات الصلة بأمريكا الجنوبية كإنجلترا . علينا أن نُبرز أيضًا اتساع مجال المصطلح فى الزمن المعاصر، وملاحظة أن المصطلح – وإن كان نابعًا من الديانة المسيحية – يُستخدم فى تمييز مجموعات بشرية " أقل شأنًا" داخل الديانة الواحدة. هذا ما حدث بالضبط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر نتيجة لأحداث سياسية عرفنا معالمها الخارجية لكننا لم نفسرها بعد . سنحاول الآن عرض رؤيتنا.

– ٣ –

إن ما يُسمى نظام السلالات فى الهند قد كُتب عنه الكثير. هناك مؤلفات قديمة عن هذا الموضوع لكن لم يصل الأمر إلى تحديد ملامح واضحة للمصطلح لأن سلالة البراهمة brahmanes نفسها – التى تعتبر أصيلة – تنقسم إلى أنواع [٦] مختلفة فيما بينها.

لكى نحدد معنى كلمة "سلالة" casta يجب ألا نعتمد على وصف محدد للسلالة، فالوصفات تختلف فيما بينها ، بل يجب أن نعتمد على أسس ومبادئ تحدد الصفات الرئيسية للسلالة. كان الجغرافيون اليونانيون يعرفون النظام الهندى . إن إسترابون Estrabon يصفه طبقًا لما كتبه ميغاثيناس Megasthenas [٧]، ويستند إسترابون فى وصفه إلى تقسيم الناس على أساس طبقى ، ويكون الفلاسفة branmaus فى أعلى درجة ، وتكون الفلسفة حرفةً ووراثةً فى آنٍ واحدٍ . ويقول إسترابون إن كل طبقة يجب أن تعمل فى حرفةٍ ما ، ويحظر أن يتزوج رجل من طبقةٍ ما امرأةً من طبقة أخرى.

وعندما يتحدث عن الشعوب الأيبيرية يقول إن تلك الشعوب تنقسم إلى طبقات أقل عدداً – فهى تنقسم إلى أربع طبقات لا إلى سبع – ويكون الانتماء إلى الطبقة بحكم العائلة [٨] ، ويكون لكل عائلة نشاط ما تتوارثه فيما بينها.

وهناك شعوب قديمة يبدو أنها كانت لها مفاهيم مشابهة مثل التتار tartasios [٩] لكن ما يجب أن نبرزه الآن هو أن المؤلفين الإسبان عند تعرضهم للنظام الهندى لم يصنفوه على أساس النشاط الاجتماعي ولا على فكرة العائلات ، وإنما على أساس السلالة casta، إيمانًا منهم بأن كل سلالة تصاحبها صفة الخيرية أو الشرِّية والنقاء أو الدنس . من ناحية أخرى كانت هناك فى شبه جزيرة إيبيريا على مدى أجيال فكرة أن الطبقة العُليا ليست حكرًا على سلالةٍ ما ، أى أن طبقة رجال الدين ليست مغلقة على أحد. وفى أى كتاب عن القساوسة عند التعرض لوضع القساوسة الكاثوليك هناك فرق بين القساوسة الإنجيليين وقساوسة شريعة موسى ، فأفراد الصنف الأول يتلقون عند تعيينهم " النعمة " و" الصفة "، أما أفراد الصنف الثانى فهم ينتمون إلى قبيلة أو عائلة وهم يكتسبون هذا الوضع وراثةً [١٠] . هذا بغض النظر عن وجود قساوسة موقرين فى كل الجماعات التى أُسست[١١] . فى إسبانيا – خلال عصر بروز طبقة رجال الدين – كان يمكن أن يخرج القساوسة من الطبقات الفقيرة ، بل وكان يمكن أن يصل أولئك الفقراء إلى أعلى المراتب الكنسية. أما طبقات " المحاربين " و"الفلاحين" و"الحرفيين" فهى حكر على أناس محددين ، بل هناك طبقات أخرى – من وجهة نظر دينية – أكثر انغلاقا باعتبارها "غير نقية" . لنتذكر أن مفهوم التلوث أو عدم نقاء الجنس poluciòn كان له دور حاسم فى تحديد سلالات الهند وهو مبنى على أساس دينى[١٢] .

– ٤ –

لم يكن هناك فى إسبانيا – فى الفترة التى ندرسها – نظام سلالات متعدد كالنظام الهندى أو كالأنظمة القديمة ، لكن يمكننا أن نؤكد وجود سلالات متعددة من "المحدَّثين" parias أى الرجال والنساء الذين يحتلون مرتبة فريدة داخل المجتمع مع أنهم ينتمون إلى طبقة دُنيا على أساس دينى. وعندما نتحدث عن كلمة " دينى " فإننا نعنى داخل المسيحية بل داخل المذهب الكاثوليكى.

نجد أنفسنا أمام أحداثٍ محددة. من السهل أن نقول كلامًا نظريا عن سوء تأسيس نظام " نقاء الدم " ، لكن عندما نفكر فى معنى الحروب التى خاضتها شبه

جزيرة أيبريا ضد الإسلام نجد أن هناك أساساً تاريخياً لذلك النظام. كان ذلك النظام يعتبر أن المسلمين وأحفادهم طبقة مدنسة بسبب اتباعهم الإسلام ، ولذلك فهم - طبقاً لذلك النظام - شبيهون "بالكلاب" على حد تعبير الطبقات الشعبية ، وهم حلفاء للأتراك والملحدين الفرنسيين.

كان الموريسكيون - كمجموعة - غير قابلين للتنصير، كانوا يعيشون فى قُرى تابعة للسادة وكانت لهم حِرف محددة وكانوا يحتفظون بأزيائهم القديمة ، خاصة النساء منهم [١٣] ، كانت أكلاتهم مختلفة ، وكانوا يُعرفون بما لا يأكلون ولا يشربون. كانوا يحتفلون بالمواليد والزيجات وغيرها طبقًا لدينهم القديم. كانوا فى بيوتهم يتحدثون ويكتبون باللغة العربية. ورغم أنهم كانوا مسجلين فى كنائس فقد كانت لهم قيادات دينية. كانوا يؤدون شعائر الإسلام بشكلٍ شبه علنى فى القرى التى يعيشون فيها رغم تعميدهم بشكلٍ جماعى ورغم تعليمهم الكاثوليكية ، ورغم محاكم التفتيش التى سنعرف عنها مزيداً من التفاصيل بفضل أبحاث صديقى العزيز الدكتور بيتر دريسيندورفر [١٤] التى سأشير إليها فيما بعد. لكننى أنطلق مرةً أخرى من منطلق نظرى. من وجهة نظر علم اللاهوت فإن الموريسكى ليس مُلحداً بل مرتداً[*]. إن الإلحاد والكفر والارتداد كلها أشياء مضادة للإيمان. المرتد هو الذى يُصر على شىء مضاد للعقيدة بعد أن تم تعميده. إذن فالارتداد شىء يصدر عن شخص مسيحى[١٥]؛ فالارتداد هو تراجُع ، وهو أمر يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أقسام :

١ - معارضة داخلية تظل حبيسة داخل الإنسان ولا يُظهرها بالقول أو بالفعل .

٢ - معارضة خارجية ، والإنسان المؤمن بالعقيدة الكاثوليكية فى داخله قد يرتكب أموراً تخالفها كأن يعبد الأصنام أو كأن يُقر بشرعية دين مخالف.

٣ - معارضة داخلية وخارجية هو ما يعنى أن يرتكب الإنسان أعمالاً مخالفة للعقيدة الكاثوليكية التى لا يؤمن بها فى داخله.

(*) يخلط المؤلف - كغيره من الباحثين الأوروبيين - بين الشخص الذى اختار المسيحية بمحض إرادته والشخص الذى أجبر على اعتناقها (وهى حالة الموريسكيين). (المترجم)

أما الكفر فهو خطأ يرتكبه الشخص الذي تم تعميده بما يخالف العقيدة الكاثوليكية كليا أو جزئيا [١٦].

من الناحية التاريخية يمكننا أن نقول:

١ – إن الموريسكيين كانوا يعتبرون مجموعة مرتدّة من الدرجة الثالثة ، أي أنهم كانوا يخالفون العقيدة الكاثوليكية في الظاهر والباطن.

٢ – كان من المعلوم أن الموريسكيين على اتصال بالكفار من المسلمين والأتراك والبربر كلما أمكنهم ذلك.

٣ – كان من المُعتقد أن الموريسكيين على استعداد للاتصال بالملحدين وأعداء التاج الإسباني.

من المناسب الآن أن نفصل الحديث عن ذلك[١٧] . لحُسن الحظ فإن لدينا الآن بحثًا منهجيا ومعاصرًا يمكننا من إنجاز مهمتنا : إنها نظرية دروسندورفر التي أشرت إليها[١٨] والتي تدرس الوضع النهائي للموريسكيين والتي تتحدث عن الجانب الديني السياسي. إن " تقرير أسقف سيغوربي عن الموريسكيين " الذي يستند إليه دروسندورفر (وهو مؤرخ في ٢٢ مايو ١٥٩٥) يتعرض للمساعي التي بُذلت من أجل تنصيرهم ، ويؤكد صراحةً أنهم مرتدون ويمارسون شعائر الإسلام [١٩].

إن كل الباحثين السابقين واللاحقين يؤكدون هذه النقطة ويُبررون على أساسها الإجراءات القاسية التي اتُخذت ضد الموريسكيين . يتفق الجميع كذلك على صعوبة تنصير مسلمي الأندلس. يعتمد دروسندورفر[٢٠] على كتابات مؤلفين من الكنيسة ويؤكد أن الموريسكيين كانوا مسلمين ، وأن الأدب الألخميادو دليل على تمسكهم بالإسلام ، ومن الجدير بالذكر أن هناك الكثير من الأبحاث[٢١] يقوم بها عدد كبير من المستعربين الشُبان[٢٢].

من المفيد كذلك أن نستند إلى ملفات محاكم التفتيش – التي أشار إليها بدرو لونغاس[*] – للوقوف على مدى تمسك الموريسكيين بشعائر الإسلام الصحيحة[٢٣]، وقد استند دروسندورفر إلى تلك الملفات لدراسة جوانب أخرى[٢٤].

(*) ترجمنا هذا الكتاب إلى العربية ونُشر في تونس ضمن إصدارات مركز الدراسات الموريسكية بزغوان عام ١٩٩٣ . (المترجم)

كان الموريسكي – بصفته مرتدا – يدخل في إطار عمل محكمة التفتيش . ويتضح من خلال القضايا أن الموريسكيين كانوا يتبعون التراث الإسلامي في التنجيم والكهانة والسحر(*) (٢٥).

هناك اختلافات ثقافية بين موريسكيي الأقاليم المختلفة ، لكنني لن أتوقف عند هذا الجانب(٢٦)، والأقاليم التي أعنيها هي فالنسيا وأراغون(٢٧) وقطالونيا وإكستريمادورا، وهي اختلافات واضحة(٢٨). إن الموقع الجغرافي لموريسكي يحدد التُهمة التي تُوجه إليه من حيث الاتصال بالأتراك أو الفرنسيين. يقدم خوان ريغلا – في دراسة بعنوان "القضية الموريسكية والوضع الدولي في عصر فيليبي الثاني" – بيانات مهمة لدراسة هذا الموضوع . وقد أشرت فيما سبق إلى أن هذا الموضوع(٢٩) قد نتج عنه تُراث أدبي لا يقل حجماً عن الوثائق الرسمية.

– ٥ –

إن التكييف القانوني الديني الذي يقدمه لنا عُلماء اللاهوت وقُضاة محاكم التفتيش، والقضايا التي نظرتها تلك المحاكم... إنما هي وثائق يمكن ربطها بالكتابات الأدبية التي خلفها مؤلفون تختلف أهميتهم ، فمنهم قليل الشأن ، ومنهم مَنْ هو في حجم ثيربانتيس أو لوبي دي بيغا.

تحفل النصوص الأدبية – ذات الموضوعات السياسية أو الدينية – بالإشارة إلى عادات وشعائر الموريسكيين. إن أعمال رامون دي لا كروث في القرن الثامن عشر والكتابات المسرحية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحدد صفات شعب مدريد حتى من حيث اللغة. هذا بالضبط ما نجده في الأدب الإسباني في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر، فهو يحدثنا عن خصائص الموريسكيين حتى من الناحية اللغوية(٣٠) . لقد أذاع الأدباء في أعمالهم بشكل خطيرمفاهيم علماء اللاهوت

(*) يقع باروخا مرة أخرى في أخطاء الباحثين الأوروبيين حين يتحدث عن التنجيم والسحر على أنهما من عناصر التراث الإسلامي . هناك فرق بين تعاليم الإسلام – ومصدرها القرآن الكريم والسنة الصحيحة – وبين ما يفعله بعض المسلمين . (المترجم)

التى كانت موجودة فى نصوص لا يطلع عليها أحد. وتعكس هذه الأعمال أيضًا آراء مختلفة ، وسنعرض فيما يلى للآراء التى كانت سائدة(٣١).

أركّز فى هذا الكتاب على الفرق بين المسلمين الأندلسيين والموريسكيين من حيث تقييم النصارى لهما(٣٢). حسب ذلك التقييم كان مسلمو الأندلس هم الأعلون سواءً بصفتهم محاربين شجعانًا أو محبين أو علماء وأصحاب حضارة ، بل كان الفُقهاء منهم يُعتبرون بصفتهم علماء(٣٣). إن مؤرخًا كاثوليكيا مثل غاربياى لا يتردد فى وضع ملوك غرناطة فى مصاف ملوك إسبانيا ويعتبرهم نبلاء وشجعانًا(٣٤). أما عندما يتعلق الأمر بالموريسكيين فالأمر يختلف ، إذ يحتقرهم الناس ويتحدثون عن جهلهم وعن حقارة مهنهم وعن فظاظتهم التى نسبها البعض إلى ابتعادهم عن الدين المسيحى(٣٥)(*).

فى مجموعات القصص القصيرة القديمة هناك قسم للقصص " الموريسكية " على غرار القصص(٣٦) " الأراغونية "فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

أصل هذه المجموعات القصصية قديم ، وتحفل مؤلفات الكتاب المسيحيين بالحديث عن الخيانة. سأركز الاهتمام الآن على القصص التى أشار إليها الأب بينيدا فى كتابه " حوار حول الزراعة المسيحية " والذى نُشر عام ١٥٨٩ ، وهو كتاب ضخم يتبين منه معرفة المؤلف للموريسكيين وسادتهم فى إشبيلية.

فى كتاب بينيدا بيرز بوليكرونيو – وهو عجوز من نسب عريق وسيد للموريسكيين(٣٧) – محاورًا. المحاورون الآخرون يبدو أنهم يعرفون الموريسكيين عن قرب. الجميع يتحدثون عن لمحات من حياة الموريسكيين فيبرز بُغض الموريسكيين لعبادة مريم العذراء(**)(٣٨). النصوص هنا تبدو أقل تعاطفًا(٣٩) مع الموريسكيين. وفى موضع آخر تروى قصة عقوبة لحقت بموريسكية أرادت استخدام عبادة الصور بهدف سيئ(٤٠).

(*) هذه هى النتيجة التى توصلنا إليها فى دراسة عن صورة المسلم فى الأدب الإسبانى فى العصور الوسطى ثم فى العصر الذهبى . انظر د. جمال عبد الرحمن "صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى" ، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية (المجلد الثانى) ص ١٨٥-٢٠٩، زغوان (تونس) ١٩٩٣ . (المترجم)

(**) وهذا خطأ آخر يقع فيه الباحث الأوروبى ، فالمسلم لا يمكن إلا أن يحترم السيدة مريم العذراء التى طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين ، أما ما لا يقبله المسلم فهو الزعم بأن السيدة مريم صلاحيات الثواب والعقاب فى الآخرة . (المترجم)

هناك قصص أخرى تدور حول الأشياء التي لا يأكلها الموريسكيون . هناك وسيلة لمعرفة من هو الشخص الجبلي ومن هو الموريسكي: أن يُقدم للاثنين نبيذٌ أحمر[٤١] . هناك كثير من الصفحات المتشابهة كُتبت عن تحريم الخمر ولحم الخنزير وعن حب الموريسكيين للباذنجان واللفت ويروى بينيدا نكتة يقول فيها إن الموريسكي يخلط بين الباذنجان والتين[٤٢] .

هناك حكايات أخرى عن الموريسكيين تتحدث عن قيامهم بأعمال السحر[٤٣] . إن المسلم الذى كان عالم فلك قد أصبح الآن فى نظر مسيحيي إسبانيا مجرد شخص يعمل بالسحر والشعوذة [٤٤]، وقد تحول الساحر الموريسكى إلى شخصية فى أعمال أدبية كثيرة[٤٥] .

وسواء أكان الموريسكى فلاحًا أم عاملاً فى مجال نقل البضائع فلم يكن هناك فرق بين الاثنين فى الناحية الدينية.

وبعد أن تفرّق أهل غرناطة إثر إخماد ثورتهم يبدو أنهم عملوا فى مجال نقل البضائع والتجارة المتنقلة ، وقد أدى ذلك الوضع إلى وجود شكوك واتهاما لهم. كان يقال إن الموريسكيين يمكنهم – من خلال التنقل – إجراء اتصالات مع العدو الخارجى والقيام بالتجسس. ومن ناحية أخرى كان الموريسكيون الذين يعملون فى مجال النقل يتجنبون الذهاب إلى الكنيسة، فقد كانت المناسبات الدينية تفاجئهم وهم فى الطريق[٤٦] .

هناك فقرة فى كتاب El cortalón تتحدث عن عمال النقل وتصورهم على أنهم أشخاص غير متدينين. تقول الفقرة: " إنهم من أحقر الناس فى الدنيا. إنهم حثالة البشر. لا يهتمون إلا بالشرب، وكل ما يكسبونه من مال ينفقونه فى شرب الخمر. يبدو أن جسد الواحد منهم عبارة عن وعاء من نبيذ. إنهم أناس نعرف من رائحة أفواههم أنهم لم يحافظوا على الدين ... إنهم يقضون حياتهم فى التنقل ولا يذهبون إلى الكنيسة فى أيام الأعياد، وإذا عادوا فيما بعد إلى قراهم وطلب منهم القسيس أن يعترفوا فإنهم يُدلون باعترافات كاذبة يذكرونها كمن يؤدى واجباً. إنهم لا يقومون بأى عمل يدل على الدين الذى يعتنقونه لأن أهم عملين يقومون بهما هما الشرب والإلحاد... بل إنهم يسخرون ممن يؤدون شعائر مسيحية"[٤٧] .

بعد ذلك اشتهر عمال النقل كناشرين لأفكار سياسية جديدة وأجنبية وكمؤيدين للأفكار "التقدمية" إلى أن جاء اختراع القطارات فقضى على مهنتهم.

- ٦ -

نعود إلى الموريسكيين. كما يحدث دائمًا فى تقييم المجتمع هناك جوانب سلبية وأخرى إيجابية. إن المسلم المرتد كاليهودى المتنصر يمكن لكل منهما أن ينقل إلى المسيحيين القدامى مفاهيم دينية(٤٨). لقد خرج من عائلات موريسكية فى غرناطة والمرية وغيرها قساوسة لهم علاقات طيبة أو سيئة مع ذويهم كما يتضح من الوثائق(٤٩). من ناحية أخرى فإن المستعربين - المشتغلين بالعلاقة بين المفاهيم الدينية فى الإسلام والمسيحية - اكتشفوا أن مؤلفى العصور الوسطى المسلمين والمسيحيين كانوا على اتصال، وقد درس المستعربون كذلك أعمالاً أخرى يتضح من خلالها احتمال وجود اتصالات حديثة بين الجانبين(*).

منذ سنوات طويلة أوضح ميغيل أسين بلاثيوس وجود صلة بين نص لصوفى مسلم هو ابن عباد الرندى (المتوفى عام ١٣٩٤) ونصوص للقديس خوان دى لا كروث(٥٠) وردت فى كتاب "الليلة المظلمة" **Noche escura** . كانت دراسة أسين بلاثيوس مفاجأة، وقد أدت إلى وجود شكوك(٥١). هناك دراسات أخرى كان لها نفس الأثر. والأمر الواضح هو أنه كان هناك تأثير وأن ذلك التأثير كان مهما ، فهو يوضح الصلة بين الكتب الإسلامية فى العصور الوسطى والكتب الإسبانية الحديثة عموماً (٥٢).

إن كل يوم يمر يتبين بوضوح أن العنصر الإسلامى والعنصر المسيحى فى هذا الجانب (وفى جانب الفنون(٥٣)) لا ينفصلان كما هما منفصلان فى النواحى الاجتماعية والقضائية ... إلخ. يجب ألا ننفى أن من الموريسكيين من أصبح مسيحيا مخلصاً، وأن بعض المسيحيين القدامى كانوا يميلون إلى العنصر الموريسكى فيتزوجون من موريسكيات ، بل إن منهم منْ اهتم بتطورات قضيتهم وسار فى طريقهم عند الطرد.

(*) هناك دراسات بالفعل عن العلاقة بين التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى قام بها كل من أسين بلاثيوس ولوثى لوبيث بارالت . (المترجم)

هناك نص للأب ألونسو دى أندرادى – وهو يسوعى من القرن السابع عشر[٥٤]– أعتقد أنه نص هام يعكس مبدأ الرحمة المسيحى تجاه الموريسكيين الذين طُردوا إلى إفريقيا ثم عادوا إلى مواطنهم. إن الحالة التى يرويها تتعارض مع قصة مسيحى قديم أحب موريسكية فتخلى عن دينه ووطنه من أجلها[٥٥] ومات شر ميتة لأنه عاش مسلمًا. لندع النهاية جانبًا ولنفكر فى الظروف التاريخية التى يشير إليها المؤلف الكاثوليكى[٥٦]، وفى الضغوط التى تمارسها ثقافة المجتمع على حياة الفرد. إن بعض المسيحيين المعاصرين قد يبدو له ذلك أمراً مشينًا ، لكن البعض الآخر من المسيحيين المعاصرين لايزال يحمل تلك الكراهية القديمة.

– ٧ –

إذا تحدثنا عن الجوانب الدينية فبإمكاننا أن نبرز العنصر المادى. إن كل الصفحات السابقة دارت حول أمور مادية. هذا ما أدى إلى عدم تصديق أوروبا للتدين الإسبانى. لم يضع أحد فى اعتباره أن الدين قد استخدم لتحقيق المصلحة العُليا للدولة... وقد علمنا أن التصوف كانت له تعبيرات شعرية[٥٧]. إن الجانبين السياسى والاقتصادى فى الدين هما اللذان أديا إلى انتقادات ، فقد تحدث المؤلفون عن الاضطهادات التى حلت بالمنحدرين من أصول إسلامية ويهودية وعن تجاوزات محاكم التفتيش وعن الخراب الذى نتج عن عمليات الطرد. ومن ناحية أخرى تحدث المؤلفون عن الرذائل التى نتجت عن أخلاق المبشرين. ويبدو أننا اليوم فى الطريق إلى فهم آثار طرد الموريسكيين على الاقتصاد ، وهى آثار خطيرة كما يوضح دومينغيث أورتيث ، لكنها آثار تختلف باختلاف الأقاليم. إننا اليوم نعرف الكثير عن عدد الموريسكيين المطرودين وعن علاقة الموريسكيين بالأتراك والبربر وعن حياتهم داخل إسبانيا وخارجها . وكان يمكن أن نعرف أكثر لولا أننا نقتصر على الوثائق الإسبانية : إن هناك شخصيات موريسكية لعبت دوراً هاماً فى فرنسا فى عصر ريتشيليو Richelieu[٥٨] .

هذا التقدم الهائل فى البحث التاريخى لا يكفى – مع ذلك – لتكوين فكرة عن الآثار النفسية التى ترتبت على عملية الطرد ولا عن الصراعات السابقة.

يلاحظ فى السنوات الأخيرة وجود اتجاه بين المؤرخين يميل إلى تحويل البيانات الاقتصادية والسكانية إلى أرقام. هذا الاتجاه محمود، فلم يحدث قبل ذلك أن كُتب التاريخ على أساس وثائقي. بالنسبة لتاريخ الموريسكيين ولتاريخ الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ ولأحداث القرن التاسع عشر لا يمكن أن نستغنى عن الجانب "العاطفي" ، وهو جانب لا يخضع للتفسير التاريخى المنطقى. إننا نحن الذين عايشنا الحرب الأهلية يضايقنا ما نقرؤه فى كتب لمؤلفين إسبان وأجانب من حديث عن المذاهب الفكرية المتصارعة والطبقات الاجتماعية ... إلخ ، يضايقنا أن أحداً لا يتحدث عن العواطف التى كانت سائدة آنذاك. صحيح أن وسائل الدراسة تختلف باختلاف الزمان، لكن هذه الوسائل يجب ألا تتجاهل العوامل الأخرى ، أنا لا أدرى على وجه التحديد ما إذا كان التعصب الدينى له أساس اقتصادى . هناك مؤرخون يقولون إن ذلك أمر واضح جدا. الواضح بالنسبة لى أن التعصب الدينى يُستخدم كأداة .

وصلنا إلى نهاية المقدمة. لنتحدث مرة أخرى عن موضوع الطرد. يمكن أن نقول إن نهاية المشكلة الموريسكية كانت متوقعة وإن قرار الطرد كان يتبلور فى ضمائر السلطات الدينية على مدى سنوات. لقد ظهرت بوادر ذلك فى نصوص خاصة بالطرد وفى نصوص أخرى، فقد ظهر الموضوع فى نصوص تتحدث عن نبوءات.

إن مضمون الدين فى النبوءة كبير عند دراسة أسباب ثورة الموريسكيين ، بل إن دييغو أورتادو دى مندوثا كان يضع ذلك فى اعتباره[٥٩]. وقد درس خوان أوروثكو فى كتابه عن " النبوءات الحقيقية والنبوءات الكاذبة "[٦٠] تلك النبوءات الشيطانية. يذكر أوروثكو حالة الإسكافى باندارا من ترانكوسو بالبرتغال الذى تنبأ بقيام وحدة بين البرتغال وكاستيا. ويذكر أنه كتب بعض الأبيات عن هذا الموضوع[٦١].

يقول أوروثكو إن هناك حالات أخرى لنبوءات من هذا النوع شاعت بين الموريسكيين. ويتحدث عن الكتب " ذات الطابع الملائكى" للراهب فرانثيسكو خيمينيث[٦٢]ومن المعلوم أن هذه النصوص نُشرت عام ١٥٨٨ .

وباختصار فإن كل ما يُكتب عن الموريسكيين (دون أن يراعى البُعد الدينى الذى أشرنا إليه) ستكون مؤلفات تفتقر إلى عُنصر أساسى. وعندما أتحدث عن البُعد

"الديني" فإنني أتحدث عن تدين خاص بعصر فيليبي الثاني وابنه ، وهو شكل من أشكال التدين يعتمد على الصراع وعلى أسس إستراتيجية. وقد كان بإمكان الموريسكي أن يستخدم - وقد استخدم بالفعل - البُعد الإستراتيجي في علاقته بالأتراك وبالفرنسيين. أما الموظفون الملكيون الإسبان فقد استخدموا إستراتيجية أخرى. كان هؤلاء ينظرون إلى الأمور من حيث هي حسنة أو سيئة، وعلى هذا الأساس كانت تستند النصوص التي كُتبت عن طرد الموريسكيين : أغيلار وأثنار دي كاردونا وبليدا وفونسيكا وغوادالاخارا. سأذكر نصا لأحد المؤلفين لأختتم به هذه المقدمة.

هناك نص للراهب خيرونيمو باوتستا (المتوفى عام ١٦٢٩) يتحدث فيه عن شرعية قرارات محاكم التفتيش يقول فيه إن الكنيسة هي مملكة يسوع ، وإن مملكة الشيطان يشكلها الملحدون والمرتدون " الذئاب والأسود والدببة والثعالب والحيوانات الشريرة من المرتدين والكافرين واليهود والمسلمين والأشخاص الضارين بقطيع المؤمنين بالله وبالكنيسة المقدسة ..." (٦٣).

هوامش مقدمة الطبعة الثانية

(١) عالج دومينغيث أورتيث موضوع الموريسكيين فى الكتابين التاليين:
Crisis y decadencia de la España de los Austrias (Madrid, 1969)
El antiguo regimen: los Reyes Católicos y los Austrias (Madrid, 1974)
هذا بالإضافة إلى مقالات أخرى نشرها فى مجلات مختلفة وسوف نُشير تباعًا إلى دراسات فينسينت.

(٢) *Diccionario crítico etimológico de la lengua castellana*,I, Madrid, 1954, pags. 722-724.

(٣) من الواضح أن مصطلح "أصلى" csatizo قد استخدمه كتاب مقال وصحفيون وسياسيون لدرجة تؤدى إلى كثير من الخلط.

(٤)- " On the Word caste" , en " *The Translation of Culture. Essays in hour of Evans Pritchard* ", Londres, 1971.

(٥) Artículo "Caste" de H.N. Cochrane Stevenson en *Encyclopedia Britannica*, V (1970),pag. 24,a.

(٦) Stevenson: artículo, cit. Loc.cit.,pag. 24a

(٧) XV, I, 39-50 (703-707)

(٨) XI, 3, 6 (501)

(٩) هناك تعليقات كثيرة حول ما وردعن هذا الموضوع فى : Justino, XLIV,4,1-4.

(١٠) *Instrucción de sacerdotes, y suma de casos de conciencia, compuesta por... Cardona Francisco Toledo, Religioso de la Campañía de Jesús.*

(١١) Libro citado, fol. 2 r (libro I, cap.1, ad.núm 5)

(١٢) Stevenson, art.cit.loc.cit. pag.27a.

(١٣) R. Arie " Acerca del traje musulmán en España desde la caída de Granada hasta la expulsión de los moriscos", *Revista del Instituto Egipcio de Estudios islámicos,* XIII 1965. 1966 pags. 103-117.

C. Bemis " Modas moriscas en la sociedad española del siglo XV y principios del XVI",en *Boletín de la Real Academia de la Historia,* CXLIV (1959),pags.199-226.

(١٤) K. Garrad: " La Inquisición y los moriscos granadinos, 1526-1580" en *Bulletin Hispanique*,LXVII (1965),pags. 63-77

(١٥) Francisco Toledo: Instrucción de sacerdotes y suma de casos de conciencia, fols. 162-163

(١٦) Toledo: op.cit.fols 164-165

(١٧) P. Chaunu "Minorite et conjoncture. L'expulsion des morisques" en *Revue Historique*, CCXXV,I (1961) pags.81-98

(١٨) Islam unter der Inquisition. Die morisco- prozesse in Toledeo 1575 - 1610 (Wiesbaden, 1971)

(١٩) Dressendorfer: op.cit. pag. 6

(٢٠) Dressendorfer: op.cit. pags 5-9

(٢١) Dressendorfer: op.cit. pags. 10-13

الرسالة العلمية التى تقدم بها صديقى ل.ب. هارفى عنوانها "الأدب الموريسكى" وقد نشرها فى دراسات منها:

"The morisco who was Muley Zaidan's Spanish interpreter", en *Miscelánea de estudios árabes y hebraicos*, VIII (Granada 1959) pags. 67-97

yuse Banegas " Un moro noble en Granada bajo los Reyes Católicos" en *Al Andalus*, XXI (1956),pags. 297-302.

" Un manuscrito aljamiada de la Biblioteca de la Universidad de *Cambidge*" en *Al Andalus*, XXIII (1958) pags.49-74

انظر كذلك دراسات خوان بيرنيت المهمة حول موضوعات مثل " الترجمات الموريسكية للقرآن".

(٢٢) من وجهة نظر لغوية وأدبية تبرز دراسات غالميس دى فوينتيس:

El libro de las batallas (Narraciones Caballerescas aljamiado-moriscos) (Oviedo, 1967)

Historia de los amores de Paris y Viana (Madrid, 1970)

" Interés en el orden lingüístico de la literatura española aljamiado- morisca", en *Actes du X Congres International de Linguistique et Philologie Romanes* (Paris, 1965), pags. 527-546.

(٢٣) *Vida religiosa de los moriscos* (Madrid,1915)

(٢٤) Dressndorfer, op.cit. pags. 13-19

(٢٥) هناك دراسات مهمة لمانويلا ما نثارناريس من وجهات نظر مختلفة مثل:

"El otro mundo en la literatura aljamiado-morisca",en *Hispanic review* XLI (1973),pags.599-608

" Textos aljamiados: poes?a religiosa morisca", en *Bulletin Hispanique*, LXXII, (1970) pags.311-327

(٢٦) حول وضع موريسكيي فالنسيا انظر:

Tulio Halpherin Dongui:" Un conflicto nacional : moriscos y cristianos viejos en Valencia", en Cuadernos de Historia de España, XXIII-XXIV (Buenos Aires, 1955),pags. 5-115, (1957)pags 83-250

Henri Lapegre: "Recouvrements de civilisations", en Annales, xl (Paris,1956) pags. 154-182

Juan Regla" Estudios sobre los moriscos", en Annales de la Universidad de Valencia, XXXVII, cuaderno II(Valencia,1964) pags23-135.

(٢٧) حول الزراعة انظر :

Pierre Ponsot "Les morisques, la culture irrigue du blé, et le probleme de la decadence de L'agriculture espagnole au XVIIe siecle...", en Melanges de la Casa de Velázquez, VII (Paris,1971) pags.237-261

ويدرس باتريك هارفي لغة موريسكيي فالنسيا في :

"The arabic dialect of Valencia in 1595" en *Al Andalus*, XXXVI (1971), páginas 81-115

انظر كذلك :

Juan Martínez Ruiz: "Escritura bilingue en el reino de Granada (siglo XVI) según documentos méditos del Archivo de la Alhambra" en Actas del I Congreso de la Asociación Internacional de Hispanistas,I (Oxford,1964), pags. 370-374.

(٢٨) Julio Fernández Nieva: *Un censo de moriscos extremeños de la Inquisición de Llerena (año 1594),* Badajoz, 1973.

انظر كذلك " جغرافية إسبانيا الموريسكية " تأليف لابير (باريس ١٩٥٩).

من وجهة النظر الإحصائية والجغرافية تبرز الدراسات التالية:

Claude y Jean-Paul Feus : Un censo de moriscos en Segovia y su provincia en 1594, Instituto Diego Colmenares, Segovia 1964.

- " Les morisques du Novd-Ouest de L'Espagne en 1594 d'apres un recensement de l'Inquisition de Valladolid" en Melanges de la Casa de Velázquez, I (1965) pags. 223-244.

(٢٩) انظر: *Estudios sobre los moriscos*, pags. 137-157

روث بيك ، موريسكيي الريف مقارنةً بموريسكيي الحضر في :

" An urban minority : The moriscos of Seville " en *International Journal of Middle East Studies*, II (1971,pags.268-377)

(٣٠) A.F. Sloman:" The phonology of Morrish Jargon" en Modern Language Review, XLIV(1949) pags. 207-217

(٢١) Miguel Herrero García: *Ideas de los españoles en el siglo* XVII (Madrid,1966)
الكتاب يتضمن فصلاً عن الموريسكيين

(٢٢) انظر الملاحظة رقم ١٢١ في الفصل الرابع.

(٢٣) انظر الفصلين الرابع والخامس .

(٢٤) Julio Caro Baroja : *Los vascos y la historia a través de Garibay* (San Sebastian, 1973).

(٢٥) انظر الفصل الرابع

(٢٦) يكمن الفرق في أن حكاية " الفلاح الأراغوني" baturro من أصل أراغوني، أما الموريسكي فهو من وضع المسيحيين القدامى.

(٢٧) Diálogos familiares de la agricultura cristiana, III, B.A.E. CLXIII, pag. 387

(٢٨) Ibid, I, 369.

(٢٩) انظر الفصل السادس ، البنود ٢٠١

(٤٠) Diálogos *familiares de la agricultura cristiana,* III, B.A.E. CLXIII, pag. 105

(٤١) Diálogos *familiares de la agricultura cristiana,* III, B.A.E. CLXIII, pag.246

(٤٢) Diálogos *familiares de la agricultura cristiana,* III, B.A.E. CLXIII, pag.88

(٤٣) انظر :

- Vidas mágicas e Inquisición" (Madrid,1967) pags.97-106"

- " Magia, personalidad y comunidad", capítulo II,

(٤٤) انظر الحديث عن سحر الموريسكيين لسباستيان ملك البرتغال وسحرهم البحر حتى حدثت لأسطول الإمبراطور كارلوس الخامس كارثة في الجزائر.

Diálogos familiares de la agricultura cristiana, III, B.A.E. CLXIII, pag. 165

(٤٥) انظر أعمال كل من ثيربانتيس ولوبي دي بيغا.

(٤٦) لديّ دراسة أعتزم نشرها قريباً حول عمال النقل وصفاتهم الاجتماعية والفكرية ... يتبين من الدراسة أن عامل النقل كان يعتبر على مر العصور شخصاً خطيراً.

(٤٧) *El Cartelón " en Orígenes de la novela,*II.N.B.A.E., VII,pag.175"

(٤٨) يبدو ذلك في المناقشات حول العناية الإلهية والقضاء والقدر والأخلاق وغيرها.

(٤٩) من المدهش أن نتذكر أن كثيراً من الشخصيات الدينية البارزة في القرنين السادس عشر والسابع عشر من ذوي الأصول اليهودية أو الموريسكية.

(٥٠) - " Un precursor hispano musulmán de San Juan de la Cruz", en *Al Andalus,I,* (1933) pags. 1-79

(٥١) Jean Baruzi: " Sur une hypothese d'Asin Palacios", *en Problemes de Histoire religieuse* (Paris, 1935) pags. 111-151.

(٥٢) Fernando de la Granja: " Origen árabe de un famoso cuento *español" en Al Andalus*, XXIV (1955), pags.319-332.

(٥٣) لا يحتاج المرء إلى أن يكون متخصصًا لكي يدرك أن العمارة المدجنة والموريسكية لها إشارات دينية. للتأكد من ذلك يمكن الرجوع إلى :

Fernando Chueca Goitia: *Historia de arquitectura española. Edad Antigua y Edad Media* (Madrid,1965)

Jose Galiay Sarañana: *Arte mudejar aragonés* (Zaragoza, 1950).

- tomo IV de *Ars Hispaniae*, de don Leopoldo Temes Balbás, (Madrid, 1949).

(٥٤) يحكى قصة أرملة موريسكية وابنتها: كانتا مسيحيتين مخلصتين ، فلما طردتا إلى مدينة موستاغانم فى الجزائر حزنتا وظلتا متمسكتين بالعقيدة الكاثوليكية ولم تخرجا من بيتهما مُطلقًا إلا للضرورة القصوى. أقام فرد من حرس السلطان التركى فى منزلهما (ومن المعروف أن النبلاء الأتراك أفضل من العرب) وراقب تصرفاتهما وأعجب بتمسكهما بالفضائل . أحب الابنة وطلب يدها من أمها فقالت الاثنتان فى وقت واحد إنهما مسيحيتان ، وإن البنت لن تتزوج إلا من مسيحى. فكر الحارس التركى فى الأمر فدرس العقيدة الكاثوليكية وكره الإسلام وتم تعميده. أحب الجندى أن يأتى إلى إسبانيا حتى يمارس شعائر المسيحية بحرية ، فاستغل الفرصة وجاء فى سفينة ، وأقام فى مرسية ، وكان من أوائل الناس فى الوفاء بتعاليم الكنيسة . انظر: *Itinerario que debe guardar el hombre para caminar al cielo* (Lisboa, 1678) pag.25

(٥٥) أحب المسيحى الموريسكية فسافر إلى بلاد البربر. وصلا إلى الجزائر فتخلت الموريسكية عن دين يسوع ودخلت فى دين أجدادها المسلمين ، وقالت للمسيحى الذى سافر معها أن يسلم إذا أراد أن يصادقها. أعماه حبها فدخل فى الإسلام فأصبح واحدًا من الذين قال عنهم القديس بولس إنهم يتركون الدين من أجل متاع الدنيا. فى اليوم الذى أسلم فيه تم ختانه فسال منه دم غزير ومات وهكذا خسر الدنيا والآخرة... انظر: Andrade: op.cit.pags. 25-26

(٥٦) Androde: op.cit. pag. 26

(٥٧) أعد الآن كتابًا ضخمًا عن التدين فى إسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

(٥٨) على سبيل المثال ألفونسو لوبيث الذى كان يقول إنه ينحدر من سُلالة بنى سراج والذى أكتب عنه دراسة حاليًا.

(٥٩) لا يجوز أن ننسى أن كثيرًا من المؤرخين القدامى يعتمدون على النبوءات فى تفسيرهم للتاريخ. لا يميزون بين النبوءات الحقيقية والنبوءات الكاذبة مثل علماء اللاهوت دائمًا، إذ يقبل المؤرخون نبوءات غير المسيحيين.

(٦٠) صدر فى سيغوبيا عام ١٥٨٨

(٦١) Horozco: op.cit. fol. 38

(٦٢) Horozco: op.cit. fol. 39

(٦٣) المجلد الثانى من خمسة مجلدات تتضمن

homilías sobre los Evangelios de la Quarema, Zaragoza, 1636,pags 194,185, 184,205.

الفصل الأول

١ - سقوط مملكة غرناطة:

أشاعت وسائل الإعلام العالمية استخدام مصطلحي " تعايُش" و"معايشة" في مجال العلاقات الدولية، وأضفت على كلٍ منهما معنًى خاصا. أصبحت كلمة " تعايُش" تعبِّر عن حياة أمم ودولٍ ومجتمعات في أوقاتٍ متزامنة ، منفصلة عن بعضها البعض، أما كلمة "معايشة" فهي تعبر عن شكل من أشكال العلاقة الإنسانية أكثر عُمقًا. إنها تعبر عن مشاركة الآخر في الحياة في إطار مجتمع أكبر له اهتماماته وواجباته.

إن " التعايُش" السياسي قد يؤدي إلى تغير شكل العلاقات الدبلوماسية ، وقد ينتهي بصراعات وحروب دولية، أما " المعايشة" فلا ينفرط عقدها إلا بالثورات والحروب الأهلية الناتجة عن الخلافات الداخلية. إن هزيمة دولة من الدول قد تؤدي أحيانًا إلى وجود شكل من أشكال التعايُش ، لكنها لا تؤدي إلى أي نمط من أنماط المعايشة. هذا ما حدث بالضبط عندما قضى الملكان الكاثوليكيان على آخر ممالك المسلمين في شبه الجزيرة وهي مملكة غرناطة. منذ تأسيس مملكة غرناطة الإسلامية وحتى عام ١٤٩١ عاشت هذه المملكة وهي تتمتع باستقلال سياسي عن الممالك المسيحية، أما عند انهيارها فقد تحول مواطنوها إلى وضع مختلف سنتحدث عنه في الصفحات التالية.

في أوائل القرن الخامس عشر كان المسلم - وهو محقٌ بلا شك - يعتقد أن مسيحيي إسبانيا قد شكَّلوا من "جديد" ، وأن بني جلدته " كثيرون لكن بلا سلاح "(١).
لا نريد أن نبالغ ، لكن علينا أن نعترف بأنه خلال ذلك الوقت وعلى مدى عقود كان المسلم الإسباني في حالة سِلم مع الخارج ، بل كان في حالة إحياء لتراثه ، إلا أنه كان أقل شأنًا من جاره المسيحي.

لايمكن اعتبار أواخر سنوات حكم خايمي الثاني ولا سنوات حكم إنريكي الرابع - التي سادها الاضطراب - لايمكن اعتبار تلك السنوات فترة نجاح فيما يتعلق بالحرب ضد الإسلام. إن الذين أرّخوا لفترة حكم خايمي الثاني يأسفون لتقاعس المسيحيين عام ١٤٤٩ عن الحرب ضد المسلمين نظراً لانشغالهم بحروب طائفية فيما بينهم[٢] .

كانت هناك مدن وقرى - مثل بناماوريل وبنى سليمة[٣] وأريناس وأويسكار وبيليث بلانكو وبيليث روبيو [٤] - انتقلت السيادة فيها إلى المسيحيين ، وظلَّ هناك في ذلك الحين أثر أخير في غرناطة فيه قسط من عادات المسلمين[٥] .

بعد مضي وقت طويل على اعتياد أهل غرناطة ارتداء ملابس جيرانهم وأعدائهم المسيحيين (لدرجة أثارت استهجان أو على الأقل اندهاش مؤلفين مثل ابن سعد ، وابن الخطيب [٦]، بل وابن خلدون[٧]) كانت لا تزال هناك رغبة في تلقي ما هو شرقي أثّرت في بلاط إنريكي الرابع[٨] ، لكن هذا الأثر الشرقي كان كالومضة الأخيرة في حياة دولة وُلِدت في ظروف دونية وعاشت في ضيق واختناق لكي تواصل دفع الجزية إلى المسيحيين وهي تبحث عن الحماية هنا وهناك.

كانت هناك مشكلة خطيرة في غرناطة: التصدير ، وهي مشكلة كان يزيد من حدتها طبيعة وجود غرناطة على الحدود مع العدو المسيحي وعلى مسافة بعيدة من البلاد الإسلامية في إفريقيا. إن ملوك غرناطة قد اضطروا في كثير من الأحيان إلى التفاوض مع المسيحيين حتى يتمكن رعاياهم من عبور بلاد مسيحية وهم يقتادون الأغنام ويحملون الشعير والخبز[٩] والزيت[١٠] .

كانت المفاوضات في العادة شاقةً ومكلفةً. ويتذكر المؤرخون هدايا الإبل والنعام - أي حيوانات غريبة ونادرة - التي كان الملوك الأفارقة يرسلونها إلى ملوك قشتالة[١١] ، أما ملوك غرناطة فكانت أعباؤهم أكثر مشقةً [١٢].

وعندما أخذ المسيحيون على عاتقهم القضاء على مملكة المسلمين كانت هذه المملكة وبلاطها في ظروف شبيهة بظروف مملكة المغرب. كانت العائلة المالكة تنقسم على نفسها بسبب التنافس على النساء ، كان الملك أبو الحسن - ذلك المحارب المحب الذي وقع في حب أسيرة جميلة - قد كره زوجته المسلمة وأبناءه منها ، وكان يرى فيهم

مجرد أعداء له. وقد تجمع حوله كثير من النبلاء أبرزهم أخوه عالي الهمة والذي عرفه التاريخ باسم " الزغل " . أما الملكة الأم وابنها الأكبر " الملك الصغير أو أبو عبدالله" فقد كان لهم أنصارهم أيضًا وأخذوا في التمرد[١٣] . حُوصر الملك العجوز وبدأت حربٌ ضروس بين العم وابن أخيه[١٤] . استفاد فيرناندو الكاثوليكي من هذه الحرب، رغم أنه في أولى سنوات حكمه لم يكن هناك ترابط في كاستيا وأراغون ، ورغم أن النبلاء في أندلوثيا المسيحية كانوا منقسمين على أنفسهم[١٥] . منذ عام ١٤٨٢ وحتى عام ١٤٩١ لم تمر سنة لم تسقط فيها مدينة هامة من مدن مملكة غرناطة في أيدي المسيحيين: كانت الحرب يغلب عليها طابع الفروسية أحيانًا ، ويغلب عليها الطابع الهمجي في أحيان أخرى. إن الأغنيات الشعبية تقدم لنا صورة للحرب أكثر إثارة من روايات المؤرخين ، فهؤلاء يكررون بشكلٍ ممل روايات الحصار والقتال والمصائب.

بعد سقوط ملقة وباثا والمرية لم يعد وضع غرناطة آمنًا. كان أبو عبدالله سياسيًا متخبطًا ومحاربًا شجاعًا ، لكنه كان سيئ الحظ. حاول أن يقاوم ، بل حاول أن يهاجم المسيحيين ، لكن كل محاولاته ذهبت سُدى . كانت غرناطة قد أنهكتها الصراعات الداخلية والفقر وزيادة السكان بسبب لجوء المسلمين إليها فاستسلمت في ٢٨ نوفمبر ١٤٩١ ، وقد نشر إيرناندو دي ثافرا – ذلك السكرتير المخلص للملكين الكاثوليكيين – شروط التسليم. قبل ذلك بأيام وبالتحديد في ٢٥ نوفمبر كانت قد وُقعت اتفاقية خاصة بمصير الملك الصغير وممتلكاته[١٦] .

كانت شروط المعاهدة في صالح المهزومين(*) ، وكانت الشروط تنطلق من مبادئ العصور الوسطى الخاصة بالمعايشة الودية مع المسلم ، ففي ذلك العصر كانت هناك ممالك إسلامية وممالك مسيحية ، ولم يكن من الممكن تجاهل ذلك التوازن. لم تكن شروط المعاهدة تختلف – من وجهة النظر القانونية والدينية – عن شروط تسليم المدن التي تم غزوها سابقًا [١٧]. لم يكن أحد – وفقًا لتلك الشروط – يزمع تغيير تراث وعادات المهزومين ولا قضاتهم ولا فقهائهم ولا دينهم ، بل كان الفقهاء والعلماء يحتفظون بسلطاتهم كزعماء دينيين للجماعات الإسلامية. وكانت ممتلكات المسلمين

(*) هذا ما ذهبنا إليه وذكرناه في مقدمة ترجمتنا لكتاب "الموريسكيون الأندلسيون" الصادر عن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ (المترجم)

– وفقًا لتلك الشروط – تظل مصونة[١٨] غالبًا. لكن ما حدث هو أن المعاهدات السابقة قد نُفذت أما معاهدة تسليم غرناطة فقد أنتُهكَت بعد قليل. إن الوضع هنا يختلف تمامًا عن وضع الفونسو السادس عند احتلال طليطلة أو عن وضع فيرناندو القديس عند احتلال أشبيلية .

فى المقام الأول لم تكن هناك بعد غرناطة مدينة أخرى لم يتم غزوها فى شبه الجزيرة. لقد اختفت آخر دولة غير مسيحية فى إسبانيا. لم يكن المسيحيون إذن يخشون انتقامًا أو احتلالاً قادمًا من شبه الجزيرة. من ناحية أخرى كانت غرناطة تشكل أكبر تجمع للمسلمين فى أوروبا الغربية ، وكانت تحتل موقعًا إستراتيجيًا وخطيرًا نظرًا لقُربها من سواحل إفريقيا. كان لابد من التأكد من عدم تكرار ما حدث فى الماضى من غزو خارجى إسلامى بناء على طلب أهل غرناطة. لم يكن يُعرف عن هؤلاء تضامنهم مع أحد، لكنهم على أية حال كانوا أكثر تعاطفًا مع المغاربة والبربر منه مع أهل قشتالة[١٩] . ومع ذلك فإن خطوات التباعد بين المسلمين والمسيحيين – وهى تعكس نقض روح المعاهدة – هذه الخطوات كانت بطيئة.

جاءت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية بشكلٍ هائل منذ اللحظة الأولى للغزو ، رغم أن تلك التغيرات لم تكن مختلفة عن التغيرات التى حدثت فى أعقاب غزو طليطلة أو فالنسيا أو إشبيلية. لقد مرت غرناطة بتجربة " إعادة التقسيم". يقول لورينثو دى باديا فى كتابه عن تاريخ فيليبى الجميل : " إن كل الوجهاء والفرسان والنبلاء من أبناء هذه المملكة الذين قدموا خدمات قد نال كل منهم – طبقًا لمرتبته – نصيبًا من البيوت والمتاع والرعايا " . إن قائمة العطايا التى يقدمها تتضمن أخبارًا عجيبة ، فهى تعطى فكرة واضحة عن نظام السادة الذى فرضه المسيحيون منذ اللحظة الأولى ، وهو نظام كان له معارضون فيما بعد من بين المسيحيين أنفسهم . إذا تركنا جانبًا المنح التى قُدمت إلى كونت تنديا فى غرناطة فلنا أن نذكر أن الملكين قد أعطيا قريبًا له – هو الكاردينال بيرو غونثاليث دى مندوثا – سهل ثنيتى " بما يتضمن من قرى وبلاد ". لقد مُنِحَ بيرو فيرناندو دى بيلاسكو قريتى سورباس وليريا ، ومَنَحَ ألونسو دى كارديناس قرية خيرغال والأراضى التابعة لها ، ومُنِحَ دييغو باتشيكو كلاً من سيرون وتيخولا والقرى التابعة لهما ، وقد مُنِحَ لويس بيامونتى مقاطعة أويسكار ، ومُنِحَ ألونسو دى أغيلار كلاً من سيرو ، والمونيكار ، ومُنِحَ السيد أنريكى أنريكيث – وهو عم الملك – سهل فيابريس وقرى وبلادًا كثيرة ، ومُنِحَ خوان شاكون مدينة كويباس وقرى أخرى

على نهـر بورتشينا ثم بيليث بلانكو وبيليث روبيـو ، أما كونت تنديا – بالإضافة إلى ما حصل عليه فى غرناطة – فقد مُنِحَ رعايا فى منطقة نهر بورتشينا كما قُدمَت هدية مماثلة إلى دوق ناخيرا، وقد مُنِحَ كبير المحاسبين فى المملكة مقاطعة بيليث دى بنابدالا، كما مُنِحَ سكرتير الملك – إيرنانو دى ثافرا – مقاطعة كاستريل. وقد مُنِحَ سانتياغو دى كاستيا وآخرون ممتلكات فى ملقة ورنده. وقد مُنِحَ كونت بنابنتى كلاً من مونتى خاكى وبناخوان ، وقد مُنِحَ ماركيز قادش سهل بيالوينغا وسبع أو ثمانى قرى بالإضافة إلى كاساريس وأراضيها . وقد مُنِحَ دوق مديناسيدونيا بلدة نماثين ، وقد مُنِحَ كونت فيريا كلاً من بنادالين وبنالاوريا ، وقد مُنِحَ كونت ثيفوينتيس بلدة بنابيس ، وقد مُنِحَ كونت ريباديو بلدة أستان. أما قائد حرس الأمراء فقد مُنِحَ بلدة سيديا ثم قايضها ببلدة كوماريس ، وقد مُنِحَ كونت كابرا ..دة كانياس وقرى أخرى.

بالإضافة إلى ما تقدم كانت هـا.. هبات ملكية أقل شأنًا استمرت مدى الحياة ، كما تم منح ممتلكات الكنائس والأديرة... إلخ[٢٠]. تحمل الشعب المسلم المسكين وطأة حـكم سـادة جُدد يرغبون فى الثراء ولا يثنيهـم عـن ذلك وازع أخـلاقى أو دينى. كان المسلم بمثابة عبد. كان وضعه بالنسبة للنبيل أو السيد كوضع الهندى الأحمر بالنسبة للغزاة الأوائل. لم يغب هذا التشابه عن فكر بعض شخصيات القرن السادس عشر ، وقد أبرزت هذه الشخصيات الأخطار التى قد تنجم عن هذا الوضع. كان الراهب بارتولومى دى لاس كاساس – فى سعيه إلى تنصير الهنود – قد احتج على بعض الإجراءات، وفى عام ١٥٩٥ رأى الدكتور أستيبان أسقف أوريويلا أن مآخذ دى لاس كاساس على الحملة ضد الهنود يمكن تطبيقها أيضًا على وضع الموريسكيين[٢١]، لكننا لن نستبق الأحداث.

رغم هذه الهبات المشار إليها إلا أن شيئًا ما قد ظل فى أيدى السادة القُدامى ، فعندما انتصر الملكان الكاثوليكيان على الزغل منحاه أراضى أورخيبا ووادى لوكرين ، واستمرت هذه المناطق فى حوزته فترة قصيرة[٢٢] ، وقد مُنِحَ بعض أخوة أبى عبدالله الصغير وبعض الفرسـان أراضى فى البشـرات لكنهم بعد ذلك قـايضـوها بأراضٍ أخرى[٢٣] ؛ وفى وقت تسليم غرناطة مُنِحَ الملكُ أبو عبدالله الصغير مناطق شاسعة ، لكن هذه الهبة – كغيرها من الهبات المشار إليها – كانت تعكس رغبة المنتصرين فى القضاء على النفوذ القديم.

عندما استسلمت غرناطة مُنِحَ أبو عبدالله معظم - إن لم يكن جميع - أراضي البشرات[٢٤]. وهكذا استقر في أندراش لفترة ، لكنه في عام ١٤٩٣ - بسبب مؤامرة حيكت ضده ، كما يروي مارمول - اضطر إلى بيع كل متاعه وأراضيه والرحيل إلى بلاد المغرب[٢٥] ، وكان معظم أتباع الملك المهزوم قد فعلوا الشيء نفسه. إن مراسلات سكرتير الملكين الكاثوليكيين تتضمن فقرات مثل هذه الفقرة الواردة في خطاب حُرِّرَ في غرناطة في ديسمبر عام ١٤٩٢ : " اصطحب بنو سراج نساءهم إلى البشرات. وبعد أن باعوا كل ممتلكاتهم هنا يستعدون للرحيل في مارس ، وأرى أن معظم الناس يزمعون الرحيل في هذا التوقيت ، وصدقوني ياصاحب الجلالة :عندما يحل الصيف لن يكون هنا ، ولا في البشرات إلا الفلاحون والشرطة فإنني أرى أن الجميع سيرحلون من هنا وليس ذلك بسبب سوء المعاملة ، فإنني لم أر أن هناك منْ عُومِلَ بشكلٍ أفضل" [٢٦].

ورغم الجملة الأخيرة إلا أن النبلاء المسلمين لابد وأن يكونوا قد رأوا شيئًا يقلقهم. إنهم لكي يجمعوا أموالهم ويرحلوا اضطروا إلى التخلص من بساتينهم وأراضيهم الزراعية بأسعار كانت تقل أحيانًا عن الدخل السنوي الذي يعود من هذه الأراضي. لاحظ - كدليل على تدهور أخلاق المسلمين - أن الذين اشتروا تلك الأراضي كانوا أحيانًا من المسلمين أنفسهم ، من بين الذين قرروا البقاء في إسبانيا[٢٧] . أما المهاجرون من أهالي ملقة والمرية ورنده والجزيرة وباثا ومورتيل ، فقد استقروا في مدن وقرى واقعة في غرب وشمال إفريقيا[٢٨] . لم يتكيف البعض منهم مع الوضع الجديد ، واحتل البعض الآخر موقعًا متميزًا في مجتمعه الجديد[٢٩] . لقد استُقبِلَ أبوعبدالله استقبالاً حافلاً في قصر فاس، لكن الحظ السيئ لازمه حتى نهاية حياته. ففي عام ١٥٢٦ مات في ميدان القتال عندما كان " الأشراف " يحاربون الملك الذي استضافه[٣٠] . وقد وصل برفقة أبي عبدالله إلى فاس عددٌ من الأثرياء والعلماء والمقاتلين[٣١] . تحدث عنهم مارمول[٣٢] ، وذكر أن بعض أراضي المغرب كان يسكنها أناس من هؤلاء المشار إليهم. يحدد مارمول بعض الأماكن مثل أورخيبا وتابيرناس وما حولها ويقول إن قاطنيها كانوا يتوجهون إلى ميناء سالي ومنه إلى سواحل إسبانيا. من بين هؤلاء القراصنة الأندلسيين يبرز اسم ألوغاس[٣٣] .

وفى نفس عام ١٤٩٢ طلب أحد أثرياء غرناطة من ملك فاس أن يسمح له بالإقامة فى تطوان لكى يتمكن من مهاجمة المسيحيين انطلاقًا منها. إن ازدهار تطوان يعود إلى ذلك التاريخ[٣٤]. استقر كثير من المهاجرين الأندلسيين فى شرق تطوان ، فى سرخيل وإيران وكانوا - كما يقول مارمول - " من أهل الدهاء والشجاعة ممنْ يمتلكون أراضىَ شاسعة وخصبة وحقولاً من أشجار الزيتون داخل حدود المدن ، وقد اشتغلوا بإنتاج الحرير وهى مهنتهم ، فقد كانت الأراضى تصلح لذلك ، وقد أنشئوا ما يربو على خمسة آلاف منزل يبلغ عدد مَنْ يحملون السلاح من بينهم ما يزيد على الألف" [٣٥].

كانت هناك أماكن أخرى على ساحل الأطلنطى استقر بها المهاجرون ، وكانت هناك أسر أندلسية استقر بها المقام فى الجنوب. وطبقًا للأخبار المتواترة فى المغرب والجزائر فقد كانت هناك أسر أندلسية أقامت فى الصحراء[٣٦] . كان من بين الأولياء الذين ذاع صيتهم فى المغرب - نظراً لعصبيتهم الدينية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر - طائفة من أهل الأندلس[٣٧] ، لكن ما يهمنا الآن هو دراسة وضع منْ قاوموا ولم يهاجروا.

إن بعض الأسر الغرناطية الرئيسية التى استقرت فى إسبانيا قد اضطر إلى العيش فى القرى التابعة لغرناطة ، وهكذا ففى عام ١٥٢٦ ذكر ناباخيروا أن غرناطة قد خلت من الفرسان والنبلاء ، وأنه - عدا استثناءات قليلة - منْ بقى فى غرناطة كانوا من السوقة. ويذكر نفس المؤلف أن دخل تلك الأراضى كان يتجمع فى أيدى نفر قليل من السادة[٣٨]. إننا قد أصبحنا فجأة إزاء مجتمع يخلو من زعاماته التقليدية : مجتمع له سادة يختلفون عنه فى الدين والعادات ويتعاملون معه تعامل المنتصر.

لكن البسطاء من الناس قد عاشوا فترة يراودهم الأمل أن تُحتَرم اتفاقية تسليم غرناطة بشكلٍ كامل.

وفى " تفاصيل العهد الذى أعطاه الملكان الكاثوليكيان لمدينة غرناطة والخاص بحكومتها" نرى أن العنصر المسلم لايزال يُشكل جزءًا أساسيا فى حفظ النظام وسير الحياة فى المدينة. إن حكومة غرناطة تتضمن واحداً وعشرين من وجهاء المسلمين

معظمهم من الفقهاء . كان هناك أيضاً حامل أختام وكاتبان مسلمان ، وكاتب مسيحى، وستة حُجّاب ، ومترجم ، ومفوض مسلم ، ومفوض مسيحى ، ومدعيان ومحتسب له صلاحيات واسعة تذكرها الوثيقة ، ومراقبان للنظافة وكبير موظفين ومحاسبان.

لكن الأمر الذى يشد الانتباه بدرجة أكبر هو عدد النظّار ، نظار المهن. إن الوثيقة تحصى خمسة وعشرين ناظراً : ناظر القيصرية ، وناظر التوابل ، وناظر الأحذية ، وناظر الأقمشة الحريرية ، وناظر الأقمشة القطنية ، وناظر الثياب ، وناظر الكتان ، وناظر الأطباق ، وناظر السماسرة ، وناظر الحديد ، وناظر النجارة ، وناظر الحلل ، وناظر الشعير ، وناظر الدقيق ، وناظر الخبز ، وناظر البساتين ، وناظر الجزارة ، وناظر السمك ، وناظر الدجاج وناظر البيطرة . كان يتعين على هؤلاء النُظار – كما تشير الوثيقة – "متابعة كيف يقوم الحرفيون بأعمالهم" . يبدو أن الخبازين ومنْ يحملون الخبز ومنْ يبيعونه كانوا يخضعون لسلطة النُظار أيضاً (٣٩).

فى عام ١٤٩٨ وقع حادث عظيم الأهمية من وجهة النظر الاجتماعية ، فقد قُسمت المدينة إلى شطرين : أحدهما يقطنه المسيحيون ، والآخر هو حى المسلمين. وقد خُططت الحدود بين الشطرين فى اتفاقية ذُكِرَ فيها أن محمد البقينى هو ممثل المسلمين. تشير الاتفاقية إلى أن حى المسلمين سيقطنه خمسمائة تاجر وسمسار وموظف الوجهاء "وبعض النجارين والبنائين" بالإضافة إلى أربعمائة فلاح سيقيمون فى البيازين ، وقد قُدمت لهم منازل عوضاً عن تلك المنازل التى كانوا يقيمون فيها وتقع فى حى المسيحيين.

إن الحياة كمسلمين تحت حكم النصارى طبقاً لمفهوم القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر لم يكن أهل غرناطة يرفضونها(٤٠) . وكانت الشخصيتان المسيحيتان البارزتان المكلفتان بتولى مقاليد الحكم فى مملكة ومدينة غرناطة – وهما أنييغو لوبيث دى مندوثا كونت تنديا والراهب إيرناندو دى تالابيرا أسقف غرناطة – على استعداد لتبنى هذا النوع من التعايش ، بالإضافة إلى كونهما متسامحين ولطيفين(٤١) . لكن كانت هناك شخصيات أخرى لم تكن تفكر بنفس الطريقة.

أصول المشكلة الموريسكية :

كان هناك منْ يحاول تنصير الموريسكيين بشكلٍ سريع ومنظم ، وفقًا لمصالح سياسية لا دينية. كان أكثر منْ يمثل هذا الاتجاه هو الراهب فرانثيسكو خيمنيث دى ثيسنيروس الذى انضم إلى عملية التنصير عام ١٤٩٩ . مع اشتراك ثيسنيروس اتخذت عملية التنصير طابع العنف ، فقد نظم عمليات تعميد جماعى بلا تحفظ ولا تردد. لم يكن هناك إلا خيار واحد مؤلم: إما التحول إلى المسيحية وإما السجن والتعذيب[٤٢] . نتيجة لهذه السياسة الرعناء التى انتهجها رجال الدين المسيحى رحل كثير من المسلمين وتمرد مسلمون آخرون وهُزموا[٤٣] ، أما الغالبية فقد " تنصروا فى الظاهر " لكن بين أولئك الذين تنصروا فى الظاهر ثبت شيئان واضحان :

١ – أن عملية التنصير كان قسرية

٢ – أن الملكين الكاثوليكيين قد خانا معاهدة التسليم.

وهكذا يؤكد تونيث مولاى فى دفاعه عن الموريسكيين قبل حدوث تمردهم أن "تنصير أبناء هذه المملكة قد تم بشكلٍ قسرى وضد ما تعهد به الملكان الكاثوليكيان"[٤٤] . وبعد تسليم غرناطة بسنوات قال فلاح عجوز من غرناطة (يُدعى خوسيه بنيفاس) لفتى أريبالو : " أنا لا أبكى على الماضى فالماضى لن يعود ، لكننى أبكى على ما سوف تشاهده أنت ستكون الأمور كلها وقاحة ومرارة لمنْ وهبه الله نعمة الإحساس إذا كان الملك الذى تسلَّم غرناطة لم يَفِ بما تعهد به فهل يفعل ذلك خلفاؤه ؟ "[٤٥] إذن فإن أولئك المستضعفين الذين لم يدخلوا فى المسيحية لسببٍ أو لآخر لم تكن لديهم آمال ، مقارنةً بأبناء العائلات الثرية وذات النفوذ.

إن التنصير الجماعى والثورات قد خلقا جوا خاصا من وجهتى النظر القانونية والكنسية. إن المسلم الذى تم تنصيره قسرًا أو طوعًا كان ينضم إلى الأسرة الكاثوليكية وإلى نظام جديد ، فإذا لم يلتزم بما عليه وفقًا للوضع الجديد فإنه يمكن معاملته، لا كشخص جاهل بل كملحدٍ أو كخارجٍ على المسيحية. إن الفرق بين الوضعين – فى إسبانيا الكاثوليكية فى القرن السادس عشر – كان هائلاً . من وجهة النظر اللاهوتية كان هناك أمل ، والأمل قد نتجت عنه كتابات كثيرة تحدث عنها بعض مؤلفى هذه الأيام من وجهات نظر مختلفة ، ومن الصعب متابعة كل هذه الكتابات[٤٦] .

والقارئ الذى تهمه الأحداث أكثر مما تهمه الكتابات النظرية يمكن أن تتكون لديه صورة عن الوضع الناتج عن التنصير الجماعى إذا وضع فى اعتباره أن ملوك إسبانيا كانوا يعتمدون على الكنيسة - بالإضافة إلى السلطات المدنية - فى إدارة شئون رعاياهم. وهكذا كان هناك مزيج من الأفكار السياسية والدينية والقانونية يشكل وجدان الشعب حتى وقتنا هذا : لقد صيغت معادلات وتحدث الناس عن عقائد لا تقبل النقاش ليست دينية بالضرورة.

إن المواطن الإسبانى (الذى يتبنى نموذج القشتاليين) يجب أن يكون ملكيًا وكاثوليكيًا ، والمتنصر عنوة - الموريسكى بصفة خاصة[٤٧] - كان أكثر عرضة للخطر من المدجن أو من اليهودى خلال العصور الوسطى. كان الأمر كذلك ، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن تنصير الموريسكى قد سبقه إنشاء محكمة التفتيش (عام ١٤٨٠)[٤٨] . كانت مملكة غرناطة تخلو من محاكم التفتيش لبعض الوقت ، بناء على قرار ملكى ، وقد أدى ذلك الوضع إلى نزوح الكثيرين إلى غرناطة ومن بينهم أشخاص صدرت ضدهم أحكام فى أماكن أخرى[٤٩]. هذا الإجراء كان إجراءً حكيمًا مثله مثل تدابير أخرى اتخذها الإمبراطور.

لكن توافد المسيحيين القُدامى لم يكن عديم الجدوى ، وكان هؤلاء المسيحيون من أصحاب المناصب وكلهم طموح فى إثبات استحقاقهم لهذه المناصب أمام مرءوسيهم ، وكان عداء هؤلاء المسيحيين للمسلمين يزداد بمرور الوقت ، إذ كان يتعين عليهم منافستهم والتعايُش معهم ، وكانوا يرون أنهم لا يمكن اعتبارهم رعايا أوفياء مخلصين ولا كإسبان مخلصين.

كانت هذه هى أهم الاختلافات :

١ - اختلاف دينى ، وكان يمثل القضية الرئيسية ، فبالإضافة إلى العداء الشديد الذى يكنه المسيحيون القُدامى للإسلام ، كانوا يرون أن الموريسكيين :

(أ) ملحدون ومرتدون إذ إنهم قد تم تعميدهم.

(ب) من ممارسى السحر.

(جـ) ممنْ يدرسون الفلك والتنجيم بطرق خاصة.

(د) قدريون بشكلٍ خاص.

٢ – اختلاف لغوى ، إذ لم يكن الموريسكيون يتحدثون لغة مختلفة بل إنهم عندما يتحدثون الإسبانية فإنهم يتحدثونها بشكلٍ مختلف ويكتبونها بحروف مختلفة .

٣ – اختلاف فى العادات وكان من مظاهره :

(أ) اختلاف الملبس .

(ب) اختلاف الأطعمة .

(جـ) اختلاف فى طريقة النظافة .

(د) اختلاف الأعياد والشعائر الخاصة بالمواليد والزواج والوفاة وغيرها.

(هـ) تفاوت فى مستوى الإنتاج وفى إتقان العمل.

٤ – اختلاف الملامح وشكل الجسم والطباع ، وكان المسيحيون القُدامى يرون أن المسلمين لهم صفات أنثربولوجية مختلفة عنهم (من حيث لون البَشرة والشعر والحركات)(*) وأنهم كانوا يقتصدون فى المأكل وأنهم شهوانيون وكثيرو النسل.

ومع ذلك فمن باب التبسيط أن نحاول وصف الوضع القائم بين المسيحيين القُدامى والمسلمين فى أوائل القرن السادس عشر على أنه تعارض تام. لا ، لم يكن الأمر كذلك ، فلو كان الموريسكيون قد وجدوا مقاومة من قبل كل المسيحيين لما استطاعوا تحمل ما تحملوه فى إسبانيا. إن الاختلافات الثقافية – مهما كان حجمها – يمكن أن يفسرها الأشخاص بأشكال مختلفة. وبالفعل فحتى فى أوقات الأزمات الشديدة بين الفريقين كان هناك تفاوت بين الرؤية الجماعية للمشكلة وبين علاقات الأشخاص بعضهم ببعض. وبشكلٍ عامٍ فقد أخطأ مؤرخو القضية الموريسكية حين لم يولوا العلاقات الشخصية اهتماماً وحين لم يهتموا بالعلاقات الاجتماعية التى شذت عن الخط العام للمشكلة(**).

(*) ثبت خطأ هذا الاعتقاد فى السنوات الأخيرة ، فهناك أبحاث علمية تؤكد أن الإسبان ومواطنى شمال إفريقيا يتبعون نفس الخريطة الجينية ، أى أنهم من أصل واحد. (المترجم)

(**) ليس بوسعنا سوى أن نقرَّ بصحة هذا الرأى للمؤلف ، فالعلاقات الشخصية بين المسلمين والمسيحيين الإسبان كانت طيبة فى كثير من الأحيان (راجع الرسالة التى بعث بها موريسكى من الجزائر إلى صديقه المسيحى والتى ترجمناها فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون") ، ومن ناحية أخرى لم يحظ هذا الموضوع باهتمام الباحثين على حد علمنا . (المترجم)

وفى أعقاب الثورة التى اندلعت عام ١٥٠١ تخلى الملكان الكاثوليكيان عن المعاهدة التى وقعوها قبل ذلك بعشرة أعوام ، وتزايدت حالات التعميد الجماعى بعدها. لكن المال فى أحايين كثيرة أوقف ضربات كبرى[٥٠] . وبعد وفاة الملكين صدرت قرارات تنم عن أن روح التسامح لم تعد موجودة حتى فى أوساط معينة. وفى فترة حكم السيدة خوانا عام ١٥٠٨ صدر قرار يهدف إلى تسهيل عملية اندماج المسلمين فى المجتمع ويقضى بتخلى المسلمين عن زيهم ، وقد أمهل القرار المسلمين ستة أعوام للتنفيذ وتم تجديد المهلة أعوامًا أخرى[٥١] .

وفى عام ١٥١٨ كانت هناك محاولة لتنفيذ القرار لكن الموريسكيين استطاعوا بمهارة تأجيل التنفيذ. ثم كانت هناك ظروف أخرى استدعت أن يتم التأجيل بعد ذلك أيضًا [٥٢]. وفى حوالى عام ١٥٢٦ صدر قرار بإلغاء شعائر الإسلام فى مملكتى أراغون وفالنسيا التى كان الموريسكيون يعاملون فيهما بدرجة من التسامح من قبل النبلاء الذين توسطوا لصالحهم مرة بعد مرة. هذا الإلغاء هو الذى أدى إلى اندلاع الثورة فى بنى غواثيل وفى جبال إسبادان[٥٣].

فى ذلك العام قرر الملك أن يقضى الصيف فى غرناطة ، ولم يكن يعرف المدينة ، وكان مهتمًا بالتعرف عليها. سافر إلى هناك ووفد إليه سُفراء كثيرون لمقابلته ، ونظر فى كثير من القضايا الدولية هناك لكنه وجد نفسه – وهو فى غرناطة – إزاء عدة مشاكل داخلية. قدم له بعض المسئولين من ذوى الأصول المسلمة – من بينهم فيرناندو بنيغاس وميغيل أراغون ودييغو لوبيث بنخارا – قدموا له باسم جميع الموريسكيين مذكرة عرضوا فيها سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من قِبل القساوسة والقضاة والحُجَّاب والكتبة. أدهشت المذكرة الإمبراطور ، وقرر تعيين مسئولين لتحرى الحقيقة ، وكان قد تلقى مذكرة أخرى من لجنة من القساوسة. كان المسئولون الذين عينهم الملك من رجال القانون : أسقف غواديكس (غاسبار دى أبالوس) والدكتور كينتانا والدكتور أوتييل وبيرو لوبيث والراهب أنطونيو دى غيبارا الشهير. " تجولوا فى المملكة ووقفوا على كثير من المظالم التى كان يتعرض لها الموريسكيون ووجدوا – إلى جانب ذلك – إن الموريسكيين مسلمون مخلصون ، فبالرغم من أن الموريسكيين قد تم تعميدهم منذ ٢٧ عامًا إلا أنه ليس بينهم ٢٧ مسيحيًا بل لم يكن فيهم سبعة مسيحيين. وكان المسئولون عن هذا الوضع هم المسيحيون أنفسهم فلم يقوموا بتعليمهم المسيحية".

هذا ما ذكره برونثيو دى ساندوبال فى كتابه(٥٤) . ويروى هـو نفسـه بعـد ذلك كيف تم تشكيل لجنة لمعالجة الوضع ويذكر أن جميع أعضاء اللجنة تقريباً كانوا من رجال الكنيسة ، وأنهم قد اتخذوا قرارات جريئة(٥٥) وبعد أن تم فحص كل التشريعات الموجودة ودراسة الوضع القائم – استناداً إلى ما قررته اللجنة – صدرت قوانين تحظر على الموريسكيين استعمال اللغة العربية والملابس والحمامات وتحظر أن يُقيم الموريسكيون احتفالاتهم وأبواب بيوتهم مغلقة ، وتحظر عليهم كذلك أن يغلقوا أبوابهم أيام الجمعة والسبت وأن يقيموا "الليالى" وأن يرقصوا رقصة السمرة. وتقضى القرارات كذلك بألا يخضب الموريسكيون أرجلهم أو أيديهم بالحنّاء وألا تخضب الموريسكيات رءوسهن بالحناء وألا يحتفل الموريسكيون بزفافهم احتفال المسلمين بل كما هو معمول به فى كنيستنا المقدسة ، وتقضى القوانين بأن تظل أبواب الموريسكيين مفتوحة أيام الزفاف، وأن يذهب الموريسكيون لسماع الوعظ فى الكنيسة وألا يكون لديهم أطفال وألا يستخدموا ألقاباً إسلامية، وألا يخفوا بينهم محاربين من البربر سواء أحرار أو عبيد"... يُضاف إلى كل ذلك أن محكمة التفتيش تعيّن عليها أن تنتقل من جيان إلى غرناطة(٥٦) . كان الهدف هو "توحيد" العقائد والقضاء على الاختلافات بسرعة. لكن ذهب الموريسكيين فى غرناطة قد حال دون وضع هذه القرارات موضع التنفيذ. كان كارلوس الأول فى حاجة مستمرة إلى أموال طائلة لكى يستمر فى حروبه، ولما عرض عليه الموريسكيون ثمانين ألف دوقية من الذهب أمر لهم بالبقاء على الوضع الراهن(٥٧) .

٣ – عناصر النزاع :

استمرت سياسة التوسع طوال فترة حكم كارلوس الأول وكان فى كثير من الوجوه حكماً انتقاليا.

تغير الوضع بعد مجىء فيليبى الثانى إلى الحكم ، فقد توطدت دعائم الملكية وتوطدت العلاقة بين الكنيسة والملك لدرجة أن بعض الكُتّاب لم يجدوا فى تلك الفترة سوى عنصرين فاعلين فى الحياة الإسبانية خلال حكم أسرة أوستيرياس : الكنيسة والملك. يقول منينديث بلايو فى دراسته عن كالديرون دى لا باركا إن المجتمع الإسبانى حينذاك لم تكن به طبقات ، وإنه يمكن وصفه بأنه " ديمقراطية الرهبان "(٥٨) .

إن هذا الوصف غريب مدهش لكنه مُبالغٌ فيه ؛ فهناك فرق بين تعاون الكنيسة والملك لتهميش دور العناصر الأخرى، وبين عدم وجود طبقات. من الغريب أن نجد هذا الوصف فى مقدمة كتاب مثل " عُمدة ثالاميا " وهى مسرحية مبنية أساسًا على وجود أربع طبقات من المسيحيين القُدامى وهم المخلصون للملك والفخورون به ، وهى : طبقة النبلاء العُليا ورجال البلاط (ويمثلها السيد لوبى دى فيخيرولا والقائد) والنبلاء المحليون (ويمثلها السيد ميندو) وطبقة القرويين (ويمثلها بدرو كريسبو العمدة).

كانت مصالح تلك الطبقات تلتقى فى كثير من الأحيان، إن القرويين – الأثرياء منهم والفقراء – كان بمقدورهم أن يفخروا " بنقاء الدم "(٥٩) . لكن نقاء الدم لم يكن يمنع أن يعاملهم النبلاء بشىء من التعالى ، ولذلك ففى أوقات الشدة ظنوا أن بإمكانهم أن يجدوا تأييداً من الملك ومن الكنيسة، وكانوا يجدون ذلك التأييد أحيانًا. إن موضوع الملك العادل الذى يدافع عن الفقراء ضد ظلم النبلاء كان موضوعًا شائعًا بين كُتَّاب العصر الذهبى ، فمن المعلوم أن لوبى دى بيغا (مؤلف أول مسرحية بعنوان عمدة ثالاميا) قد تناوله فى مسرحيتى "ثورة فلاحين" و"بريبانيث" وفى مسرحيات أخرى (٦٠).

إن النبلاء يفخرون بحسبهم أكثر مما يفخرون بنقاء الدم ، فلم يكن نقاء الدم مصحوبًا على الدوام بالرخاء، مما جعل الفخر يبدو فى بعض الأحيان مدعاة للسخرية. إذا كان حسيب القرية الذى يدافع عن شرفه ضد ظلم النبلاء كثير التواجد فى مسرحياتنا فإن الشريف الجائع موجود أيضًا فى المسرح وفى الرواية. يقول لاثارو دى تورميس بعد أن يتأمل شخصية سيده الثالث وهو حامل درع من طليطلة : "رباه! كم من الناس المنتشرين فى أنحاء الدنيا يتحملون من أجل الصيت والشرف ما لا يتحملونه من أجلك! " (٦١)

وعمومًا فإن طبقة الأشراف التى كان قد خرج منها موظفون كثيرون كان لها تعامل جيد مع القرويين ، ولم يكن شراء الألقاب أمرًا صعبًا أمام أصحاب الثروة.

تبدو طبقة النبلاء للوهلة الأولى كطبقة منغلقة على نفسها. إن النبيل – خاصة فى أندلوثيا التى تميزت بثرواتها الكبيرة والتى كانت طبقة الشعب الفقيرة أكثر كثافة منها فى مناطق أخرى والتى لم يكن يوجد بها كثير من النبلاء – أقول إن النبيل كان فى

كثير من الأحيان يتمتع بصلاحيات ملك، ولكى أؤكد ذلك - واستناداً إلى مصادر أدبية - يكفى أن نتذكر ما يقوله ثيربانتيس عن ثروات وخدم وممتلكات أى دوق ، وكانوا جميعًا لا يروقون للسيد كيخوتى(٦٢) .

لم تكن مواقف كل هذه الطبقات إزاء الموريسكيين متشابهة دائمًا . لكننا يمكن أن نقول إنه رغم تعايش الأشراف والفقراء مع الموريسكيين بشكل طيب خلال السنوات ١٥٠٠-١٥٥٠ إلا أن أولئك الأشراف والفقراء هم الذين صدرت منهم مواقف معادية للموريسكيين. أما النبلاء فكانوا من وجهة النظر الأيدلولوجية أقل معاداةً للموريسكيين. ويرجع ذلك إلى تاريخ الحروب بين المسلمين والمسيحيين. وعندما حدث تقسيم الثروات وكان من نصيب النبلاء أراض شاسعة يسكنها مسلمون فرضوا عليهم ضرائب ولم يخشوا تمردهم ، فقد كان المسلمون محبين للعمل ومتقشفين. لم يكن لهم همٌ سوى أن يُتركوا يمارسون شعائر دينهم . وهكذا ورغم ظروف معيشتهم الصعبة إلا أنه كان باستطاعتهم الادخار وتكوين الثروات. لم يكن فقراء المسيحيين راضين عن تكوين المسلمين لثروات، بل لم يكن وجهاء القرى راضين عن ذلك حتى لا يتأثر وضعهم. أما النبلاء فكان لهم موقف آخر ، وكانوا يرون أن اقتناء المسلمين يعنى اقتناء الثروات ، وأن كثرة عدد المسلمين تعنى كثرة المغانم(٦٣) .

كان كبار رجال الكنيسة يتفقون مع وجهة نظر النبلاء فى بعض الأحيان لكنهم بصفة عامة كانوا يعارضونها. كان من رجال الكنيسة منْ هم من ذوى أصول أرستقراطية ، لكن كان من بينهم من ذوى الأصول المتواضعة. كان رجال الجمعيات الدينية من الفقراء من وجهاء القرى ، وكان القساوسة والرهبان والراهبات من أشد المتحمسين للملك. كانت لبعض القساوسة فى القرى حظوة لدى النبلاء لكن وضعهم غالبًا كان وضع التابع. إن صغار رجال الدين كانوا يشكلون طبقة من الناس يجب أن نتحدث عنها ، وهى تضم أبناء أسر القرى.

فى عصر فيليبى الثانى كان هناك قطاع من المجتمع لَعِبَ دوراً حاسماً ، ولم تكن له نفس الأهمية من قبل. أشير إلى طبقة البيروقراطية. من الصعب أن نفهم من أين جاءت للملك هواية الإجراءات الإدارية ، لكن هناك منْ سيظن أن هذا الأمر يعود إلى

أصله الجرماني. لندع الآن جانباً إلى أي مدى يصل الأصل الجرماني لفيليبي الثاني ، وعلينا أن نعترف أنه قد أحاط نفسه برجال الأدب وأصحاب الرأى ، وأن رغبته في الحصول على تقارير مكتوبة ومفصلة عن الإدارة الحكومية قد أدت إلى زيادة عدد الموظفين . كانت مملكة غرناطة أرضًا خصبة لكتابة التقارير ولممارسة كل أنواع الفساد المترتبة على ذلك ، وقد استمر الوضع كذلك عدة قرون وألحق الأذى بإسبانيا ونتج عنه انتقادات مستمرة وعديمة الجدوى(٦٤) .

إن قضية الموريسكيين قد ظهر فيها الموظفون كمشكلة منذ البداية: ابتداءً بالحاجب الصغير وانتهاءً بالموظف الذى يحميه الملك(٦٥) . إن الشكاوى التى كتبها الموريسكيون بالألخميادو خلال الفترات العصيبة كانت عبارة عن هجوم على إسبانيا (كناقضة للعهود) وكانت تتضمن هجومًا على القساوسة فهم " ذئاب و لصوص بلا رحمة ، وظيفتهم التكبّر والتعاظم واللواط والفُحش والزندقة والطغيان والظلم "(٦٦). وكانوا يطلقون على الملك لقب "فرعون إسبانيا"(٦٧) . إن التشبيه ليس سيئًا تمامًا بالنظر إلى أن الموريسكيين كانوا يتعرضون لتهديدات مستمرة من قبل أقوى ملك على وجه الأرض – على الأقل فى الظاهر.

أين كان الأمل ؟ كلما كانت سفينة جزائرية أو تونسية تقترب من السواحل الجنوبية أو من البشرات كان الموريسكيون يتشجعون وكانوا يغامرون ويشجعون القراصنة فى حملاتهم ضد قرى المسيحيين القُدامى(٦٨). أما الطرف الآخر فكانت لديه آمال أخرى وكان يخطط بشكلٍ آخر (٦٩).

لكن التعايش فى ظل تلك الظروف التى ساد فيها التوتر كان صعبًا ثم أصبح مستحيلاً. هيا ندرس الآن ظروف ذلك التعايُش ، وأن نحدد ملامح الأفكار العامة التى يمكن استخراجها ، وأن نبحث أولاً عن العناصر التى كان يمكن أن تجمع بين العنصرين والتى قاومها الموريسكيون بشدة.

هوامش الفصل الأول

(١) *Crónica de Juan* II, pag. 325 (año 1410, cap. XXIII)

(٢) *Crónica de Juan* II, pag. 668 (año 1449, cap LXVIII)

(٣) *Crónica de Juan* II, pag.650 (año 1446, cap LXVIII)

(٤) *Crónica de Juan* II, pag.654 (año 1447, cap LXVIII)

(٥) *Crónica del halcanero*, pags. 532-533 (año 1449, cap CCCLXXX)
(كيف استطاع مسلمو غرناطة فى ذلك الوقت التحصن وإلحاق الأضرار بمملكة قشتالة)

(٦) انظر كتاب غارثيا غوميث *IbnZamrak*,pag.176
من الواضح أنه كان من المستغرب أن تصدر عن مسيحى - بل وقسيس - مثل قسيس إيتا هذه الأشعار. بعد ذلك كتب أغنيات للرقصات والمسلمين واليهود والمحترقات
وهو المقطع ١٥١٣ من كتاب" الحب الطيب " *Libro de Buen Amor*

(٧) يقول ابن خلدون (فى الجزء الأول ص ٢٠٦-٢٠٧) إن الكثيرين يلبسون ويتزينون على طريقة المسيحيين وساروا على عاداتهم حتى أنهم علقوا فى جدران بيوتهم وقصورهم صوراً وهذا ما يؤكده وجود كثير من الصور لملوك غرناطة المسلمين . انظر:
J.y J Olivery Hurtado, pag. 321-335

(٨) Garcia Gómez, *Ibn Zamrak*, pags.177-180 *(España vista por los extranjeros*, I, pags.175-176)
وفى كتاب ج. غارثيا ميركادال ترد شهادة غابرييل تيزيل دى نورمبرغ . انظر، رد الفعل فى الطلبات التى قدمهـا إلى مولانا الملك إنريكى الرابع من قبـل قساوسة وأساقفة وفرسان ووجهاء المالك" والمؤرخة فى ٥ ديسمبر ١٤٦٤ . انظر Codon, XIV pags. 370-374 وكلها تنم عن كراهية نحو المسلمين واليهود الذين يتعاطف معهم الملك.

(٩) *Crónica de Alfonso XI*, pags 230 (capXCVI) y232 (cap. XCVIII)

(١٠) *Crónica de Alfonso XI*, pag 257 (cap. CXXVI)

(١١) *Crónica de Alfonso XI*, pag 268 (cap.CXLIV)

(١٢) يشير ابن خلدون إلى خضوع مسلمى الأندلس وهوانهم (الجزء الأول، ص٦٣) ويتحدث المسيحيون عن استعداد المسلمين الدائم لدفع الجزية. انظر
Fernando del Pulgar: *Crónica de los Reyes Católicos*, II, pags 39-40 (cap. CXXXVIII), 69-72, 135-136, 244-245.

وانظر أيضاً :

Andrés Bernldez: *Historia de los Reyes Católicos.*, I, p. 325 yII, p. 58y84-86.

(١٣) عرضت هذه الأحداث في مؤلفات عديدة. انظر

Fernando del Pulgar: *Crónica de los Reyes Católicos*, II, p. 39-40 ,69-72, 135-136 y244-245.

Andres Bernaldez: *Historia de los Reyes Catolicos*, pag. 607 (cap.LVI) Hernando de Baeza, pag.7

وقد نشر فيرناندو دى لاغرانخا نص فتوى يرجع تاريخها إلى ١٧ أكتوبر ١٤٨٣، يُدين فيها فقهاء غرناطة أبا عبدالله مجلة (AlAndalus1971) وانظر أيضاً : دراسة ماريا ديل كارمن بيسكادور ديل أويو :

(Cómo fue de verdad *la toma de Granada a la luz de un documento inédito*), en AlAndalus, XX, 1956, pp. 283-344

(١٤) Fernando del Pulgar: *Crónica de los Reyes Católicos*. II, pags. 135-136, pags. 244-245.

(١٥) pags. Fernando del Pulgar: *Crónica de los Reyes Católicos*. I, pags. 309-316, 317-321.

وفى عام ١٤٧٧ كانت هناك محاولة للسيطرة على الأوضاع.

(١٦) Fernando del Pulgar: *Crónica de los Reyes Católicos. II*, pags. 449-450.

ينتهى الكتاب عند عام ١٤٩٠ , لدراسة تلك الفترة يمكن الرجوع إلى :

Continuación de la crónica de pulgar, pag. 513-531

وهو كتاب مؤلفه مجهول

Hernán Pérez del Pulgar. Pag. 555

Alonso Santa Cruz,1, pags .29-48

وهذا المؤلف يذكر فقرات هامة جدا لم يكن يعرفها إيرناندو دى بابيثا

Mármol, pags. 146-150.

بالنسبة للمعاهدة الأولى انظر : Codoin, VIII, pags. 411-420

"معاهدة بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبدالله الصغير آخر ملوك غرناطة خاصة بممتلكات أبى عبدالله بعد تسليم غرناطة محررة فى غوطة غرناطة بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٤٩١"

Francisco Bejarauo: artículo en *Al Andalus* (1966) pags 1-46

وفيه توزيع أراضى ملقة.

(١٧) نسخت المعاهدة عدة مرات. انظر مثلاً: Codoin, VIII, pags. 421-436

هذا النص هو الذى يذكره فيرنانديث إى غونثاليث فى :

Estado Social y político de los mudéjeres de Castilla, pags 421-430

ويقدم غونثاليث ملخصاً بالعربية للمعاهدة نقلاً عن المقرى (ص٤٣٠-٤٣٢)

Marmól, pag. 146-150

Bermudez de Pedraza: *Historia eclesiástica*... fol. 160-169

يمكن مقارنة المعاهدة بنصوص معاهدات أخرى لاينكرها الباحثون كثيراً. مثل معاهدة تسليم المرية عام ١٤٩٠ . انظر: *Codoin*, XI, pags. 475-479.

وفي صفحة (٥٠٨) هناك رسائل خاصة بإيرناندو دى ثافرا وتتضمن إشارة إلى عدم الوفاء ببعض بنود المعاهدة وفيها أيضاً ذكر لمجهودات الراهب إيرناندو دى تالابيرا من أجل الوفاء بالمعاهدة (ص ٥٢٢-٥٢٣). أما من وجهة نظر المسلمين فانظر: Eguilaz y Yanguas, pags. 51-54

(١٨) هذا هو نص البند كاملاً نقلاً عن : *Codoin*, VIII, pags. 424-425.,

يتعهد الملكان الكاثوليكيان وابنهما الأمير خوان بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن خلفائهم إلى الأبد بقبول الملك أبى عبد الله والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان وعامة الشعب رجالاً ونساءً من أبناء غرناطة والبيازين وأرباضهما وقراهما والبشرات وجميع الأراضى التى تتضمنها هذه المعاهدة - كرعايا طبيعيين وأن يُؤَمنوا على بيوتهم وأموالهم وثرواتهم الكائنة الآن والتى قد تؤول إليهم مستقبلاً وألا يحدث بهذه الممتلكات أى ضرر - إلا بسبب وإلا طبقاً القانون - وألا تُصادر أموالهم أو جزء منها بل ستُحترم ممتلكاتهم وسيكونون موضع احترام رعايا جلالة الملك مثل سائر المواطنين الذين يعيشون تحت حكم جلالته.

(١٩) طلب المدد من الأفارقة نجده فى رسالة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية إلى يوسف بن تاشفين ، والرسالة مذكورة فى كتاب " الحُلل الموشية " (ص٦٠-٦١) من ترجمة هويثى.

(٢٠) Lorenzo de Padilla, pags. 10-12

(٢١) Beronat y Barrachina, 1, pags. 638-656 y 361-362

(٢٢) Codoin, VIII, pags. 430-411

وفيه إشارة إلى معاهدات من هذا النوع وقعت عام ١٤٨٩. أما عن الهبات الخاصة بالملك الزغل فانظر: Mármol, pag. 144

(٢٣) Mármol, pag. 144

(٢٤) فى المعاهدة التى أشرنا إليها فى الملاحظة رقم ١٦ هناك بند ينص على منح الملك أبى عبدالله الصغير مدن وقرى بيرخا وداليا ومارشينا ويولوبو ولوخار وأندراكس وسوبيليس واوخيخار واورخيبا وخوبيبل وخيريرا ويوكيرا (البند رقم ٣) مع الدخول المستحقة عن هذه الأماكن. وفى البند رقم ٥ يُمنح الملك أبو عبدالله كل الدخول المستحقة عن معاصر الزيوت والبساتين والأراضى "hazas" والتى كانت من ضمن ممتلكاته فى غرناطة والبشرات ، كما يمنح نفس الدخول المستحقة عن ممتلكات أمه وأخته وزوجته (البند رقم ٦) انظر Mármol, pag. 146

(٢٥) Codoin, VIII, pags. 439-457

الاتفاق الموقع بتاريخ ١٥ يونيه عام ١٤٩٣ والذى يبيع أبو عبدالله الصغير بمقتضاه كل ممتلكاته . لمعرفة تفاصيل المفاوضات يمكن الرجوع إلى مراسلات إيرناندو دى ثافرا وهى منشورة فى : Codein, XI .

فى رسالة بتاريخ ٩ ديسمبر ١٤٩٢ يروى السكرتير للملكين الكاثوليكيين " أن الملك مولاى أبا عبدالله وخدمه يقومون برحلات صيد ومعهم الكلاب ، وهو الآن فى حقول داليا وبيرخا ، رغم أن بيته فى أندراكس ويقولون إنه سيظل هنا طوال هذا الشهر " (ص ٥٠٣). من خلال نفس الرسالة نعلم أن أبا عبدالله لم يكن يرغب فى الرحيل إلى إفريقيا ، إذ لم يكن يثق كثيراً فى العرب لكن المؤامرات التى حيكت ضده ثم الضغوط جعلته يغير رأيه على ما يبدو (٢٧ يناير ١٤٩٣) ولم يؤخر رحيله إلى إفريقيا سوى مرض زوجته (وقد ماتت فى الصيف)، ثم غادر إسبانيا فى سبتمبر١٤٩٣ .

(٢٦) Codoin, XI, pags. 503-504

فى سبتمبر كان قد تم الإعداد لرحيل عدد من الفقهاء وأعيان المسلمين، ومنهم آل عبدالبر الذين سافروا إلى تونس. شروط السفر والضرائب المستحقة على المسلمين الذين يسافرون يمكن معرفتها من خلال صفحات ٥٠٩-٥١٠ . فى ٣ يونيه ١٤٩٣ أخبر ايرنانو دى ثافرا الملكين عن رحيل ١٣٧٠ مسلمًا بتكلفة قدرها ٤ ريالات للشخص فى السفينة (ص ٥٢٥-٥٢٨) وخلال صيف ذلك العام استمرت رحلات السفن ، وفى أكتوبر من نفس العام ذكر ايرنانو دى ثافرا أن ٦٣٢٠ مسلمًا قد رحلوا بعد رحيل الملك أبى عبدالله فى سفن وقوارب معظمها من بثكايا (ص ٥٥٢ - ٥٥٥)

(٢٧) A. Bustaniy C. Quirás, pag. 50

(٢٨) A. Bustaniy C. Quirás, pags. 54-57

(٢٩) Diegode Torres, pag. 234

(٣٠) Diegode Torres, pags. 101-103

(٣١) لاحظ مثلاً أن ليون الإفريقى مسلم غرناطى من الوجهاء وصل إلى المقرب فى سن الطفولة . انظر مقدمة راموسيو لكتاب " وصف إفريقية...." الجزء الأول.

(٣٢) Mármol, *Descripción*...,II,

فى صفحة ٨٥ : " أفضل الناس فى الحرب هم المدجنون ومواطنو أندلوثيا"

فى صفحة ٨٧ : " مسلمو اندلوثيا وفالنسيا تجار حرير فى القيصرية "

فى صفحة ٩٠ : " اثنا عشر محلاً لبيع السلاح لمدجنين غرناطيين وفالنسيين"

فى صفحة ٩٢ : (مهن أخرى)

(٣٣) Mármol: *Descripción*...,II, fol.23

يقيمون فى المغرب فى حى مجاور للقصبة كان اسمه زيتون Arriat، ويسمونه الآن أورخيبا الجديدة ، لأن أول من سكن هذا الحى كانوا من أورخيبا ، وقد وضع مسلمو أندلوثيا عام ١٥٦٩ المسيحيين المقيمين فى المدينة فى مأزق بسبب ثورة موريسكيى غرناطة (ص ٣٠).

(٣٤) Mármol, *Descripción*..., II, fol 131

(٣٥) Mármol: *Descripción*..., II, fol 211

(٣٦) Trumelet. Pags. 5-6

(٣٧) على سبيل المثال ابن حزم هو أبو عبدالله محمد الأندلسى . انظر :

J. Oliver Asin: *Vida de Don Felipe de Africa*..., pags. 41-42

وقد صُلِبَ عام ١٥٧٧، انظر : Ifrani, pag. 100

(٣٨) A. Bustani y C. Quirus, pag. 51

Navajero, pag. 74

(٣٩) Codoin, VIII, pags. 463-482

وقارن ذلك بـ Eguilaz y Yanguas, pag. 56

(٤٠) بخصوص الوثيقة التي توضح حدود السكان المسلمين انظر:

Gallego Burín, pags. 441-442

لاحظ أنه قبل سقوط غرناطة بسنوات - عندما كانت المدينة في أوج الحروب الأهلية ، وكان يهاجمها ميغيل لوكاس دى إيرانثو عام ١٤٦٢ - فكر الكثيرون في الحياة داخل هذا الإطار . في كتاب بطولات المستشار (ص ٩٠) يرد ما يلي:

" الراهب دييغو دى لا غوارديا راعي دير سان فرانثيسكو دى خاين الذى كان في غرناطة وقتها منذ أربعة أشهر لتحصيل الجزية المستحقة لمولانا الملك، يقول إنه كانت هناك مشاحنات بين المسلمين ، وإن الحرب تؤثر عليهم لدرجة أنهم - خاصة أهل القصبة والبيازين - يفكرون في أن يعيشوا مدجنين في المدينة بعد أن يستسلموا لمولانا الملك " .

(٤١) يشير دييغو أورتادو دى مندوثا إلى هذا الجبل (ص١١) بقوله " يحكمون المدينة والملكة كما لو كانوا من السكان ... القضاء يتخذ طابع الحسم، يتوحد التفكير ، وتهدف القرارات إلى الصالح العام. إن هذه الطريقة قد أنهت " سلطة " كبار السن.

(٤٢) يقدم المؤلفون صوراً مختلفة لثيسنيروس ، لكن حتى المدافعون عنه لا يستطيعون القول إنه رجل لين. انظر مثلاً خوان دى بابيخو (ص٣٢-٣٩) لم يعلق مارمول (١٥٣-١٥٤) على الأحداث ولا أورتادو دى مندوثا (ص٩) . لكن مؤلف " تاريخ عائلة مونديخار" (ص٢٢٣) يقول عن ثيسنيروس " إن الحماس الديني عنده يفوق جانب التجربة" ، ويقول لورينثو دى باديا : إن رحيل ثيسنيروس سببه أن الراهب إيرنانتو دى تالابيرا وكونت تنديا " قد تحدثا مع المسلمين في البيازين فقالوا إنهم قد يتحولون إلى المسيحية ويفعلون كل ما يأمر به بشرط أن يغادر ثيسنيروس المدينة" انظر كذلك :

Alonso de Santa Cruz, I, pags. 191-193.

لمعرفة أخبار التنصير في كل من غوادايكس وباثا والمرية انظر :

Suarez, pag. 172.

(٤٣) كانت أهم ثورة هي ثورة البشرات عام ١٥٠٠ ، وقد روى تفاصيلها كل من لورينثو دى بايا (ص٥٨-٦٢) وألونسو دى سانتا كروث (ص ٢٠١-٢٠٣) وقد أشار إليها باقتضاب أورتادو دى مندوثا (ص٩-١٠) ثم مارمول بتوسع (ص١٥٥-١٥٦). بالنسبة لنشاط ثيسنيروس . انظر :

Juan de Vallen, pags 46-49

تحفل الأغنيات الشعبية بإشارات إلى تلك الفترة . انظر أيضاً :

Eguilaz y Yanguas, pags. 69 y 72.

(٤٤) Nuñez Muley. pag. 204.

(٤٥) Saavedra, pag. 156

يقول : " لا أعتقد أن أحداً بكى مأساةً مثل مأساة أبناء غرناطة . لا تشك فى صحة كلامى ؛ فأنا أحد هؤلاء الأبناء ولأننى شاهد عيان فقد رأيت بعينىّ هاتين انتهاك حرمات السيدات الشريفات المتزوجات والأرامل ورأيت أكثر من ثلاثمائة فتاة تُباع." لابد أن شيئاً من هذا قد حدث أيضاً بعد انتهاء الثورة.

(٤٦) Danvila y Collado pags. 85-92

Boronat y Barrachina, 1, pags. 130-144

يشير الراهب لويس دى ليون إلى التعميد الجماعى فى قصيدة كتبها بمناسبة الحرب التى ستتحدث عنها. يبدو أن الراهب لم يكن مؤيداً لفكرة التعميد . انظر:

B.A. E. XXXVII, pag. 13.

(٤٧) يقول كوباروبياس (ص٨١٥) إن الـ" موريسكى" هو المسلم الذى تحول إلى العقيدة الكاثوليكية فإذا كانوا كاثوليك فإن الله قد أنعم عليهم وعلينا أيضًا " ، ويقول سالازار دى مندوثا (ص ١٨٣) إن لفظ "موريسكى " مشتق من كلمة " مورو" وهم الذين احتلوا إسبانيا ، وقد قدموا إليها من موريتانيا ..."

(٤٨) *Llorente, 1, pags.* 140-171.

Menendez Pelayo: *Historia de los heteredoxos*, 1, pag. 635.

Lea: *A history of the Inquisition of Spain*, 1, pag. 160.

(٤٩) هذا ما يؤكده ناباخيرو (ص٧٤) ويؤكد أيضًا أن محكمة التفتيش كانت تلاحقهم أكثر من ملاحقتها للموريسكيين . لدراسة محاكم القرن السابع عشر انظر : Henriquez de Jorquera, 1, pag. 76.

(٥٠) Marmol, pags. 156-157

Nuñez Muley, pag. 213

Guerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*. fol 28

يوحى غيرا دى لوركا بأن إلغاء قرارات عام ١٥٠١ بسبب دفع مبالغ مالية قد منح الموريسكيين الثقة.

(٥١) Marmol .Pag. 157

(٥٢) Marmol, pag. 157

(٥٣) Marcos de Guadajara: *Memorable expulsión*... fol 44 Danvila y Collado, pags. 91-100

Boronat y Bamachina, 1, pags. 151-160

(٥٤) Prudencio de Sandaval, pag. 173.

لدراسة نشاط أنطونيو دى غيارا كأسقف لغواديكس انظر Suarez, pag. 195

(٥٥) Prudencia de Sandaval, pag. 173

Marmol, 158

Bermudez de Pedraza: *Historia eclesiástica*...fols 213-214

(٥٦) القرارات التى أصدرها كارلوس الأول يمكن الرجوع إليها فى كتاب :

Nueva recopilación, pags. 233-235

بتاريخ ٧ ديسمبر ١٥٢٦

(٥٧) يذكر نونييث مولاى أن ثمانين الف دوقية دُفعت عنه ، وعشرة آلاف لمنْ هم فى كنفه.انظر كذلك ساندوبال (ص ١٧٣)

(٥٨) تسبق كتاب مختارات من مسرحيات كالديرون دى لا باركا ، الجزء الأول.

(٥٩) Calderón: *Teatro selecto*. II, pag. 234

(٦٠) من المعلوم أن مسرحية " ثورة فلاحين " مستوحاة من أحداث حقيقية.

Lazarillo de Tormes, pag. 85.

(٦١) *La Sociedad española en las obras de Lope de Vega*, pags. 466-494

(٦٢) Partell, Caps .XXX-LVII.

(٦٣) Bermudez de Pedraza: *Historia eclesiástica fol.* 238

يشير بدراثا إلى رأى الدكتور أورتادوى يقول فيه إن المثل الثانى يعبر عن وجهة نظر النبلاء بالنسبة لأراغون وفالنسيا . انظر

Baronat y Barrachina, 1, pags 188, 227, 443-469, 492-494

وفيها شهادات من القرن السادس عشر، أبرزها تلك الشهادات الواردة فى قضية سانشو دى كاردونا(*).

(٦٤) إن شكوى السياسيين والحُكام المحكمين بسبب كثرة عدد المحامين والموظفين كانت موجودة فى عصر فيليبى الثانى ، وقد تزايدت أعدادهؤلاء فى عصر فيليبى الثالث ثم استمرت. انظر شكوى دييغو سابيدرا خاخاردو فى كتاب

Idea de un píncipe político cristiano. pag. 187

أما عن الفساد فى الإدارة فى غرناطة فهناك شواهد تدل على أنها تعود إلى القرن السادس عشر وتصل حتى القرن الثامن عشر.

(٦٥) من بين الوثائق التى يوردها مانويل غوميث مورينو فى طبعته لكتاب أورتادو دى مندوثا هناك "رواية لما حدث فى غرناطة حتى اليوم التاسع من شهر يناير عام ١٥٦٩" وفى هذه الرواية نقرأ (ص ٢١٧): "الملك الذى تم تنصيبه فى البشرات اسمه إيرناندو الصغير ، وكان حاجبًا فى كاديار ، وقد أخذ كل كتبة أوخيخار وأخرجهم إلى الشوارع ، وقال إنهم لصوص وأعدمهم شنقًا. بعد ذلك أحرق ملفات القضايا التى كانت بحوزتهم".

(٦٦) Saavedra. Pag. 159

(٦٧) Saavedra. Pag. 158

(*) ترجمنا ملف هذه القضية فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون ". (المترجم)

(٦٨) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión*...., fols 53 y 56,
غوادالاخارا هو أحد المؤلفين القُدامى الذين يركزون على هذه النقطة . فى العصر الحديث جمع الباحثون بيانات كثيرة خاصة بالعلاقة بين الموريسكيين والأتراك . انظر ,

Danvila y Collado, pags. 117-124

Boronat y Barrachinzia, pag 207, 212, 232, 271, 279-280, 282-285, 366, 310-315, 374, 486, 624, II, pag. 36, 125, 176,4 73, 529.

يشير غاراد فى طبعته لمذكرة تونييث مولاى (ص٢٠٢) إلى الوقائع الهامة فى هجوم الأتراك والبربر مستنداً إلى مصادر غربية.

(٦٩) كان سفراء الملوك المنافسين منتبهين إلى كل هذه التحركات ، وكانوا مهتمين بتحركات الموريسكيين على وجه الخصوص كما سنرى فى الفصل السابع.

الفصل الثانى

الإطار المادى للحياة فى غرناطة :

رأينا فى الصفحات السابقة كيف انهارت المملكة الإسلامية الأخيرة فى شبه الجزيرة ، وكيف أن نظامها الاجتماعى قد بدأ ينهار مع أفول نجمها. من المناسب الآن - قبل أن نبدأ فى تحليل عملية انهيار النظام الاجتماعى الذى كان سائداً - أن نقدم فكرة واضحة عن أهم ملامح المجتمع الإسلامى القائم قبل سقوط غرناطة.

نبدأ حديثنا بعرض ملاحظات حول الإطار المادى للحياة فى غرناطة. مملكة غرناطة ليست شاسعة المساحة ، وتضم أقاليم مناخها صحراوى قريبة من قمم الجبال التى يغطيها الجليد باستمرار، كما تضم مناطق مناخها استوائى تُزرع فيها المحاصيل التى تتطلب درجة حرارة عالية ورطوبة مستمرة ، بالإضافة إلى مناطق جافة شبيهة بشمال إفريقيا وسهول صالحة لزراعة الحبوب شبيهة بأراضى قشتالة. هذا يعنى أن مملكة غرناطة مقسمة إلى مناطق طبيعية محدودة ، ومتحدة فيما بينها. ومن العجيب أن طرفها الشمالى والجنوبى مساحتهما صغيرة ، على عكس منتصف شبه الجزيرة . هذا يُعزى إلى الطابع الصحراوى الذى حدَّد شكل مملكة غرناطة منذ تأسيسها وتحكَّم فى سير عملية غزو أندلوثيا (١).

كان المسلمون أقوياء الملاحظة فيما يتعلق بالعالم ، ولهذا فقد فطنوا إلى تعددية غرناطة، فقسموها إلى أجزاء ومناطق واستخدموا فى ذلك أسماء نوردها فيما يلى(٢). كانت المملكة مقسمة إلى محافظات يُطلق على كل منها اسم " كورة " وكانت كل "كورة" بها " عاملية " واحدة أو اثنتان ، وكانت كل " عاملية " تنقسم إلى أقاليم لا تحددها حدود إدارية(٣) . يقول ابن الخطيب إن مملكة غرناطة فى القرن الرابع عشر كان بها

ثلاثة وثلاثون إقليمًا موزعة على ثلاث كورات : كورة إلبيرا أو غرناطة ، وكورة ملقة أو ريو ، وكورة المرية أو بيانة[٤] . يُضاف إلى هذه الكورات كورة كانت لها شخصية مستقلة طوال عصرها هي كورة تاكورونا التى تضم القرى المحيطة برندة [٥].

ويبدو أن العرب قد أطلقوا على الأقاليم أسماء محلية قديمة أو عربية تشير إلى اختلاف جبالها. وكانت لسكان الأقاليم – بالتالى – صفات مختلفة . كانت الأقسام الرئيسية فى أندلوثيا هى السهول والجبال . اتبع العرب نظامًا فى تقسيم الأراضى بشكلٍ عام فأطلقوا اسم تهامة على الأراضى المنخفضة ، واسم نجد على الأراضى المرتفعة[٦] . إن ما يُعرف الآن باسم "مرج غرناطة" كان إقليمًا هو "إقليم الفحص"[٧] . وكانت الأراضى المرتفعة الشهيرة تحمل أسماءً غامضة ظلت حتى الآن يفسرها البعض على أساس اللغة العربية ، ويقول البعض الآخر إن هذه الأسماء من آثار اللغات القديمة التى كانت موجودة فى جنوب إسبانيا فى زمن يعود إلى ما قبل انتشار اللاتينية . أعنى هنا جبال البشرات [٨].

إذا صدقنا رواية بعض المؤلفين فإن اسم البشرات لم يُطلق على إقليم أو منطقة جبلية بل على عدة أقاليم ومناطق [٩]، تمامًا كما يقول بعض المؤلفين اللاتينيين إن اسم " الألب " ليس اسمًا للمنطقة الحالية بل كان اسمًا للجبال المرتفعة بشكلٍ عام. وقد بحث بعض المؤلفين فوجدوا أن كلمة " ألب " تشكل جزءًا من عدة أسماء قديمة لجبال ، وذكروا من بينها البشرات[١٠] ، لكن لندع ذلك الآن.

كانت السهول والمروج والمناطق الساحلية تُستخدم فى السابق كما هو الحال الآن كعواصم للمحافظات أو كمراكز عمرانية ، وكان يُطلق على كلٍ منها اسم " مدينة " . كانت تلك المدن يقيم فيها سكان غير متجانسين ، وكان لهؤلاء رئيس يجنح فى بعض الأحيان إلى الاستقلال عن الملك[١١] ، كما حدث فى مملكة المغرب أن تمرد الزعماء المحليون على سلاطينهم. إن التشابه بين غرناطة وشمال إفريقيا كبير فى هذا الشأن وفى أمور أخرى.

كان كل ملك لغرناطة يُسمى "سلطان" غالبًا[١٢] ، ولم يتمتع أحدهم مُطلقًا بالاستقرار؛ فيكفى أن نذكر أنه بين عامى ١٢٢٨،١٤٩٢ كان هناك خمسة وعشرون سلطانًا ،

أقيل ستة منهم ، وتولى أحدهم السلطة ثلاث مرات ، وقُتِلَ منهم ستة . كان للسم والنباتات المخدرة دور بارز فى مؤامرات القصر[١٣] التى لم تكن تقل حبكة وتناقضاً عن المناورات السياسية فى العلاقات الخارجية.

ورغم تعدد الاتفاقيات إلا أن المسيحيين كانوا يتوغلون فى مروج غرناطة وكانوا ينهبونها بشكل منتظم[١٤] . كان ذلك يحدث فى الأسابيع الأخيرة من فصلى الربيع والصيف حين تكون المحاصيل فى أوج ازدهارها[١٥] . وفى وقت المطر كانت تعقد الاتفاقيات ، وكان يعم الهدوء[١٦] وكان للمسلمين بدورهم نفس العادات التى تبدو لنا كما لو كانت مغربية. إن المؤلفين الإسبان كانوا يُطلقون اسم " الغزو " على الحملات التى يقومون بها[١٧] . كان الاستيلاء على الماشية دافعًا أساسيًا وراء تلك الحملات. أحيانًا يمكننا أن نكوّن فكرة دقيقة عن حجم الغنائم. لقد حصل مسيحيو كرمونه واثيخا وأوسونا من جرّاء حملتهم على كاسارابونيلا عام ١٤٠٧ على ٥٠٠ بقرة وجواد ، و٢٠٠٠ شاة. كان فى الحملة ٢٠٠٠ فارس و ٨٠٠ راجل[١٨] ، وكانت الأسلاب عادةً تُباع جملة واحدة[١٩] . كان المشتركون فى تلك فى تلك الحملات يُطلق عليهم اسم "مغاوير" أى منْ يتجولون فى الأرض[٢٠](*) يجب ألا يدهشنا أن مملكة غرناطة كانت تحفل بالقلاع والبروج لأنها – وإن كانت قد شيدت لمحاربة المسيحيين من الناحية النظرية – إلا أنها فى الواقع كانت تُستخدم فى الحروب الأهلية بين المسلمين.

كانت قصبات المدن الرئيسية فى غرناطة وملقة والمرية عبارة عن قصور ملكية شهيرة. كانت رمزًا للسلطة الملكية . كانت المدن نفسها نظم دفاعية ذات أسوار ، وكانت هذه النظم موضع دراسات مسهبة[٢١] .

خارج الأسوار كان هناك " الربض " الذى كانت تسكنه الطبقات الفقيرة التى وصلت لتوها أو الفلاحون ، وكان هؤلاء أول منْ يخسر إذا حدث هجوم خارجى[٢٢] .

كانت هناك درجة أكثر تواضعًا هى درجة القرى ذات الحصون ، ولاتزال أسماء القرى الحالية تتضمن بعضها : إثنايوث ، وإثناتوراف وإثناخار ، ولانزال نحتفظ

(*) هل يقصد سبر أغوار الأرض ؟ عمومًا فالمغوار هو الشجاع ، كما هو معلوم. (المترجم)

بالوصف القديم لتلك الحصون بل ولايزال لدينا تصور عن كيف كانت تلك الحصون وهى قائمة(٢٣) . لقد حفظ التاريخ تلك القرى ذات الحصون لدرجة أنها تشكل منظراً مألوفاً فى إسبانيا والبرتغال . على جانبى الحصن كانت هناك بيوت بيضاء عموماً ، وفى أحيان أخرى كان الحصن يقام على أعلى تل أو فوق منحدر(٢٤) . إن القصائد الشعبية كثيراً ما تصور قادة تلك الحصون(٢٥) .

كان هناك شكل آخر من أشكال الدفاع ، وكان عبارة عن برج بسيط أقل ارتفاعاً وحجماً من الحصن ، وهو شبيه بتلك البروج الموجودة فى الشمال والتى كانت مقراً للأسر العريقة فى القرى(٢٦) . إذا كانت هناك نماذج من الحصون الإسلامية لاتزال موجودة إلى اليوم فإن البروج لم يتبق منها الكثير ، وحالتها ليست جيدة ، رغم أن الملوك قد أمروا بتشييدها فى مروج غرناطة حتى تكون بمثابة ملجأ للفلاحين فى زمن الفلاحة والحصاد(٢٧) . وفى المقام الأخير نذكر "الروابط" وهى بنايات كانت تمولها التبرعات الخيرية أو كان يُنفق عليها من غنائم الحروب. كانت تلك الروابط عبارة عن أماكن إقامة المحاربين المتدينين ، ولايزال هناك الكثير منها. فهناك رابطة غرناطة ورابطة أنتيكيرا ورابطة بيليث ملقة وروابط أخرى فى المرية. بعض تلك الروابط شيدها الملوك والبعض الآخر شيده أشخاص عاديون (٢٨).

٢ - التركيب الاجتماعى :

يبدو أن القصبات والحصون والبروج والروابط كانت تشير إلى وجود طبقات مختلفة فى المجتمع الإسلامى . هذه البنايات - التى لايزال بعضها محتفظاً بروعته وبعضها الآخر مُهملاً - تبهر المسافر الذى يذهب إلى الجنوب(٢٩) : إنها عبارة عن شهود صامتين على عصر درسناه بعناية لكننا لم نفهمه ، عصر صوّره الموريسكيون فى أشعارهم. ورغم أن الموريسكيين قد خسروا كل شىء من وجهة النظر السياسية ، إلا أنهم ظلوا يحتفظون بنظام اجتماعى وذاكرة قوية تعرف أنسابهم وهى أساس ذلك النظام الاجتماعى.

إن القارئ سيلتمس لى العذر الآن إذا خصصت مزيداً من الصفحات لتحليل ذلك النظام الاجتماعى. وأرى أنه من المهم معالجة هذه الموضوع لكى نفهم المشكلة الموريسكية فى مجملها.

يُبرز ابن خلدون فى رسمه النظام الاجتماعى الإسلامى فى شمال إفريقيا الدور الذى لعبته العلاقة بين المدينة والأراضى الزراعية التى تحيط بها من ناحية ، وبين الريف والصحراء من ناحية أخرى . إنه يبين لنا كيف أن الترف والأمن اللذين ينعم بهما سكان المدينة ، وعلى رأسهم الملك ، يتعرضان لتهديد من قِبل رجال من الصحراء مأجورين ، على استعداد للقيام بأى عمل ، نظراً لحالة البؤس التى يعيشون فيها. يقول ابن خلدون : فى المكان الذى يصل إليه هؤلاء يعم الخراب[٣٠] . لكن هؤلاء الناس أقوياء ولهم مزايا قد لا توجد فى أناس آخرين. أهم هذه المزايا هى العصبية[٣١] . يرى ابن خلدون أن المبادىء التالية لا جدال فيها:

١ – أن روح التضامن لا توجد إلا بين منْ تربطهم رابطة الدم أو رابطة مشابهة [٣٢].

٢ – أن قوة هذا التضامن لا توجد إلا بين عرب الصحراء وبين الشعوب نصف الهمجية التى تعيش فى الصحارى[٣٣] .

٣ – أن الناس الذين يعيشون فى المدن أو بجوار الأراضى المزروعة لا يهتمون بالتضامن.

وهكذا يؤكد أن " كل السكان فى البلاد الأجنبية أو معظمهم يسكنون فى المدن بجوار الأراضى المزروعة. نجد ذلك فى إسبانيا ، وفى مصر وسوريا والعراق وفى بلادٍ أخرى. السبب فى ذلك يكمن فى أن معظم هذه البلاد غير العربية لا تهتم بالأنساب ولا تهتم بالمحافظة على نقاء الدم ولا تهتم بالروابط الأسرية " [٣٤]. إن الإنسان المستقر فى المدينة لا يهتم بعائلته لأن عائلته ليست ضرورية له كما هى ضرورية لرجل الصحراء.

هل هذا صحيح ؟ إننا إذا فحصنا عدداً من المعلومات الخاصة بإسبانيا الإسلامية لوجدنا أن ذلك صحيح بشكلٍ جزئى فقط. لنر أين يكمن الخطأ فيما يبدو عند

ابن خلدون. إنه يقول في معرض حديثه عن أهل غرناطة في عصره : "إن عرب الأندلس هؤلاء قد فقدوا روح العصبية التي تنتج عن القوة السياسية. لم يتبق لهم سوى عصبية الأنساب... لقد تم إخضاعهم بالقوة وتعرضوا للهوان ، فظنوا أن أنسابهم وعملهم في الدولة سيسهلان لهم الاستيلاء على المملكة وحكم الناس "(٣٥) .

من الصعب أن نفهم المعنى الحقيقي لهذه الفقرة ، إذ تتعارض فيها أسماء ظلت مترابطة على الدوام. إن هذه الفقرة تبدو وكأنها تقول لنا إن العصبية لا توجد إلا في الأنساب لكن الناس لا هم لهم إلا التفاخر بالأنساب دون أن يتضامنوا فيما بينهم.

إن قول ذلك عن مواطني القرن التاسع عشر يبدو مجازفة ، رغم أن ذلك قد يبدو واضحًا لمواطني هذه الأيام. إن روح العصبية في ريف ومدن أوروبا في عصر ابن خلدون لم تكن ضعيفة أبدًا. لقد رأى الآخرون ما لم يره ابن خلدون. لقد اندمج ابن خلدون في عالم شمال إفريقيا وحارب ابن رشد عندما قال ابن رشد إن الأسرة الحاكمة القوية هي التي تظل متماسكة في القرية ولم يستطع رؤية المزايا التي يمكن الحصول عليها من هذا الاستمرار(٣٦) . كان ابن رشد في الحقيقة – وهو يدافع عن وجهة نظره كأوروبي – في الطريق الصحيح. إن قارتنا الأوروبية هذه قد أمكن فيها الجمع بين روح العائلة ، وكثرة الأراضي المملوكة وبين الاستقلال . بل إنه في القرون من الثالث عشر إلى الخامس عشر كانت الأنساب ترتبط بمدينة ما أو بجزء منها دون أن يؤدي ذلك الارتباط إلى ضياع العصبية أو إلى التخلي عن العنف ، ففي إسبانيا المسيحية قيل إن هناك صفات متوارثة لبعض العائلات. يقول سابيدرا فاخاردو إن عائلة غوثمان شهيرة بالطيبة "وعائلة منوثا شهيرة باللطف ، وعائلة مانريكي بالقسوة ، وعائلة توليدو بالشدة "(٣٧) لكن لنخرج من دائرة المقارنات. لو استخدمنا منهجًا مماثلاً لوصلنا إلى نتيجة هي أنه في مملكة غرناطة خلال زمن ابن خلدون وبعده ، كانت الأنساب والعصبيات تلعب دورًا حاسمًا في الحياة العامة وفي حياة الأفراد. وإذا كانت العصبية لم تؤد إلى النتائج التي يراها هو ، فذلك بسبب عوامل أخرى لم يتوقف هو عندها. ومع ذلك فمن المهم أن ننبه إلى أن ابن خلدون لم يكن هو الوحيد الذي أشار إلى الدور السلبي للعصبية في الأندلس ، ففي أحد المؤلفات التاريخية عن زمن المرابطين والموحدين وبني مرين نقرأ أن هناك رسالة وجهها المعتمد ملك إشبيلية إلى

قائد المرابطين الذى وصل إلى شبه الجزيرة وهزم المسيحيين وأزال سلطانه ، يقول فيها كما جاء فى ترجمة امبروسيو هويثى : " بيننا نحن عرب الأندلس قد زالت العصبيات وتفككت أواصر الوحدة واختفت الأنساب. بعد أن توقفت زيادة نسلناأصبحنا شعوبًا لا قبائل ، جماعات متفرقة لا قرابة بينها ولا صداقة "(٣٨) . وهناك منْ يذكر نصوصًا أخرى تؤيد فيما يبدو هذا الرأى وتشير إلى عصور سابقة. يقول أحد هذه النصوص إن المنصور هو المسئول عن إزالة النظام القَبَلى وهو الذى أحل محله نظامًا مرتبطًا بالجيش. وقد حاول المنصور دون جدوى أن يعود العرب إلى احتلال مكانتهم فى القبائل التى ينتسبون إليها كما يقول ابن الأبار(٣٩) . وليس هناك شك فى أن النظام القَبَلى بين البدو هو أكثر تماسكًا منه بين سكان الحضر، على الأقل فى بعض المجالات ، وهذا ما توصلتُ إليه عندما درست الحياة الاجتماعية فى الصحراء التى تحتلها إسبانيا وفى شمال المغرب. لكن رغم ذلك فإننى أرى أن هناك مبالغة فى المعلومات السابقة التى لا تتحدث إلا عن عصبية فى عائلات معينة(٤٠) .

٣ – عائلات مملكة غرناطة :

إن الدليل على أن النسب والعصبية كانا عاملين مهمين فى حياة آخر مسلمى إسبانيا يظهر فى المعلومات التالية:

١ – المؤسسات العائلية الإسلامية فى مفردات لغة أهل الأندلس.

٢ – أنساب يتحدث عنها المؤرخون فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

٣ – أنساب " معمرة " نجدها فى النصوص.

٤ – أنساب قصيرة الأمد نجدها فى أسماء الأماكن.

٥ – حروب بين العائلات فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

٦ – أنساب موريسكية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

١ – فى كتاب " فن معرفة اللغة العربية " للراهب پدرو دى ألكالا يمكننا أن نجد أساسًا لتوضيح البند الأول . إن هذا الكتاب يقدم لنا فكرة دقيقة عن لغة أهل غرناطة قُبيل سقوط المملكة. نشير فى المقام الأول إلى أن الأسماء تشير إلى النسب من ناحية الأب ، وأن القرابة بعائلة الأم يُشار إليها بشكل مختلف فهناك " العم " و " الخال" ورغم أن النصوص لا يوجد بها مؤنث هذه الأسماء إلا أنها تُبرز اختلافًا بين " أخى الجد" و " أخى الجدة ". هناك فرق أيضًا بين أولاد الأخ وأولاد الأخت وأولاد العم أو العمة وأولاد الخال أو الخالة . إن هذه الأسماء التى تحدد بدقة درجة القرابة وتبرز فيها العصبية قد استخدمها مسلمو غرناطة .

إن كلمة " ابن" يُعبر عنها أحيانًا بكلمات " ولد" ، " أولاد" ، " ابن" ، أما " ابنة" فيُعبر عنها بكلمتى " ابنة "و " بنت" . أما مجموع الأبناء والبنات والأحفاد فيُطلق عليه كلمات " أولاد" أو " بنات" أو " أحفاد" . هذا الأمر شائع الاستخدام فى المجتمعات الإسلامية الموجودة اليوم ، ومن الشائع أيضًا إطلاق اسم "أهل" على مجموعة أقارب(٤١). هناك أسماء مشابهة تدخل فى تكوين أسماء القبائل وفروع القبائل التى تعيش فى شمال إفريقيا، وسنرى أن بعض هذه الأسماء يدخل فى تركيب أسماء عائلات غرناطة. اسم " قبيلة" نجده فى كتابات مؤلفين لاحقين على ألكالا. يقول ميغيل دى لونا – على سبيل المثال – "إن اللغة العربية تطلق اسم قبيلة على الأبناء والورثة" (٤٢). وهناك نصوص أخرى تذكر اسم قبيلة ، وهى على ما يبدو أصل كلمة gavilla فى اللغة الإسبانية ، ومن المعلوم أن هذه الكلمة لها مدلول سيئ ، إذ تُشير إلى مجموعة من الناس غير متجانسة وذات أصل متواضع(٤٣) .

من المناسب أن نشير أيضًا إلى أن پدرو ألكالا يذكر مرادفات لكلمة قرابة مثل :

أ – قريبة corbia وهى قرابة الدم ، والشخص الذى يدخل فى هذه العلاقة اسمه " قريب ".

ب – عصبة acaba، وهى قرابة بشكل عام.

ج – قطون Kutuna، وهى القرابة من النسب والقريب من هذه الناحية يسمى " قاطن" أو "أقطان"(٤٤).

وهذا يعنى أننا نجد العصبية التى لاينكرها ابن خلدون ، لكن المعاجم لا تقدم لنا فكرة واضحة عن مركز الكلمات فى مجتمع ما. إن السبيل إلى ذلك يتطلب أن نسلك طرقًا أخرى من طرق المعرفة.

٢ – إن تاريخ أسماء البلاد التى أقام فيها العرب والسوريون والبربر فى إسبانيا قد دُرِسَ عدة مرات، ولدينا مؤلفات لباحثين بارزين [٤٥]. لم يتوقف أحد عند دور الأنساب فى حياة المسلمين. مع ذلك يبدو أن هناك مادة كافية للقيام بهذه الدراسة ولتحديد التواريخ التى أضيفت فيها عائلات من شمال إفريقيا إلى العائلات الموجودة فعلاً فى إسبانيا. كان أولئك وهؤلاء على وعيٍ بأنسابهم لكن الأنساب لم تكن الشىء الوحيد الذى غيرهم، فقد كان كل منهم يحتفظ بعاداته نقيةً دون شوائب. ولدينا شاهد على صدق ذلك هو ابن الخطيب ، وهو غرناطى معاصر لابن خلدون وعلى علاقة به. لقد رسم لنا ابن الخطيب صورة لملكة غرناطة تبرز فيها سمات مواطنيها[٤٦] وتكثر فيها الإشارات إلى العائلات وإلى عادات تلك العائلات (القبائل ؟) وأن قمة الأرستقراطية فى غرناطة كانت تتمثل فى اثنتى عشرة قبيلة عربية كان المؤلف ابنًا لإحداها[٤٧] . بالإضافة إلى تلك القبائل كانت هناك أربع وعشرون قبيلة من شمال إفريقيا ومن جزيرة العرب[٤٨] . أما مدى احتفاظ تلك القبائل باسمها فهذا أمر يجب ألا يشغلنا الآن. ليس هناك شك فى أن أسماء الأنساب فى ذلك الحين كانت تتغير طبقًا لمنهج لايزال ساريًا فى العالم الإسلامى: ضم طبقات مختلفة. وهكذا كانت العائلة وملحقاتها ذات معنى شبيه بالنظام الرومانى ، وكان الاسم يمكن أن يدل على موقع جغرافى.

٣ – إن ابن الخطيب نفسه يقول إن الأقاليم الثلاثة والثلاثين التى تنقسم إليها مملكة غرناطة كانت تضم قرًى وقلاعًا وحصونًا عددها أكبر من ذلك[٤٩]. فى كل هذه المدن والحصون من النادر ألا نعرف من خلال أسمائها – أو من خلال مصادر أخرى – القبيلة التى كانت تسيطر عليها. نعرف أيضًا أن هناك مشاكل كانت تترتب على وجود قبائل مختلفة ، ونستطيع أن نميز الأماكن التى كان يسيطر عليها العرب من تلك التى كان يسيطر عليها البربر.

كانت هناك أقاليم عبارة عن أراضٍ يُطلق عليها اسم " كمب" وهى كلمة مشتقة عن campus باللاتينية أو campa بالإسبانية ، ومن بين هذه الأقاليم : كمب قيس ،

وكمب اليمن. إذن فإن أحد هذه الأقاليم كان يتبع قبيلة قيس والإقليم الآخر كان يتبع اليمنيين[٥٠] . والشيء نفسه يحدث مع اسم بورييلا ، فهناك بورييلا قيس ، وبورييلا أندرا أبي جرير ، وبورييلا أناليال[٥١] ، ومن اليسير هنا أن نميز أسماء القبائل . إن كلمة " إرث " - التي تعني أرضاً مقطوعة لشخص ما كهدية أو لرابطة الدم[٥٢] - تبدو كمكوّن لأسماء الأرض التي يسيطر عليها عرب اليمن كما يشير ابن الخطيب : إرث اليمن ، إرث اليمانية ، إرث اليمنيين. وهناك أيضاً إرث قيس[٥٣] .

هذه الأماكن كانت تابعة لقبائل يمنية: ألكالا لا ريال ، الهندين ، أورثي غواديكس، غوينيخا، فونيانا والمرية[٥٤]. وكانت البشرات كذلك. إن اسم البشرات يبدو في نص لابن الخطيب مصحوباً باسم قبيلة : بشرات بني جسّام[٥٥] . في بقية الأقاليم الثلاثة والثلاثين يمكن أن نعثر على القبائل المسيطرة. هكذا نجد أسماء فزارة، بني أوس وبني أمية[٥٦]، أي أجداد ابن أمية وهو الملك الذي نصّبه الموريسكيون إبان ثورتهم[٥٧] . إن ابن الخطيب يشكو مُر الشكوى من أن بعض القبائل العربية لاتزال تحتفظ بعادات فظة. إنهم عرب وادي أندراكس وهم بدو خُلّص يميلون إلى الحرب والعنف ، وكانوا يضطهدون الفلاحين الذين يزرعون الأراضي التي يسيطرون هم عليها[٥٨]، بشكل يماثل سيطرة أهل الصحراء في إفريقيا وآسيا على أهل الواحات[٥٩]. وكان أهل بورشينا يحتفظون بعادات بدوية[٦٠] ، أي عادات لم تكن سائدة في المجتمع الإسلامي المحافظ ، فعلى سبيل المثال كانوا يشربون الخمر. وكانت هناك بلاد تعيش في صراعات داخلية باستمرار ويهددها خطر العصابات[٦١] ، وهذه البلاد هي المنكب ، وكانتوريا ، وكارتاما ، وقمارش ، وفوينخيرولا ، وبيليث ملقة ، وثاليا. ذلك العنف المحلي كان يتفق مع فكرة العصبية في معناها الأساسي.

٤ - من بين الأسماء الحالية للأماكن هناك أسماء تعكس :

(أ) وجود قبائل يمكن تسميتها بقبائل ذات نسبٍ حديث أي تأسست منذ وقتٍ قليل على يد رجل ذي نسبٍ عريق.

(ب) الأصل الحضري لتلك القبائل .

ومن أشهر أسماء القبائل تلك الأسماء التي تضم كلمة "بنو" أو "ابن" ملحقةً باسم علم يكون عادةً مؤسس القبيلة أو القرية في نفس الوقت. هكذا ترد تلك الأسماء في مؤلفات مثل مؤلفات ابن بطوطة الذي قال - بعد زيارة له إلى إسبانيا - إنه أقام في بلدة "بنو رياح" وإن مؤسسها هو أبو الحسن علي بن سليمان الرياحي، أي أنه هو مؤسس القبيلة(٦٢) . تكثر هذه الأسماء في مناطق أندلوثيا، خاصة في سهل ملقة(٦٣) .

أحيانًا يكون اسم القبيلة أكثر تعقيداً . إن " وادي آش " مثلاً كان اسمه " مدينة بني سالم "، فقد استقرت هناك قبيلة عربية تحمل هذا الاسم شهيرة بنزعتها الحربية(٦٤) . الأسماء الشهيرة جداً لدى المسيحيين في الكالا دي بني زايد(٦٥) أو ألكالا دي لوس غاثوليس(٦٦) تشير إلى أن تلك القلاع كانت تسيطر عليها قبائل معينة. وهناك أسماء نسب محفوظة في وثائق غرناطية ترتبط باسم قرية أو بلدة صغيرة(٦٧) . لكننا بدلاً من تحليل تلك الأسماء سنتحدث عن الصراع بين القبائل.

٥ - إذا كانت الأسر العربية الأولى التي وفدت إلى الغرب قد جلبت معها الصراعات القبلية وعداواتها القديمة(٦٨) فليس من الغريب أن تكون هناك كراهية شديدة بين القادمين الجُدد. كان البربر يفدون إلى مملكة غرناطة باستمرار . إن ابن الخطيب نفسه يذكر أسماء ست قبائل في عصره وفدت من إفريقيا وكان لها نفوذ كبير في أوساط الشعب والجيش(٦٩) ، وقد دافعت تلك القبائل عن مصالحها الخاصة في الفترة الأخيرة لملكة غرناطة الإسلامية . هنا تبرز مرة أخرى فكرة ارتباط العائلة بالجيش، فجند دمشق المؤيدون لعبدالرحمن الأول - الذين أقاموا في مدينة ألبيرا(٧٠) - قد حلَّ محلهم جنود من البربر لم تخل تصرفاتهم من التمسك بالعصبية. ومنذ قيام مملكة غرناطة تتابعت حروب القبائل(٧١) . إن المؤرخين المسيحيين كانوا على وعي بمغزى وصول تلك الجماعات فسجلوا مؤامراتها . سجلوا ذلك بدقة تدعونا إلى الظن بأنهم كانوا يجلسون إلى مكاتب ويستعملون تقارير رسمية . في القرن الرابع عشر وفدَ البربر، وكان لهم نفوذ كبير في الجزء الجنوبي الشرقي. وقد أصبحت كل المواقع الهامة والأماكن المجاورة لها تحت سلطة الملوك من بني مرين(٧٢) . كان الفرسان الذين يحتلون حصونًا في روندا وجبل طارق وماربيلا وأستيبونا وغيرها يشكلون طبقة الأرستقراطية، وكان الفلاحون يدافعون عن مصالح تلك الطبقة(٧٣). كانت هناك صراعات

شديدة بين القبائل القديمة والقبائل الوافدة ، بين منْ يقربهم الملك إليه ومنْ يشعرون بأنهم مُهمَشون. كانت هناك صراعات شبيهة بتلك الصراعات التى طالما أضعفت الدول الإسلامية وشبيهة بتلك الصراعات التى أضعفت مملكة قشتالة فى عصر بدرو الأول ومنْ خلفوه ، تلك الصراعات التى لم يكن ابن خلدون على علم كافٍ بها. تبدو تلك الصراعات كعوامل أدت إلى إضعاف الممالك فى ذلك العصر، سواء فى قشتالة أو فى غرناطة. إن مؤلف كتاب " تاريخ ألفونسو التاسع " على سبيل المثال يعرض بالتفصيل حسابات أحد القادة حينما بايع الطفل محمداً الرابع[٧٤] . يُشير أيضاً إلى تأثير ذلك القائد بين أبنائه وأحفاده وأصدقائه[٧٥] . كانت الصراعات بين القبائل فى القرن الخامس عشر أكثر عنفاً. لنترك صراعات أخرى جانبًا [٧٦] لكى نتحدث عن الصراع بين بنى سراج والثغريين ، وهو صراع نعرفه من خلال الأعمال الأدبية الإسبانية. كان الثغريون نسلاً يُقال إنه ينحدر عن خلفاء قرطبة ناصروا الزغل فى مواجهة أبى عبدالله الصغير. أما أبوعبدالله الصغير فقد أيده بنو سراج الذين كان لهم دور بارز فى بلاط غرناطة خلال القرن الخامس عشر كله [٧٧] . كان بنو سراج – رغم أصلهم الإفريقى – يقولون إن أصلهم عربى ، وكان منهم حراس القصر ، وكانوا معتدين بأنفسهم[٧٨] . كان جو الفروسية ذلك فى أواخر القرن الخامس عشر لا يخلو من الجانب العاطفى. شاب من قبيلة ما يُحِبُّ فتاة من قبيلة معادية ، أى قصة حب شبيهة بقصة روميو وجولييت وغيرها من تلك الحكايات التى وردت فى كتب الأدب[٧٩] .

كان تكوين الفرق المتصارعة معقداً وربما أدى ذلك إلى اختلاط الأمر على مؤلف مثل خنيس بيريث دى إيتا عندما تحدث عن بنى سراج. إن هذا المؤلف يُشير إلى أنه خلال الحروب الأهلية فى غرناطة خلال القرن الخامس عشر كانت هناك اثنتان وثلاثون قبيلة ينتمى إليها الفُرسان ، بعض تلك القبائل وفد من المغرب أو من فاس أو من تلمسان Tremecen أما البعض الآخر فيعتبر نفسه ذا أصل " عربى "[٨٠] . وكان هذا اللفظ فى القرن السادس عشر يعنى البدو الرُّحَّل[٨١] . لقد أراد البعض أن يقلل من أهمية هذه المعلومة ، لكننى لا أدرى ما إذا كان من المناسب تجاهلها ، خاصةً إذا وضعنا فى الاعتبار أن المسلمين المنصرين أو الذين كانوا يعيشون بين المسيحيين كانوا يتذكرون بدقة شديدة تاريخ أنسابهم ، وكانوا يستخدمون ذلك بهدف إحياء مبدأ التضامن بين أبناء العصبية حتى بعد أن كانوا يخونون هذا المبدأ[٨٢].

٦ – رأينا فى الفصل السابق أن كثيراً من العائلات الرئيسية فى مجتمع غرناطة رحلت بعد سقوط غرناطة بقليل فسبقت أبا عبدالله الصغير أو تبعته ، والظاهر أن سقوط العرش قد أدى إلى اختفاء الوعى بالأنساب ثم اختفاء العصبيـة ، لكن الأمـر لم يكن كذلك. بل إننى أجرؤ على القول بأن مبدأ العصبية بين الموريسكيين كان عنصراً يجمع الناس ، وكان أحد العناصر الأساسية التى يجب أن يضعها المؤرخ فى اعتباره. عندما بدأت ثورة الموريسكيين فى عهد فيليبى الثانى – فى الريف وفى جبال البشرات فى رواندا وفى ملقة – كان احترام العصبيات المحلية لايزال قائمًا [٨٣] . إن القادمين المسيحيين لم يحدثوا أثراً يُذكر فى الموريسكيين عند وصولهم، فقد كان هؤلاء مرتبطين بتراثهم فى هذه الناحية وفى جوانب أخرى. لقد خرج زعماء الثورة من بين الأنساب العريقة التى كانت مسيطرة[٨٤]، وقد احتفظت تلك العائلات – بعد تنصيرها الإجبارى – بممتلكاتها وسلطانها. إن قرية بالور كانت ملكًا للسيد أيرناندو الذى سيصبح ابن أمية فيما بعد[٨٥] . وكانت قريتا كامبوتيخار وخابينا من ممتلكات ألونسو دى غرانادا بنيغاس[٨٦] ... إلخ

هناك معلومة هامة تتعلق بحرب الموريسكيين لم يتوقف عندها أحد ، وهى أن زعيمىْ الموريسكيين – اللذَين كانا يتنافسان ويتباغضان – كانا ينتميان إلى قبيلتين بينهما عداوة قديمة. إن السيد إيرناندو دى بالور أو ابن أمية كان يقول إنه ينحدر من نسل خلفاء قرطبة[٨٧] . أما منافسه – فرج بن فرج – فكان يقول إنه سليل بنى سراج [٨٨]. أى أن العداوات القديمة قد عادت من جديد. عادت العصبية من جديد ، لكن نتائجها اختلفت عن النتائج التى أشار إليها ابن خلدون. فى كثير من الأحيان كان التضامن العائلى أو القَبَلى مجرد عامل من عوامل الفوضى. عندما كانت أوروبا الغربية تنشئ المؤسسات كالبلدية والملكية فقدت العائلات المسيطرة سطوتها. إننى أرى أن مسلمى غرناطة لم يخسروا الحرب لتخليهم عن عصبياتهم، بل لأنهم لم يتمكنوا من تجاوز نظام مبنى على التفاف القبيلة لارتكاب العنف ضد كل منْ يقف فى وجه زعيم القبيلة. ومن ناحية أخرى فإن العصبية القبلية كان لها دور حاسم عندما تعرضت حياة الموريسكيين للخطر. لقد أدت تلك العصبية إلى التفاف كل العناصر حولها. ومن العجيب أن نلاحظ كيف حُبكت القصص الخيالية عن الأنساب. إن الكبرياء الناتجة عن العصبية كانت

إحدى المساوئ التي أشار إليها المؤلفون ورأوا فيها السبب في المصائب التي حلت. هناك نص نسخه إدواردو سابيدرا يقول : " يفتخر البعض بأنهم من الأنصار ويفتخر البعض الآخر بأنهم من المهاجرين...إن هذه العصبيات تفرق جمعهم..."(٨٩) .

وقد حدث الشيء نفسه في إفريقيا في وقت معاصر لأحداث غرناطة ، أي في القرن السادس عشر، رغم أن نتائج الأحداث في إفريقيا اختلفت عن نتائجها في غرناطة . إن القبيلة التي كانت تعتبر قديماً كمؤسسة لا دينية ، قد اتخذت صبغة دينية في القرن السادس عشر. إن النموذج الواضح لذلك هو نسب الأشراف. كانت العائلات المسيطرة قديماً تكتفي بالإشارة إلى انحدارها من أصول عربية قريبة من نسب الأمراء والخلفاء. أما المسلمون المغاربة في القرنين السادس عشر والسابع عشر وما بعدهما فقد سعوا إلى أن ينتسبوا إلى آل البيت . لقد كان هدف البحث في الأنساب محدداً : ربط السلطة الدنيوية بالجانب الروحي المقدس(٩٠) . وهكذا ففي عام ١٥٠٨ في الجنوب بدأ الأشراف يحظون بأهمية كبيرة ، وقد أخذت تلك الأهمية في الزيادة(٩١) . وقد خصص ابن خلدون فصلاً في مقدمته للحديث عن فقدان أسماء الأنساب دقّتها بسبب التحاق أنساب أخرى بها أو بسبب الأساطير(٩٢) التي تهدف إلى إعلاء شأن شخص ما أو إلى إخفاء أصله المتواضع. ورغم أنه يؤكد أن السُلطة لا تخرج أبداً عن نسب قوى وكثير(٩٣) وأنه من الصعب أن يتولى السلطة أجنبي ملتحق بنسب محلي(٩٤) ، إلا أن التجربة تشير إلى أن النسب المخترع قد يلعب دوراً حاسماً في حياة الإسلام.

وباختصار فإن موريسكيي غرناطة قد عرفوا العصبية وشعروا بها. لقد حارب المشرعون المسيحيون تلك العصبيات رغبةً منهم في محو الأنساب والأسماء . أما نونييث مولاى فيدافع عن الأنساب بقوله : " إن الألقاب القديمة التي نحملها إنما هي لكي نعرف بعضنا بعضاً وإلا تاه الناس وضاعت الأنساب. ما فائدة ضياع الأنساب؟ لو ضاعت الأنساب الموريسكية فلن يعلم أحد ممن تزوج وإلى من باع ومع من يتعامل ، ولن يُعرف الشريف من الوضيع" (٩٥) .

كانت هناك رغبتان : رغبة في البقاء ، ورغبة في التدمير ، وقد حدثت مواجهة بين الرغبتين بشكلٍ عام.

في وقت ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، أي في عام ١٩٥٧ ، نشر السيد إلياس تيريس دراسة عن الأنساب العربية في الأندلس طبقًا لكتاب ابن حزم(٩٦) . بفضل هذه الدراسة نرى بوضوح كيف كانت الأنساب العربية في إسبانيا الإسلامية تنقسم إلى عرب الشمال وعرب الجنوب ، بعضها ينتمي إلى عدنان وبعضها ينتمي إلى قحطان. كان الناس في شبه جزيرة إيبريا يفخرون بأنسابهم ، وقد استمر ذلك إلى أواخر سنوات مملكة غرناطة (٩٧). إن كتاب ابن حزم يتضمن ما كان معروفًا حتى عصره. إنه يحدد الأنساب العريقة ويُشير إلى أوج مجد تلك الأنساب والعصر الذي تفرقت أو انهارت فيه. وكأي دراسة من هذا النوع هناك إشارات إلى الصراعات بين الأقارب وإلى اندثار أنساب بأكملها بسبب العنف. لكن بعض تلك الأنساب ظل قائمًا حتى سقوط مملكة غرناطة (٩٨) .

هوامش الفصل الثانى

(١) A. Carbonell y otros: *De Sierra Morena a Sierra Nevada*, pag.1-123

سنشير من الآن إلى كتاب ميغيل أنخيل لا ديرو " غرناطة: تاريخ بلد إسلامى" (مدريد ١٩٥٨)

(٢) Asín: " *Abenhazam de Córdoba...*",1,pag.2a

E. Levi Provençal: *Histoire de d'Espagne musulumane*, III, pags 47- 48.

(٣) مصطلح " كورة " أشار إليه أورتادو دى مندوثا (ص ٧٩)

(٤) Simenet: *Descripción del reino de Granada*, pag. 4-5. Casiri, II, pags. 253-254.

(٥) Al Himyari, pag. 78.

يعتقد سيرافين كالديرون فى كتابه " جغرافية إسبانيا العربية "أن العاصمة كانت كورونيل (ص ٢١٧)، ثم ورثت رونده الأهمية: الحميرى (ص ٩٨ –٩٩)

(٦) Al-Saqundi, pag. 108

(٧) يتحدث الحميرى (ص٣) عن فحص إلبيرا

(٨) حول هذه الأرض (البلاد) انظر دراسة مانويل غوميث مورينو

De la Alpujarra, pags. 17-36.

يتحدث عن الأنماط العربية ولا يتوقف عند الأنماط (الأسماء) بالإسبانية. نلاحظ أن مؤلفين مثل إيرنانو دى بابيثا (ص ٢٨) يذكر اسم البشرات بصيغة المفرد el alpujarra وهناك منْ يستخدم صيغة الجمع. يقول ميغيل دى لونا إن اسم البشرات مشتق من اسم قائد يُدعى " إبراهيم أبو شرّة " وهذا ما يقوله كوبارروبياس أيضًا (ص ٨٥) ، أما ميخائيل الغزيرى فينسب الاسم إلى "بورى" أى قلعة.

(٩) الإدريسى (ص ٢٠٩) يبدو أنه يتحدث عن " بشرات " جيان ، ويوضح سيمونيث فى كتاب " وصف مملكة غرناطة " (ص ١٠١–١٠٢) أن ابن الخطيب كان يعرف " بشرات" بنى جاسم

(١٠) Dauzat: *Les noms de lieu*, 2ª edición, pag. 207

(١١) "الريس" بمعنى الأمير مُصطلح يستخدمه بدرو بارانتيس مالدونادو (ص ٢٥٧) فيتحدث عن "أراضى ريس ملقعة ". انظر أيضًا :

Crónica de Alfonso X, pags. 10-11

Steiger, pags. 143, 173, 373

(١٢) يطلق ابن الخطيب هذا اللقب على ملوك قشتالة فى نص يتحدث فيه عن سلطان غرناطة الشرعى ، وهو نص نقله غايانغوس فى ملحق وضعه لكتاب بدرو بارانتيس مالدونادو (ص ٥٤٦–٥٤٧)

(١٣) دس السم في قصور ملوك المسلمين نجده في كتاب البار غوتيريس دى توريس :

Sumario de las maravillosas y espantables cosas que en el mundo han acontecido (Toledo, 1524).

وقد أصدرت أكاديمية اللغة الإسبانية طبعة من هذا الكتاب عام ١٩٥٢ . حول الأعشاب.
انظر : *Crónica de Juan* II, pag. 313 (año 1409)

وانظر كذلك تاريخ ملوك غرناطة المسلمين الذى كتبه غايانغوس ووضعه كملحق لكتاب بدرو بارانتيس مالدونادو. (ص ٥٣٩ – ٥٧٧)

(١٤) تنظيم ونظرية الحروب الحدودية في العصور الوسطى نجدها في :

Código de las siete partidas, II, pags. 479 - 483.

للحصول على بيانات محددة يمكن الرجوع إلى الكتابات التاريخية عن الملوك اعتباراً من عام ١٢٦٣، هناك وصف للحروب أيضاً في :

Crónica del haleonero , pags. 94 - 107

Hechos del Condestable Don Miguel Lucas de Iranzo pags. 76-97.

Crónica de Juan II, pags. 487 - 488 (año 1430)

(١٥) في الكتاب وصف لمقدمات الحملة . انظر أيضًا كتاب لويى دى باريتتوس (ص ٢٠١) حيث يتبين أن شهرى أبريل ومايو كانا مناسبين للقيام بحملات. كذلك فإن خوان الثانى ظن أن عروض مسلمى باثا وتواديكسى عام ١٤٣٦ لم تكن سوى حيلة " لكى يمر شهرا أبريل ومايو " . انظر :

Hechos del Condestable Don Miguel Lucas de Iranzo pags137-141

Hemando de Bareza, pag. 1.

(١٦) *Crónica de Juan II*, pag. 292 (año 1407)

(١٧) *Crónica de Alfonso XI*, pag. 355.

شاعت هذه الحملات نحو عام ١٤٤٧ بسبب الحروب الأهلية. انظر:

Crónica del halconero ...., pags. 487-488

Hemando de Baeza, pags. 13-15

لاحظ أن كتابات تلك الفترة كانت تستخدم مصطلح غزو algazu وهى كلمة عربية

(١٨) *Crónica de Juan II*, pag. 289 (año 1407)

(١٩) *Crónica de Juan II*, pag 307 (1408)

يحكى هنا قصة حملة عاد منها قائد من خيريث دى لا فرونتيرا بغنائم وأسرى : ٢٣ أسيراً مسلمًا، ٣٠٠٠ بقرة ، ١٥٠ دابة ، ٦٠٠٠ شاة. ويُضيف كتاب :

Hechos del Condestable Don Miguel Lucas de Iranzo pags 19 - 82

دخول المستشار إلى جيان بعد عودته ومعه " أسرى مسلمون وأسيرات مسلمات ، وقد قُيدوا بالحبال ، وماشية وأبقار وأغنام وأسلاب كثيرة ومجوهرات "

(٢٠) *Crónica de Juan II*, pag. 288 (año 1407):
يُشير إلى المسلمين. انظر أيضاً صفحة ، ٢٩٤ انظر كذلك :
Hernando de Baeza, pag. 23
Fernando del Pulgar, II, pags. 92, 441-442.
Corominas, I , pag. 156.

(٢١) انظر طبعة كارياثو لكتاب إيرنانديث ديل بولغار ، ففيه إشارات كثيرة إلى القصبات فى أنتيكيرا وباثا وغرناطة وغواديكس وملقة وإشارات إلى أسوار هذه المدن ومدن أخرى.

(٢٢) Crónica de Alfonso XI, pags. 181-182.
Crónica de Juan II, pags 324 (año 1410)
Fernando del Pulgar, II, pag. 460

(٢٣) الحصول على بيانات خاصة بالفترة العربية. انظر :
Simonet: *Descripción del reino de Granada*, pags.5, 41, 92, 128,219, 152.
بالنسبة للأسماء الحالية للحصون انظر :
Asín Palacios: *Contribución a la toponemía árabe*, pag. 113.
Steiger, pag. 168

(٢٤) ستيتيل على سبيل المثال ، ويأتى وصفها فى:
Crónica de Juan II, pags 294 (año 1407)

(٢٥) كالذى مات لأنه – وهو ذاهب لحفل زواج اختـه أو ابنـة عمـه – سقطت "الحامة" Alhama فى يد النصارى . انظر : Duran, II, pags. 89 - 90
هناك قائمة بأسماء قادة حصون مملكة غرناطة نجدها تحت لفظ " قادة " فى كتاب فيرناندو ديل بولغار ، الجزء الثانى ، ص ٤٥٤ – ٤٥٦

(٢٦) Simonet: *Descripción del reino de Granada*, pag. 5

(٢٧) Mármol, pag. 132.

(٢٨) Oliver Asín: *Origenes árabe de rebato*... pags. 364-3372
فى هذا الكتاب يدرس " الروابط " فى إسبانيا

(٢٩) للحصول على صورة لأنواع المبانى المذكورة يمكن الرجوع إلى الكتب التى تتضمن صوراً قديمة لمدن وقرى أندلوثيا. انظـر مثلاً أعمال جورجيس براون وفرانثيسكوس هوجنبرجس، وهى عدة مجلدات تحت عنوان: Givitates arbis terrarum وفيها صور لأشبيلية وقادش وملقة. فى المجلد الثانى هناك صورة Alhama عام ١٥٦٤ وصورة لأنتيكيرا وبيخير وملقة وكونيل وخيريث دى لا فرونتيرا. المجلد الثالث به صورة لنبريخا وستينيل. وفى المجلد الرابع صورة لإشبيلية ومارشينا وأوسونا. ربما كان المجلد الخامس هو الأهم ، ففيه صورة لقادش عام ١٥٧٨ وصورة لإشبيلية عام ١٥٩٣ فى المجلد السادس هناك صورة لقرطبة.

(٣٠) لكتابة السطور التالية استعنت بترجمتى سلان وسوردون إى بيرشير

(٣١) T. Khemiri, pag. 163 - 188.

(٣٢) Ibn Jaldun , I, pags. 270-271 (Jurdan y Percher), pg. 20

(٣٣) Ibn Jaldun, I, pags. 271-273 (Jurdan y Bercher, pags.21-22)

(٣٤) Ibn Jaldun , I, pags. 272.

(٣٥) Ibn Jaldun , I, pag. 63 (García Gómez: Ibn Zamrak,pag.172)

(٣٦) Ibn Jaldun , I, pags 283-283 (Jurdan y Bercher, pag 29)

(٣٧) *Idea de un príncipe político cristiano, pag.* 12

(٣٨) الحلل الموشية (ص ٦٠)

(٣٩) Levi Provençal: *L'Espagne musulumane au X^e siecle*, pag. 20

Levi Provençal: *Histoire de d'Espagne musulumane*, III, pags 174-175.

Cagigas: *Los mozárabes*, II, pags. 385 y 413

(٤٠) أعتقد أن ليفى بروفنسال (تاريخ إسبانيا الإسلامية ، الجزء الثالث ، ص ١٧٤-١٧٥) أصاب عندما تحدث عن قيام عصبية أندلسية.

(٤١) Steiger, pag. 326

(٤٢) Miguel de Luna , pag. 123

(٤٣) Covarrubias, pag. 634

(٤٤) هناك ألفاظ / أنماط مشابهة فى المغرب

(٤٥) Levi ProvenCal: *L'Espagne musulumane au X^e siecle*, pags18-31

Levi ProvenCal: *Histoire de d'Espagne musulumane*, III, pags 167-177

(٤٦) بالإضافة إلى النص الذى نشره سيمونيت فى كتاب " وصف مملكة غرناطة "، نشر ميخائيل الغزيرى (الجزء الثانى ص ٢٤٧ – ٢٥٥) فقرات هامة

(٤٧) Casiri, II, pags. 252 -253

Lafuente Alcántara: Historia de Granada, II, pags.125 - 127

(٤٨) Casiri, II, pags. 252-253

كل هذه الأسر كانت تعتبر قبائل أيضاً فى النص العربى

(٤٩) Casiri, II, pags.253-255

Simonet: *Descripción del reino de Granada*, pags 125-128

(٥٠) Casiri, II, pags. 255

(٥١) Casiri, II, pags. 254

(٥٢) Levi Provençal, edición de Al-Himyari, pag. 47

(٥٣) Casivi,II, pag. 255

(٥٤) Simonet: *Descripción del reino de Granada*, pag 5

يركز سيمونيث على أهمية هذه المشاعر .

(٥٥) Casiri, II, pag. 255

(٥٦) Casiri,II,pag. 255

(٥٧) زعمت العائلة أنها تنحدر من نسل الخلفاء ، ولهذا فعندما دخلت فى المسيحية جعلت لقبها العائلى قرطبة. وبنفس الطريقة جعل أحفاد ملوك غرناطة لقبهم العائلى " غرناطة " عندما اعتنقوا المسيحية.

(٥٨) Simonet: *Descripción del reino de Granada*, pag. 102

(٥٩) E.F. Gntier: *Le Sahara*, pags. 129-141

(٦٠) Simonet: *Descripción del reino de Granada*, pags 149-150

(٦١) Simonet: *Descripción del reino de Granada*, pag. 150

هـذه الهـمـجـيــة قـد وضّـحـها هـو نفسـه فى دراسة حول " أثر السكان الأصليين فى ثقافة مسلمى غرناطة " ص ٨ – ١٤

(٦٢) Ibn Battuta, IV, pag. 374.

(٦٣) لنتذكر بعض الأسماء المعروفة التى تبدأ بكلمة بن ben ، وفى بعض الأحيان تبدأ الأسماء بكلمة بنا bena فى إقليم أندلوثيا. فى أحيان أخرى يبدأ الاسم بكلمة بنى . beni - bene انظر :

Asín Palacios: *Contribución a la topenimía árabe de España*, pags. 84-95

يقول أسين بلاثيوس إن بعض أسماء الأماكن مشتقة من كلمة ابن ibn، لكن ابن أخيه أوليفر أسين يقول إن الاسم يبدأ بكلمة " بنو " انظر :

Oliver Asín: *Historia y prehistoria del castellano*, pags. 312-314.

الجدير بالذكر أن المؤلفين القُدامى يؤيدون هذا الرأى ، فيقول مارمول (ص ١٢٧) إن جبال بنتوميث Bentomiz قد اشتُق اسمها من قرية قديمة بناها العرب فيها ، وإن العائلة التى بنتها كانت عائلة بنى تومى وهى نفس العائلة التى استوطنت الجزائر وكانت لها السيادة على المدينة لفترات طويلة ، وفى صفحة ١٣١ يذكر مارمول أن ربض ثينيتى Cenete قد استوطنه " مسلمون أفارقة من بنى ثنيثا ، وقد قدموا كمرتزقة "

(٦٤) Casiri, II, pags. 255

حروف aben التى تدخل فى تكوين الأسماء هى الشكل الإسبانى لكلمة ابن. انظر:

Crónica de Alfonso XI, pag. 5

(٦٥) *Crónica de Alfonso XI*, pag. 12

(٦٦) *Crónica de Alfonso XI*, pag. 258

(٦٧) ذكر غوميث مورينو كثيراً من الأسماء التى اختفت اليوم والتى توضح كيف أن قرى هذه الأماكن كانت مقسمة إلى أحياء لها أسماء خاصة. كلمة " حارة " فى تونس لها نفس مدلول كلمة " ملاح " فى المغرب أى مكان إقامة اليهود . انظر : André Chouraqui, pags. 176 - 182

لكن فى البشرات لم يكن اللفظ له مدلول سيئ. وقد درس إيسيدرو دى لاس كاخيغاس بعض الأسماء فى كتابه : *Topónimos alpujarreños*, pags. 295 - 322

(٦٨) Levi ProvenCal: *L'Espagne musulumane au Xe siecle*, pags 14-15
(٦٩) Casiri, II, pag. 258 ويسميها قبيلة
(٧٠) *Ibn al Qutiyya*, pag. 15
حول الأماكن السورية
لدراسة المدن والقرى العربية . انظر:
Levi Provençal: *L'Espagne musulumane au Xe siecle*, pag. 21-22
(٧١) Dozy : *Historia de los musulmanes españoles*, IV, pags. 39-41
Lafuente Alcantara : *Historia de Granada*, II, pags. 327-332
(٧٢) *Crónica de Alfonso XI*, pag 311-*Crónica de Alfonso XI*, pags. 296-297
(٧٣) *Crónica de Pedro* I, pags. 403 (año 1350), 513 (año 1361)
يحدد مارمول مكان إقامة عائلة غُمار Gomares فى أحدشوارع غرناطة عام ١٢٠٤ (ص ١٣٣).
(٧٤) *Crónica de Alfonso XI*, pag 207
(٧٥) *Crónica de Alfonso XI*, pags. 232, 255
(٧٦) *Crónica de Juan II*, pag. 638 (año 1445)
(٧٧) حول هذا الموضوع هناك معلومات وفيرة ومتناقضة ، ففى " تاريخ الملك خوان الثانى" (ص ٤٤٩ ، عام ١٤٢٩ ، ص ٥٠٢ ، عام ١٤٣٢) وهو أفضل مصدر يحكى مأساة تلك الأسرة. فى النصف الأول من القرن الخامس عشر هناك أكثر من اسم إسبانى لبنى سراج. هناك نصوص أخرى مثل : Crónica del halconero, pag 254 تذكر اسماً إسبانيا مختلفًا ، وفى كتاب :
Hechos del Condestable Don Miguel Lucas de Iranzo pag. 19
تذكر لبطولات الأسرة بين عامى ١٤٥٨ – ١٤٦٣ أما الفترة التالية لها مباشرة فقد تعرض لها إيرنانديو دى بابيثا (ص ٩) وذكر أن بنى سراج " قدموا من الشاطىء الآخر المتوسط واستقروا فى إسبانيا وكلهم رغبة فى أن يموتوا وهم يحاربون المسيحيين" انظر كذلك :
Pedro Barrantes Maldenado, pag. 332
(٧٨) Levi Provençal, edición de Al Himgari, pag. 47
يقول إن بنى سراج ينتسبون إلى قُضاعة (خزاعة ؟) ، ويقول غايانغوس فى طبعته لكتاب بدرو بارانتيس مالدونادو إن بنى سراج من قرطبة وإن جدهم كان وزيراً فى فترة الخلافة، أى أنهم لم يكونوا أبناء أحد السرّاجين كما يقول إيرنانديو دى بابيثا.
(٧٩) حول هذا الموضوع انظر دراستنا : *Linajes y bandos*, Bilbao, 1956
(٨٠) Pérez de Hita , pags. 514, 517

(٨١) Don García de Silva y Figueroa, I, pag. 239.

إن منْ يُسمون " العرب " فى بلاد البربر وفى إسبانيا هم اناس يقيمون مع مواشيهم وينتقلون بحثًا عن المراعى من مكان إلى آخر "

(٨٢) *Crónica de Juan II*, pag.325 (año 1410)

(٨٣) ليس فقط فى البشرات وإنما فى أراغون وفالنسيا أيضًا. ففى القرن السادس عشر كانت أسرة بنى عامر فى بناغواثيل (بين كيريا وفالنسيا) تقول إن نسبها يرجع إلى المنصور وإلى ملوك فالنسيا المسلمين. وقد حوكم عميد العائلة عام ١٥٦٧ وهو شيخ كبير ...(*) ويذكر أثنار كاردونا (ص ٤٤ ، ٤٥) بعض الشخصيات الموريسكية من سرقسطة وأويسكا وبارباسترو قيل إنها تنتسب إلى أسرة صاحبة الحق فى العرش لو عاد الإسلام إلى إسبانيا. حول توقير الأنساب القديمة فى الأندلس يقدم لنا مارمول (ص ٢٠٥) دليلاً واضحًا. لو صدقنا ما يذكره غاسبار أغيلار فى قصيدة طرد المسلمين من إسبانيا (ص ٩ - ٨٠) فإن الموريسكيين الذين أشعلوا الثورة فى فالنسيا فى عصر فيليبى الثالث كان من بينهم أبناء عائلات قديمة اشتهرت بالشجاعة.

(٨٤) سيكون من المفيد جدا رسم صورة لقرابات موريسكيى الجبال لفهم سير أحداث الثورة. لكن الأمر صعب حتى لو كان هناك عدد أكبر من الوثائق بسبب تداخل الأسماء. (هذه ليست مشكلة لو أن القائم على البحث يفهم العربية : المترجم)

(٨٥) Mármol, pag. 217

Hurtado de Mendoza, pag. 24

(٨٦) Marmol. Pag 144

كان لأسرته - حتى أيامنا هذه - أرشيف مهم لمنْ يرغب فى دراسة تاريخ غرناطة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

(٨٧) Marmol. Pag 187

Hurtado de Mendoza, pag. 24

يقول أورتادو دى مندوثا: " كان من نسل ابن أمية وأحد أحفاد محمد ، وكان لهم فيما مضى ملك قرطبة وأندلوثيا "

(٨٨) Marmol. Pag 188

وكان أحد الثغريين - السيد غونثالو - معارضًا للقضية

Marmol. Pag 331

(٨٩) Saavedra, pag. 138

تعريف لمصطلحى " المهاجرين " و " الأنصار " [المصطلحان معروفان للقارىء العربى (المترجم)]

(٩٠) Levi Provençal : Les histories des cherfa , pags. 44-54

(*) انظر قضية كوسمى بن عامر فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" لغارثيا أرينال ، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣ .

(٩١) Diego de Torres, pag. 7
Ifrani, pags. 7 - 18

(٩٢) Ibn Jaldun, pags. 273-274

(٩٣) Ibn Jaldun, pags. 275-276

(٩٤) Ibn Jaldun, pags. 280-283

(٩٥) Nuñez Muley, pag. 219

(٩٦) Elías Terés "Linajes en Al Andalus según la Yamhara de Ibn Hazm ", Al Andalus (1957) pags. 55-111 y 337-376

(٩٧) Teres : op. Cit. Pags. 55 -57

(٩٨) Teres : op. cit. Pags. 87, 88, 100, 102, 103, 106, 109

هناك دراسات أخرى كذلك منها دراسة لنفس المؤلف عن عائلتين أندلسيتين من بنى مروان نُشرت فى مجلة الأندلس (١٩٧٠) ص ٩٣-١١٧، والدراسة توضح اختلاف الأداء السياسى عند اختلاف الظروف.

الفصل الثالث

١ – سكان مملكة غرناطة :

درسنا فى الفصل السابق أحد الملامح الرئيسية التى ميزت المجتمع الأندلسى والموريسكى بصفة عامة ، وسنخصص هذا الفصل لتحليل الملامح التى أدت إلى وجود سلسلة من الفروق بين أفراد ذلك المجتمع ، وسندرس كذلك نوعية الصلات التى تربط الموريسكين بمجتمع المسيحيين القُدامى. وقد أشرنا قبل ذلك إلى أننا ننطلق من فكرة أن هناك فرقًا بين الاختلافات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى مجملها وبين الواقع فى لحظة بعينها. إن فصلاً كهذا ينبغى أن يبدأ بالإشارة إلى الكميات والأرقام الخاصة بالسكان وتقسيمهم.

إن الإحصائيات الخاصة بعدد موريسكيى مملكة غرناطة وبعدد سكان المملكة كلهم فى عهد فليبى الثانى لايمكن إلا أن تكون تقريبية[١] . من بين مُجمل الأرقام التى أوردها مؤلفون عديدون سنختار بعضها ؛ إذ نظن أنها أكثر دقة. يقول المؤرخون – استنادًا إلى المسلمين المتفائلين الذين كانوا يرون إمكانية انتصار المسلمين على المسيحيين إبان الثورة – إن مملكة غرناطة كان بها ٨٥٠٠٠ بيتٍ موريسكىٍّ مسجلٍ فى الضرائب المفروضة farda ويُضاف إلى تلك البيوت عدد١٥٫٠٠٠ فندقٍ كان يخفيها محصلو الضرائب الملكية بهدف الحصول على دخول غير مشروعة[٢].

إذا اعتبرنا أن كل بيت كانت تسكن فيه أسرة تتكون من عدد الأفراد التى توردها الإحصائيات عادةً ، فإن بإمكاننا أن نقول إنه فى عام ١٥٦٨ كان هناك من ٤٢٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠ موريسكىٍّ غرناطىٍّ. وإذا وضعنا فى الاعتبار درجة خصوبة الموريسكيين العالية فإن بمقدورنا أن نضرب عدد الأسر فى رقم ٦ أو رقم ٧ فيصل

العدد إلى ستمائة ألف أو سبعمائة ألف. لكن يبدو أن أساس كل هذه الإحصائيات زائف وأنه لا يستند إلا إلى أمل البعض فى وقت ما.

هناك شخص حذر وعلى دراية بالواقع - مولاى - تحدث فى مذكرته عن خمسين ألف موريسكى، وذكر أن كل بيت به ثلاث نسوة [٣]. إذا ضربنا العدد الذى يذكره فى رقم ٥ فإن عدد الموريسكيين سيكون ٢٥٠ ألفًا، وإذا ضربناه فى رقم ٦ فإن العدد يصل إلى ثلاثمائة ألف مواطن موريسكى. يبدو أن هذا الرقم أقرب إلى الحقيقة. لكن من بين الرجال المسلمين لم يزد عدد حملة السلاح عن عشرة آلاف، أى أن الحروب لم تكن شاملة كما كان يُظَن، لكنها أحدثت آثاراً ديموغرافية أكثر من تلك التى أحدثتها حروب الملكين الكاثوليكيين.

يؤكد كل الباحثين أن تلك الحروب أدت إلى خفض عدد السكان بنسبة كبيرة. ورغم أن بعض الباحثين تحركهم العداوة للملكين الكاثوليكيين وبعضهم الآخر كان يريد رسم صورة وردية لعهدهما، إلا أننا يجب أن نقبل أن انخفاض عدد السكان كان أمراً حقيقياً. يذكر مارمول دى كارباخال أن غرناطة العاصمة قد بلغ عدد أرباب الأسر فيها ثلاثين ألفًا أى أن عدد سكانها وصل إلى مائة وخمسين ألفًا عام ١٤٧٦، وأن عدد المقاتلين المشاة بها قد وصل إلى خمسة وعشرين ألف رجل، وأن عدد الفرسان قد وصل إلى ثمانية آلاف، بالإضافة إلى خمسين ألف مقاتل من البشرات [٤]. إن صدق هذه الأرقام أمرٌ محل شك، فعندما حدث التمرد كان عدد أرباب الأسر فى حى البيازين عشرة آلاف طبقًا لما يرويه مارمول نفسه[٥]، أى أن عدد السكان كان خمسين ألفًا، ورغم وجود منازل مهدمة وأجزاء قد تم إخلاؤها إلا أننا لا يمكن أن نصدق أن عدد المطرودين من المدينة قد بلغ مائة ألف. فى عام ١٥٧٤ قُدِّر عدد أصحاب البيوت فى المدينة بحوالى ٩٧٠٠، أى أن عدد السكان قد بلغ ٤٨٫٥٠٠[٦]. وتشير الإحصائيات التى أُجريت بعد ذلك إلى زيادة العدد لكن ليس بالشكل الذى يمكننا معه الحديث عن عودة المدينة إلى سابق عهدها من حيث عدد السكان. إن الإحصائيات الخاصة بالسكان فى أماكن أخرى تدعونا إلى شىء من التحفظ. يقول مارمول دى كارباخال إن المرية - وهى أكثر مدن أندلوثيا ازدحاماً بالسكان المسلمين - لم يكن بها سوى ستمائة بيت موريسكى[٧]، أى أن عدد السكان المسلمين كان يبلغ ثلاثة آلاف.

ويُشير نونييث دى باردو إلى أنه خلال إعادة التوطين فى المدينة وصل إليها ١٣٢ رب أسرة [٨]. وكان فى غواديكس ٤٠٠ أربعمائة بيت موريسكى أى أن عدد السكان المسلمين بها كان يصل إلى ألفى شخص[٩] .

ولكى نوضح هذه الأفكار يمكننا أن نذكر أن انخفاض الدخول الملكية بسبب طرد الموريسكيين قد بلغ ١٧ر٣١٠ر٤٤١ مرابطيًا ، وأن الانخفاض كان على النحو التالى :

م	الناحية	الانخفاض فى الدخل الملكى	
١	البشرات	٧ر٢٧٣ر٥٣٤	مرابطياً
٢	غرناطة	٢ر٦٩٠ر٢٠١	مرابطياً
٣	باثا	٢ر٢٠٠ر٠٠٠	مرابطياً
٤	بيليث ملقة	١ر١٣٦ر٠١٥	مرابطياً
٥	غواديكس	-ر٩٧٣ر٩٠٠	مرابطياً
٦	المرية	-ر٨٠١ر٦٦٠	مرابطياً
٧	ملقة	-ر٧٩٨ر٦٣٨	مرابطياً
٨	بورشينا	-ر٤١١ر٠٠٠	مرابطياً
٩	نوتريل	-ر٣٥٦ر٥٠٥	مرابطياً
١٠	سالويرينيا	-ر٢٣١ر٩١٨	مرابطياً
١١	المونييكر (المنقّب)	-ر٢١٦ر٣١٠	مرابطياً
١٢	لوخا و Alhama الحامة	-ر١١٥ر٢٥٠	مرابطياً
١٣	رونده	-ر١٠٥ر٤١٠٥	مرابطياً

فإذا علمنا أن كل رب أسرة كان يدفع ٥٦٦ مرابطيًا فبإمكاننا أن نقول إن عدد أصحاب البيوت من الموريسكيين كان يبلغ ٢٠ر٥٨٣ أى أن عدد السكان الموريسكيين

يبلغ ١٥٢٩١٥ نسمة[١٠] ، وهو رقم أظن أنه أكثر دقة من تلك الأرقام التى أوردتها وثائق أخرى والتى تتحدث عن٧٠ – ٨٠ ألف رب أسرة طردوا بعد الثورة، وهو ما يعنى أن عدد السكان الموريسكيين كان يبلغ ٣٥٠ – ٤٠٠ ألف شخص[١١].

وإذا قبلنا الرقم الذى يذكره نونييث مولاى – ويتحدث عن ٢٥٠ ألف موريسكى أو ٣٠٠ ألف موريسكى – فيمكن أن نظن أن طرد نصفهم كان أول نتيجة من نتائج الثورة. أما النتيجة الثانية فكانت التغير الملحوظ فى نسبة عدد السكان المسلمين فى مملكة غرناطة .

هذه المملكة – شأنها فى ذلك شأن بقية ممالك أندلوثيا خلال العصر الإسلامى – كان يسكنها مواطنون يختلفون عن بقية مواطنى إسبانيا. ولكى ندرك مغزى هذه النقطة علينا أن نراجع الإحصائيات القديمة. إذا نظرنا إلى إحصاء عام ١٧٨٧ سنرى أن مملكة غرناطة كان بها ١٩٧٩ رب أسرة من الوجهاء فى مقابل ٣٤٨٥٧ من الفلاحين و ٨٩١٤٥ من العمال. أما فى ليون فإننا نجد ٢٢٠١٦ من الوجهاء فى مقابل ٣٠٣٧ من الفلاحين و ١٦١٠١ من العمال ، وهذا يعنى أولاً أن كثيراً من الوجهاء كان يزرعون أراضيهم بأنفسهم ، إذ إن سكان ليون فى مجملهم كانوا أقل من سكان غرناطة[١٢].

إن زيادة نسبة الطبقة الدنيا ترجع إلى عهود قديمة ، ففى عام ١٥٩٠ كان فى غرناطة ٤١٠٠٠ رب أسرة منهم ٢٤٨٣ فقط من الوجهاء والباقون من العامة[١٣] . إن الوعى الطبقى فى بلد لا يقطنه إلا القليل من النبلاء كان وعياً ملحوظاً ، خاصةً إذا وضعنا فى الاعتبار أن المملكة كان بها عدد كبير من القرى التابعة للإقطاع. إن إحصاء عام ١٧٨٧ ذاته يبين أنه من بين ١٤ مدينة و٦٤ قرية و١٢٨ منطقة وعشر بلدات لم يكن هناك سوى مدينة واحدة و١١٦ قرية و٢٧ منطقة وبلدتين تابعتين للإقطاع[١٤].

كانت طبقة النبلاء إذن عنصراً محدوداً بالمقارنة بالوضع فى الشمال. كان التجار والصناع والحرفيون والخدم (وكان هؤلاء كثيرين جدا) يشكّلون الطبقة المسيطرة ، لكن وضع الموظف الملكى والقسيس والراهب و المسيحى القديم العامى والموريسكيين كان وضعاً معقداً. كل ذلك كان يُسهم فى إيجاد حال من الفوضى والتآمر حتى فى العاصمة. كان الرأس كبيراً والجسد صغيراً.

٢ – المدينة وصفاتها :

منْ منا لم يقرأ تقريظًا لغرناطة ؟ منذ عصر ابن الخطيب وحتى القرن السابع عشر نادراً ما نجد مؤلفًا لم يتغن بجمال غرناطة ، هذا الجمال الذى أسهم فيه جهد الرجال والطبيعة الخلابة[١٥] . إن الأوروبيين الشماليين قد أسهموا أكثر من غيرهم فى إشاعة فكرة أن الحياة فى غرناطة تعدل الحياة فى جنة. انظر مثلاً ما ترويه دوقة أبرانتيس Abrantes على لسان سفير السويد فى كل من فرنسا وإسبانيا، كونت كروتز Creutz (1726 - 1785) [١٦] .

على ضوء الوصف القديم رُسِمت صورة الحياة فى غرناطة خلال القرون الأخيرة من العصور الوسطى : حياة هانئة ، أُناس مرهفو الحس يعشقون الشعر ذا الألفاظ الرنانة[١٧] وإن كان مبتذلاً. لكن يخطئ منْ يقول إن ذلك الانحطاط أو الأنثوية لا تشوبه قسوة فى العادات وعنف فى المعاملة. إن هذا الاختلاط بين الأضداد – وهو أمر صعب التخيل – قد حدث بالفعل فى مرات عديدة فى العالم الإسلامى وفى الإمبراطورية الرومانية فى عصورها الأخيرة وفى مجتمعات أخرى لسنا فى مجال الحديث عنها الآن.

اليوم – أكثر من أى وقت مضى – ينبغى أن نتذكر ذلك ، لأن العنصرين النقيضين لهما آثار واضحة : أكثر وضوحاً مما حدث فى العصور الحديثة فى أوروبا. لا ، لم يكن كل شىء هانئًا فى غرناطة مدينة الكروم عندما ازدهر شعراء بنى نصر.

كانت شوارع الكثير من أحيائها ضيقة وقذرة ، وشديدة الظلام ليلاً ، وبالتالى خطرة ، وكانت البيوت مزدحمة بأهلها وكانت حالة السُكنى سيئة ، وكانت بنايات قديمة تتهدم نظراً لإهمال طبقة الأغنياء الجشعة ونظراً لعجز الفقراء إزاء ارتفاع أسعار مواد البناء وارتفاع الضرائب(*). إن ابن الخطيب الذى يشير إلى كل هذه الأمور يقول أيضًا إنه لم يكن هناك احترام لرجال السلطة وإن النساء لم يكنّ

(*) تذكرنا هذه الفقرة بالحديث عن ولع بعض الأوروبيين بالحضارة اليونانية القديمة لدرجة أنهم نسبوا إليها كل فضل، ونزعوا عنها كل نقيصة. فى مواجهة هذا الرأى المتحمس تذكر بعض المفكرين – الأوروبيين أيضًا – أن الصورة لم تكن وردية تماماً ، فقد كانت الرشوة منتشرة فى أثينا وكانت هناك عيوب أخرى. (المترجم)

مقتصدات ، بل راغبات فى التفاخر (١٨). كان من أسباب إشاعة الزعزعة وضعف الدولة قدوم المرتزقة الأفارقة الذين كانوا لصوصاً وفخورين بأنسابهم ، وقدوم النازحين من أراضٍ فقدها الإسلام ، وكان هؤلاء يقيمون فى أحياء خُصصت لهم.

ذكر المؤلفون أن حى البيازين قد سكنه مَنْ هربوا من بايثا Baeza وأوربيدا عام ١٢٢٧ بعد استيلاء فيرناندو القديس عليها. ورغم أن أصل كلمة البيازين لا يعود إلى هذا الحدث إلا أنه من الواضح أن هذا التاريخ قد ألقى بظلاله على المدينة(١٩). بعد ذلك بكثير قام المسلمون الذين طردهم فيرناندو لدى استيلائه على أنتيكيرا (٢٠) (التى كان بها ٢٥٢٨ شخصاً منهم ٨٩٥ من حملة السلاح و٧٧٠ من النساء و٦٣ طفلاً)(٢١) - قاموا ببناء حى أنتكيريلا. وكان الشعور بالضيق يتزايد إزاء انتصارات الملكين الكاثوليكيين (٢٢).

إن كل مبالغات كتّاب القرن السادس عشر حول مزايا غرناطة وسكانها وحصونها ...الخ يجب أن نعيد النظر فيها على ضوء هذه الوقائع. كانت غرناطة مدينة عظيمة دون شك فى القرن الخامس عشر ، لكن داخل أسوارها وأبوابها كان يعيش أناس مختلفون عن بعضهم البعض ، يشيع بينهم عدم الثقة. كانت أحياء غرناطة - مثل أحياء مدن مغربية قورنت بها - كل حى تحيطه حصن ببوّاباته الخاصة(٢٣) . إن المتع التى يتحدث عنها الشعراء(٢٤) كانت تصاحبها أخطار : إن العظمة والتعاسة كانتا متلازمتين. هذا ما يشهد به رحّالة فى القرن الخامس عشر وآخر من القرن الثامن عشر (٢٥).

٣ - عناصر السكان :

كان موريسكيو غرناطة من حيث الأصل عبارة عن خليط من العرب والسوريين والبربر وأهل البلاد الأصليين واليهود الذين كانوا فى المدينة ، بالإضافة إلى بعض السود وأصول أخرى مختلفة كالفرس والهنود والأتراك.

من المعلوم أن أراضى غرناطة(٢٦) - من قديم الزمن - قد سكنها السوريون وقبائل عربية. لكن ذلك لم يمنع أن تُسمى غرناطة " مدينة اليهود " (٢٧). وأن يتزايد فيها العنصر البربرى (٢٨).

فى القرن الرابع عشر كان هناك أناس يتوافدون من جميع أنحاء العالم الإسلامى ويشتغلون بالفن والتجارة ، وكان بعضهم يحيك المؤامرات. إن ابن بطوطة – الذى أمضى وقتًا فى غرناطة (ووجد فيها ما يُشبه بلاد فارس) – قد تعرّف على شخص من سمرقند وعلى شخص آخر من تبريز ، وعلى شخص آخر من قونيه Kunia وعلى اثنين من الهند[٢٩] . يجب أن نُشير أيضًا إلى أن كتاب " تاريخ ألفونسو الحادى عشر" يقول إنه خلال تلك الفترة كان الأتراك يشتركون فى حروب الممالك الإسلامية فى الغرب[٣٠] .

من المؤسف عدم وجود دراسات أنثروبولوجية موضوعية لسكان غرناطة ، لكن من المؤكد أن سكان غرناطة فى مجملهم يشبهون أولئك الذين يعيشون فى ساحل البحر المتوسط فى الشمال الإفريقى والذين يعيشون فى الجزء الداخلى من آسيا (المتاخم لأوروبا ؟) . لاشك فى أن عنصر السود قد أسهم فى تكوين سلالة سوداء ، وأن هذه السلالة كانت تتجدد باستمرار حتى القرن السادس عشر، فقد كان لدى الموريسكيين عبيدٌ من السود ، وكان أحد أسباب ثورتهم يكمن فى ضرورة حضور كل من له عبيد سود – ومعه التصريح الخاص – لمقابلة رئيس محكمة غرناطة ، وأن تفحص كل تلك التصاريح القديمة[٣١] .

وقد أجاب نونييث مولاى – فى مذكرته التى أشرنا إليها كثيراً – بأن ذلك الإجراء ظالم ، وأن عدد العبيد السود الموجودين فى مملكة غرناطة مبالغٌ فيه[٣٢] . وقد ذكر مولاى أن عدد العبيد السود لايزيد عن أربعمائة ، لكن من الغريب – لو أن ذلك الرقم كان صحيحًا – أن يُتخذ إجراء للحد من عدد السود. كان العبيد خاضعين ، وكان يسهل تعليمهم مبادئ الإسلام[٣٣] . وكانوا يتميزون بالإخلاص إلى أقصى حد [٣٤]. كان من العادة جلب العبيد من غينيا إلى سواحل إفريقيا الشمالية ومنها إلى أوروبا. كان البرتغاليون هم أول منْ استخدم طريق " العاج " البحرى كما هو معلوم. لكن من المعلوم أيضًا أنه منذ قديم الزمان كانت هناك تجارة رقيق تمر عبر الصحراء. إن هذه المعلومة وتلك توضحان كيف ظهرت بالقرب من مدينة جاو النيجيرية الفقيرة نقوش عربية شبيهة بتلك التى نجدها فى غرناطة والمرية [٣٥] .

ورغم أن الموريسكيين كانوا يحتقرون السود إلا إنه من الواضح أن نساء السود كنَّ يحظين باحترام خاص، ولهذا كان العديد من زعماء الثورة الموريسكية من الملوَّنين ،

إذ كانت أمهاتهم من السود. وعلى سبيل المثال فقد كان أندريس دى أراغون أسود المرية شهيراً[٣٦] ، لكن أحد القادة البارزين كان فرج وهو أسود من تركى Terque ويذكر بيريث دى ايتا أن فرجاً " كان ضئيل الجسم لكن أحداً لم يكن يضارعه شجاعةً وإقداماً " [٣٧] لم يكن السود يتواجدون فى الريف فقط بل فى مدينة غرناطة أيضاً ، ويخصص بيرموديث دى بيدراثا – فى كتابه " تاريخ غرناطة وفضائلها " – فصلاً عن "ثلاثة من العبيد السود عاشوا فى المدينة" ، أحدهم كان المعلم خوان لاتينو (المولود فى إثيوبيا)[٣٨] ، أما الآخران فكان كل منهما ابنًا لرجل أبيض وأم سوداء ، وهما الراهب كريستوبال دى مينيسيس والسيد أورتيث . ولن نتحدث عن كاتالينا دى سوتو المطرزة المتميزة [٣٩].

لكن – ضد ما يمكن تصوره – لم يكن من الممكن فى عام ١٥٥٠ أو فى عام ١٥٦٠ تحديد الاختلافات العنصرية بين الموريسكيين والمسيحيين القُدامى فى كثير من قرى غرناطة والمرية ومرسية. إن الفروق كانت مجرد فروق اجتماعية. كان الفرق يكمن فى اسم عائلة الشخص وديانة أبيه. هكذا كان المسيحى القديم – الذى هو من الوجهاء – يمكن أن يكون ابنًا لأم موريسكية وحفيداً لجدين موريسكيين. وعلى سبيل المثال فقد ذكر مارمول – فى معرض الحديث عن الحوادث التى ارتكبها ثوار فيريرا فى البشرات – أن الثوار قتلوا " أرملة موريسكية كانت زوجة لمسيحى وتُدعى إنيس دى ثيبيرا ، لأنها لم توافق على أن تكون مسلمة مثلهم ، وقالت لهم إنها مسيحية ، وإنها لا تطمع إلا فى أن تموت من أجل المسيح " [٤٠] . من تلك الزيجات وُلِدَ أطفال أصبحوا فيما بعد قساوسة كاثوليك ، وكان أقرباؤهم من ناحية الأم يكرهونهم. بعد رواية هذه الحادثة بقليل يقول مارمول – وهو يصف موت خيرونيمو دى ميسا فى بيتريس – " إن الثوار قطّعوه إرباً أمام والدته التى كانت من أصل موريسكى ثم أصبحت مسيحية "[٤١] . وبعد ذلك يذكر أن أهل مورتاس " قتلوا كاتالينا دى أرويو وهى موريسكية وأم لأوكانيا، لأنها قالت إنها مسيحية"[٤٢] كما يذكر مارمول أن توريخوس (الذى كان وسيطا بين الطرفين وممنْ يحصلون على معاش من الكنيسة) كان من أم موريسكية أيضاً[٤٣] . ويبدو أن أبغض رجال الدين المسيحى ذوى الأصل الموريسكى كان هو الأب البوتوبو ، وكان يسوعياً ذا نفوذ[٤٤] ولعل أكثر النصوص تعبيراً عن ذلك الوضع لم يكتبه مارمول، بل كتبه

بيريث دى إيتا ، فحين تحدث عن المسيحيين الذين حاصرهم المالح فى كانتوريا ذكر أنه كان فيهم " شيخ وجيه يُدعى فيرناندو دى ألمدوبار ، وكان رجلاً صالحًا " وكان ينحدر من أصل عائلة ألمدوبار فى مرسية ، ورغم أنه كان هو وأبوه وجدُّه متزوجين من مسيحيات تنصرن حديثًا فإنهم لم يفقدوا مكانتهم الاجتماعية ولا أهلية حمل السلاح، فقد كانوا مسيحيين قُدامى ويُعرفون بهذه الصفة "(٤٥) . ورغم أن إسبانيًّا من الوسط له أقارب فى الشمال مثل لوبى دى بيغا كان يدرك الفروق الطبيعية بينه وبين الموريسكيين(٤٦)، فإن الأمر فى الجنوب لم يكن سهلاً؛ فالرجل الأسمر كان هو السائد وكان هو الذى يحترمه الناس وينظرون إليه على أنه يُنجب ذكوراً أشداء ونساءً جميلات . إن بيريث دى إيتا نفسه – عندما يصف ابن أمية – يقول : " كان السيد فيرنانדو الذى نتحدث عنه شابا فى الثانية والعشرين ، لحيته قصيرة ، وبَشرته سمراء ، عيناه واسعتان ولونهما أسود ، وكان رشيقًا ، وكان يبدو من مشيته وقامته أنه يحمل الدم الملكى..."(٤٧) . وإلى جانب صورة الشاب الأسمر الأرستقراطى يمكننا أن نضع صورة الشيخ المتقدم فى السن الذى تجرى فى عروقه نفس الدماء . إن بيريث دى إيتا نفسه هو الذى يصف الركيمى قائد بلاد غواديكس بهذه الكلمات: "كان فى أوج نضجه، وكان الشيب يتسلل إلى شعره، كان طويل القامة ضخم الجسد وبشرته سمراء..."(٤٨).

٤ – فروق بين عناصر الموريسكيين :

كان المجتمع الموريسكى من الداخل غير متجانس، وكان يتكون من عناصر بعضها ينحدر من أصول ملكية قديمة وبعضها الآخر أصله أسود متواضع ، وفيه من المرابطين والفقهاء وبعضهم كان يُعد من الأولياء والصالحين ، وكان فيه الملحدون ومن تحوم حول عقائدهم الشُّبُهات . كانت هناك ظروف كثيرة أسهمت فى بقاء اللغة العربية والدين والأزياء والعادات ووحدة الوعى. لكن كان هناك كذلك وعى بالاختلافات المترتبة على اختلاف الأصول والطبقات. كانت هناك عوامل اختلافات أخرى ، وكانت تتمثل فى الوضع الاقتصادى للأفراد وتوزيع النشاط الاجتماعى ثم جغرافيا المناطق. سنتحدث عن كل ذلك.

كان الموريسكى الغرناطى الأصيل يستطيع أن يميز العناصر الآتية في المجتمع الذى يعيش فيه:

١ – الغُزاة : وكان هؤلاء مسلمين من إفريقيا ، عبيداً أو أسرى محررين بعد أن استقروا فى جبال الجنوب وتزوجوا من نساء البلاد بعد أن استولى المسيحيون على غرناطة . كان كثير من أولئك " الغُزاة" نحو عام ١٥٦٨ لهم أبناء وأحفاد متزوجون[٤٩] وكانت لهم أنساب مختلفة على ما يبدو [٥٠].

٢ – المدجنون القُدامى : والذين يُشير إليهم نونيث مولاى[٥١] . كان السادة الذين وفدوا إلى غرناطة قادمين من الشمال فى عصر الملكين الكاثوليكيين قد أحضروا معهم مسلمين كانوا يقيمون فى بلادهم ، وكانوا خاضعين لهم قبل سقوط غرناطة ، وقد حظى هؤلاء بمعاملة مختلفة حتى فى سنوات الحرب. وعندما أمر خوان دى أوسترياس بإخلاء حى البيازين ، بقى المدجنون فى المدينة باعتبارهم أكثر ولاءً من غيرهم[٥٢] وكان للمدجنين نفوذ فى غرناطة بعد ذلك بسنوات[٥٣] .

٣ – أما المنحدرون من عائلة كانت مسيحية ثم أسلمت فقد كانوا يُثيرون الكراهية، وكانوا يسمون "إيلشى" . كان أجدادهم قد تحولوا من المسيحية إلى الإسلام خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر[٥٤] . وكان منهم كثيرون يعيشون فى غرناطة وقت استسلامها ، وقد أدت الإجراءات التى اتخذها ضدهم معاونو ثيسنيروس إلى قيامهم باعتصام شهير[٥٥] .

٤ – الموريسكيون ذوو الأصول الأراغونية ، وكان هؤلاء قد تشبعوا بالثقافة المسيحية على الأقل فى الظاهر ، وكانوا يقولون إنهم يعملون بالتجارة مثل المدجنين القُدامى ، بينما كان " الغُزاة" أهل حرب[٥٦].

وقد أرسى ابن خلدون قاعدة أن أهل الريف أكثر شجاعة من أهل المدن [٥٧]، لكن السكان الذين يعملون بالزراعة ويسكنون بجوار المدن كانوا يخضعون لسلطة أهل المدن[٥٨] . ويبدو أن الحياة فى غرناطة كانت تسير وفق هذه القاعدة ، ففى المدينة (التى كانت تعتبر شبيهة بمدينة فاس) كانت هناك عائلات مرفهة تقيم فى بيوت تختلف باختلاف فصول السنة ولديها بيوت للتنزه فى غوطة غرناطة[٥٩] . لم يشأ الموريسكيون الأثرياء أن يتورطوا فى أعمال العنف ، بل كانت حياتهم مرفهة ، ورغم أنهم كانوا

يكرهـون المسيحيـين فى أعماقهـم فقـد كانوا يحاولـون إخفـاء ذلك الشعـور ، بل والتخفيف منه(٦٠) . وخلال الثورة كانت مشاركة هؤلاء فيها محدودة جدا . لكن ثرواتهم أذكت روح الجشع والحسد(٦١) . كانوا يتاجرون على نطاق واسع مع بلدان بعيدة ، وكانوا يوفرون فـرص عمـل للفقـراء الذين كانوا يعمـلون حمارين أو نقالين أو حرفيين أو صنّاعًا أو فى تجارة التجزئة(٦٢). كان حرير غرناطة سببًا فى تكوين ثروات كبيرة ، لكن الموريسكيين - إلى جانب كونهم صُناع حرير - كانوا نساجين مَهَرة ونجارين...إلخ. وكانوا يعملون وفقًا لنظم تختلف عن نظم أمثالهم من المسيحيين. وقد رأينا كيف حافظ الملكان الكاثوليكيان فى البداية على النظام الإسلامى الخاص بالحرف(٦٣) . كان المسلمون الذين يسكنون المدينة فقراء بشكل عام ، وكانوا يدفعون بأبنائهم للعمل متدربين لدى الصناع مقابل أجر(٦٤) . كان بعض زعماء الثورة حرفيين معروفين ، فكان فرج بن فرج صبّاغًا ، ولهذا كانت له علاقات فى جميع أنحاء المملكة(٦٥). وكان ابن داود كذلك صبّاغًا (٦٦). إن الدور الذى لعبه بعض صناع البرادع وشمّاع يُدعى الإديليت El Edelet وبنّاءٌ يُدعى فرانثيسكو بن آدم (٦٧) كان دورًا بارزًا. تحت قيـادة كل هؤلاء كـانت هناك جمـوع من الصناع والمتدربين تتلقى منهم التعليمات(٦٨) ، وعندما طُرد أهل البيازين " رحل شباب وشيوخ ومعهم صناع كانت المدينة فى حاجة إليهم ورَحَلَ أناس من أهل الفضل " (٦٩).

ومنذ عام ١٥٠٠ تقريبًا وحتى عام ١٥٥٠ كانت القرارات المتعلقة بتنظيم الحياة فى مدينة غرناطة تعكس رغبةً كبيرةً فى التوفيق بين الفريقين ، رغم أن منافسة العمال المسيحيين القُدامى للموريسكيين كانت تتخـذ طابعًا أكثر حـدة بمـرور الوقـت . إن القرارات البلدية الصادرة عام ١٥٥٢ تعكس روح العمل تلك ، رغم أنها لا توضح تنظيم الصناع الموريسكيين ودورهم فى المقاومة ، وهم يختفون وراء فضائل مسيحية كالتصدق والإحسان(٧٠). لقد كان هناك مستشفى موريسكى له اسم مسيحى وكان يُستخدم فى الاجتماعات والتآمر (٧١).

من السهـل أن نفترض أن وجود وجهين لكل وظيفة كان يؤدى إلى مشاكل ، وأن وفرة إنتاج الموريسكيين كان يقلق الصناع المسيحيين الذين وفدوا إلى المدينة . لكن الرغبة فى إزالة تلك التوترات كانت واضحة ، وهكذا ، ففى احتفال الموكب - وهو

احتفال كان يجرى فى غرناطة بوقار شديد – كانت هناك رايات تظهر بنظام خاص مبنى على الحرف لا على الأجناس: فى البداية كانت تسير راية صنّاع السلاح والسكاكين ثم صنّاع الحرير والخياطين والنجارين والبنائين والنساجين والإسكافيين والدبّاغين ورعاة الغنم والحدّادين والبستانيين وأصحاب الحانات وأصحاب الفنادق والعطارين والصباغين وصانعى الأوانى وبائعى الملابس (٧٢).

إن قرارات عام ١٥٥٢ تتضمن مسميات لأربع وسبعين حرفة ، فى كثير منها كان هناك طراز مسيحى قديم وطراز موريسكى(٧٣) . ولا تخلو تلك القرارات من أسماء عربية لحرف وإشارات لصناعات إسلامية(٧٤) . ففى القرارات الخاصة بالنجارة – على سبيل المثال – هناك إشارة إلى تجارة الزخارف(٧٥) وهناك فقرات تشير إلى خلاخيل المسلمات (٧٦) والمسامير الموريسكية (٧٧).

لم تكن عاصمة المملكة فقط هى التى يتواجد فيها حرفيون كثيرون ، بل كان ذلك الأمر موجوداً فى مدن أخرى أيضاً ، ففى أوخيخار Ujijar على سبيل المثال منح الحدادون وصناع الأحذية والخياطون الأمان للمسيحيين المحاصرين بعد استسلامهم إبان الثورة (٧٨). لكن هذه الأحداث التى تعكس وجود صداقة ومودة هى أحداث لا تعبر عن الواقع الذى كان موجوداً. إن النصوص الأكثر تعبيراً عن الواقع هى النصوص التى تشير إلى الحرفى الموريسكى كمسلم متمسك بدينه ويشعر بكراهية نحو المسيحى ، تلك الكراهية التى يمكن أن تكون ذات دوافع اقتصادية. إن أسماء وحرف زعماء الثورة تكفى للدلالة على ذلك.

كانت هناك عناصر أخرى من السكان أقل أهمية وسنتحدث عنها بإيجاز .
إن الحياة الصناعية فى غرناطة – مثلها فى ذلك مثل مدن كثيرة فى شمال إفريقيا – يبدو أنها ظلت لعدة قرون مبنية على أساس الحرف(٧٩). لكن بالإضافة إلى تخصيص الشوارع والميادين والبوابات كانت هناك فى المدينة محلات ، أصحابها أشخاص متواضعون. إن صورة ذلك الموريسكى الذى يبيع أشياء رخيصة – وهى صورة شبيهة بتلك التى نراها فى المدن المغربية – كانت صورة مألوفة حتى فى القرن السابع عشر(٨٠). وكان الجدل أو الفصال يُسهم فى أن تكون غرناطة أرخص المدن الإسبانية من حيث أسعارها(٨١). وكانت المحاصيل التى تأتى من غرناطة ومن المناطق القريبة منها وفيرة (٨٢).

٥ – الموريسكى الفلاح والموريسكى ساكن الجبل :

اشتهر الموريسكيون كزارعى بساتين شهرة ذائعة ، وقد عُرِفَ عنهم تفوقهم على المسيحيين القُدامى فى هذا المجال . يقول ناباخيرو فى وصفه لغرناطة : " إن الموريسكيين لا يتزايدون ، بل يتناقصون ، وهم الذين يمتلكون الأراضى المزروعة بأشجار مختلفة ، وإن الإسبان – فى غرناطة وفى بقية أنحاء إسبانيا – ليسوا من الصنَّاع المهرة ، ولا يزرعون الأرض عن رغبة"(٨٣) .

حول هذه النقطة ينبغى أن نكتب بعض التعليقات . عندما يتحدث المؤرخون المتعاطفون مع العرب عن ازدهار الزراعة فى إسبانيا على يد العرب يجب أن يكون حديثهم بالتحديد عن البساتين. ومن بين الاختلافات بين الموريسكيين والمسيحيين القُدامى التى أشار إليها المؤرخون يبرز موضوع استغلال الأراضى. وهناك نصوص عديدة تبرز فيها عداوة المسيحيين القدامى من زارعى المحاصيل لزارعى البساتين الذين كانوا يعتنون بريِّها وبزراعة أشجار متنوعة فيها ، بل إن بعض المؤلفين الذين أشاروا إلى تلك العداوة عبروا عن كراهيتهم للبيئة التى توجد فيها البساتين. إن الراهب ماركوس دى غوادالاخارا مثلاً يحدثنا عن وادى ريكوتى فى مرسيه وسكانه من الموريسكيين فيقول : " فى هذا المكان توجد الأراضى التى ذكرناها وتكثر فيها أشجار الليمون والبرتقال وكل أنواع الموالح ، لكن هذه الأماكن لا يوجد فيها خبز ولا أى شىء ضرورى لحياة الإنسان، والمكان غير مناسب للإقامة ولهذا فإن سكانه فقط هم الذين يعيشون فيه وهم راضون ، فكلهم ينحدر من أصول إسلامية " (٨٤).

ومن المفيد أن نقارن رأى الراهب ماركوس برأى مثقف وناقد لكنه يحب بلده ولا يتردد فى إعلان أن بساتين مرسيه هى أفضل شىء فى إسبانيا(٨٥) . لكن الراهب ماركوس لم يكن الوحيد الذى يقول ذلك. إن أنثار كاربونا – وهو مسيحى قديم من أراغون – كان يعتبر زراعة البساتين أدنى مرتبة ضمن مراتب الزراعة. إنه مدافع عما يمكن أن نسميه " أسطورة الشعير" التى ألحقت بإسبانيا كثيراً من الأضرار(٨٦) . وهناك راهب آخر كان من أنصار طرد الموريسكيين – وهو بليدا – عارض ما قاله ناباخيرو وعارض كل منْ ذهب إلى أن تأخُر إسبانيا فى الزراعة كان بسبب طرد الموريسكيين . يقول بليدا إن المسيحى القديم أصلح للزراعة من المتنصرين حديثًا (٨٧).

لنضع كل واحد فى مكانه الصحيح ، لنقل إن الموريسكى كان زارعاً للبساتين وإن المسيحى القديم كان متخصصًا فى زراعة القمح والشعير. إن زارع البساتين الموريسكى الغرناطى هو شخص يكثر ذكره فى الأدب ، ويمكن أن نذكر قصة "حوار بين كلبين" لثيربانتيس، فهى قصة تتضمن فقرة مناهضة للموريسكيين(٨٨). كانت البساتين الموجودة حول المدينة ملكًا للأثرياء فى معظمها منذ عصر ملوك بنى نصر.

إننا نعلم على سبيل المثال أن أم وأخوات وزوجة أبى عبدالله الصغير كانت لهنّ فى غرناطة والبشرات ممتلكات كثيرة ومعاصر للزيوت وطواحين غلال وأفران ومحلات وفنادق...الخ ، لكن لاشك فى أن ما حزنوا على فراقه عند رحيلهم كانت البساتين الجميلة والحدائق والتى استولى عليها مسيحيون من ذوى النفوذ (٨٩) .

وإذا خرجنا عن نطاق غرناطة وغوطتها فإن الناظر كلما توغل فى المناطق الجبلية يُدرك أن خشونة الناس تزداد. إن الموريسكيين الأكثر إقدامًا كانوا من سكان البشرات، أما أكثرهم رقة فى التعامل فهم سكان ماركيزية ثينيتى(٩٠) والبنيويلاس(٩١). ربما كان أهل البشرات هم آخر منْ تقبّل الإسلام فى الجنوب ، وكانوا هم أيضًا آخر منْ تقبّل المسيحية بعد سقوط غرناطة .

كانوا يتحدثون العربية مختلطة بلهجات عديدة. إن فرانثيسكو نونييث مولاى فى مذكرته التى قدمها احتجاجًا على قرارات يناير عام ١٥٦٧ يقول : " كم من الأشخاص موجودون فى هذه المدينة وفى قرى خارجها لا يتحدثون اللغة العربية إلا وكل منهم له لهجة مختلفة عن الآخر بحيث أنك بمجرد أن تسمع شخصًا من البشرات يتحدث تعرف أنه من البشرات؟ لقد وُلد هؤلاء الناس وتربوا فى أماكن صغيرة ولم يسمعوا اللغة الإسبانية أبدًا وليس هناك من يفهمها إلا القسيس والعريف ، وهؤلاء يتحدثون دائمًا بالعربية." (٩٢).

يشير مولاى هنا إلى التقسيمات التى ظلت شائعة إلى اليوم فى البشرات وفى الأراضى المجاورة لها والتى يُطلق عليها " طاعة " وهو اسم حاول الباحثون الوقوف على أصله(٩٣). كانت "الطاعة" أرضًا تضم ألفًا أو ألفين من الرعايا الخاضعين بالقوة ، وكان هؤلاء يُطيعون قائدًا فى أمور الدنيا ، أما فى أمور الدين فكان لهم فقيه(٩٤) .

كانت " الطاعات " التابعة للبشرات التى يذكرها مارمول ويصف بعضها هى : أوخيبا ، بوكيرا ، فريرا ، خوبيليس ، السهل الكبير ، السهل الصغير ، أوخيخار ، بيرخا ، أندراكس ، دالياس ، لوشار ، مارشينا (٩٥).

كان لكل " طاعة " عدة قرى، وكانت كل قرية تتضمن عدة أحياء ، واللفظ بالإسبانية يوحى بأنها كانت بيوتًا ريفية منعزلة(٩٦)، وقد فقدت الأحياء - " حارات " باللغة العربية - أسماءها فى بعض الأحيان. وكان من المعتاد أن تكون هناك مزارع أو ضياع(٩٧). وكان لكل حى جامع ، أى مكان تُعقد فيه الاجتماعات الدينية و " رابطة " و مقابر ، وفى بعض الأحيان كانت هناك حمامات(٩٨) .

٤ - الريف وتنظيماته :

كانت " الطاعات " عند سقوط غرناطة ممتلكات دارت حولها التكهنات. رأينا كيف أن أبا عبدالله الصغير امتلك بعضاً منها كتعويض ، وقد حظى مسلمون من الوجهاء التابعين له على تعويضات مماثلة من قبل الملكين الكاثوليكيين(٩٩) . وقد استمر نظام الإقطاعيات المجزَّأة فيما بعد. لكننا نستطيع أن نقول إنه حتى وقت أن كان أبوعبدالله ملكًا صغيراً كانت ممتلكاته متوسطة بالنسبة للإقطاعيات فى إسبانيا .

ولكى تتكون لدينا فكرة عن حجم إقطاعياته الأخيرة يمكننا أن نطالع قائمة ممتلكاته التى باعها عندما قرر (أو أُجبر على) الرحيل إلى إفريقيا. يعترف أبوعبدالله نفسه أن بيرخا ومارشينا كانتا تدران عليه خمسين ألف عملة سنوياً. وكانت أندراكس ولوتشار تدرَّان عليه سبعة وأربعين ألف عملة سنوية ، وكانت خوبيليس تدر عليه دخلاً قدره ثلاثون ألف عملة سنوياً ، أما أوخيخار فكانت تُدر عليه دخلاً قدره اثنتان وعشرون ألف عملة. بالإضافة إلى كل ذلك كان أبوعبدالله له حق فى كل ميراث ونسبة من العقوبات المالية التى تفرضها المحاكم...إلخ ، كل هذا بالإضافة إلى الهبات. علينا أن نضع فى الاعتبار أن العملة **pesante** كانت منذ سنوات تعادل عشر بزيتات فضية وأن الملكين الكاثوليكيين قد منحا أبا عبدالله الصغير واحداً وعشرين ألف عملة قشتالية ذهبية تعويضا له(١٠٠) . بعد ذلك بسنوات - ولدى طرد الموريسكيين من إسبانيا - كان

دوق غانديا سيداً على غانديا وأوليبا وفوينتيديو ومورلا (فى مملكة فالنسيا) وكانت له سلطة على ستين ألف شخص ، وقد وصل دخله السنوى إلى ١٣٥ر٢٥ عملة فالنسية وثمانى عملات sueldos . وقد أدى قرار طرد الموريسكيين إلى تقلص ثروة الدوق فأصبحت ٣٤٩ر١٥ عملة فالنسية وثمانى عملات sueldos رغم أنه أخذ يستعيد وضعه الاقتصادى بالتدريج[١٠١] .

كانت إقطاعيات غرناطة إذن أقل أهمية ، ففى وقت اندلاع الثورة مثلاً كانت "طاعة" مارشينا كلها خاضعة لدوق ماكيدا ولعمدتها غريخالبا[١٠٢] ، لكن مارشينا لم يكن بها سوى خمسمائة رب أسرة[١٠٣] . كان حوض نهر بولوبوى ملكًا لكلٍ من دييغو دى كاستيا صاحب غور والسيد بلاس دى بييدما عمدتها [١٠٤] ، وكانت سالوبرينيا ملكًا للسيد دييغو راميريث دى أرو [١٠٥]، وكانت غواخاريس ديل فوندون ملكًا للسيد خوان شاباتا وهو من غرناطة[١٠٦] ، وكانت قرى غاليرا وأورثى ملكًا للسيد إنريكى إنريكيث ، وهو من باثا [١٠٧] ، وكانت أورخيبا ملكًا للسيد غابرييل دى كوربوبا[١٠٨] . وكان السيد خوان دى تورى حاكمًا لماركيزية ثينيتى ، وهو من غرناطة ، وكان فى نفس الوقت عمدة لكالا أورا التى كانت حصنًا للماركيزية[١٠٩]، وقد تولى المنصبين نيابةً عن سيده. وقد ظلت بعض القرى الصغيرة فى أيدى عائلات موريسكية كانت تشكِّل طبقةً من النبلاء سابقًا مثل عائلة بالور.

كان سادة الموريسكيين – أيًا كان أصلهم – يرغبون فى عدم إزعاج المسلمين بل وكانوا يدافعون عنهم. وقد أراد أخ لإنريكى انريكيث أن يدافع عنهم مباشرة فى مناسبة ما ضد الرئيس ديثا فتحدث مع الرئيس اسبينوسا [١١٠]، ويؤكد خنييث بيريث دى ايتا بشكل قاطع أن كثيراً من النبلاء فى بداية الثورة قد قالوا للملك إن ذلك الضجيج "ليس قوياً كما يقولون بل هو بسبب بعض قُطاع الطريق الذين يهاجمون القرى فى البشرات ، وأنه بالإمكان السيطرة عليهم بسهولة ، وعند تطبيق القانون ستعود الأمور إلى الهدوء . إن الفرسان الذين كانوا يقولون ذلك لصاحب الجلالة كانت لهم ممتلكات كثيرة فى غرناطة وفى البشرات فكانوا يزيفون الحقيقة حتى لا يخسروا ممتلكاتهم أو رعاياهم" [١١١].

كان الموريسكيون يؤدون دورهم المعاون كرعايا ؛ فعلى سبيل المثال كان هناك حصن لماركيز كوماريس فى كانياس دى أثينونو ، وكان قائد الحصن غونثالو دى كاركاو ، فلما كتب غونثالو إلى الماركيز عن سوء حالة الحصن أرسل إليه الماركيز ستين جندياً بعتادهم ومعهم الأوامر "بأن يتولى المسلمون إصلاح الجدران ، فقاموا بذلك حيث أرسلوا البنائين والدواب ..." (١١٢). وإذا كان البيت يقع داخل إقطاعية كان صاحب البيت يدفع العشار لصاحب الإقطاعية(١١٣) . إن ثقة بعض السادة فى الموريسكيين قد وصلت إلى حد أن كان أحد الموريسكيين قائداً للقرية(١١٤) ، وقائداً للحصن الذى يحميها ، كما كان الحال فى خيرغال – وهى إقطاعية تابعة لكونت بويبلا – فكان القائد فى الظاهر فرانثيسكو بويرتو كاريرو ، أما القائد الحقيقى فكان ابن مكنون وهو مسلم "(١١٥) .

احتفظ المسيحيون بمنصب قائد البشرات (١١٦)، وكان منهم قائد لكل " طاعة"(١١٧) وكان فى كل طاعة سوق(١١٨) . وفى القرى الصغيرة كان هناك حاجب يختاره الموريسكيون(١١٩) وكان هناك مراجع من الموريسكيين(١٢٠) ، رغم أنه كان هناك أيضًا حُجّاب ومراجعون من المسيحيين(١٢١) وحُجّاب أكبر(١٢٢) وحُجّاب عاديون(١٢٣) من المسيحيين كذلك. ذلك أنه فى منتصف القرن السادس عشر كان هناك فى البشرات عدد من المسيحيين القُدامى يفوق العدد الذى يذكره مولاى ، كما يتضح من كتاب مارمول . كان المسيحيون من أماكن مختلفة ، بل من أقصى الشمال ، ففى بادول على سبيل المثال " كان هناك بيت كبير ، خارج نطاق القرية ، يعيش فيه شخص باسكى من بيرغارا ويُدعى مارتين بيريث أُرويثيغى"(١٢٤) ، وكانت له زوجة وابنة. كان الكثيرون منهم ذوى نفوذ كما هو حال بدرو مونتانييس الذى قتله المتمردون فى ميثينا دى فونداليس(١٢٥) ودييغو لوبيث دى لوغو " صاحب أكبر جزء فى القرية " الكودية فى وادى أندارات(١٢٦) ، وقد قتله الموريسكيون أيضًا . لكن كان هناك أيضًا موريسكيون أثرياء مثل بدرو لوبيث ابن خادمى مراجع كودبا وأحد أهم الوجهاء فى المنطقة(١٢٧) . وقد رأينا(١٢٨) كيف أن كثيراً من المسيحيين قد تزوجوا من موريسكيات ، وفى كنائس البشرات كانوا يختارون للعمل فيها قساوسة ذوى أصل موريسكى من ناحية الأم ممنْ كانوا يجيدون العربية. وقد تعرض هؤلاء وأسرهم للأذى إبان الثورة ، بل وتعرض منْ

كانوا يعيشون فى غرناطة لمشاعر الكراهية. وعندما دخل ابن فرج إلى المدينة أطلقوا على الراهب اليسوعى لقب " كلب مُلحد " لأنه " وهو ابن لمسلمين قد اختار العمل كفقيه للمسيحية "[129] .

٧ - القُرى الصغيرة :

رغم توافد الغرباء على قرى البشرات وعلى المناطق الجبلية إلا أن هذه القرى كانت قليلة السكان - كما هو حالها اليوم - إذا ما قُورنت بقرى أندلوثيا الأخرى . ومنذ القرن السادس عشر ورغم التغييرات فى عدد السكان إلا أن الكثافة السكانية فى تلك القرى لم تتغير ، رغم أنه بعد طرد الموريسكيين كانت هناك أزمة سنتحدث عنها فيما بعد.

وهكذا فقد كانت تابيتى قرية يقطنها مائة رب أسرة[130] كما يقول مارمول، ولم يزد عدد سكانها عن ١١١ رب أسرة عام ١٨٤٩ طبقًا لما يذكره مادوث الذى يقول إن القرية كان بها مائة بيت وأربعمائة نسمة[131] . كانت البيوت متلاصقة ، وكان لها شكل مميز - لايزال موجوداً إلى اليوم - فحتى فى الأماكن المرتفعة هناك أسطح منازل لها فى مجموعها أشكالٌ مكعبة لونها أبيض[132] وتبرز هذه البيوت فى جوانب الجبل.

لكن هذه الأشكال المكعبة ليست متوازية ، فهناك أسطح منازل ملاصقة لأساسات منازل مجاورة [133] - كما فى غاليرا زمن الحصار - وبين مجموعة بيوت ومجموعة بيوت أخرى هناك مساحات خالية وتبدو للعيان من بعيد تقسيمات الأحياء. وهكذا تبدو قرية بالور بجزئيها العلوى والسفلى كدرجات سلم[134] ، وتمتد قرية بتريس أسفل جبال سيرا نيبادا وفيها ثلاثة أحياء[135] ، وقرية غويخار بها ثلاثة أحياء كذلك بينها قمة عالية بها حصن [136]. كان مارمول على وعى تام بأشكال القرى[137] وقد ترك لنا تفاصيل عنها : فقد حدثنا مثلاً عن ميادين بتريس[138] والمنكب[139] وغاليرا[140] ويخين[141] بعد ذلك بقرون عندما مرّ كاتب - مُولع بألوان وبلاغة الرومانسية - بالبشرات تحدث عنها فأبرز الطابع الإسلامى للقرى[142] . يبدو أن هذه الأحياء موغلة فى القدم لأن المستعربين يذكرون لنا تفسيرات لأسماء القرى لا تتفق مع طبيعة اللغة العربية ،

وإنما تتفق مع طبيعة اللغات اللاتينية ذات الأصل البعيد: فيريرا ، بامبانيرا ، بوكيرا ...إلخ هي أسماء ربما ترجع أصولها إلى نصارى الأندلس كما يؤكد بعض الباحثين[١٤٣] . بعض الأسماء يبدو أنها تشكّلت طبقًا للمعمول به في الثقافة اللاتينية عند إطلاق الأسماء على القرى[١٤٤] . وهناك أسماء أخرى تبدو غريبة تطرح مشاكل معضلة للباحثين عن أصول المدن. لكن القرى الجبلية ساعدت المسلمين إلى أقصى حد على ممارسة حياتهم العائلية الجامدة. إن البيت أو الدار كان يُلحق به مساكن أخرى بحيث أن مجموع هذه البيوت كان عبارة عن وحدة عائلية أو "أهل" [١٤٥].

" جبل خشن ، وديان سحيقة ، جبال شاهقة الارتفاع ، طرق ضيقة ، شِعاب ووهادٍ بلا مخرج" ، هكذا كان وصف أورتادو دي مندوثا للبشرات ، وقد وضع ذلك الوصف على لسان ابن خكوار[١٤٦] . كانت الأجزاء الجنوبية من جبال سيرا نيبادا والأجزاء الشمالية من جبال كونترابييسا – ولا تزال – أقل صلاحية من غيرها للحياة فيها . كان يحدث فيها نفس ما كان يحدث في شمال كاستيا ، فالشمال كان أكثر خطراً وأقل صلاحيةً للحياة فيه.

٨ – الأعمال :

تُشكل الأماكن الجبلية الجزء الأعظم من مملكة غرناطة وهي صالحة للزراعة ، بل وكانت أكثر صلاحية للزراعة فيما مضى. إننا لا نكاد نجد كاتبًا عربيًا في العصور الوسطى لم يتغن بفضائلها. ومن بين فضائل غرناطة التي يعددها الرازي نجد وفرة ثمارها من البرتقال إلى البندق والرمان[١٤٧] . وتحدثنا كتب التاريخ الإسبانية عن الزراعات التي تعرضت للهجوم في أوقات الحرب والتي كانت في زمن السلم تُسهم في رواج التجارة وتنتج ما يكفي لدفع الضرائب والجزية . إن " الهدية" التي كان سُفراء غرناطة يقدمونها عادة لملوك قشتالة كانت عبارة عن أحمال (ثمانية أحمال في عهد خايمي الثاني) من البلح والتين وعين الجمل والبرقوق وقصب السكر[١٤٨] وفي أحواض الأنهار كانت تُزرع النباتات التي تحتاج إلى مناخ معتدل[١٤٩] والتي أُحضرت منذ قرون من الشرق : البرتقال والليمون وقصب السكر [١٥٠]، وقد قدم لنا مارمول صورة

عن أحياء غرناطة والمرية وملقة الأكثر تضرراً من جراء ثورة الموريسكيين من حيث الأضرار الطبيعية والإدارية والاقتصادية[١٥١] . وسنتحدث الآن عن ذلك .

رأينا كيف أنه كان هناك إجماع على الاعتراف بمهارة الموريسكيين الغرناطيين كزراع[١٥٢] . يقول أورتادو دى مندوثا إن أهل البشرات كانوا يُستغلون كل مساحة الأرض ولم يكونوا يتركون أى فراغ[١٥٣] . وكانت طريقتهم فى الزراعة شبيهة بالطريقة التى نراها اليوم فى الأماكن التى عاشوا فيها. كانت الأراضى تُقسم إلى أحواض متدرجة فى الارتفاع[١٥٤] ، وكانت ترويها قنوات مياه موزعة توزيعاً جيداً[١٥٥] . وكان توزيعها يخضع لمعايير ثابتة[١٥٦] . كان الموريسكيون مهرة فى رى الأراضى وخاصة فى أورخيبا[١٥٧] وفيريرا وبوكيرا حيث كانت محاصيل القمح والشعير والحنطة والذرة الرفيعة تعتمد على الرى [١٥٨]. وكان هناك نظام جيد فى بيرخا أيضاً يعتمد على المياه القادمة من جبال غادور[١٥٩] وكانت أندراكس – كما يقول مارمول – " أفضل أراضى البشرات كلها "[١٦٠] ، وكان الموريسكيون يجمعون المحاصيل ويحفظونها فى مخازن تحت الأرض[١٦١] .

وإلى جانب زراعة المحاصيل التى نعرفها كان الموريسكيون يزرعون محصولاً له اتصال وثيق بالعادات الإسلامية : " الحنَّاء" ، وهى " ورقة مثل ورق الريحان لكنها أضيق " وكان المسلمون يحبونها جداً ، وكانت زراعتها تحتاج إلى عناية خاصة ، وكانوا يزرعونها فى حوض نهر بولوبوى[١٦٢] . كان المسلمون يتخضبون بها ، وكانوا يشدون بها جلد الوجه ، وكانوا – رجالاً ونساءً – يصبغون شعورهم بها. وقد حُظِرَ استعمال الحناء فيما بعد باعتباره من شعائر الموريسكيين . لم يعد أحد يزرع الحنَّاء بعد طرد الموريسكيين لكن هناك محصولاً آخر ظل يُزرع ، وكان من أفضل مصادر دخل أهل البشرات : إنه التوت.

كانت زراعة التوت وتربية دود القز مما يميز أهل البشرات حتى بعد طرد الموريسكيين . كان هناك حرير ممتاز فى أورخيبا[١٦٣] وفيريرا وبوكيرا[١٦٤] ، ولم يكن هناك حرير على نفس الجودة فى خوبيليس[١٦٥]. أو فى السهلين[١٦٦] أو فى مارشينا[١٦٧]. بل إن حرير أوخيخار كان أقل جودةً من حرير الأماكن المشار إليها [١٦٨] – كما يقول

مارمول – وأقل جودة من حرير بيرخا [١٦٩] وأندراكس[١٧٠] ودالياس[١٧١] ولوشار[١٧٢] وحوض نهر بولوبوى[١٧٣] . وفى الشمال كان يشتهر حرير المرية[١٧٤] وحوض المنصورة[١٧٥] . وكان الحرير يُصنع كذلك فى أدرا[١٧٦] وسالوبرينيا[١٧٧] وفى جبال بنتوميث[١٧٨] وماربيا[١٧٩] غرباً . وكان يُصنع الحرير فى الشمال فى غواديكس[١٨٠] وفى ماركيزية ثينيتى [١٨١] وفى وادى لكرين[١٨٢] . كان هناك فى كل قرية مفتش أو " حافظ " للحرير[١٨٣] ؛ فقد كانت الضرائب على هذا الإنتاج من أهم مصادر دخل الملوك[١٨٤] فى عصر بنى نصر. يقول مارمول إنه فى عصر فيليبى الثانى كان الدخل الملكى من صناعة الحرير يصل إلى ٦٨ عملة مرابطية أى ٥٠٠ر١٨١ دوقية [١٨٥] ، وهكذا استطاع نونيث مولاى فى مذكرته أن يقول إن " الملك يحصل على دخل من غرناطة أكثر من دخله من أية مملكة أخرى"[١٨٦] .

كانت تجارة الحرير تؤدى إلى استمرار علاقة الفلاحين الموريسكيين بمدينة غرناطة ؛ فقد كانت غرناطة أكبر مركز تجارى وصناعى . كانت صناعة الحرير توفر فرص عمل كثيرة وتؤدى إلى وجود معاملات ، وتركز القرارات الصادرة عام ١٥٥٢ على تنظيم تلك الصناعة[١٨٧] . كان القيِّم على صناعة الحرير و نظار الحرير هم الذين يتولون مسئولية الإدارة العُليا لتلك الصناعة التى ذاع صيتها[١٨٨] والتى كان لها أثر أكبر مما يظن الكثيرون على بلاد إسلامية بعيدة ، لكن الصناعة تدهور مستواها شيئاً فشيئاً. فى عصر دولة بنى نصر كانت هناك فى غرناطة سوقٌ مركزيةٌ للحرير يفد إليها الكثيرون من مختلف أنحاء العالم . كان المبنى المخصص للمعاملات (وهو لا علاقة له بالمبنى الموجود حالياً) هو القيصرية وفيها كان يُباع الحرير المصنوع والحرير الخام والأقمشة والمشغولات الذهبية والكتّان...إلخ[١٨٩] .

تقول مصادر القرن السادس عشر إن الحرير كان يخرج من هنا لكى يصل إلى مدن الصحراء وشواطئ النيجر ؛ ففى رواية كادا موستو لرحلاته نقرأ أن بدو الصحراء كانوا ينقلون إلى أسواق الجنوب أقمشة حريرية صُنعت فى غرناطة وتونس، وهناك كان البدو يشترون العبيد السود والذهب. كان العبيد يتم تجميعهم فى هودن Hoden ثم يتم ترحيلهم إلى برقة وصقلية وتونس والموانى الغربية فى شمال إفريقيا ومنها إلى مملكة غرناطة[١٩٠] . هذه الدورة التجارية انتهت فى القرن السادس عشر ،

وهنا يكمن السبب فى أزمة صناعة الحرير. يقول ناباخيرو إن أقمشة غرناطة فى ذلك الوقت لم تكن على المستوى الذى يمكنّها من منافسة أقمشة فينيسيا. يعترف ناباخيرو بأن القطيفة والصوف لم تكن سيئة ، لكنه يقول إن تلك الأقمشة كانت أفضل جودة فى فينيسيا (١٩١). رغم هذه الأحكام إلا أننا يجب أن نعترف بجمال بعض الأقمشة الموريسكية ، ومن المناسب أن نذكر أنه بعد الثورة مباشرة استمرت الصناعة. إن وفرة الحرير وصلت إلى درجة أنه فى أوائل القرن السابع عشر كان معظم أهل غرناطة – رجالاً ونساءً ، نبلاء وسوقة – يرتدون ملابس حريرية : كان الرجال يرتدون الحرير ذا اللون الأسود ، وكانت النساء يرتدين الحرير ذا الألوان الجميلة (١٩٢).

يؤكد إنريكيث دى خوركيرا أنه فى شبابه ، فى عام ١٦١٤ ، كان هناك ثلاثة آلاف شخص يعملون فى صناعة الحرير ، وأن المنافسة الإيطالية التى أدت إلى الأزمة قد حدثت بعد ذلك(١٩٣) وأن الأزمة قد تفاقمت فى القرن الثامن عشر مع تقدم الصناعة الفرنسية(١٩٤) .

وفى القرن التاسع عشر جاء التدهور فى أعقاب عدة محاولات للإصلاح. وفى وقتنا الحاضر هناك كبار فى السن جدا يتذكرون السنوات التى كانت فيها المصانع تعمل فى أوخيخار وغيرها فى حالة متردية(١٩٥) .

لنرجع إلى عصر أورتادو دى مندوثا ومارمول

إن معاملات أهل البشرات الذين كانوا يفدون إلى غرناطة قد أسهمت إلى حد كبير فى التخطيط والإعداد لقيام الثورة(١٩٦) . كانت هناك لحظة فكرت السلطات ساعتها فى إخلاء المدينة ممنْ لا يُقيمون فيها(١٩٧).

لكن كان من الصعب السيطرة على أهل البشرات. كان منهم منْ يعمل بالرعى والتنقل فى منطقة أوروبا الجنوبية (١٩٨). فى مناطق بوكيرا وفيريرا كانت هناك مراعٍ صيفية ، وفى الشتاء كانوا يذهبون إلى دالياس أو إلى موتريل وسالوبرينيا(١٩٩) بحثاً عن مناخ ملائم . وكانوا يهبطون من جبال بنتوميث شتاءً ويتوجهون إلى حقول بيليث ملقة(٢٠٠). وفى أعلى الجبل حيث ميناء ثاليا كانت هناك مراعٍ يسميها المسلمون " حقل الرعاة ": وهى ثافارايا كما تُسمى اليوم(٢٠١) . كانت مراعى سيِرانييادا وفيرة وخصبة،

لدرجة أن الملوك المسلمين وأسرهم قد حصلوا منها على دخول كبيرة. بعد ذلك منح الملكان الكاثوليكيان نصف تلك المراعي إلى كونت تنديا ، وقد منح الكونت بدوره نصف حقه إلى رهبان دير كونثبثيون بغرناطة عام ١٤٩٥[٢٠٢] .

كان من بين زعماء الموريسكيين أناس يفضلون الرعي على الزراعة. يقول أورتادو دى مندوثا عن ابن أبو إنه " كانت تشغله تربية الماشية أكثر مما يشغله اللعب " [٢٠٣].

إذن فقد كان الجبل يسكنه أناس يحترفون الرعي وأشخاص يعملون في مجال النقل وتُجار يلتقون بهم . بين الحين والحين كانت هناك صفقة تتم. إن أصحاب الفنادق – وهم أناس ليسوا محل ثقة كبيرة – كانوا مستقلين إلى حدٍ ما ووصلوا إلى حد الثراء مثل صاحب فندق بدرو ميادو الذى يقع بالقرب من ميناء ثاليا والذى يروى مارمول[٢٠٤] قصة نهايته المأساوية على يد الموريسكيين[٢٠٥]. كانت هناك أيضاً حانات صغيرة أقل أهمية من الفنادق ، ويبدو أن تلك الحانات كانت فى بعض الأحيان مسرحاً لقصة رومانسية.

أعتقد الآن أننى يجب أن أنهى هذا الفصل الذى عرضتُ فيه صورة كاملة للوضع الاجتماعى والاقتصادى للموريسكيين . فى الفصل القادم سأتحدث عن الجوانب الروحية.

هوامش الفصل الثالث

(١) أول محاولة لتوضيح هذه المبالغات نجدها في :

Sempere y Guarinos, IV, pags. CVII- CXVII

(٢) Marmol. Pag 174. (Lib. III, cap. IV)

(٣) Marmol. Pag 209

(٤) Marmol. Pag 133 (lib. I, cap. IX)

هناك آخرون يذكرون شيئاً مشابهاً ، لكن الكتابات التاريخية بشكل عام ليست صادقة. إنها تتفق عموماً فيما يتعلق بالفرسان المسلمين. أما الأرقام الخاصة بالمشاة فتختلف. في القرن الرابع عشر كانت الأرقام المعتادة هي ٦٠٠٠ - ٧٠٠٠ فارس. في كتاب " تاريخ الملك ألفونسو العاشر " ص ٢٢٥-٢٢٦ (الفرسان الذين يقودهم أوثمين) وفي صفحة ٢٢٨ يذكر سبعة آلاف فارس قادمين من إفريقيا . وفي بداية القرن الخامس عشر نجد ٥٠٠٠ - ٧٠٠٠ فارس مع اختلاف عدد المشاة . وفي كتاب " تاريخ الملك خوان الثاني" ص ٢٩٠ (عام ١٤٠٧) نجد سبعة آلاف فارس ومائة ألف من المشاة ، وفي صفحة ٣١٨ (عام ١٤١٠) نجد خمسة آلاف فارس وثمانين ألفاً من المشاة ، وفي صفحة ٤٩٨ (عام ٤٣١) نجد خمسة آلاف فارس ومائتي ألف من المشاة. إن المؤرخين اللاحقين كانوا يبالغون أيضاً، وقد اتصفت بالمبالغة كذلك تلك الكتابات التي تحدثت عن أمريكا فأدت إلى كثير من البلبلة.

(٥) Marmol. Pag 226

في المذكرة التي قدمها مونديخار (ص ١٦) يذكر فيها أن عدد الموريسكيين يصل إلى سبعة آلاف وخمسمائة ، وأن عدد من يستطيعون حمل السلاح ربما يصل إلى عشرة آلاف وهو أمر مختلف تماماً.

(٦) Tomás González, pag. 369

لدراسة تاريخ غرناطة في القرن العاشر. انظر :

Torres Balbas: *Extensión y demografía de las ciudades musulmanas,*

وهو يتحدث عن ٢٦ ألف نسمة ، برغم أن أورتادو دي مندوثا (ص٨) يذكر أدلة نقلاً عن شيوخ مسلمين قالوا إن عدد بيوت المدينة وصل إلى سبعين ألفاً.

(٧) Marmol. Pag. 210

(٨) Núñez de Prado, fol. 464 r.

(٩) Marmol. Pag. 212

(١٠) Tomás González, pag. 110

(١١) Tomás González, pag. 369:

والحديث عن نظام توزيع ثمانيةملايين والذى تم عام ١٥٩٠

(١٢) Censo español...., *Cuadros*, XII y XV.

(١٣) Tomás González, pag. 369.

(١٤) Censo español...., *Cuadros*, XII

(١٥) هناك الكثير من الكتابات فى وصف غرناطة ، وإذا تركنا الأنباء جانبًا (وقد ذكرهم بورين فى كتابه ص ٤٩ – ٥٤) فإن بإمكاننا أن نتحدث عن وصف غرناطة فى العصر الإسلامى وستتحدث عن ذلك فى الملاحظة رقم ١٨، وعن الوصف فى عصر النهضة : انظر ناباخيرو وأورتادو دى مندوثا ، أما فى القرن السابع عشر فإن وصف بيرتاوت لم يقدم شيئًا جديدًا.

(١٦) انظر مقالها "ذات مساء عند مدام جيوفران" ص ١٠١ : "فى إسبانيا، وبشكل خاص فى غرناطة، يحتاج المرء إلى التحلى بقدرات خاصة لكى يعيش ، ...." .

(١٧) حول هذه الأشعار انظر غارثيا غوميث " ابن زمرك ط ... ص ١٧٢ – ١٧٣ .

(١٨) إن عادات أهل غرناطة كما يصفها ابن الخطيب قد نشرها ميخائيل الغزيرى فى لغتها العربية (الجزء الثانى ص ٢٥٥ – ٢٥٩) وفيها وصف لغرناطة ، وقد تُرجِمَ ما كتبه ابن الخطيب عدة مرات ، وكانت أولى الترجمات إلى اللغات الحية هى ترجمة سوينبورن Swinbume ص ١٦٤ – ١٦٧، ثم ترجمة لافوينتى الكانترا إلى الإسبانية [انظر أيضًا غاييغو بورين ص ٧٩–٨٢ وقد نقل ترجمة نص ابن فضل ص ٧٦–٧٩ فى وصف المدينة] وهناك إشارات دقيقة لكل ذلك فى كتاب" ابن زمرك" لغارثيا غوميث ، ص ١٧٣

(١٩) كل المؤلفون القُدامى تقريبًا يتذكرون أصل الكلمة. انظر مثلاً : ناباخيرو (ص ٦٣، ص٦٧) ، مارمول (ص١٣١) لكن يبدو أن اسم البيازين كان يُطلق على الأرباض خارج حدود الأسوار ، وأن هناك "بيازين" فى Alhama وانتيكيرا وباثينا على الأقل. انظر : Steger, pag. 304

(٢٠) Navajero, pag. 67, Marmol. Pag. 133

(٢١) *Crónica de Juan II*, pags 331 (año 1410, cap. XXXV)

بعد ذلك بسنوات بعد استسلام خيمينا كان هناك خمسمائة رب أسرة أو اكثر ، منهم ١٣٠ فارس. انظر : *Crónica de Juan II*, pags.494 (año 1431)

(٢٢) Marmol. Pag. 145 (lib.1. cap. XVII)

إن الكُتّاب يتحدثون عن المجتمع فى أوج الحرب الأهلية حين كان كل حى له دور خاص : انظر على سبيل المثال الأحداث التى يرويها فيرنانديو ديل بولقار (الجزء الثانى ، ص ٢٥٣ – ٢٥٧) والخاصة بعام ١٤٨٧

(٢٣) Marmol. Pag. 131 (lib.1, cap. VI)

يذكر مارمول أربعة عشر بابًا ، ويذكر إنريكيث دى خوركيرا ثمانية عشر بابًا. لكن – كما هو الحال فى فاس وتطوان ومدن مغربية أخرى إلى عهدٍ قريب – كانت هناك أبواب للأحياء الداخلية. انظر :

J. y M. Oliver Hurtado pp. 614 - 615.

Luis de la Cueva: *Diálogo segundo*

المؤلف تعليقات هامة حول أسوار المدينة. وفي " الحوار الثالث " يقول: كانت المدينة قديماً مقسمةً إلى ثلاثة أجزاء وربما كان هذا هو السبب في أن لها ثلاثة أسماء ، وحتى الآن يمكننا أن نرى الآثار التي توضح تقسيم المدينة التي تحيطها الأسوار. كان أحد الأجزاء يُسمى القصبة، أما الجزءان الآخران فيفصل بينهما سور يمر عبر كونثبثيون Concepción ولاتزال تُرى آثاره إلى الآن ".

(٢٤) Gongora: romance XXXII. Pag. 515-516

(٢٥) Swinburne, pag. 188-197.

(٢٦) انظر الملاحظة رقم ٧٠ في الفصل الثاني

(٢٧) Al Razi, pags. 66-68

Al Himyari, pag 30

يتحدث دوزي في كتاب " تاريخ المسلمين الإسبان " (الجزء الرابع) بشكل مستفيض عن يهود غرناطة في العصور الوسطى ، ويرسم صورة لكل من صموئيل وخوسيه هاليفي وهما يحكمان المملكة في وقت من الأوقات انتهى بمذبحة اليهود. لكن بعد ذلك بقرون كَثُرَ اليهود في المملكة. والدليل على كثرتهم هو أنه بعد قرن ونصف من طردهم من إسبانيا كان هناك أشخاص يجوبون الشوارع – مظهرهم متواضع ويحترفون التجارة – وهم يرتدون زي المذنبين بعد أن أدانتهم محكمة التفتيش. يتحدث عن ذلك بالومينو في كتابه عن ألونسو كانو الذي كان يحرص على عدم مخالطة اليهود لدرجة أنه كان يرفض ارتداء ثوب لبسه يهودي. انظر : Palamino: *Parnaso español* pags 994 - 995

(٢٨) انظر الملاحظتين ٦٩ ، ٧٠ في الفصل الثاني

(٢٩) Ibn Battuta, IV, pag. 373

(٣٠) *Crónica de Alfonso XI*, pag 259

(٣١) Marmol. Pag 161

(٣٢) Marmol. Pag 221

Marmol. Pag 165

(٣٣) يقول مارمول في حديثه عن جلسة النواب التي عقدها فيليبي الثاني في طليطلة عام ١٥٦٠ " إن النواب قد علموا بالأخطار التي قد تترتب على وجود عبيد سود من غينيا لدى الموريسكيين ، إذ كانوا يعلمونهم دين محمد ، وهكذا كان الشعب الموريسكي يتزايد ، ولهذا فإن النواب يطلبون من صاحب الجلالة نزع ملكية الموريسكيين للعبيد السود ". إن عبيد غينيا السود الذين هربوا من الحقول ولجئوا إلى غرناطة – بعد غزوها بقليل – قد أرهقوا إيرنانديز دي ثافرا. انظر : Codoin, XI pag. 482.

(٣٤) هكذا هرب ابن أمية ومعه زوجته وأحد العبيد السود. انظر : Marmol. Pag 188

(٣٥) J. Sauveget, pags. 123 - 141

عدد النقوش الموجودة على المقابر الملكية التي قرأها هذا المؤلف يصل إلى عشرة، وقد عثر عليها فيجاو ، منها أربعة لاشك في أصلها الإسباني (ص١٢٣) ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين. يرجّح المؤلف ألا تكون النقوش قد كتبت في غينيا بل أن يكون قد أوصى أحد بأن تُكتب في المرية.

(٣٦) Marmol. Pag.338

(٣٧) Pérez de Hita pag. 594

(٣٨) ألف دييغو خيمينيث دى انثيسو (١٥٨٥ – ١٦٣٤) مسرحيةً يروى فيها قصة حياة ذلك المثقف الأسود ، وقد استخدم فيها فصولاً من حروب الموريسكيين، وقد نشر إدواردو خوليا مارتينيث هذه المسرحية منذ سنوات قليلة (ص ١٤١-٣٥٦). إن الأحداث والشخصيات تظهر دون ضوابط. والإجراءات التى أدت إلى ثورة الموريسكيين يذكرها دوق سيسا لابن أمية (ص ١٧٤-١٧٥) فيدافع ابن أمية عن العادات الموريسكية وهو دفاع قدمه فى الحقيقة دونبيث مولاى الذى يظهر فى المسرحية كقريب لابن أمية.

(٣٩)) Bermúdez de Pedraza: *Antiguedad y excelencias de Granada*, folios 138-129 (lib. III, cap. XXXIII)

(٤٠) Marmol. Pag. 192

(٤١) Marmol. Pag. 192

(٤٢) Marmol. Pag. 195

(٤٣) Marmol. Pag.234

الرواية التى يعرضها غوميث مورينو – فى طبعته النقدية لكتاب أورتادو دى مندوثا – تذكر شيئًا هامًا. "هناك فى البشرات تسير جموع كبيرة من المسلمين ومعهم قسيسان أحدهما يُدعى توريخوس ... يثق فيه الأسقف كثيراً ويقولون إنه ابن لأم مسيحية وأب موريسكى، والقسيس الآخر لا يُعرف اسمه". يذكر فيما بعد أن ذلك القسيس كان وسيطًا.

(٤٤) Marmol. Pags. 185, 192

كان سواريث يطلق عليه لقب " رسول الأمة ".

(٤٥) Pérez de Hita pag. 604

(٤٦) انظر الملاحظة رقم ٨٠ فى الفصل الرابع

(٤٧) لقد قطعوا رأس شخص يُشبه ابن أمية ويُدعى " المولى" انظر نفس المصدر ص ٥٩٧

(٤٨) Pérez de Hita pag. 636

من الغريب قلة منْ تظهر أسماؤهم كيهود من سكان البلاد الأصليين خلال الحرب ، ومع ذلك فإن بيريث دى إيتا نفسه يحدثنا عن " مسلم عجوز يُدعى خيميث وينحدر من أصل يهودى ".

(٤٩) Núñez Muley, pag. 220

Marmol. Pags. 161, 165

(٥٠) تعنى كلمة " غازى" رجل حرب وهى مشتقة من كلمة " غزوة".

(٥١) Núñez Muley, pag. 214

(٥٢) Marmol. Pag 278

لأنهم كانوا يرون أنه لا ينبغى أن يُعاملوا كالموريسكيين لأنهم كانوا تابعين الشعب المسيحى وهم فى أوج مجدهم ، ولأن أجدادهم قد حاربوا إلى جانب الأمراء المسيحيين حين كان بمقدورهم أن يكونوا خلف الملوك المسلمين.

(٥٣) انظر الملاحظة رقم ١٧ فى الفصل السابع.

(٥٤) كان بعضهم شهيراً في عصره. نذكر على سبيل المثال خيل مايرى في كتاب Crónica del halconero، أي السيد بدرو بنيغاس وهو ابن السيد إيغاس، سيد لوكي Luque، وبالإمكان الاطلاع على تفاصيل حياته في كتاب لافوينتي الكانترا (ص ٢٢٣-٢٤٦) وقد استند إلى الوثاق الموجودة في أرشيف ماركيز كوربيرا Corvera، ويطلق عليه اسم إيلشي Elche، يستخدم بيرو تافور نفس الاسم ويقول كوباروبياس أن كلمة إيلشي في اللغة العربية معناها (المتحول). وكان المتحولون عن دينهم الذين يعيشون في المغرب في سنوات لاحقة يطلق عليهم نفس الاسم. ومن أكثر النصوص وضوحاً في هذا الشأن كتابات الراهب دييغو دي توريس وكتاب مارمول ... *Descripciones*، فهو يتحدث عن محمد الإيلشي تاجر من جينوفا دخل في الإسلام ... وكان هؤلاء الداخلون في الإسلام عنصراً عسكرياً مفيداً لسلاطين المغرب. انظر :

Relación de las guerras de Africa y muerte del Rey Muley Xeque, que estuvo en España.

انظر أيضاً الملاحظة رقم ١٢ في الفصل الثامن.

(٥٥) Marmol. Pag. 154

ولأنه شاهد من بعيد فقد كان يروي الأحداث بتفاصيل أكثر. انظر كذلك :

Lorenzo de Padilla, pag. 55-58

Juan de Vallejo, pag. 36

Alenso de Santa Cruz pags. 191-193

Hurtado de Mendoza, pag. 9

Guerra de Lorca: *Catecheses mystapogicae*, fol 89r.

(٥٦) Covarrubias, pag. 950

يُشير إلى أن اسم "الثغرى "Tagarino" كان يُطلق على الموريسكيين القُدامى الذين تربوا وسط مسيحيين في أنحاء قشتالة وأراغون، وكان هؤلاء يُجيدون لغتنا ولغتهم بحيث لم يكن من السهل تمييزهم والتعرف على هويتهم إلا أنهم كانوا يعيشون في أحياء خاصة ". ويقول ثيربانتيس في رواية كيخوتي إنهم في بلاد البربر يُطلقون اسم Tagarino على مسلمي أراغون، ويُطلقون اسم "المدجنين" على أهل غرناطة، وأن صفة elche تطلق على الغرناطيين المقيمين في مملكة فاس. وكلمة Tagarino قريبة من كلمة "ثغور" العربية. انظر:

Levi Provençal: *L'Espagne musulumane au Xe siecle*, pags. 118, 121, 127.

ومن بين زعماء الثورة نجد اسم " الثغرى " انظر: Hurtado de Mendoza, pag31.

ويبدو أن أعداد هؤلاء كانت كثيرة لدرجة أنه في كتاب : *Nueva recopilación* pag. 252

هناك قرار صدر عام ١٥١٥ يحظر دخول مدجني قشتالة وأراغون وقطالونيا إلى مملكة غرناطة .

(٥٧) Ibn Jaldun, pags. 263-264

(٥٨) Ibn Jaldun, pags. 316-317

(٥٩) Marmol. Pag. 134

عند الحديث عن حدائق عين الدمع Aynadamar يقول " إن اثرياء الناس – حين كانت المدينة إسلامية – كانوا يقضون فيها ثلاثة أشهر كل عام يسمونها أشهر الربيع وكانوا يقلدون في ذلك أهل فاس الذين كانوايقضون تلك الفترة في الكروم والبساتين..." إن التشابه بين غرناطة وفاس يتضح كذلك في كتاب *Descripción de Africa*, II, عند الحديث عن الأزياء.

(٦٠) ثراء الموريسكيين الغرناطيين خلال القرن السادس عشر قبل الثورة تدل عليه البيوت الفخمة مثل بيت شابيث وبيوت أخرى يذكرها غابيغو بورين ، وقد أراد ابن أمية أن يبيع بيته بمبلغ ١٦ ألف دوقية.

(٦١) مات أبرز هؤلاء في سجن غرناطة الذي هاجمته الجموع يوم ١٧ مارس ١٥٦٩. يقول أورتادو دي مندوثا (ص ٧٦) : كان في السجن مائة وخمسون موريسكيًا معتقلاً ، بعضهم بحثًا عن الأمان ، وبعضهم الآخر لارتكابه جرائم أو لاتهامه بارتكاب جرائم ... كانوا جميعًا أكثر الناس ثراءً في المدينة، وكانوا من غير حملة السلاح ويعملون بالتجارة ويميلون إلى الترف ، ويصف مارمول في كتابه Descripción سكان فاس بأنهم أهل هوى ، وأنهم لا يتركون الترف ولا يذهبون إلى الحرب إلا رغمًا عنهم.

(٦٢) نسخ لوكاس دي توري رسالة الونسو أوتشوا دي ريبيرا المؤرخة في ١٨ أبريل ١٥٦٩ والتي يروي فيها بالتفصيل مذبحة أولئك الموريسكيين ، ويذكر أورتادو دي مندوثا اسم (لويس) هاردون وكان رجلاً ذا مال على ما يبدو.

(٦٣) انظر الملاحظة رقم ٣٩ في الفصل الأول. يجب أن نتذكر أن هذا الشكل لم يكن معروفًا كالطوائف المسيحية . انظر :

Levi ProvenCal: *L'Espagne musulumane au Xe siecle*, pags. 187-191, *Histoire, de L'Espagne musulmane*, III, pag. 263.

وقد رسم ليفي بروفنسال صورة مضطربة للحياة الاجتماعية رغم سعة اطلاعه ، وعندما نشر ج. بيركي J. Berque نصًا من القرن الثامن عشر حول المسئولية المدنية الحرفي في المغرب قال: "إن عدم وجود نصوص إسلامية غربية (أندلسية) عن أهل الحرف يتفق مع عدم وجود نصوص مغربية عن المجتمعات القروية ".

(٦٤) Marmol. Pag. 168

(٦٥) Marmol. Pag. 174

(٦٦) يطلق عليه أورتادو دي مندوثا (ص٤١) اسم داوث ، أما غوميث مورينو فيشير في طبعته النقدية لكتاب مندوثا (ص٢٠٧) إلى أن ألبارو كارثي كان صباغًا.

(٦٧) Marmol. Pag. 181

(٦٨) في المخطوطة ٧٧٧٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد (ص٢٤) هناك وثيقة تتحدث عن ١٥٠ من الصناع طُردوا من المدينة بسبب الثورة.

(٦٩) Marmol. Pag. 278

(٧٠) هناك ترتيب زمني لكل تلك القرارات في كتاب كوريل هيرشان Curiel Herchan ويذكر المؤلف ٧٧ قرارًا في هذا الشأن صدرت اعتبارًا من عام ١٥٠١ (خاص بالنساجين) وحتى عام ١٥٥٢

(٧١) يركز أورتادو دي مندوثا (ص١٧) على دور مستشفى القيامة الغرناطي ، فتحت ستار طلب الصدقات كانت هناك استطلاعات رأي وتحديد عدد الأشخاص المستعدين للمشاركة في الثورة. يذكر انريكيث دي خوركيرا أن هذا المستشفى قد أصبح فيما بعد المستشفى الملكي.

(٧٢) *Ordenanzas*, fol. cccxv

(٧٣) هذه بعض عناوين "التنظيمات": نساج الحرير ، صباغو الحرير، عمال الحرير، خياطو الحرير، قيّم الحرير، ناظر الحرير، الصباغون، الفحامون، عصارو الزيوت، طحانو القمح، الخبازون، الحاتيون،

الطوانيون، أصحاب وعمال الحانات، أصحاب وعمال الفنادق، الشماعون، صائغو الفضة، صائغو الذهب، أمين الذهب، الصباغون، معلمو المدارس، ناظرو الأقمشة، الخياطون، بائعو الملابس القديمة، بائعو الأحزمة، الدبّاغون، الإسكافيون، الجيّارون، البنّاءون، الحدادون، البستانيون، المنادون، السقّاءون......إلخ.

(٧٤) انظر الفصل الثامن من "التنظيمات"

(٧٥) *Ordenanzas,* fol. cccxxii

(٧٦) *Ordenanzas,* fol., clxxii- clxxiii.

(٧٧) *Ordenanzas,* fol.,ccxlix

(٧٨) Marmol, pag., 198.

(٧٩) يقدم لنا إنريكيث دى خوركيرا لوحة التجارة فى غرناطة خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر يتضح منها أنه رغم مضى سنوات على الثورة إلا أن المدينة كانت لاتزال تحمل طابعًا إسلاميًا فى تنظيمها. كانت أنواع التجارة مقسمة على شوارع، فكانت تجارة السكاكين فى شارع غوميروس، وكانت محلات الأقمشة والحرير فى شارع بيبالبونث ... وكانت محلات الأحذية فى شارع ابن عمار... وكانت هناك شوارع خاصة بالسقائين والصباغين والفحامين والقصّابين والخبازين وصانعى الأوانى والملابس. وكان حى فاخالاوثا يسكنه صنّاع الأوانى الفخارية، وكانت هناك أحياء أخرى يسكنها أصحاب حرف معينون. إن بعض الشوارع ذات الطابع العربى لاتزال تحمل اسماءً عربية : شارع ثاكاتين Zacatín مثلاً هو شارع الملابس المستعملة وإن عقد مقارنة بين غرناطة وفاس – كما يصفها كل من دييغو دى توريس ومارمول – دراسة مفيدة جداً.

(٨٠) يُشير كالديرون دى لا باركا فى مسرحية " الحب بعد الموت" (الفصل الثانى) إلى البضائع التى نجدها عادةً فى دكان موريسكى ، ويقلد كالديرون طريقة الموريسكيين فى الحديث ، وهو ما فعله الشاعر غونغرا أيضاً . انظر الملاحظة رقم ٨١ فى الفصل الرابع.

(٨١) Marmol. Pag. 225

(٨٢) Bermúdez de Pedraza: *Historia eslesiástica*, fols. 184-185.

يذكر بيرموديث دى بيدراثا أسعار عام ١٥٢٠ لكى يؤكد رخص الأسعار فى غرناطة .

(٨٣) Navajero, pag. 73

يقول هـ. كوك بعد ذلك بسنوات فى معرض الحديث عن داروكا : "يؤكدون أيضاً أن البساتين المزروعة من عمل المسلمين، لأننى رأيت فى أنحاء كثيرة من إسبانيا أن هؤلاء الناس يحبون الزراعة أكثر من غيرهم ".

(٨٤) Marcos de Guadalajarra, Prodición....fol 61v.

(٨٥) Francisco de Cascales, pag. 312, 316-317

(٨٦) يقول أنثار كاردونا (ص٦٤) إن أراغون فقيرة " لأن أراضيها الواسعة لم تكن تزرع فيها محاصيل غذائية ، فقد كانوا يكتفون بأشجار التين والكريز والشمام والخيار ؛ وقد أهملوا زراعة الكروم الهامة والزيتون المثمر ، وأهملوا تربية الماشية والجياد وكل الحرف المربحة التى هى أساس الدخل فى الأقاليم" . بالنسبة لأراغون انظر:

María Soledad Carrasco " El problema morisco en Aragón al comienzo del reinado de Felipe II ", en *Estudios de Hispanófila*, II, Valencia 1969.

(٨٧) Bleda, Defensio fidei...pag. 263 y 264

(٨٨) ص ٢٥٠ – ٢٥١ هذا دليل آخر عل أهميته. في المخطوطة رقم ٧٧٧٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد والتي تتضمن وثائق خاصة بالحرب وتقع في ١٧٩ صفحة، في ص ٣ نقرأ ما يلي:

دوق سيسا بالإنابة عن السيد / خوان دي اوستريا بتفويض من صاحب الجلالة.

لما كان كل من خيرومو المالح وألونسو شاكيث وبيبغو إيرنانديث ابنه وغاسبار غوميث – وهم فلاحون موريسكيون ومستأجرون للأراضي التابعة لي – قد أبدوا رغبتهم في الاستمرار في استئجار الأراضي وزراعتها ، وكذلك يحتاجون إلى تصريح مني لكي يمكنهم التواجد في هذه الأراضي والدخول إلى غرناطة والخروج منها، ولكي يمكنهم شراء البذور والأشياء اللازمة للزراعة ، ولما كنت أعلم بأن طلبهم هذا عادل ، وأنه ضروري لخدمة صاحب الجلالة حتى لا تخسر أراضي هذه الغوطة.

(فإنني) بهذه الوثيقة أصرّح لكل المذكورين بالدخول إلى غرناطة والخروج منها والتواجد في المزارع طبقًا لما هو مذكور سابقًا ، وأمر بألا يتعرض لهم أي شخص بمضايقات، أيًا كانت صفته، ولذلك أصدر هذه الوثيقة الموقعة باسمي والمختومة بخاتمنا والتي يوقع عليها كاتبنا في غرناطة بتاريخ ٥ يناير عام ١٥٧٠ "

يعترف غيرا دي لوركا بمهارة الموريسكيين في الزراعة ، ومع ذلك ففي عام ١٥٨٦ لم يكن يؤيد عودتهم إلى أراضيهم الأصلية. هناك رسالة يُشيد فيها فرانثيسكو ادياكيث بتلك المهارة ، وهي مؤرخة في ٣ أكتوبر ١٥٩٤ ومنشورة في كتاب دانبيلا ٢٢٦–٢٢٧

(٨٩) انظر Codoin, VIII, pags. 415-416 كانت بساتين " الملكات المسلمات " المشار إليها في الاتفاقية الموقعة في ١٥ يونية ١٤٩٣ ، ص ٤٥٢ عبارة عن بساتين غريخوب، جناين سيدي موكلين ، جناين سيدي حامد، جناين سيدي علي ، الكانار شنيل ، جناين القاضي ، جناين الفاكاز أو الفراز.

(٩٠) انظر Marmol. Pag 217

يقول عنهم إنهم كانوا أهل ثراء وموضع رعاية ماركيز ثينيتي.

(٩١) يقول أورتادو دي مندوثا (ص٩١): إن البونيويلاس مكان يقع في سفح الجبل عند مدخل بال دي ليكرين تزرع به كل أشجار الفواكه وهو على مسافة خمسة فراسخ من غرناطة وبه ثلاثة أحياء : كل حي يبعد عن الآخر وأهله أكثر مدنيةً وألفةً من أهل الجبل"

(٩٢) انظر Marmol. Pag 165

قارن هذا النص بمذكرة نونييث مولاي (ص٢٢١–٢٢٣) التي تتضمن معلومات كثيرة عن اللغة الخاصة بالمنطقة وبذلك العصر.

(٩٣) *Codoin*, pag. 523

Hurtado de Mendoza, pag. 75

Miguel de Luna, pag. 109

Gayangos: *The History of the Mohammedan dynasties in Spain* pag. 46

Gómez Moreno: *De la Alpujarra*, pag. 23

(٩٤) Marmol. Pag. 189

يقول مارمول : إن " طاعة" لقب أطلقه الأفارقة على المدن ، وكلمة " طاعة " تعنى رأس القبيلة الإفريقية ، رغم أن البعض يُطلق الاسم على القرى الخاضعة. يقول بعض الموريسكيين إنهم سمعوا من آبائهم وأجدادهم أن جبال البشرات كان يسكنها أناس متكبرون ويصعب إخضاعهم ، وإن ملوك المسلمين قد عالجوا هذا الأمر بتقسيم أهل البشرات إلى مجموعات ، وعهدوا بكل مجموعة إلى أحد الوجهاء ثم بعد ذلك أرسلوا قادة من غرناطة ومن أنحاء أخرى ومعهم محاربون حتى يستطيعوا السيطرة عليهم. وكان على رأس كل مجموعة قائد يُطيعه ألف أو ألفان ، وكان لها فقيه يُفتيهم فى أمور الدين.

(٩٥) Marmol. Pag 189

Bermúdez de Pedraza: *Antiguedad y excelencias de Granada*, fol21

Hernandez de Jerquera,

Gémez de Moreno: *De la Alpujarra*, pags.23-26

يحاول غوميث مورينو الحصول على أكبر قدر من التفاصيل حول " الطاعات " بالرجوع إلى مخطوطات عربية.

هناك رسالة بعث بها الراهب إيرانو دى تالابيرا إلى الملكين الكاثوليكيين بتاريخ ٢٤ أبريل (١٤٩٣؟) هامة بالنسبة لدراسة الوضع الاقتصادى فى البشرات . انظر :

Codoin, XI, pags. 519-525

فى أول يناير عام ١٤٩٤قدم إيرناندو دى ثافرا إلى الملكين الكاثوليكيين مشروعًا يقضى بتأجير أراضى البشرات " لحُجَاب مسلمين" . انظر *Codoin*, XI, pags. 466-525 . فى رسالة أخرى ثالثة نجد أن المسيحيين قد دخلوا المنطقة كمشترين لممتلكات وأراضٍ (٤٨٤ – ٤٨٥)

(٩٦) Marmol. Pag. 189

تتحدث الكتابات التاريخية القديمة عن القرى. انظر

Crónica de Juan II, pags 279 (año 1407) y pag. 297 (año 1407)

يقدم كوبارروبياس (ص١٠٤) التعريف الشائع فى الوقت الحالى وهو " بيت منعزل فى الريف" ، أما غوميث مورينو (ص٢٤) فيتبع تصريف مارمول.

(٩٧) انظر الملاحظة رقم ٦٧ فى الفصل الثانى. لاحظ أنه حتى مارمول يذكر أسماء مثل حارة البيار (ص١٩١) فى فريرا، وحارة ابن موسى، وحارة الحاجب (ص٢٠٢) فى اندراكس وحارة فقط (ص٢١٢) فى وادى ليكرين. ويتحدث مارمول كذلك (٢٤٠) عن مزرعة كبيرة فيما يبدو لماركيز مونديخار وتقع بين المنكب ولوبيرا ، حول القرى التابعة لغرناطة. انظر مارمول (ص٢٢٤). فى صفحة ٢٤٠ يتحدث مارمول عن المسلمين اللاجئين إلى مضيق غواخارا فيستخدم تعبيراً خاصاً : " كانوا يجوبون الأراضى وينهبون الحقول ويقطعون الطرق المؤدية إلى الحامة وغواديكس وغرناطة ، وكانوا يقتلون المارة ويحرقون البيوت الموجودة فى المزارع ويقتادون الماشية "

(٩٨) حول أسماء الممتلكات الريفية باللغة العربية هناك دراسات قيمة لأوليفر أسين ، وبالنسبة للروابط والحمامات ...إلخ. انظر غوميث مورينو: *De le Alpujarra*, pags 24-25

(٩٩) انظر الملاحظة رقم ٢٤ فى الفصل الأول. وقد حصل وزيره الذى باع له ممتلكات على "طاعة" داليلس وممتلكات أخرى. وقد حصل أبوالقاسم المالح أيضاً على بعض الممتلكات، وكان أبوالقاسم ابن سراج مالكاً لطاعات فيريرا وبوكيرا، وكانتا تدران عليه دخلاً قدره ٠٠٠ر١٢ عملة، بينما كان أبوالقاسم بين زيد مالكاً لطاعة بولوبوى، وكانت تُدر عليه دخلاً قدره ستة آلاف عملة. انظر: *Codoin* , VIII, pags. 446-448

(١٠٠) Codoin , VIII, pags. 442-443

(١٠١) Danvila y Callado, pags. 301-302

(١٠٢) Marmol, 206

(١٠٣) يذكر غوميث مورينو (ص٣٥) تسع قرى ويقدر نونييث ديل برادو عدد من تم تسكينهم فيها بـ ٣٣٥ رب أسرة.

(١٠٤) Marmol. Pag 207

(١٠٥) Marmol. Pag 208

Hurtado de Mendoza, pag. 163

يقول إنه كان القائد.

(١٠٦) Marmol. Pag 214

Hurtado de Mendoza, pag. 54 y 266 - 268

(١٠٧) Marmol. Pag 299

أو كانت ملكاً لدوق سيسا . انظر Hurtado de Mendoza, pag. ٢٢٦

(١٠٨) Marmol. Pag 184

أو كانت ملكاً لدوق سيسا كما يقول أورتادو دى مندوثا (ص٤٣٧)

(١٠٩) Marmol. Pag 217

(١١٠) Marmol. Pag 168

(١١١) Pérez de Hita pag. 595

(١١٢) Marmol. Pag 264

(١١٣) قام المسيحيون فى أويسكار بحبس الموريسكيين الذين يشكلون خطراً فى بيت كبير يسمونه ترثيا كانوا يجمعون فيه العشار الخاصة بدوق ألبا ومحاصيل أخرى كالقمح والشعير والزبيب والكتان والقنب. انظر بيريث دى ايثا (ص٦٤٥)

(١١٤) Covarrubias, pag. 71

(١١٥) Marmol. Pag 212

(١١٦) Marmol. Pag 198

(١١٧) Marmol. Pag 190

عند اندلاع الثورة كان قائد أورخيبا غاسبار دى سارابيا المدافع الشهير عن البرج. ويقول أورتادو دى مندوثا (ص٣٧) إنه كان قائداً عينه دوق سيسا.

(١١٨) يُشير غوميث مورينو إلى أسواق البشرات التى تظهر في الساحات. أولها سوق أورخيبا (ص٢٤) وهناك حى كان له اسم ذو معنى: "حارة السوق" فى بالور وكان أكبر أحياء أوخيخار يُسمى "السوق" (ص٢٨)، وفى بيرخا أيضًا كان هناك حى يُسمى "السوق" (ص٣١) أما سوق أنداراكس فكان فى الأوشار Alauxar (ص٣٣)

(١١٩) Marmol. Pag 190

(١٢٠) Marmol. Pags.202-203

(١٢١) Marmol. Pag 267

(١٢٢) Marmol. Pag 197

ظهر المنصب خلال ولاية إيرنانو دى ثافرا. انظر: *Codoin XI*, pag. 523

(١٢٣) Marmol. Pag 190

كان هناك حُجّاب أيضًا فى أواخر القرن الخامس عشر. انظر : *Codoin XI*, pag 534

لكن يبدو أنهم كانوا مسلمين

(١٢٤) Marmol. Pag 287

(١٢٥) Marmol. Pag 193

(١٢٦) Marmol. Pag 203

(١٢٧) Marmol. Pag 203

(١٢٨) انظر البند رقم ٣ فى الفصل الثالث

(١٢٩) Marmol. Pag 185

(١٣٠) Marmol. Pag 226

(١٣١) Madoz, XIV, pag. 545

(١٣٢) انظر الفصل الثامن والنصوص الخاصة بالملاحظتين رقمى ٦٤، ٦٥

(١٣٣) Marmol. Pags. 310

فى صفحة ٢١٦ يتحدث مارمول عن أسقف إستان

(١٣٤) Marmol. Pag. 194

Hurtado de Mendoza, pag.38

(١٣٥) Marmol. Pag 232

(١٣٦) Marmol. Pag 262

(١٣٧) يقول – مثلاً – إن مارخينا حى قريب من دوركال (ص٢٢٠) ويرى أورتادو دى مندوثا أيضًا أنها مجرد أحياء مثل لوخار (ص٢٨)

(١٣٨) Marmol. Pag. 192

(١٣٩) Marmol. Pag.215

(١٤٠) Marmol. Pag 700

(١٤١) Marmol. Pag 349

(١٤٢) Alarcon: *La Alpujarra*, pag. 103

يصف ألاركون منازل قرية بثار فيقول إنها فقيرة غالبًا وذات طابع موريسكى ، كما يصف قرية أورخيبا (ص١٦٥) وقرية الفرنون (ص٢٥٢) ...الخ

(١٤٣) Simonet: *Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes* pags. 211-212

Menendez Pidal: *Orígenes del español*. Pags. 89-90

(١٤٤) نعنى هنا إضافة حروف " ana " إلى الاسم ، مثل " شوريانا " انظر :

Marmol. Pag141

Hurtado de Mendoza, pag. 17

ومثل فينيانا (أورتادو ، ص ١٢٩) وفريخيليانا (أورتادو ، ص٩٧) بوبيانا (مارمول ، ص١٤٣) أنظر كذلك Serafin Calderón: *Geografía arabigo-hispana*, pags 313-314

(١٤٥) Marmol. Pag 132, 133, 134

(١٤٦) Hurtado de Mendoza, pag. 22 y 30

يبدو أن هذا الوصف هو الذى اعتمد عليه خوان روفو فى كتابه La Austriada,pag6 ويأتى وصف كالديرون دى لا باركا فى مسرحيته "الحب بعد الموت" المشهد الأول من الفصل الثانى ص (٦٨٧) أكثر دقةً.

(١٤٧) انظر كتاب الرازى طبعة غايانغوس (ص٣٧) كانت "الطاعات" المرتفعة غنية بالأشجار المثمرة كالكمثرى والتفاح. يذكر ذلك مارمول (ص١٩١) فى معرض الحديث عن بوكيرا وفيريرا. أما فى الأماكن الأقل ارتفاعًا فكانت تزرع أشجار البرتقال والليمون (يذكر ذلك مارمول فى صفحة ١٨٩ عند حديثه عن أورخيبا) وفى الساحل خاصة فى سالو برينيا ، كان يُزرع قصب السكر. انظر مارمول صفحتى ٢٠٨ – ٢٠٩

(١٤٨) انظر Crónica de Juan II, pags 334 (año 1407)

فى الكتاب إشارة أيضًا إلى هدية إلى المستشار (ص ١٥٠٠) إن هذه الوقائع تشهد على وفرة محاصيل الجنوب. تتحدث الكتابات التاريخية الخاصة بخوان الثانى عن أشجار الزيتون والبندق والكروم والبساتين فى ملقة ، كما تتحدث (ص ٢٩٤ الخاصة بعام ١٤٠٧) عن حقول القمح والشعير وأشجار التين ، وفى الوقائع التاريخية الخاصة بالملك ألفونسو الحادى عشر (ص ٢٩٦– ٢٩٧) نجد إشارة إلى إتلاف الحبوب والكروم والبساتين فى رونده وأرشيدونا وانتيكيرا. انظر أيضًا إيرناندوى دى بانيثا (ص١). إن صناعة الزبيب (التى اشتهرت حديثًا) كانت موجودة فى أوساط الموريسكيين ، ليس فقط فى ملقة بل فى غرناطة أيضًا. انظر :

Alonso de Herrera : *Agricultura general*, pag. 67

يُشير المؤلف إلى الطريقة التى كان يحفظ أهل غرناطة بها محصول العنب فى عناقيد منفصلة مُعَرضة للهواء فوق الأسطح.

(١٤٩) Crónica de Juan II, pags 5r7 (año 1434)

(١٥٠) يبدو أن تاريخ إدخال بعض هذه المحاصيل إلى أوروبا يعود إلى القرن العاشر، فقد كانت هذه المحاصيل نادرة حتى فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية الإسلامية

(A. Mez., pags. 514 - 515) حول الزراعة فى القرن العاشر . انظر :

Levi Provençal: *L'Espagne musulumane au Xe siecle,* pag. 167 y 172 - 174.

(١٥١) Marmol, pags. 188/189,Orgiva

(١٥٢) انظر الجزء الخامس من هذا الفصل.

(١٥٣) Hurtado de Mendoza,pağ. 29

(١٥٤) Marmol. Pags.234-235

(١٥٥) Marmol,pags. 263-264

يذكر مارمول سواقى بنتوميث Bentomiz

(١٥٦) يتحدث مارمول (ص١٣٤ .) عن النظام الصارم الذى كانت تدار به شئون سواقى ألفاكار Alfacar فى غرناطة ويشير إلى أنه كان سببا لمآسى السكان.

(١٥٧) Marmol, pag.189

(١٥٨) Marmol. Pag., 191

(١٥٩) Marmol, pag.,201

(١٦٠) Marmol, pag., 202

(١٦١) Marmol, pag., 308

(١٦٢) Marmol, pag., 207

(١٦٣) Marmol, pag.,189

(١٦٤) Marmol, pag.,191

(١٦٥) Marmol, pag.,193

(١٦٦) Marmol, pag.,194

(١٦٧) Marmol, pag., 205

(١٦٨) Marmol, pag., 196

(١٦٩) Marmol, pag., 201

(١٧٠) Marmol, pag., 202

(١٧١) Marmol, pag., 204

(١٧٢) Marmol, pag., 205

(١٧٣) Marmol, pag., 207

(١٧٤) Marmol, pag., 210

(١٧٥) Marmol, pag., 275

(١٧٦) Marmol, pag., 201

(١٧٧) Marmol, pag., 208
(١٧٨) Marmol, pag., 264
(١٧٩) Marmol, pag., 215
(١٨٠) Marmol, pag., 212
(١٨١) Marmol, pag., 217
(١٨٢) Marmol, pag., 212
(١٨٣) يُشير مارمول إلى مقتل خوان دى ثبيرا حافظ الحرير فى بيتريس Marmol. Pag.192
(١٨٤) يُشير مارمول (ص٢٦٧) إلى أنه فى كوبيتا والأراضى المجاورة لها كان مارتين الحاجب هو المسئول عن توزيع الضرائب التى يدفعها المسلمون واليهود المقيمون فى أراضٍ مسيحية إلى الملوك
(١٨٥) Marmol. Pag 134
(١٨٦) انظر Núñez Muley, pag. 214

للوقوف على صناعة الحرير ونماذجها والحصول على بعض البيانات الخاصة بها يمكن مراجعة
Gonzalo de las Casas: *Arte nuevo para criar seda*, pag. 382-411

عاش هذا المؤلف فى القرن السادس عشر ونُشر كتابه عام ١٥٨٧ ويُشير إلى أن إيرنان كورتيس قد حمل معه دود القز إلى أمريكا. وفى عام ١٥٣٥ قام أنطونيو دى مندوثا " كشخص تربى فى غرناطة وعلى دراية بأهمية صناعة الحرير ... قام بدعم هذه الصناعة بحماس حتى بلغت المستوى الرفيع الذى هى عليه الآن". انظر ص ٣٨٤ من المصدر السابق.

(١٨٧) انظر الملاحظة رقم ٧٣ فى الفصل الثالث.
(١٨٨) *Crónica de Alfonso XI*, pag 258
(١٨٩) النصوص المتعلقة بهذه المعلومة كثيرة. يقول بيرموديث دى بدراثا فى " تاريخ غرناطة وفضائلها" ص٢١ : لما كانت هذه المدينة ينتج فيها أفضل أنواع الحرير حيث تكثر صناعته فى البشرات فإن الرازى يُطلق عليها لقب " مدينة الحرير" ، وقد أقام العرب فيها مقراً يُباع فيه الحرير المصنوع فى جميع أنحاء المملكة والمقر اسمه القيصرية ، وقد حرّفنا نحن الاسم فجعلناه " الكيثرية" ويُطلق لوثيو مارينيو على القيصرية لقب " المدينة الصغيرة" وهو محقٌ فى ذلك ، فقد كان لها عشرة أبواب بسلاسل حتى لا يدخل أحد على حصانه ، وكان لها شوارع وحارات .. وكان من المناسب أن تربط خيطًا على الباب حتى تستطيع أن تعود إليه. كانت محلاتها كثيرة لا تُحصى ، وكان يُباع فيها كل أنواع الحرير والذهب والقطيفة والكتان والبضائع الأخرى المتعلقة بها. وكان القيصرية قائد – يُعينه صاحب الحمراء – يتولى حمايتها ويحرسها ليلاً ويتولى فتح الأبواب وإغلاقها وهو مسئول عن نظافتها "

ويتحدث أورتادو دى مندوثا (ص٨٨) عن أصل كلمة القيصرية فيقول إنها تعود إلى كلمة " قيصر" "تقول كتب التاريخ العربية واليونانية إن السبب يرجع إلى كون الحرير يُباع ويُشترى فى جميع أنحاء المملكة حيث سمح الإمبراطور خوستينو للعرب بذلك ، فهم فقط الذين يعملون فى هذه الصناعة والاستفادة منها ، ولما امتد نفوذهم تحت حكم محمد وخلفائه انتشرت معهم صناعة الحرير وأطلقوا الاسم على المقار التى يُباع فيها الحرير ..."

(١٩٠) Cadamosto , pags. 17-18

(١٩١) Navajero, pags. 74 - 75

(١٩٢) Bermúdez de Pedraza: *Antiguedad y excelencia de Granada*, fol.23

إن النساء الجميلات من أماكن أخرى يدّعين أنهن من غرناطة ، فقد كان أهل غرناطة يلبسون الحرير والصوف الجيد بألوان جميلة ومختلفة لكن الرجال كانوا يلبسون الحرير الأسود عادةً ، من الوضيع إلى الكبير ... وكانت النساء يرتدين ملابس حريرية غالية ومطرزة بحيث أن عباءة واحدة فى هذه الأيام يزيد ثمنها عن مهر المرأة فى الماضى.

(١٩٣) Henríquez de Jorquera, I, pags. 88-89

(١٩٤) فى نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر كانت مراكز إنتاج الحرير الذى يستعمله الفرنسيون هى إيطاليا وصقلية وإسبانيا. كان إنريكى الرابع هو الذى فكر فى الفائدة التى تعود على بلاده مـن زراعة التوت وصناعـة الحـرير ، أما وزيره سولى فكان يعتقـد أن هـذه الصناعـة ضارة . انظر : *Economías royales*, pags. 98-104

لاحظ أيضاً أنه فى القرن السابع عشر (عام ١٦٣١ تقريباً) كان حرير الصين ينافس حرير إسبانيا، وهذا ما يُفهم من فقرة وردت فى *Caxa de Leruela* , pag. 68.

(١٩٥) يُشير *Sempene y Guarinos*, IV, pags. CXVIII - CXXI

إلى أن التدهور يعود إلى منتصف القرن السابع عشر

(١٩٦) Marmol. Pags. 182 - 183

يقول مارمول إن غرناطة قبيل الثورة " كانت مليئة بالموريسكيين والغرباء ، الذين وفدوا إليها من كل مكان بحجة بيع الحرير فيها وشراء ملابس لزوجاتهم – لكى يعرفوا موعد قيام الثورة "

(١٩٧) Marmol. Pag. 167

(١٩٨) Pierre Deffontaines: *El Mediterraneo*, pags. 125 - 127

(١٩٩) Marmol. Pag. 191

(٢٠٠) Marmol. Pag. 264

(٢٠١) Marmol. Pag 128

(٢٠٢) *Historia de la casa de Mondejar*, fol. 220

فى هذا الكتاب ترد قصة الهبة والعقد المبرم بين الكونت والرهبان. يُشار فى العقد إلى أن المراعى كانت فى السابق تابعة للملوك وملكات المسلمين ، وأن الجزء الخاص بالكونت تبلغ مساحته ثلاثون ألف متر مربع تنازل عن نصفها بشكلٍ دائمٍ لصالح الدير.

(٢٠٣) Hurtado de Mendoza, pag. 134

(٢٠٤) Marmol. Pag 134

فى صفحة (٢١٥) يذكر مارمول فندقاً على جانب من الطريق المتجه من غرناطة إلى موتريل لا يبعد عن دوركال .

(٢٠٥) يتحدث مارمول (ص ٢٢١) عن أصحاب حانة بادول.

الفصل الرابع

١ - العادات والتقاليد :

عَبَرَ خيرونيمو منزر حدود مملكة غرناطة من ناحية الشرق بين عامى ١٤٩٤-١٤٩٥ فوجد القُرى قد أنهكتها الحرب (مثل بيرا فى المرية) وقرى قد طُرِدَ منها المسلمون ، ولم يكن المسيحيون الذين حلوا محلهم يكفون لمعالجة آثار الحرب [١]. لكن إلى الجنوب، وعلى بُعد ستة فراسخ من بيرا ، كانت هناك مدينة سورباس التى كان كل سكانها مسلمين ، وهو نفس وضع تابيرناس التى لم يكن بها سوى أسرة مسيحية [٢].

كان صوت المؤذن الشجى يرتفع فى الأوقات المعتادة. كانت أصوات المؤذنين تخرج من أعالى المآذن ، حادةً أحيانًا ، قصيرة أحيانًا أخرى. إن الأوروبى الذى يسمع صوت المؤذن لأول مرة يشعر بقشعريرة : فى هذه الأصوات شىء من التحذير. وقد شعر منزر فى أحيانٍ كثيرة بالتأثر عدة مرات لدى سماعه ذلك الصوت " الذى يُشبه الأنين أكثر مما يُشبه الغناء"[٣] . فى ذلك الوقت كانت لاتزال هناك أسر مسلمة كثيرة فى المدن والقرى. كان بعض أفراد تلك الأسر يشعر بالكراهية تجاه المسيحية ، مثل أثاتور الثغرى الذى أُلقىَ القبض عليه بأمر من الكاردينال ثيسنيروس ، وتحول من مسلم متمسك إلى رجل مسيحى بعد الإجراءات غير الرقيقة التى اتخذها معه ذلك الرجل الصارم[٤]. بعد ذلك كان لابد من إخفاء ممارسة الشعائر الإسلامية. واعتباراً من اللحظة التى تم فيها تعميد المسلمين قسراً تحول المسلمون إلى جماعة سرية ضخمة. كان على الفقيه أن يخفى طبيعته بحذر . كان رأس كل عائلة يخفى طبيعته حتى لا يراه الناس كذلك ، وكان على الغنى أن يرتدى ملابس فقيرة ، وكان على المسلم المتعصب أن يتظاهر بحب المسيحية. فى البداية لم تتحمل الشخصيات البارزة ذلك الوضع فآثروا الرحيل. ومن أوساط الأسر التى قررت البقاء والمداراة خرج أفراد

تمـردوا على الوضع بحيث أنه – رغم كل مظاهر التكتم – يمكننا أن نقول إنه خلال ما يزيد على ستين عاماً – هى الفترة التى عاشها مسلمو غرناطة كموريسكيين يُخفون إسلامهم – كانت شعائرهم وعاداتهم هى السائدة، غير أن تلك الشعائر خفت حدتها.

إن الموريسكيين – بالإضافة إلى محافظتهم على أنسابهم وألقابهم – ظلوا يحافظون على النظام العائلى المُتبع فى الإسلام والقائم على سلطة الأب. كانوا يوقرون الشيوخ والكبار، وكانت للآباء سُلطة على أبنائهم. لم يكن من الغريب أن يبيع الفقراء أبناءهم وبناتهم فى حالة الاضطرار، ولم تكن المرأة خارج بيتها لها وزنٌ كبير[٥]. كان أكبر أفراد العائلة سناً بمثابة رئيس العائلة، وكان يُطلق عليه شيخ[٦] أو "Jeque"[٧] بالإسبانية. يقول أورتادو دى مندوثا إن هذا الاسم يُطلق على أكثر أفراد الجيل شرفاً، وكلمة شيخ معناها " الأكثر شرفاً أو الأكبر سناً " هذا الشيخ كانوا يمنحونه سُلطة الحياة والموت[٨] كما يحدث الآن فى شمال إفريقيا حيث تتبع العائلات والقبائل – بل والقرى – نصائح الشيوخ الكبار. وقد كان للشيوخ الكبار سلطة واسعة أثناء ثورة الموريسكيين، وقد اشتركوا فى مفاوضات عديدة [٩]. كانت من بين النصائح مثلاً نصيحة عم ابن أمية فى لحظة حرجة [١٠]. فى الاحتفالات الكبرى يجتمع كل أفراد الأسـرة حتى النساء. وعندما نصّب الموريسكيون الثائرون ابن أميـة ملكاً عليهـم عام ١٥٦٨ اصطف الرجال الأرامل فى ناحية وغير المتزوجين فى ناحية، والمتزوجون فى ناحية، واحتلت النساء المكان الرابع[١١].

ورغم قسوة المعاملة والوضع المتدنى للأولاد والبنات والزوجات فقد كان الموريسكيون مولعين بالاحتفال بالمناسبات العائلية كالميلاد والختان والزفاف والموت[١٢]. ولما كانت هذه المناسبات مرتبطة بشعائر دينية، سواء فى المسيحية أو فى الإسلام، فقد كان الاحتفال بها يجلب للموريسكيين المشاكل والعناء. كان على الموريسكيين أولاً الوفاء بتعاليم الكنيسة. كانت هناك قابلة مسيحية، ثم كان هناك مسيحيون من القُدامى من أهل الثقة يراقبون المواليد [١٣]. كان الطفل إذن يتحمّل شعائر التعميد، وكان من الناحية الرسمية يُطلق عليه اسم ايرنانذو أو ميغيل أو ماريا[١٤]. بعد ذلك كان هناك احتفال إسلامى يهدف إلى إزالة الأثر المسيحى[١٥]. كان الطفل داخل الجماعة الموريسكية يُطلق عليه اسمٌ جميلٌ مجبٌ [١٦]. يقول الراهب ماركوس دى غوادا لا خارا – وكان من أنصار عملية الطرد – إن الموريسكيين كانوا يشعرون بالسعادة

إذا أطلقوا على أحـد أبنائهم اسم " موسى ، أو حامد أو سليمى أو عـلى أو هـاجر أو فاطمة أو كميلة أو عائشة أو سارة "[١٧] . ويقول الأب بليدا – وهو عدو للموريسكيين – إنهم كانوا يفضلون أسماءً معينة مثل " هاشم ، وإبراهيم ، وحامد ، ويوسف ، وهاشم وسيد" للأولاد و " فاطمة ، وعائشة ، وسارة ، ومنى ومريم " للبنات[١٨] .

نتيجة لهذه الأسماء المزدوجة كانت هناك أوضاع غريبة واحتمالات كثيرة ، ففى الروايات الواردة عن ثورة الموريسكيين فى غرناطة نجد ما يلى :

١ – هناك زعماء موريسكيون لهم أسماء وألقاب إسلامية مثل فرج بن فرج [١٩].

٢ – هناك زعماء لهم أسماء وألقاب مسيحية مثل ميغيل دى روخاس[٢٠] .

٣ – هناك زعماء لهم أسماء مختلطة مثل دييغو لوبيث ابن أبو أو فرانثيسكو نونييث مولاى [٢١].

٤ – كان هناك أشخاص معروفون باسم البلد الذى وُلدوا فيه أو الذى يرجع إليه نسبهم مثل السيد إيرناندو دى بالور ، وهو زعيم عائلة ابن أمية بين الموريسكيين وكانت له عائلة كبيرة تُسمى أبناء بالور valoris o valories . كان كبير العائلة يُسمى البالورى valori[٢٢] . وكان هذا بالتأكيد ما أدى إلى تنصيب ذلك الشاب ملكاً . إن الأماكن الأصلية للعائلات جعلت أفراداً ينتسبون إلى عائلات عريقة يستخدمون اسم البلد بدلاً من استخدام اسم العائلة العريق أو الاسم المسيحى. هذه هى حالة خيرونثيو ، القائد الشهير ، الذى كان معُرفًا باسم الأرشيدونى [٢٣]. ويذكر مارمول أسماء " البيثينين " و"العربى "[٢٤] و " الثمبورى " [٢٥] و " الهوثينى " و " الغورى " و " الحبقى "[٢٦] و"البركوشى " و" الماشى " [٢٧].

كان ذلك الوضع شبيهاً بما كان يحدث قبل ذلك بقرون مع نصارى الأندلس(*) ، فقد كان هؤلاء معروفين باسم مسيحى من ناحية ، وباسم عربى من ناحية أخرى .

(*) الوضع مختلف تماماً، فهناك فرق بين استخدام الإنسان اسمين تسهيلاً لمعاملاته (كما حدث مع نصارى الأندلس) وبين أن تفرض السلطات اسماً مسيحيًا على شخص مسلم (كما حدث مع الموريسكيين) ، وكان استخدام نصارى الأندلس للأسماء العربية بمحض اختيارهم ، والدليل على ذلك أنهم ظلوا يحتفظون بالأسماء العربية حتى بعد أن أصبحت بلادهم تحت حكم المسيحيين . (المترجم)

وقد استخدم نصارى الأندلس أسماءهم العربية حتى بعد استيلاء ملوك قشتالة المسيحيين على الأراضي التي كانوا يعيشون فيها (٢٨).

وقد استخدم المدجنون قبل سقوط غرناطة أسماءً مختلطة(٢٩) .

وعلى أي حال فقد كان الموريسكيون يعوّدون الطفل – منذ أن يبدأ الكلام – على توخي الحذر أمام المسيحيين. إن أثنار كاردونا – وهو عدو آخر للموريسكيين – يحكي بعض النوادر التي تعكس موقف الأطفال الموريسكيين الأراغونيين تجاه المسيحيين(٣٠) . كان " النصراني " شخصًا مُحتقرًا ، شخصًا أدنى ، قذرًا ، بلا وازع ، وعديم اللياقة(٣١) . لم يكونوا يكرهون المسيحيين لأسباب دينية فقط ولما تعرضوا له على أيديهم ، بل – أيضًا – لأن عاداتهم مختلفة تمامًا.

٢ – المشكلة الثقافية :

من المناسب الآن أن نسجل بعض الملاحظات عن العادات. هناك نقط كان المسيحيون كلهم تقريبًا يجمعون عليها وهي أنه بما أن شعائر المسلمين كلها متشابهة باعتبارها مبنية على تعاليم القرآن؛ فإن عادات المسلمين وتقاليدهم وفنونهم ووظائفهم متشابهة كذلك. إن الثقافة الإسلامية كانت بالنسبة لهم تشكل وحدةً واحدة وشيئًا واحدًا في المنطقة الممتدة من إسبانيا وحتى بلاد فارس ، فعندما يتحدث خيرونيمو منذر عن المسلمين في غرناطة يقول " إنهم يُغلقون محالهم وبيوتهم بأبواب بسيطة من الخشب ، وبشيء من الخشب يُشبه المسمار ، كما يحدث في مصر وفي إفريقيا لأن كل المسلمين " سواءً ، من حيث العادات والشعائر والأدوات وأماكن المعيشة وكل شيء"(٣٢) بعد ذلك بكثير كان غارثيا دي سيلبا إي فيغيروا موفداً من قبل فيليبي الثالث إلى بلاط فارس وأكّد نفس المعلومة ، ففي حديثه عن مدينة غوا (Goa) يقول : " إن النوافذ لها نفس الشكل الذي نراه في بيوت إسبانيا القديمة أو في الحصون القديمة ، وهذا يُبين أن المسلمين العرب الذين وفدوا إلى الهند هم نفس الذين غزوا إفريقيا وإسبانيا ، وحافظوا على نفس نمط العمارة ونمط الملابس أينما ذهبوا ، فالملابس التي تُستَعمل في جزيرة العرب وفي الهند هي نفس الملابس التي كان المسلمون الإسبان يرتدونها قبل طردهم من مملكة غرناطة "(٣٣).

لم يكن رأى الموريسكيين على هذا النحو ، فهم على الأقل قد أشاروا إلى أنهم لا يرون أن الثقافة الإسلامية واحدة فى هذه الناحية . إن الدافع الرئيسى عن هذه الفكرة هو فرانثيسكو نونييث مولاى – وهو الذى كان الموريسكيون يعتمدون عليه فى الدفاع عن مصالحهم – وقد اعترض على القرارات التى كانت تهدف إلى القضاء على عادات الموريسكيين وتقاليدهم. عندما تحدث مولاى عن الملابس بالتحديد قال " إن ملابس النساء ليست ملابس إسلامية ، بل هى أزياء محلية مثل أزياء قشتالة وأماكن أخرى ..."(٣٤). الملاحظة هنا دقيقة، لكننا – مع ذلك – لا نرى أن مولاى كان مُحقًا تماماً. إن أزياء الموريسكيين وعاداتهم كان يمكن اعتبارها أشياء محلية بالفعل ، لكن المسيحيين كانوا محقين عندما رأوا أن كل ذلك يندرج فى إطار ثقافى كبيرة يختلف عن إطارهم الثقافى الذى تشترك فيه أوروبا الغربية على اختلاف أقاليمها، ذلك الاختلاف الذى كان المسلمون يرونه غير ذى أهمية(٣٥) كان مولاى نفسه فى وضع يمكنه من تمييز الفروق بين أزياء تلسمان Tremcen والمغرب وتونس(٣٦) ، لكن ذلك يرجع إلى ارتباطه بالأسرة الإسلامية الكبرى. أراد مولاى فى دفاعه – وهو هنا يناقض نفسه – أن يقارن بين وضع الموريسكيين فى إسبانيا ووضع المسيحيين فى الشرق الأوسط الذين كانوا يتكلمون العربية ويلبسون كالأتراك، ومع ذلك لم تكن عقيدتهم المسيحية موضع شك(٣٧). لكن دفاع المحامى الموريسكى العجوز لم يُقنع أحداً. أراد مولاى كذلك أن يقول إن رقصة السمرة واحتفالات الزفاف وما شابهها لا تحول دون أن يكونوا مسيحيين ، ولكى يثبت ذلك قال إن الحفلات فى تركيا وإفريقيا مختلفة ، وإن هذه الحفلات عندما كانت تبدأ كان القُضاة والفقهاء يغادرون المكان (٣٨). " إن هذه الاحتفالات – كما يقول – عادة إقليمية ، ولو كانت شعيرة دينية لكانت كل الاحتفالات ذات شكل واحدٍ " (٣٩).

هذه الفقرات تدعونا إلى التمييز بين نوعين من الأفعال : الشعيرة الدينية الواجبة، ثم العادة. لكن علينا أن نقبل أنه بالنسبة للمراقب – خاصةً إذا كان سيئ النية أو إذا كان جاهلاً – لا يمكن التمييز بين الأمرين. إن الشعيرة الدينية والعادة أمران "من أفعال المسلمين " أو "من أفعال المسيحيين". لا يجوز إذن أن ننساق وراء ذلك التقسيم. إن مارمول نفسه – عندما درس حياة الموريسكيين – يقول إنهم عندما يتزوجون كانوا يذهبون إلى الكنيسة ، فتذهب العروس وهى ترتدى ملابس مسيحية بناءً على أوامر

القساوسة ، ثم إنهن كنَّ يخلعن عنهنَّ تلك الملابس بعد عودتهن إلى البيوت ويرتدين ملابس إسلامية ، ويُقمن احتفال الزواج على الطريقة الموريسكية بآلات موريسكية ، ومع تقديم أكلات موريسكية[٤٠] . هذا يعني وجود رابطةٍ ما فى القرن السادس عشر بين طقوس الكنيسة وبين زى المسيحيات القُدامى ، رابطة شبيهة بالرابطة بين شعيرة الزواج الإسلامية وبين بعض الأزياء والرقصات والأكلات . بالنسبة للإنسان العادى – خاصة المرأة – كان شكل العقد أو الخاتم له دلالة دينية معينة[٤١]. يجب علينا أن نقبل فكرة أن أولئك الذين رأوا صلةً ما بين الدين وشكل الحُلى لم يكن بمقدورهم النظر إلى الحُلى بمعزل عن الدين ، وفى وقت كان الموريسكيون يتعرضون فيه للاضطهاد لم يكن الجهلاء من بين الموريسكيين يفرقون بين الشعيرة الدينية الواجبة وبين العادة الموروثة. كانت البنية الاجتماعية والشكل الثقافى شيئين متلازمين ، بل إن بعض مظاهر الحياء كانت مرتبطة بالشكل الاجتماعى . وهكذا فقد كان نشر بعض المسيحيين القُدامى لعورات الموريسكيين يؤدى إلى غضب الموريسكيين الشديد[٤٢].

٣ – الشعائر الدينية :

من المفيد أن نجرى دراسة عن حياة الموريسكيين من واقع ملفات محاكم التفتيش(*)، لا من وجهة النظر الإسلامية [فهذا ما قام به بدرو لونغاس على خير وجه [٤٣]] . بل من وجهة نظر العادات المحلية والفلكلور. لو فعلنا ذلك سنرى بوضوح مدى تأثير الموريسكيين على الموروث الثقافى الإسبانى الخاص بعادات الاحتفال بالمواليد والزفاف والدفن والاحتفالات السنوية.

إن بعض الاحتفالات التى ينسبها علماء اللاهوت المسيحيون إلى الموريسكيين، والتى تميزهم عن غيرهم ، ترجع أصولها إلى ما قبل الإسلام ، بل ويمكن أن نجد

(*) لا يجوز أن نصدق كل ما يذكر فى كتب التاريخ التى وضعها مسيحيون قدامى فى تلك الفترة، فهم يقولون – مثلاً – إن المسلمين كانوا يحتفلون بعيد الأضحى بذبح طفل مسيحى ... إلخ، ونرى أن تلك الكتابات كانت مغرضة وكانت تهدف أساساً إلى الإساءة إلى عادات الموريسكيين وإلى دينهم الإسلامى. (المترجم)

احتفالات مشابهة لها في مجتمعات مسيحية ، وعلى سبيل المثال فإن وضع مواد غذائيـة ونقـود في المقابر(*) عند الدفـن(٤٤) أو الاحتفـال بيوحنا المعمـدان Bautista أو الاحتفال بيناير وهو يوافق " الختان "(٤٥) ، والاحتفال بمناسبات أخرى في التقويم القيصري أو الاعتقاد في حصول الشفاء بفضل مياه عيون محددة (مثل عين كانت موجودة على شاطئ نهر دارو وكان اسمها سالود (**)). يقول بيرمويث دى بيدراثا عن تلك العين إنها تنبع على حافة جبل مونتى سانتو (***) وكانت تُسمى هكذا منذ أيام المسلمين ؛ فقد كانوا يجلُون تلك العين فيغسلون فيها ملابس مرضاهم حتى يُشفوا ، وهذا ما أخذوه عن أجدادهم ، وهذا ما يفعله بعض الموريسكيين إلى اليوم "(٤٦). ويقول مارمول " إذا كانت هناك في شمال إفريقية لاتزال توجد بعض عادات ترجع أصولها إلى ما قبل الإسلام(٤٧) فليس من الغريب أن توجد تلك العادات في غرناطة في القرن السادس عشر. ويذكر أورتادو دى مندوثا بعض العادات الخاصة بالكونت خوليان وغيرها(٤٨) وكانت موجودة في السهلين.

لكن حتى في الجوانب التى لا تتعلق بالدين الصحيح، فقد كان الموريسكى مختلفًا عن المسيحى القديم ، فإذا كان كلٌ من المسيحى القديم والموريسكى يلجأ إلى الشعوذة والسحر (٤٩) والوصفات السحرية و [وهى تشغل جانبًا هامًا في الأدب الألخميادو] إلا أن هناك اختلافًا بين الموريسكى والمسيحى من حيث الوصفات ، وذلك بالرجوع إلى المخطوطات التى درست حتى الآن.

يبدو أن الموريسكى المتدين لم يكن يرى غضاضة في حيازته كتبًا تتضمن كتابات سحرية، ليس فقط من أجل الحصول على منافع يراها المسيحى مشروعة ، بل - كذلك - لأغراض ليست محل اتفاق مثل إطلاق اللسان لمنْ لا يتكلم ، أو لكى يفقد أحد الأشخاص القدرة على الكلام أو لكى يشعر شخص ما بالحب... إننا لا نكاد نجد

(*) إذا كانت شعائر الإسلام الأساسية لا تتغير ، فمن منا رأى شخصًا مسلمًا وضع طعامًا في مقبرة ميت عند دفنه؟ ربما كان الأمر يتعلق بوضع طعام بالقرب من قبر الميت من باب الصدقة حتى يأخذه الفقراء، وهذا لايزال يحدث في كثير من البلاد الإسلامية إلى اليوم. (المترجم)

(**) كلمة سالود salud معناها " صحة " بالعربية. (المترجم)

(***) مونتى سانتو Monte Santo معناها " الجبل المقدس " بالعربية. (المترجم)

جانبًا من جوانب الحياة لا يشمله حرز موريسكي(٥٠) ونجد هذا الساحر الموريسكي كثيراً في الأدب الإسباني. وعلى سبيل المثال يظهر في مسرحية أرميلينا Armelina للوبي دي رويدا شخص يُدعى مولايين بكر ، ورغم أنه يتحدث الأعجمية الإسبانية إلا أنه يستعمل مفردات السحر القديم(٥١) . إن بطل مسرحية " منْ يعمل السوء يلق السوء" لرويث ألاركون(٥٢) يستعمل كتابات أكثر غرابةً ، رغم أنه قد اكتُشف حديثًا أن الكاتب المسرحي الكبير ربما استوحى الشخصية من مُعالِج موريسكي عاقبته محكمة التفتيش(٥٣).

على مدى أكثر من قرن من الزمان عاش الموريسكيون – كجماعة مضطهدة – على أمل تسوقه إليهم النبوءات وقراءة الطالع. ولكن علينا أن نعترف أن استعدادهم لقراءة الطالع كان يفوق استعداد أية جماعة أخرى بسبب إيمانهم بالقضاء والقدر، وهي قدرية كانت تثير استهجان القساوسة(٥٤) الذين كانوا يرون أن الإنسان مخَيَّر لا مُسَيَّر. عندما لم يعد هناك منْ هم على علم بالشريعة الإسلامية كان بمقدور شخص مسنّ أن يبعث إيمان الناس من خلال حكاية قديمة يرويها وفق المناسبة. خلال الحرب في عهد فيليبي الثاني تبادل الناس كتابات سحرية وكتابات تتضمن نبوءات. إن مجموعة الوثائق العربية التي ترجمها ألونسو ديل كاستيو بأمر من الرئيس ديثا تحتوي على نماذج من تلك الكتابات(٥٥) كانوا يسمونها نبوءات ، وقد عثر مارمول على بعض ترجمات كاستيو ، وثبت أنها ترجمات غير صحيحة، ذلك لأن الأشخاص الذين نسخوا من الأصول العربية لم يكونوا على دراية بقواعد اللغة(٥٦).

ويشير مارمول بالفعل إلى أن الموريسكيين الغرناطيين لم يكونوا يدرسون اللغة العربية في عصره " إلا خفية "(٥٧) ، وعلى ذلك فليس من الغريب أن أبا أمية نفسه لم يكن يجيد من العربية إلا كتابة اسمه بخط سيئ (٥٨)(*) وأن المناصب والمهام التي يتطلبها تنظيم الدولة كانت قد انهارت.

ورغم أن التعايش مع المسيحيين والضغوط الواقعة على الموريسكيين والتضييق عليهم قد أدى في النهاية إلى وجود نوع من التوافق ، إلا أن حياة الرجال أو الحياة العامة كانت ثرية ، وكان يسيّرها أناس ذوو تعصب ديني إلى أقصى حد.

(*) طبيعي أن يحدث ذلك ، نظراً لقرارات حظر استخدام اللغة العربية قراءةً وكتابةً وتحدثًا . (المترجم)

إن كراهيتهم لكل ما هو مسيحى قد جعلتهم – فى بعض الأحيان – يتحسرون على اضطرارهم إلى استعمال اللغة الإسبانية فى المحافظة على الدين الإسلامى والدعوة إليه، وكانوا يقولون إن الدين الإسلامى لا يجوز أن يُشرح أو أن يُكتب إلا باللغة العربية التى كانوا يعتبرونها مقدسة(٥٩).

كان الفقهاء يمارسون عملهم سراً. ربما كانوا أقل علماً بالشريعة الإسلامية من نظرائهم فى زمان آخر، لكنهم كانوا يعرفون من الشريعة ما يكفى. كانوا هم الذين يرفعون من الروح المعنوية لمنْ أصابهم الوهن وذلك باستخدام النبوءات(٦٠)(*) . ولابد أنه فى وقت الثورة كان هناك أشخاص ممنْ يتذكرون الفترة التى كانت فيها الشعائر الإسلامية غير محظورة، وقد ظهر المؤذنون بعد أن كانوا قد اختفوا، وبصفة عامة فقد عادت إلى الظهور تلك المناصب التى أخذت فى الاختفاء مثل " المفتى "(٦١). والظاهر أن هناك شيئًا لم يختف أبداً، وهو الروابط الصغيرة التى كان يعيش فيها أولياء مرابطون ذوو صيت تُنسب إليهم قدرات عظيمة، ليس فقط حال حياتهم، وإنما بعد مماتهم أيضاً، وتبرز قدراتهم بصفة خاصة فى الأماكن التى دُفنوا فيها كما يحدث فى المغرب والجزائر. وكان هناك أربعة أولياء مدفونون فى رابطة كانياس دى اثيتونو Canillas de Aceituno وكان يُظن أنهم يحمون المكان. وعندما قرر الموريسكيون أثناء الثورة مغادرة المكان واللجوء إلى مكانٍ أكثر أمنًا – فريخيليانا – احتج عجوز على الاتفاق لأنه يرى أن المكان " أفضل حظًا، ولم تحدث به إلا أحداث تُسعد المسلمين، وذلك بفضل حماية الأولياء، وإن ذلك كان موجوداً فى الكتابات "(٦٢) لم يكن المهم أن يكون الإنسان مثقفًا حتى يمكن اعتباره مؤمنًا صالحًا؛ ذلك لأن الشعائر الإسلامية بسيطة جداً. ويبدو أن الموريسكيين قد التزموا بواجبات أخرى أكثر من تلك الواجبات الدينية المفروضة.

فى بداية القرن السابع عشر كان أهل مرسيه وجيان ومنْ بقى فى غرناطة يصومون رمضان ويحتفلون بعيد العصير خلال شهر سبتمبر من كل عام(٦٣) . كانوا يؤدون واجبات الوضوء والصلاة، وكانوا يمتنعون عن إتيان المنهيات، ولما كانت تلك الأفعال تتم علنًا، فقد كانت تؤدى إلى اشمئزاز أو سخرية المسيحيين القدامى.

(*) نستبعد أن يكون الفقهاء هم الذين كتبوا تلك النبوءات، ونظن أن النبوءات من عمل أشخاص يجهلون من الإسلام أموراً أساسية، منها أنه يحرم الكذب، وخاصة الكذب على النبى (ﷺ) . (المترجم)

سنتحدث الآن عن الأشياء المحظورة الخاصة بالطعام والشراب :

٤ - الاختلافات الرئيسية :

١ - لم يكن الموريسكيون يشربون الخمر. ورغم أن المسلمين فى أوج ازدهارهم كانوا يشربون الخمر لدرجة أنهم كانوا يعتبرون الخمر موضوعًا لأشعارهم[٦٤]. إلا أن الموريسكيين كانوا متشددين فى موضوع الامتناع عن شرب الخمر خاصة موريسكيى المنطقة الشرقية(*). لقد وصل الأمر إلى حد عدم وجود نقطة خمر واحدة[٦٥] - كما يذكر بليدا - فى منطقة فالنسيا التى تعيش فيها جماعات موريسكية وتُزرع فيها أشجار العنب بكثرة، يبدو أن موريسكيِّى أندلوثيا لم يكونوا على نفس الدرجة من التشدد[٦٦] .

٢ - كانوا لا يأكلون لحم الخنزير، ولا يلمسون هذا الحيوان بملابسهم، ولا يأكلون شيئًا دخل فى صناعته دُهن الخنزير . وعندما كان أحد يريد أن يصف شخصًا بأنه موريسكى أو من نسل موريسكى كان يشير إلى أن الخنزير يُثير لديه الشعور بالغثيان والاشمئزاز :

سأعلّق فخذ الخنزير

حتى يهربوا من المكان

هكذا تقول إحدى شخصيات مسرحية لوبى دى بيغا عندما تتحدث عن بعض أفراد يحتمل أن يكونوا موريسكيين[٦٧] . من المعلوم أن اليهود يحرمون لحم الخنزير أيضًا ، وهذا شىء نجده فى كتابات قديمة ساخرة تُشير إلى الأنساب[٦٨] . يُخبرنا أثنار كاربونا أنه كانت له مساجلات مع موريسكيين من إقليم أراغون حول الخمر والخنزير وأن الموريسكيين كانوا يحاولون الإيهام بأنهم يمتنعون عنهما لأسباب صحية[٦٩].

(*) يجب أن نفرق بين بعض المسلمين - غير الملتزمين - الذين يشربون الخمر ، وبين الموريسكيين ، فهؤلاء متمسكون بتعاليم الإسلام التى تحرِّم الخمر . (المترجم)

٣ – كانوا لا يأكلون النطيحة ولا المتردية ولا ما أكل السبع ولا الدم ؛ فقد كانوا يعتبرون كل ذلك " حرامًا "(٧٠) وقد كانت محال الجزارة الخاصة بهم منفصلة ، وكان يعمل بها أشخاص مسئولون عنها(٧١) .

وكان الموريسكيون يكرهون الخنزير بشكل خاص لدرجة أنهم كانوا لا يأكلون اللفت ولا الجـزر(*) " لأنهم كانوا يعتقدون أن هـذه الأشياء خاصـة بالخنزير" (٧٢) لكن الأمرين الخارجيين اللذين كانا يميزان الموريسكيين ويفرقان بينهم وبين المسيحيين القُدامى كانا : اللغة والزى.

وحتى فى لحظة الطرد نفسها – أى فى أوائل القرن السابع عشر – كان هناك موريسكيون يُجيدون اللغة العربية. وكان هناك آخرون لا يجيدونها. كان المسيحيون يُطلقون على اللغة العربية "الغربية" أى لغة الغرب وهو لفظ ظل يُستعمل فيما بعد للدلالة على اللغة غير الواضحة(٧٣) وفى زمن ثورة موريسكيى غرناطة كان أهل البشرات لا يتكلمون إلا اللغة العربية العاميّة؛ إذ أنهم كانوا يجهلون العربية الفصحى. وكان أهل فالنسيا أيضًا يتحدثون العربية ؛ ففى رسالة أجاب فيها الراهب لويس بلتران عن أسئلة خاصة بالموريسكيين – وكانت مؤرخة فى فالنسيا فى ٣ ديسمبر عام ١٥٧٩ – نصح الراهب بحظر التحدث باللغة العربية(٧٤). لكن بعد ذلك بسنوات اعترف ريبيرا أن الموريسكيين فى منطقته كان بعضهم يرتدى ملابس المسيحيين ، وبعضهم الآخر يلبس ملابس المسلمين ، وبعضهم يتحدث الإسبانية ، وبعضهم الآخر لا يتحدثها ، بعضهم يعيش فى أماكن نائية وسط المسلمين ، وبعضهم يعيش بين المسيحيين القُدامى(٧٥). يبدو أن الذين نسوا اللغة العربية كانوا أهل أراغون(٧٦) بل هناك منْ يرى أن العربية لم تكن لغة الحديث مطلقًا هناك (٧٧) ، لكننا نرى أن ذلك الزعم إنما هو نتيجة المبالغة فى الاحتياط(٧٨).

(*) رغم علم باروخا الواسع إلا أنه لا يفرق بين الحقيقة وبين ما كان يقال عن الموريسكيين من باب السخرية . (المترجم)

كانت إجادة اللغة العربية تدل على نقاء الدم ، وكان الموريسكيون يثقون أكثر فيمن يتحدث العربية ، ولهذا ففى قصيدة "المسلمة المهانة" تشتكى المسلمة من المسيحى الذى خدعها وتقول إنه استطاع أن يخدعها لأنه يعرف لغتها :

حـــدثنى بالعــــربيـــة

كـمن يعـرفـها جـيـداً[٧٩]

كان العلم باللغة العربية يُغضب المسيحيين القُدامى الذين كانوا يتحدثون الإسبانية والذين كانت ثقافتهم محدودة ، كما يحدث الآن أن يغضب الناس إذا سمعوا أحداً يتحدث لغة إقليم الباسك أو القطالونية أو أية لغة أجنبية.

لم يكن الناس يتعرفون على الموريسكي من حديثه باللغة العربية فقط ، بل أيضًا من خلال حديثه بالأعجمية أى الإسبانية منطوقة بطريقة خاصة.

ينبـه لوبى دى بيغـا إلى ذلك فى مناسبـات عـديدة[٨٠] وهناك معاصرون له – بل ولاحقون أيضًا – سخروا من اللغة التى يتحدثها الموريسكيون فى أندلوثيا . من بين الكتابات التى سخرت من لغة الموريسكيين نذكر قصيدة لويس دى غونغرا ، ويمكن أن نعتبرها وثيقة أمينة لأن مؤلفها قرطبى ومن المحتمل أنه كان على صلة بالموريسكيين. وبالإضافة إلى الكلمات العربية والأبيات المتكررة نشير إلى أن هذه القصيدة تعكس وجود بعض الملامح الصوتية التى تتفق مع ملامح اللغة الإسبانية التى يتحدثها المغاربة الآن. من أهم الملامح نُشير إلى ما يلى :

١ – نطق حرف ll كما لو كان li

٢ – (*) كتابة حرف ñ كما لو كان ni : ni maniana , seniora

٣ – الخلط بين حرفى e , i

(*) لا نعرف لهذا الحرف نطقًا آخر حتى بين الإسبان. (المترجم)

٤ – نطق حرفىّ ue كما لو كانا حرف o
٥ – نطق حرفىّ ie كما لو كانا حرف e
٦ – الخلط بين حرفىّ u , o

نُشير كذلك إلى ملمحٍ آخر وهو استخدام صيغة المصدر بكثرة ، والخلط بين المذكر والمؤنث(٨١) . إن كل المؤلفين الذين يسخرون من الموريسكيين (مثل كالديرون – فى مسرحية سبق أن أشرنا إليها(٨٢) – أو لوبى دى بيغا فى مسرحية سان دييغو دى ألكالا(٨٣) ، أو الراهب أنطونيو دى غيبارا (٨٤) ... أو كيبيدو(٨٥) أو آنا كارو(٨٦) أو ميشيل دى كارباخال(٨٧) ولويس أورتادو) يُبرزون هذه الملامح. يتفق الجميع أيضاً على إبراز خاصية أن الموريسكيين كانوا ينطقون حرف S كما لو كان " ش "(٨٨). ويروى الديريتى وهو عالم لغوى أن تلك الخاصية كانت مميّزة جداً لدرجة أنه أثناء ثورة البشرات كانت السلطات تريد التعرف على الموريسكيين الذين تعلموا الإسبانية ، فكانت تطلب من كل شخص أن ينطق كلمة cebolla وكان يتم التعرف على الموريسكى إذا كان ينطقها هكذا " شيبوليا "(٨٩) (*) .

وقد سار كُتّاب المسرح فى القرن السابع عشر على ذلك النهج القديم ، لكن لما كانت تنقصهم التجربة المباشرة فقد كان التقليد عندهم مُصطنعاً (٩٠).

فيما يتعلق بالزى منذ استسلام غرناطة وحتى اندلاع الثورة حدثت تغيرات كبيرة نتيجة لأسباب متعددة.

لدينا بعض الوثائق الخاصة بوصف زى النساء فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر(٩١) وهناك أيضًا مجموعة من الصور التى توضح كيف كانت ملابس تلك الفترة ، ومن بين هذه الصور الصورة التى رسمها كريستوف ويديز Weiditz الذى سافر إلى إسبانيا عام ١٥٢٩ وترك لنا إحدى عشرة صورة فيها أزياء موريسكية (٩٢). ومن بين تلك الصور تبرز صورة فتاة ، وصورة نسوة يرتدين زى

(*) نشك فى أن يكون ذلك قد حدث بالفعل ، ففى التاريخ الحديث تتكرر الدعاية والنكات بالإشارة إلى أهل إقليم ما عن طريق نطق بعض الكلمات . (المترجم)

الخروج ، وصورة موريسكي يرتدى الزى القشتالي ويصطحب زوجته وطفلاً على ظهر دابة للتنزه في الحقل أو في حديقة ؛ فالموريسكيون – كما يذكر الرسام في تعليقه – "لديهم بساتين كثيرة ذات ثمار متعددة" . تبرز أيضًا صورة ترسم رقصة. هذه هي الصور التي نرى تقليدًا لها في لوحات ك. فيسيليو[٩٣] وجراسي[٩٤] وآخرين ، وفي لوحات في غرناطة و الحامة ...الخ من أعمال براون وهوغونبرغس المشار إليها[٩٥] ، فقد نُشر المجلد الأول من أعماله بعد إخماد ثورة البشرات[٩٦]. يؤكد مارمول أنه في تلك الفترة كانت أزياء النساء في فاس تشبه أزياء الموريسكيات في غرناطة ، ويقدم مارمول وصفًا دقيقًا لتلك الأزياء. كان السروال و الخف هي العناصر الأساسية في الزى [٩٧]. كان الزى في أيام العمل بسيطًا من باب الاقتصاد لأن الترف لم يعد يناسب شعبًا محرومًا وذليلاً [٩٨]. يُشير نونييث مولاى إلى تبسيط الزى ، ويقول إن الأسر تتوارث – على مدى ثلاثة أجيال أو أربعة – الأزياء الخاصة بالزفاف والاحتفالات ، وإن تلك الأزياء يمكن أن تُرهن عند الضرورة[٩٩] . وكانت المرأة بصفة عامة ترتدى زيًّا لا يزيد ثمنه عن دوقية [١٠٠].

كانت صناعة النسيج والجواهر والأحذية " على الطريقة الموريسكية " توفر فرص عمل للعديد من الأسر. كانت القروط والكفوف الذهبية والأحراز والخواتم والجواهر الخاصة بالنساء أهم العناصر التي توجد في جهاز العروس، وكان ذلك هو ما أدى إلى جشع الجنود القشتاليين وهمجيتهم بعد هزيمة موريسكيي غرناطة[١٠١] . وكان جهاز العروس الغرناطية يختلف عن جهاز العروس الأراغونية أو الفالنسية[١٠٢].

كان الرجال – على الأقل في المدينة – قد قبلوا الزى المسيحي . يقول مولاى "إننا معشر الرجال نلبس الزى المسيحي ، وإن كان معظمنا يرتدى ملابس رخيصة" [١٠٣]. أما في الريف فالظاهر أن الوضع لم يكن على ذلك النحو . من ناحية أخرى عندما انتشرت الثورة يبدو أنه حدث نوع من إحياء الزى الإسلامي. وقد أمكن إلقاء القبض على الحبقى في برشول (Berchul) بالبشرات لأن المكلفين باعتقاله عرفوه ، فقد كان يرتدى " قُفطانًا " قرمزيًّا ويضع عقالاً أبيض على رأسه [١٠٤]. وقد ظهر ابن أمية وعلى رأسه غطاء رأس تركي وجبةً ، وكان يمتطى حصانًا أبيض [١٠٥]. وأثناء الهجوم على البيازين خلع ابن فرج ورفاقه قبعاتهم وارتدوا طواقي ملونة و عُتر بيضاء على طريقة

الأتراك (١٠٦). حدث ذلك فى الوقت الذى كان فيه الجنود المسيحيون أحيانًا يرتدون الزى الموريسكى (١٠٧).

وفيما يتعلق بزى الرجال صدرت قرارات متناقضة فى منتصف القرن السادس عشر، ففى عهد الملكة خوانا صدر أمر بأن يتخلى الموريسكيون عن زيهم القديم حتى لا يختلف لباسهم عن لباس بقية الرعية ، وفى الوقت نفسه صدر قرار يقضى بتمييز الموريسكيين عن غيرهم ، وذلك بوضع هلال من قماش أزرق على قبعاتهم ، ويكون الهلال فى حجم نصف البرتقالة(١٠٨) وكان ذلك يسهِّل إهانتهم، وكانت الطبقات المهمشة تحمل إشارات مشابهة(١٠٩).

استمرت قرارات حظر أزياء الموريسكيين وعاداتهم حتى النهاية ، وهكذا يتحدث المؤلفون الذين ناصروا قرار الطرد عن التخضب بالحناء على أنه شيء بغيض . يقول المؤرخ الغرناطى بيرموديث دى بدراثا : "كانوا يستحمون حتى فى شهر ديسمبر"(١١٠) كما لو كان الاستحمام جنونًا ! كان مؤلفون آخرون ينظرون إلى الاستحمام على أنه تشبُّه بالنساء ، ولهذا فقد هدموا الحمامات فى قشتالة ، كما يقول نونييث مولاى الذى كان يدافع عن وجود الحمامات وعن استعمال الحناء ، باعتبارهما وسيلتين للنظافة ضروريتين للأشخاص الذين يؤدون أعمالاً ويتعاملون مع مواد شتى(١١١). ويُبرز غيرا دى لوركا – من وجهة نظر معارضة – بعض صفات الموريسكيين فيُشير إلى صفات ثانوية أو إلى صفات لم يذكرها أحد فى كتب أخرى. إننا ندين للوركا بمعرفة أن الموريسكيين كانوا يؤيدون القصاص(١١٢) – كمسلمى أمس واليوم – وأنهم كانوا فى زيجاتهم يمتنعون عما حرَّمه الإسلام لا عما تحرمه الكنيسة(١١٣) وهذا ما كان يؤدى ربما إلى زيادة العصبية . من المهم أيضًا كتاباته عن رؤية الموريسكى للمرأة ، وكيف أن المسلم فى ذلك العصر – مثل المسلم الحالى – كان يفضل المرأة البدينة ، وأن المرأة كانت تهتم بنفسها ، فكانت تقضى وقتًا طويلاً فى النوم والاستحمام والأكل(١١٤) وكانت المرأة تجمِّل نفسها أو تخضب يديها ورجليها بالحناء ، وتستعمل الطيب وتضع زيتًا عطريًا فى شعرها ، وكانت تترك شعرها مسترسلاً أو تضع عليه تاجًا. وكانت المرأة تحب الجواهر ، خاصة تلك التى تحمل عبارات ذات مضمون دينى (١١٥).

نستطيع أن نقول فى النهاية إن نمطى الحياة المتعارضين – الموريسكى والمسيحى القديم – يمثلهما من ناحية البناءون و المعماريون الذين كانوا يشكلون مجموعات متجولة والذين ملأوا أرض إسبانيا بنموذج فريد من نماذج العمارة ، ومن ناحية أخرى الحجارون ورجال الجبل الذين يتميزون بميل شديد إلى الحركة. وقد لاحظ بعض مؤرخي الفن المدجن الأراغونى أن القباب أو الأجزاء العُليا من منصات الكنائس المبنية على الطراز المدجن منقوش عليها صيغة الشهادة الإسلامية ، فقد وضعها معماريون : ربما لكى يتذكر المسلمون النطق بها (١١٦).

وفى غرناطة ظل النهج العمرانى كما هو حتى بعد مناقشات جادة – كما سنرى – ولم يطرأ على العمارة أى تغيير كما حدث مع أشياء أخرى.

هناك شيء اتخذ صفة شرعية بين المسلمين فى أواخر سنوات وجودهم فى إسبانيا ألا وهو اتِّباع التقية ، أى التخفى والتظاهر فى مواجهة السلطة المعادية(١١٧) ، وهو تصرف ينبغى إجراء دراسة تحليلية عنه . وكانت التُقية تزداد كلما تجبر وتشدد المسيحيون القُدامى الذين كانوا يعيّرون المسيحيين الجُدد – حتى الذين تنصّروا حقيقةً – بعدم نقاء الدم(١١٨) والذين استعملوا ألفاظًا مهينةً – مثل " كلب " – باستمرار(١١٩) ورغم أنه كان هناك منْ يُدين تلك التصرفات إلا أن الإدانة لم يكن لها أثر كبير(١٢٠).

(ب) تغيُّرات فى المفاهيم الإسلامية :

إن سقوط آخر مملكة إسلامية لم يؤد فقط إلى اعتبار الإسلام دينًا محظوراً ، بل أدى كذلك إلى اعتبار المسلمين كمواطنين أقل درجة من غيرهم. وقد أدى سقوط غرناطة كذلك إلى ظهور آراء حول الثقافة الإسلامية تجدر دراستها نظرًا لأهميتها من وجهة نظر علم الاجتماع.

كان المسيحيون فى الماضى يعتبرون الثقافة الإسلامية شيئًا ذا قيمة ، بل – فى بعض الأحيان – كثقافة مثيرة للإعجاب . أما بعد ذلك فكانوا يرون أن تلك الثقافة يجب أن تلغى ، ليس فقط لأنها مرتبطة بدين غير صحيح ، وإنما لأنها ثقافة أدنى مرتبةً من ثقافتهم.

كان المسلم فى عصور ماضية، فى كتابات القرنين السادس عشر والسابع عشر(*) :

١ – مؤرخًا عظيمًا

٢ – عالم فلك متميزًا

٣ – معماريًا متميزًا

٤ – محاربًا شجاعًا

٥ – فارسًا طيب الكلام

ولكى نثبت أن المسلم كان يحتل مكانًا بارزًا فى الكتابات التاريخية يكفى أن نذكر الشخص الذى نسب إليه ثيربانتيس تأليف الكيخوتى والملامح التى رسم بها شخصية سيدى حامدى بن انغيلى، وحيث سخر من كتب الفروسية (التى يُنسب أصلها إلى مؤلفين مسلمين ، لكى يؤكدوا شهرتهم وعلمهم بالأمور الغامضة التى لا يصل علمها إلى مؤلفين مسيحيين)(١٢١). وكان علم الفلك من بين تلك العلوم.

إن ثيربانتيس نفسه يُشير إلى أن سيدى حامدى كان على دراية بعلم الفلك ، وسنرى أن الثقة فى النجوم – بناءً على " علم " بها – كانت أمرًا شائعًا بين العرب ، وكان شائعًا كذلك بين الموريسكيين حتى آخر لحظة (١٢٢).

هناك نصوص تبين كيف كان المسلمون متميزين فى مجال العمارة ، وهذه النصوص مشهورة شهرة رواية كيخوتى . وهناك أشعار تبدأ بها طبعات قديمة لكتب الراهب لويس دى ليون – وهى أشعار تمدح حياة ذلك العالم – لأنه :

لا يُدهشـــه الســـقف الذهبى

ولو صنعه معلم مسلم من المرمر

وهناك نصوص أخرى فى هذا الصدد معروفة كذلك (١٢٣).

(*) نتحفظ على هذه الفقرة للمؤلف ، فالثابت لدينا أن أدب العصور الوسطى الإسبانى (حتى القرن الخامس عشر) هو الذى كان يرى فى المسلم هذه الصفات الحميدة ، أما بعد سقوط غرناطة فقد أصبح أدب القرنين السابع عشر والثامن عشر يصف المسلم بكل نقيصة . (المترجم)

كانت شهرة المسلمين فى مجال العمارة ذائعة لدرجة أنه فى كل أنحاء إسبانيا ينسب الشعب إليهم أى بناء متميز من حيث القدم ومن حيث الروعة ، حتى لو كانت مقبرة أو قنطرة رومانية أو كنيسة قوطية[١٢٤] . إن الوعى بتفوق المسلمين فى مجال العمارة يرجع إلى بدايات العصور الوسطى ، وربما إلى عصر الخلافة التى كانت فيها الثقافة الإسلامية أعلى بالفعل من ثقافة الممالك المسيحية عموماً.

أما صورة المسلم كمحارب وكفارس فيبدو أنها تعود إلى عصور لاحقة ، إلى مرحلة تم فيها تبادل الأدوار فأصبحت الثقافة المسيحية أعلى من ثقافة مملكة غرناطة المحاصرة ، تلك المملكة التى تعطى انطباعًا مزدوجًا بالرقة والهمجية فى آن واحد ، إذا تأملنا – مثلاً – فنون مسلمى غرناطة وقارناها بالفنون القوطية المعاصرة لها[١٢٥] . لقد أبهر جمال قصر الحمراء الناس ، فتصوروا الحياة داخله على أنها حافلة بالمشاعر الفيّاضة . إذن فقد كانت هناك فى القرن السادس عشر حركة شعرية يمكن مقارنتها بالحركة التى أوحت بها حرب عام ١٨٦٠ للفنانين – وعلى رأسهم ماريانو نورتونى – مع وجود فارق هو أن الحركة الشعرية الأولى كانت بأثر رجعى.

كانت الحروب بين المسلمين والمسيحيين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر – منذ عهد خوان الأول وحتى عهد الملكين الكاثوليكيين – هى التى أرست نماذج الفروسية عند الجانبين ، وهى نماذج نرى صورتها فى " قصائد الحدود " [١٢٦].

كان شباب الطبقة الأرستقراطية فى غرناطة وقشتالة بعد الحروب وخلال فترات الهُدنة يتبارزون ، وقد أدت تلك المبارزات إلى إيجاد علاقات وصلت أحيانًا إلى درجة الصداقة . وقد انعكست هذه العلاقات فى قصائد وفى قصص قصيرة[١٢٧] يتعاون فيها الفرسان المسيحيون والمسلمون. دائمًا – فى هذه القصائد – يتفوق المسيحى ، لكن المأساة التى تلاحق المسلم المحب تمنحه صفة رومانسية.

إن أبا عبدالله هو الذى يعبّر – أكثر من غيره – عن الضعف الذى لا يخلو من نبل. لكن روح الحروب على حدود أندلوثيا تتضح فى كتابات تاريخية ، وفى القصائد الشعرية التى تشير إلى شخصيات مختلفة. انظر مثلاً قصيدة فاخاردو . فيها يظهر فاخاردو وهو يلعب الشطرنج مع ملك مسلم[١٢٨] . انظر كذلك تلك القصائد التى تُشير

إلى فارس قلعة الرب الذى يساعد فارسًا مسلمًا صديقًا له على اختطاف الفتاة التى يحبها، وبعد أن يقتل أبطالاً من الفريق المنافس يُقتل فيبكيه صديقه(١٢٩). وبالإضافة إلى رودريغو تبيث علينا أن نتذكر غارثيلاسو دى لا بيغا(١٣٠) وألونسو دى غرانادا بنيغاس وهو متنصر(١٣١) ، ومانويل بونثى دى ليون(١٣٢) كشباب من نبلاء المسيحيين بارزوا فتياناً مسلمين فكان للحروب طابعٌ خاص.

إن القصائد الشعبية الموريسكية التى جمعها أغستين دوران ترسم لنا صورة مسلمين شرفاء وشُجعانٍ ومحبين وغيورين ، تتعلق بهم قلوب الفتيات اللاتى يحببنهم . إن ابن عمار والأزرق وغزول وابن أمية وزايد وطريف وابن الرئيس وموسى ورضوان وسليم وعبدالله... إلخ قد أثاروا التعاطف كشخصيات شعرية لدرجة أن المؤلفات التى تحكى قصصهم لا حصر لها(١٣٣) . هذا المديح قد أثار حفيظة البعض فسخروا ممنْ صوروا الحفلات والمبارزات والتنافس على الحبيبات والغيرة والخيانة ومؤامرات القصور مستعملين بذلك مفردات كثيرة تبدو عربية(١٣٤) .

لكن إذا رأى الناس المسلمين كعظماء فى الماضى فإن الأمر يختلف بالنسبة لمسلمى الحاضر رغم أنهم أحفاد لأولئك المعماريين المتميزين أو الفرسان الشجعان المحبين أو لتلك الفتيات اللاتى ظهرن فى أشعار تناقلتها الألسنة وذاعت بين الناس. كان الموريسكى فى رأى العامة شخصاً جاهلاً ، فظاً، احتل المرتبة الأخيرة بين الناس بسبب عناده ، شخصاً ذا مهارة يدوية وفنية لكنه غير مثقف. كان العلماء والقضاة والصالحون من الموريسكيين محل احتقار المثقفين ورجال الأدب فى عصر كارلوس الأول وفيليبى الثانى. وكان عامة الموريسكيين موضع احتقار الناس.

إن زراعة البساتين وصناعة السلال ، وتجارة التين الجاف والزبيب والبندق والعسل والحلوى والفاكهة وصناعة الطوب وتبييض المنازل بالجير ، وصناعة الجبس وبيع الزيتون... إلخ كانت حرفاً موريسكية لا علاقة لها بالمغامرات العاطفية التى ترويها القصائد(١٣٥) . وفى مواجهة المسلمة الشريفة التى تصورها تلك القصائد رسم الشعراء الساخرون صورة الموريسكية كبائعة متجولة ترتدى الملابس الفقيرة وتبيع عصير البرتقال والتين والصابون فى شوارع وميادين غرناطة ومدن إسبانيا

الأخـرى[١٣٦] لكى تسـتطيع أن تعـيش بالكاد. وفى مـواجـهـة الفـارس الذى تصـوره الأشعار القديمة رسم الشعراء الساخرون صورة الموريسكى كتاجر [١٣٧]. إن ما تبقى من صورة المسلم يعتبر تراثًا يجب استيعابه أو استئصاله إن لم يمكن استيعابه ، وهذا ما حدث أحيانًا. لكن لا يجوز أن نبالغ فى أهمية وجهات النظر العامة[١٣٨] . إن الثورة فى النهاية قد أسهم فى إشعالها عوامل لم يُشر إليها أحد إلا قليلاً ، ويجب أن نحلل تلك العوامل دون خوف.

هوامش الفصل الرابع

(١) Munzer, pag. 27

(٢) Munzer, pag. 28

(٣) Munzer, pag. 28

(٤) Juan de Vallejo, pag. 34

Marmol. Pag 154

إنه غونثالو فيرنانديث ثغرى. من نسله دون شك خرج فرانثيسكو ثغرى كمعارض لقضية الموريسكيين فى القائمة التى نشرها غوميث مورينو انظر: Hurtado de Mendoza, pag. 267-268

(٥) فى رسالة بعث بها أورتادو دى مندوثا إلى الكاردينال إسبينوسا جاء ما يلى : " إن الأضرار التى لحقت بالموريسكيين لا يعتبرونها جسيمة ، فالمرأة أو البنت - إذا خرجت من البيت - لا وزن لها ، أما الأبناء فهم يبيعونهم كعبيد عند أقل مشكلة ويقولون إنهم سيعيشون من بيوت سادتهم "، انظر:

A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 445

(٦) هكذا ورد اللفظ فى Covarrubias, pag. 1015

(٧) Steiger, pags. 360-368

(٨) Hurtado de Mendoza, pag. 23

(٩) Marmol. Pag 232

كان كبار السن من المسلمين هم الذين يتولون مسئولية طلب الصلح عند الهجوم على حصنى خوبيليس ، وفى رسالة بعث بها مترجم كاستيو (ص١٥) للضغط على أصدقائه الموريسكيين لكى يستسلموا ، كانت مقدمة الرسالة موجهة إلى كبار السن بالإضافة إلى الزعماء والقادة والحُجّاب فى البشرات . انظر أيضاً صفحة ٨٠٠ . هذا تقليد لما فعله الملكان الكاثوليكيان ومن قبلهما ملوك بنى نصر. انظر كذلك الملاحظة رقم ١٨ فى الفصل الأول:

Codoin, VIII, pag. 430

Ribera y Asín, pags. 261-262

المرسوم الملكى الصادر عام ١٤٢٩ والموجه إلى شيوخ كابييرا وخوربينا وباغو، وهى أحياء فى بيرخا، لإعفائهم من الضرائب على المؤن الخاصة بأعمال البر الملحقة بمسجد بيرخا. انظر كذلك :

M. Gosper y Remiro: *Documentos árabes de la corte nazarí de Granada, XXI*, pags. 531-535, XXII, pags. 260-269, 421-423, XXIII, pags. 137-148, 410-423.

وفى الكتاب معلومات وفيرة عن الفترة الأخيرة

(١٠) Hurtado de Mendoza, pag. 19

(١١) Hurtado de Mendoza, pag. 25-26

(١٢) Marmol. Pag 226

يُشير مارمول إلى أهل البيازين فيقول إنهم كانوا يحرصون على زوجاتهم وبناتهم ويقدمون إليهن الهدايا.

أما عن الختان فانظر : Guerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*, folios 41 y 48.

(١٣) هذا ما قررته السلطات فى أراغون. انظر أثار كاردونا (ص٦٢)

(١٤) القرارات الخاصة بتعميد الموريسكيين نجدها فى :

Constituciones de arzobispado de Sevilla ...I, pags. 56-57

(١٥) Marmol. Pag 157

بعد تعميد الطفل كانوا فى الخفاء ينظفون الطفل لكى يمحوا آثار التعميد والزيت المقدس ثم كانوا يُقيمون شعائر الختان ويُطلقون على الطفل اسمًا إسلاميًا.

(١٦) كانت معظم الألقاب تبدأ بكلمة ابن: ابن أبو، ابن فرج، ابن حابس، ابن أمية، ابن أبى طالب... إلخ.

(١٧) Marcos de Gualdalajara:*Memorable expulsión* ...fls. 158,159

(١٨) J. Bleda: *Defensio fidei*...,pag. 48

(١٩) Hurtado de Mendoza, pag.26, 30, 31, 34,38,93,133,251.

(٢٠) Marmol. Pag 188

(٢١) Hurtado de Mendoza, pag. 19,136-143, 152-154, 162-176, 206-215, 227-230, 242-259.

يُقال إن " ابن أبو " معروف أيضًا باسم عبدالله بن أبو. انظر .: Marmol. Pag 238

(٢٢) Marmol. Pag 188

(٢٣) Marmol. Pag 294

(٢٤) Marmol. Pag 334

(٢٥) Marmol. Pag 335

(٢٦) Marmol. Pag 340

(٢٧) Marmol. Pag 355

(٢٨) A. A. Gonzalez Palencia: *Los mozárabes de Toledo*..., pag.123-124 y 125-129

(٢٩) Hernando de Baeza, pags 19

يذكر ايرنانديو دى بائيثا اسم شخص موريسكى كان يُدعى " ابراهيم دى مورا " من بلدة مورا فى طليطلة وشخص آخر يُدعى " ابراهيم روبليدو " من غوادالاخارا. تشير كذلك إلى ألقاب مميزة أخرى مثل " الصغير " وهو لقب كان يُطلق على إيرناندو دى بالور (انظر اورتادو دى مندوثا ص ١٩)

(٣٠) Aznar Cordona, fol.112

بحيث أن الكبار والصغار كانوا سواءً فى الضلال والإلحاد، وعلى علم بالجريمة والتآمر، حتى النساء والأطفال. كان الأطفال الصغار يقولون لأطفال المسيحيين القُدامى : " اسكت . إن أبى يقول إننا عندما نقتل المسيحيين لن نقتلك أنت "

(٣١) I. Bleda: *Defensio fidei* ...., pags 102-103

(٣٢) Munzer, pags. 43-44

(٣٣) García de Silva y Figueroa, I, pags. 205-206

(٣٤) Marmol. Pag 163

Núñez Muley, pag. 211

يقول مولاى : إن لباسنا الخاص ليس لباس المسلمين بل هو زى إقليمى مثل زى قشتالة والأقاليم الأخرى، فكل إقليم له زيه، وكلهم مسلمون.

(٣٥) فى خطاب إيرناندو الصغير – وهو عبارة عن هجوم على المسيحيين استناداً إلى نفس البيانات التى يسوقها نونييث مولاى دفاعاً عن نفسه – جاء ما يلى : إنهم يأمروننا بالتخلى عن أزيائنا وارتداء الزى القشتالى مع أنهم هم أنفسهم مختلفون من حيث الزى فهناك زى للأعيان ، وزى للفرنسيين ، وزى اليونانيين ، وزى للشباب ، وزى لكبار السن. كل مجموعة ترتدى زياً بطريقتها وكلهم مسيحيون "

(٣٦) Núñez Muley, pag. 211

يقول مولاى: من الذى ينكر أن زينا مخالف لزى الأتراك والمسلمين ، بل إن أزياء المسلمين مختلفة فيما بينها ، فزى فاس ليس هو زى تلمسان ولا زى تونس مثل زى المغرب. نفس الشيء يُقال عن زى تركيا وزى الممالك الأخرى ، وكلهم مسلمون.

انظر : Marmol. Pag 163.

(٣٧) لاحظ أنه فى فترات سابقة كانت زوجات المسيحيين فى صقلية يلبسن كالمسلمات رغم أن البلاد كانت تحت حكم ملك مسيحى. انظر ابن جُبير (ص٣٤٩–٣٥٠)

(٣٨) Marmol. Pag 164

(٣٩) Marmol. Pag 164

Núñez Muley, pags. 214-216

(٤٠) Marmol. Pag 157

أثناء الثورة كَثُرَ الزواج الثانى بين الموريسكيين ، وقد طلّق ابن أمية زوجته وفقًا للشريعة الإسلامية، وتتحدث الرواية التى نشرها غوميث مورينو فى طبعته لكتاب إيرناندو دى مندوثا (٢٧٤) عن شائعة مفادها " أن ملك البشرات الجديد قد أصبح له خمسون امرأة يمتلكها ..."

(٤١) هذا بالإضافة إلى وجود مجوهرات ذات طابع دينى مثل كف فاطمة. يقول بيرمودييث دى بدراثا عن كف فاطمة (ص١٧) إنه فى عام ١٥٢٦ قد حظر على الموريسكيين استخدام السلاسل التى تحمل كفًا وبعض الحروف العربية " . انظر

Antiguedad y excelencias de Granada

(٤٢) انظر رسالة داود إلى الأفارقة فى كتاب مارمول (ص١٧٩)

(٤٣) Longás: *Vida religiosa de los moriscos*, Madrid, 1915

للاطلاع على صورة مجملة لذلك العصر انظر

Boronat y Barrachina, 1, pags. 508-515, 516-521

إن العناوين الداخلية لبعض الكتب – مثل كتاب غيرا دى لوركا – تدل على وجود مشاكل كبيرة حول الموريسكيين. انظر مثلاً العناوين الداخلية ....الصفحات ١–١٠ تتضمن عرضًا لأفكار الدين الإسلامى كما يراها علماء اللاهوت الكاثوليك(*).

(٤٤) يقول ماركوس دى غوادالاخارا (ص ١٥٨) إن الموريسكيين كانوا يذهبون إلى المقابر ويأكلون هناك ، وفى صفحة ٢ يروى هذه القصة : " فى عام ١٥٩٤ مات موريسكى ثرى فى فالنسيا يُدعى مطرى ، وقد أخفى الموريسكيون خبر الوفاة عن القسيس لمدة يومين ؛ فلما علم القسيس ذهب إلى منزل المتوفى فوجد كثيراً من الموريسكيين هناك حول الجثمان على ضوء خافت ومعهم أدوات بها ماء وغصن البرتقال لتغسيله ، وكتاب بالعربية عن قرآنهم السيء. ولما أراد القسيس أخذ الميت طرده الموريسكيون من البيت بعد أن ضربوه. بعد ذلك حاولوا إرضاءه بدفع ثلاثة آلاف ريال بحيث يتركهم يدفنون الميت ، لا فى مقابر الكنيسة ، بل فى مقابر كانت للمسلمين قديماً بها ماء وخبز وزبيب. ولما رأى الموريسكيون أنهم لا يستطيعون إغراء القسيس نفخوا الجثة بمنفاخ حتى لم يكن ممكنًا أن يمر الجسد ... لكن القسيس نجح فى محاولته وعوقب الموريسكيون على الفعلة الشنعاء.

ويروى أثنار كاردونا القصة التالية : قدم على الموريسكى بالتاسا – المقيم فى بارباسترو – ابنه العزيز، فلما مات فى بيته بعد مرضه لم ترق لوالده أية كنيسة ولا أية مقبرة بل حاول أن يدفنه فى المقبرة الخاصة بالموريسكيين فى قرية نابال ، فدفنوه وسط أولئك الضالين فوضعوا معه ذهبًا وتينًا وزبيبًا فى فمه وفى الكفن ..."

يقول أثنار – إن تلك العادة شبيهة بعادات الوثنيين.

(٤٥) I. Bleda : *Defensio fidei* ... pag. 36

Ménendez Pidal: *Flor nueva de romances viejos*, pags 115-116

(*) يُعدّ كتاب بدرو لونغاس بحق أفضل كتاب لدراسة الشعائر الإسلامية التى كان الموريسكيون يؤدونها نظراً لأن لونغاس اعتمد على المخطوطات التى خلّفها الموريسكيون أنفسهم ، وقد ترجمنا الكتاب إلى العربية عام ١٩٩٣ ونُشر فى زغوان (تونس) تحت عنوان "الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين". (المترجم)

فى مجموعة القصائد الشعبية التى يذكرها بيدال هناك قصيدة تقول :

تأتى أيام وتمضى أيام
كان عيد القديس خوان
الذى يحتفل به
المسيحيون والمسلمون

وهناك قصيدة أخرى تقول :

كان ذلك فى عيد القديس خوان
وكانت هناك حفلة كبيرة
أقامها المسلمون
فى غوطة غرناطة

انظر :

Gínes Pérez de Hita: *Historia de los vandos de los Zegr?es y Abencerrages*... pags. 46

فهو يشير إلى هذه العادات، أما مؤلف كتاب "رحلة إلى تركيا" ص ١٣١ فهو ينفى أن يكون الأتراك يحتفلون بعيد القديس خـوان. وبالنسبة لعيد اليناير يقـول بليدا (ص ٣٥) إنهم كانو يأكلون sorda y casquetes ويذكر سيمونيث فى المعجم (ص ٦٠٩ – ٦١٠) أن نصارى الأندلس كانوا يحتفلون بذلك العيد.

(٤٦) Bermúdez de Pedraza:*Antigüedad y excelencias de Granada*,fol13

يتحدث أورتادو دى مندوثا عن كهف كانوا يحبسون فيه منْ به جن.

(٤٧) Marmol. Pag 138

(٤٨) Hurtado de Mendoza, pag. 6, 52,87,89,122

أفكار هذا المؤلف حول بقاء الأسماء والأساطير مهمة جداً لأنها تؤكد أنه فى القرن السادس عشر كان هناك وعى بأن جنوب إسبانيا كان به تُراث سابق على دخول الإسلام.

(٤٩) يتحدث أنثار كاربونا عن الشعوذة عند موريسكيى أراغون (ص٣٧، ٤٧، ٤٨، ٤٩) (التنبؤ بالمستقبل) كما يتحدث أيضاً عن ساحرة كان لها تعاملٌ مع الجن (ص٤٩). انظر كذلك:

Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 37 y 40

(٥٠) Saavedra, pags. 148/149

يقول أورتادو دى مندوثا (ص٢٤) إنهم كانوا يعتقدون أن القمر كان يناصرهم ، وأن الشمس كانت تحمى المسيحيين.

(٥١) Lope de Rueda, 1, pags. 129-134

(٥٢) Ruiz de Alarcón, pags. 221-220

(٥٣) A. Gonzalez Palencia: *Las fuentes de la comedia* " Quien mal anda mal acaba, XI pags. 199-222, 247-274.

وهو كتاب هام لمنْ يريد دراسة موضوع التطبيب Curandería

(٥٤) I. Bleda: *Defensio fidei...*,pag 105

(٥٥) Castillo, pags. 80-96

ترجمة ثلاث نبوءات ، أما في صفحة ٦٧-٧٤ فهناك رسالة بعث بها مرابط جزائري إلى ابن أبو وفيها وعظ دينى للفوز بالنصر، وفي صفحة ١٥-٢١ هناك رسالة من المترجم نفسه تتضمن حُججًا تهدف إلى تعريف الموريسكيين بقيمة النبوءات.

(٥٦) Marmol. Pag . 169-174

Hurtado de Mendoza, pags. 23-24

(٥٧) Marmol. Pag 169

(٥٨) Hurtado de Mendoza, pags. 135-136

يشير مارمول (ص٢٨١) إلى وثيقة وقعها هو، وينقل كاستيو (ص٧٧-٧٩) ترجمة رسائل صادرة عنه. هناك دراسات حول النصوص العربية الغرناطية في القرن السادس عشر ولا أستطيع إبداء الرأي بشأنها.

(٥٩) Saavedra, pag. 144-145

Gayangos, 1,pag. 654.

كتب ذلك فقيه لجأ إلى تونس عام ١٦٠٢

(٦٠) يقول أورتادو دى مندوثا(ص٢٦) إنه في لحظة اختيار ابن أمية " قرأ أحد الفقهاء نبوءة" تتعلق بالوضع، لدراسة النبوءات في الأدب الألخميادو ، انظر

انظر : Saavedra, pags. 148-149

(٦١) رأينا (في الملاحظة رقم ١٨ من الفصل الأول) أن معاهدة تسليم غرناطة تنص على بقائهم ، ويذكر ذلك تونييث مولاى (ص٢١٤) أن الاتفاقية تنص على حرية إقامة المسلمين لشعائرهم وعدم المساس بالفقهاء ، ويشير إلى أنه في عهد الراهب إيرناندو دى تالابيرا كان هناك فقهاء ومفتيون وكانوا يتقاضون رواتب (ص٢١٥) .

(٦٢) في صفحة ٣٥٢ يذكر مارمول أن مرابطًا في وقت الثورة كان يعيش في جبال روندا

(٦٣) A. Gonzalez Palencia *Cervantes y Los moriscos* pag.109

يشير غونثاليث بالنثيا إلى أن السيد غريغوريو لوبيث مادير االعمدة قد أجرى بعض التحريات بعد القرار الصادر في ٩ ديسمبر عام ١٦٠٩ فوجد أن الموريسكيين في غرناطة ومرسيه وجيان يصومون رمضان ويحتفلون بعيد العصير خلال شهر سبتمبر وكانوا يغادرون بيوتهم ويقيمون في بيوت لهم بالجبال تحيط بها أشجار العنب ، وكانوا – بحجة عمل الزبيب – يمضون الوقت دون سماع الوعظ ويرقصون رقصة السمرة ويلبسون أزياءً جميلة ، وكانوا يظنون أن الأبناء الذين يُولدون في تلك الأماكن سُعداء الحظ ، وكان لهم احتفال آخر في أول العام يسمى " الغرانون " Granon، فكانوا يتناولون التين باللبن باعتبار أن ذلك أول شيء أكلته آمنة بعد أن أنجبت محمداً. يذكر بالنثيا شعائر أخرى ومحظورات تحدثنا عنها.

(٦٤) E. García Gómez: *Poemas arábigo-andaluces, pags. 47-48.*

(٦٥) I.Bleda: *Defensio fidei*...,pag. 108 y 50

Marcos de Guadajara: *Memorable expulsión*...fol.158

بعد مرور تلك الفترة كان هناك منْ يمدح الموريسكيين لامتناعهم عن شرب الخمر " نظرًا لمضار الخمر ، ويبدو أن ذلك هو سبب استعمال الموريسكيين للماء فاستخدموه فى تفتيت الصخر وزراعة الجبال حتى ظهرت الثمار " هذه هى كلمات

Caxa de Leruela, pag. 12a

(٦٦) يذكر الراهب بدرو دى ألكالا الأسماء العربية لتلك الأماكن التى كانوا يعصرون فيها العنب بالإضافة إلى أماكن صناعة الخمور.

(٦٧) *La Villana de Getafe*, acto II, pag. 395

(٦٨) Miguel Artigas: *Don luis de Gongora y Argote* pags. 367 y 370

(٦٩) Aznar Cardona, fol.34

(٧٠) I.Bleda: *Defensio fidei*...,pags. 52-57

Marcos de Guadajara: Memorable expulsión...fol.158

(٧١) Marmol. Pag 150

كان فى القرى جزار مسيحى وجزار مسلم (مارمول ص٢٠٥) وكانت الحيوانات تُذبح وهى فى اتجاه القبلة.

(٧٢) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión*...fol. 158

يشير إلى ذلك كيبيدو فى هجائه لغونغرا. انظر :

Miguel Artigas: *Don Luis de Gongora*..pag 370

حول الأكلات بصفة عامة انظر :

Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 65 y 74

(٧٣) هذا اللفظ مصدره مشتق من كلمة عربية . انظر

Corominas, 1, pag. 120

García de Diego pag. 43

Steiger, pag. 283

Levi ProvenÇal: *Histoire de d'Espagne musulumane*, III, pag. 169

(٧٤) Marcos de Guadajara: *Memorable expulsión*...fol. 76

بعد ذلك بسنوات كان الدكتور استيبان أسقف أوريويلا يوصى بنفس الإجراء. انظر :

Boronat y Barrachena,1, pags. 651-652

(٧٥) Marcos de Guadajara: *Memorable expulsión*...fol. 77

(٧٦) Marcos de Guadajara: *Memorable expulsión*...fol. 73

" كان أهـل أراغـون الذين لا يُجيـدون اللغة يرسـلون أبناءهم لكى يتـعلموها ولكى يدرسوا القرآن " .
انظر: Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 30 y 31

(٧٧) Ribera y Asín: pags XXI - XXIII.

(٧٨) من الغريب أن يكون موريسكيو أراغون هم الأكثر شهرة كفقهاء فى الفترة التى سبقت الطرد مباشرة.

(٧٩) Duran,1,pag. 1

(٨٠) *La Villana de Getafe* pags 394, 395

(٨١) Gongora, pags. 495-496

(٨٢) انظر الملاحظة رقم ١٠ فى الفصل الثالث

(٨٣) B.A.E.,LIII, pags 518-519, 524-526,528

يقول لوبى إن الموريسكيين كانوا كثيراً ما يخلطون بين حرفى " p " و " b " ، ويذكر لوبى فى مسرحية (الفقر الشريف) La pobreza estimada أن أى مسيحى فى فالنسيا كان بإمكانه أن يتعلم العربية إذا تعامل مع الموريسكيين.

(٨٤) *Epístolas familiares*, II, pag. 251

يحكى نادرة سمعها عن الموريسكيين عام ١٥٢٧ تُروى عن أبى عبدالله الصغير لدى مغادرته غرناطة

(٨٥) *Confesión de los moriscos*, B.A.E.,pag. 484

(٨٦) M. Serrano y Snnz : *Apuntes para una biblioteca de escritores españoles* ... , pag. 212

(٨٧) *Los cortes de la muerte*, B.A.E.,pag. 35

(٨٨) Covarrubias, pag. 1014

(٨٩) Ménendez Pidal: *Poema de Ycuf, materiales para su estudio*, pags. 48-49.

فى الصفحات ٣٧ – ٥١ هناك عرض للغة الموريسكيين

(٩٠) تقليد ثيربانتيس للغة أهل بينكايا فى رواية كيخوتى لا تدل عل الأخطاء الحقيقية التى يرتكبونها عند الحديث بالإسبانية.

(٩١) انظر مثلاً : Jerónimo Munzir, pag. 51

"كانت المرأة ترتدى سروالاً من الكتان تربطه عند خصرها بجوار السرة مثل الراهبات، وفوق السروال كانت المرأة ترتدى قميصًا طويلاً من الكتان ، وفوق القميص عباءة من الصوف أو من الحرير حسب وضعها. وعندما كانت المرأة تخرج كانت تغطى رأسها ووجهها بحث لم يكن يُرى منها إلا العينان ". هنا وصف لملابس الرجال والنساء فى :

Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 26 y 28

(٩٢) وصف ناباخيرو (ص ٧٣-٧٤) للأزياء يعود إلى الفترة التى صدرت فيها قرارات عام ١٥٢٦ ، بعد ذلك بسنوات تجيء صور ويديز Weiditz "صورة لزى البيت الخاص بموريسكيات غرناطة" ، و"صورة لزى البيت الخاص بالموريسكيات وبناتهن"، و"موريسكيات من غرناطة ينهين النسج"، و"موريسكيات يكنسن البيت"، و"زى البيت الخاص بالبنت الموريسكية"، و"زى النزهة لموريسكيات غرناطة"، و"موريسكيو مملكة غرناطة يتنزهون فى الحقول ومعهم النساء والأطفال"، و"موريسكى يحمل خبزاً"، و"رقصة موريسكية".

(٩٣) *Costumbres anciens et modernes*...,II,nums 273 y 274

(٩٤) " *Deí veri ritatti degl'habiti di tute le parti del mundo,* lamna 30

(٩٥) *Civitates arbis terrarum*..., lamina IX

(٩٦) Lamina IV

(٩٧) Marmol. Pag 164

فى وصفه لأزياء فاس يعترف مارمول أن أزياء نساء غرناطة مشابهة لها.

(٩٨) Marmol. Pag 163

(٩٩) Marmol. Pag 163

(١٠٠) Marmol. Pag 163

(١٠١) عندما قتل جندى أخت المالح فى غاليرا كانت تلبس يداً ذهبية . انظر:

Pérez de Hita pag. 679 (parte II)

(١٠٢) يتحدث أثنار كاردونا (ص٣٢) عن زى موريسكيات أراغون ويبدو أنه يشير إلى اختلافات كبيرة.

(١٠٣) Marmol. Pag 164

(١٠٤) Marmol. Pag 349

(١٠٥) Marmol. Pag 286

(١٠٦) Marmol. Pag 184

(١٠٧) Marmol. Pag 257

فى صورة خيريث براون يظهر مسلمون وهم يلعبون بالرماح على جيادهم. ربما كانوا جنوداً يحتفلون أو فرساناً متنكرين ، وكان التنكر فى الحرب من الأشياء المحببة فى القرن الخامس عشر.
انظر : *Crónica del Condestable Miguel Lucas de Iranzo,* pags. 98-102

(١٠٨) Marmol. Pag 163

يشير مارمول إلى القرار الصادر فى عهد الملكة خوانا (انظر الملاحظة رقم ٥١ فى الفصل الأول) أما وضع الهلال فيتحدث عنه غوادالاخارا (ص٥٠) لكن يبدو أنه يشير إلى قرار خاص بالمدجنين فى تاريخ قديم وهو قرار يرد ذكره فى كتاب فيرنانديث إى غونثاليث (ص ٣٩٧ - ٣٩٩) عام ١٤٠٨

(١٠٩) Dlysse robert: *Les signes d'infamie au Hoyen Age*...

(١١٠) Bermúdez de Pedraza: *Historia eslesiástica,* fols. 238

(١١١) Muley, pags. 217-218

يصف نونييث مولاى الحمامات ، ويتضح أن النساء كنّ أكثر ذهاباً إلى الحمامات من الرجال

Hurtado de Mendoza, pag. 22

(١١٢) Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 62

(١١٣) Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 61

لاحظ أنه فى Código de las siete partidas, pag. 439 هناك قرار بشـأن المسلمين واليهـود الذين يتزوجون – وفق شريعتهم – من قريباتهم... ألا يمنع ذلك تحولهم إلى المسيحية فيما بعد.

(١١٤) Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 604

(١١٥) Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios 27

(١١٦) A. Gonzales Palencia: *Cervantes y los moriscos*, pag. 108

(١١٧) A.A. Gonzalez Palencia : *Cervantes y los moriscos*, pag. 108

(١١٨) *Francisco Asensio y Melchor de Santa Cruz*, II, pags. 172-173

(١١٩) Juan de Timeneda: *Sobremesa y alivio de caminantes*, pag. 172.

فى الكتاب تروى هذه الحكاية : " قبل تعميد موريسكيى فالنسيا كان لص قد سرق ملابس من أحد الموريسكيين لكنه أنكر واقعة السرقة ، فلما ذهب الاثنان إلى المحكمة ، وقبل أن يحقق القاضى فى الواقعة تشاجرا وعلا صوتاهما ، وعلم القاضى أن أحدهما موريسكى فقال " اسكت أيها الكلب. لماذا تنبح ؟ " فأجاب الموريسكى " لأننى رأيتُ لصاً ".

(١٢٠) Antonio de Guevara,II,pags. 375-382

خطاب سرى من صديق للمؤلف يُعنفه فيه ويعنف كل أولئك الذين يطلق عليهم اسم "كلاب" أو "مسلمين" و " يهود " ممنْ تحولوا إلى دين المسيح.

(١٢١) *Quijote*, ed. Clemención - toro Gómez, I, pag. 141

فى صفحة ٨٣ من نفس الطبعة حديث عن " فارس الصليب". لاحظ أيضاً أن بيريث دى إيتا ينسب كتابه " تاريخ عائلتى الثغريين وبنى سراج " إلى ابن أمين وهو أحد العلماء ، وترى باولا بلانشارد ديموج محققة الكتاب أن العالم ربما كان ابن الخطيب. وقد نسب ميغيل دى لونا أيضاً كتاب " التاريخ الحقيقى للملك رودريغو " إلى " العالم القائد أبى القاسم طريف بن طارق العربى ".

(١٢٢) هناك دراسات كثيرة حول أدب العرافة عند العرب ، ومنذ سنوات نُشر " الكتاب الكامل فى علامات النجوم " (مدريد ١٩٥٤) وهى ترجمة تمت فى بلاط ألفونسو العاشر لنص كتبه على بن راجل. هناك نصوص أخرى من العصور الوسطى توضح ثقة المسيحيين فى علم المسلمين الخاص بهذا المجال. ويتحدث كتاب" تاريخ الملك ألفونسو الحادى عشر" (ص٣١٠) عن مسلم " يُدعى ابن عتميرو كان عالمًا بالنجوم وبالطبيعة " ، وفى كتاب " تاريخ الملك بدرو الأول " ص ٥٨٦–٥٨٨ (عام ١٣٦٩) هناك نبوءة لابن حاتم وهو عالم غرناطى قيل إنه ابن الخطيب نفسه. انظر : G. Gómez: *Ibin Zomrak*

ويرسم لنا إيرنانو دى بابيثا (ص١٧) صورة لعرافين غرناطيين وهم يتنبأون بحروب كبرى. يظهر المؤلف المزيف لكتاب "فارس الصليب" (أشبيلية ١٥٢٤) – المسلم سرطون – يظهر كساحر حتى لحظة تحوله إلى المسيحية. بالنسبة للأدب الألخميادو الخاص بالعرافة انظر : Saavedra, pag. 158-159

وفى رواية " برسيليس وسيخسموندا " يُشير ثيربانتيس على لسان موريسكى من مملكة فالنسيا إلى نبوءة لجد الموريسكى " وكان عالمًا بالنجوم ، يقول فيها إن إسبانيا لن تكون فيها سوى الديانة المسيحية". يقول أورتادو عن الموريسكين فى زمن الثورة " إن هذا الشعب قد انتشرت فيه العرافة والكهانة لأن أجدادهم كانوا مجاورين لكالديا حيث بدأت تلك العلوم " .

(١٢٣) Fray Luis de León, pag. 3

وهناك صورة للعمارة الإسلامية فى قصيدة ابن عمار المستوحاة من قصة بناء Alijares ثم قتله ملك غرناطة حتى لا يُبنى مثلها.

(١٢٤) هذه الفكرة تتجاوز حدود إسبانيا. داخل إسبانيا يختلط المسلمون بكائنات خرافية مثل "ميريك"، كما يحدث فى إقليم الباسك.

(١٢٥) عندما يتحدث فولتير عن المسلمين الإسبان فى (ص٥٤٢-٥٤٣) فى كتابه

Essai sur les moeurs et l'espint des nations

يقول :

"كانت الفنون مزدهرة ، وكان يشيع اللطف والغزل فى قصور الملوك المسلمين ، وكانت هناك المبارزات التى ربما كانت من ابتكار العرب . كانت لديهم حفلات ومسارح ، وعلى الرغم من خشونتها إلا أنها كانت تبيّن أن الشعوب الأخرى أقل تحضراً من الشعوب المسلمة . كانت قرطبة الإسلامية هى البلد الأوروبى الوحيد الذى تزدهر فيه الكيمياء والهندسة والفلك والطب" .

(١٢٦) Durán, II, pags. 79-140

(١٢٧) انظر مثلاً قصة أنطونيو بيغاس " قصة ابن سراج وشريفة الجميلة " (ص ٥٠٧-٥١٢). انظر كذلك

Durán, II, pags.103-112

Historia de Ozmin y Daraja

وهى قصة قصيرة مُدرجة فى رواية ماتيو أليمان " حياة غوثمان دى الفراتشى " (ص ٢٠٥- ٢١٧)

(١٢٨) Durán, II, pags. 88 - 89

(١٢٩) Durán, II, pags. 113 -122

(١٣٠) Durán, II, pags. 126- 129

(١٣١) Durán, II, pags.130 - 132

(١٣٢) Durán, II, pags. 132 - 140

(١٣٣) Durán, II, pags. 1- 128

وقد جمع دوران حوالى ٢٤٣ قصيدة روائية

(١٣٤) إن ذلك الصراع كان له صدىً فى أيامنا هذه ، فقد سخر منينديث بلايو وآخرون من القصائد الشعبية الموريسكية ، وقالوا بعدم واقعيتها ، وقد بنت محققة كتاب بيريث دى إيتا – باولا بلانشارد ديموج – نظريتها على هذا الأساس. أشارت الباحثة كذلك إلى علاقة تلك القصائد بروايات غرناطية كانت مثار إعجاب الناس فى فرنسا فى القرن الثامن عشر (شاتو بريان) انظر كذلك :

Daniel Bodmer : *Die granadinischen Romanzen in der emopaischen Literatur* (Zurich, 1955)

(١٣٥) لفت غونثاليث بالنثيا الانتباه إلى ذلك فى دراسته " ثيربانتيس والموريسكيون " (ص١٠٧– ١٢٢) ونشر عدة قصائد من كتابى

Romancero general de 1600

Manoxuelo de romances, de Gabriel Lobo Lasso de la Vega.

(١٣٦) *Romancero general de 1600*, I, pags 87 y 220- 221

ها هما فاطمة وشريفة

تبيعان الزبيب والتين

ويقول لاغارتو إيرنانديث

إنهما ترقصان فى الحمراء

(١٣٧) Gabriel Lobo Lasso de la Vege: *Manoxuelo de romances*

وقد ذكره أنخيل غونثاليث بالنثيا فى دراسة " ثيربانتيس والموريسكيون " ص ١٠٧–١٢٢

(١٣٨) المصدران السابقان.

بعد أن كتبت ما سبق تلقيت كتاب مانويل البار "غرناطة والقصائد الشعبية" (غرناطة ١٩٥٦) وقد تناول فيه المؤلف تطور القصائد الغرناطية. بعد ذلك اطلعت على الكتاب القيم الذى نشرته سوليداد كراسكو "مسلم غرناطة فى الأدب" (مدريد ١٩٥٦) هناك باحثون آخرون درسوا الموضوع بتأنٍ. أكتفى الآن بالإشارة إلى كل منْ جورج سيروت، فراد يخاس ليبريرو، ماريا روساليدا دى مالكيل، لوبيث استرادا، مونتسينوس، موراليس أوليبار ، أوروثكو دياث ، رودريغيث نونييو ، سيكو دى لوثينا ، آلان سونس.

الفصل الخامس

١ - توترات فى العالم

منذ عام ١٥٠٠ إلى عام ١٥٦٠ تقريبًا مرت حياة موريسكيي غرناطة وحياة المسيحيين القُدامى بفترات توتر نظرًا للعوامل التى تعرضنا لها. لكن الوضع ازداد حِدةً بسبب توترات أخرى كانت آخذة فى الزيادة خلال تلك الفترة نفسها. لم تكن المجموعات التى تدير شئون المجتمع الغرناطى متفقة فيما بينها. فى ١٢ مايو عام ١٥٣١ كتب الراهب أنطونيو دى غيبارا رسالة إلى أسقف توى Tuy رئيس المحكمة الجديد يقول فيها : " إن أهل هذه البلاد ليسوا - كأهل بلادكم - ماكرين ، متحذلقين ، ولا يجيدون التملُّق"[1] . كانوا معجبين بعاداتهم " القديمة" ، رغم أن تلك العادات لم يكن قد مرّ عليها أكثر من تسعة وثلاثين عامًا".

منذ سقوط غرناطة وحتى قيام الثورة كانت المناصب العُليا والوفود الملكية من نصيب عائلة مندوثا وهى من ألابا Alava أصلاً وتقيم فى قشتالة منذ زمن. كان إنييغو لوبيث دى مندوثا (١٤٣٥ - ١٥١٥) أحد معاونى الملكين الكاثوليكيين ، فكان أول ماركيز لمونديخار وثانى كونت لتنديا، وقد عينه الملكان قائدًا عامًا وقائدًا للحمراء ونائبًا عن الملك. لم تكن سلطاته موضع مناقشة طوال حياته ويعترف الجميع بأنه مارس مهامه باقتدار[2] .

وكان ابنه لويس أورتادو دى مندوثا (١٤٨٩ - ١٥٦٥) رجلاً ماهرًا لدرجة أنه استطاع استخدام الموريسكيين فى حرب الجماعات ، وكان يحظى بثقة كارلوس الأول. وقد ذهب كارلوس الأول إلى غرناطة فى ٤ يونيه عام ١٥٢٦[3]. وإذا كان لويس أورتادو دى مندوثا قد ظل فى شبابه مرتبطًا بغرناطة ، فقد تولى بعد ذلك عدة مناصب خارجها

بحيث أنه اعتباراً من عام ١٥٣٥ أصبحت قيادة مملكة غرناطة في يد ابنه ، وقد سمح الأب لابنه باستخدام لقب كونت تنديا ، واستمر هذا اللقب يحمله أكبر الأبناء في العائلة. كان ابن لويس - كجده - يُسمى إنييغو لوبيث دي مندوثا ، وقد وُلِدَ عام ١٥١١ ومات عام ١٥٨٠ ، وكان هو الذي قام بدور بارز في الحرب ضد الموريسكيين . كان هو أيضًا - في أوائل سنوات قيادته - منْ اصطدم بالمستشارية ، وقد أدى ذلك الصدام - كما سنرى - إلى موقف متأزم. كان إنييغو الحفيد رجلاً عاقلاً وحكيمًا لكنه لم يكن متسامحًا بطبعه ، وكان يفخر بلقبه ومناصبه كما يقول قريبه دييغو أورتادو[٤].

تأسست المستشارية عام ١٥٠٥[٥]، ونحو عام ١٥٤٠ رأتْ أن تكون لصلاحيات القائد العام حدود معينة. أما القائد العام فقد رأى أن المستشارية تتدخل في صميم عمله ، وعلى مدى عشرين عامًا اصطدم الطرفان بدرجات متفاوتة من الشدة. في كتاب " تاريخ عائلة مونديخار" نجد وصفًا دقيقًا لذلك الصدام ، وقد رسم المؤلف صورة قاتمة للمستشارية ، وهذا ليس غريبًا في كتاب يهدف إلى مدح عائلة مونديخار. هناك قرار صدر في القلعة بتاريخ ٦ أبريل عام ١٥٤٤ بشأن فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية تقريبًا [٦]. وفي عام ١٥٤٥ وصلت أنباء قدوم ابن باربروس إلى سواحل إسبانيا فوضعت المملكة على أهبة الاستعداد للحرب. لكن رجال السلطة المدنية - في المرية مثلاً - اعترضوا على أوامر القائد العام، تعاونهم في المستشارية[٧] في ذلك. وفي أثناء حملة وهران اعترض نواب غرناطة والمستشارية على أوامر نائب كونت تنديا السيد بدرو لوباديا [٨]، وبين عامي ١٥٦١ ، ١٥٦٢ دخل رجال المستشارية في قضايا ضد جنود ارتكبوا جرائم بحيث كانت السلطة العسكرية موضع شبهات[٩]، لكن الإهانات المتبادلة كانت شخصية جدا منذ أن ظهر لويس أورتادو دي مندوثا على الساحة كخامس كونت لتنديا. وُلِدَ هذا الكونت عام ١٥٤٣ وكان شابًا وقت اندلاع الثورة. كان طبعه عنيفًا كوالده. في يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٥٦٥ - وأثناء الاحتفال بعيد القديسة كاتالينا - أراد راميريث رئيس المستشارية أن يحتل كرسي الشرف الذي كان يجلس عليه عادةً ممثل عائلة مونديخار فغضب الكونت غضباً شديداً[١٠]. وعندما تولى رئاسة المستشارية السيد بدرو ديثا كانت العداوة بينه وبين عائلة مونديخار شديدة لدرجة أن مؤلف كتاب " تاريخ عائلة مونديخار " لا يتردد في تأكيد أن ثورة الموريسكيين

إنما جاءت نتيجةً لتلك العداوة. يقول المؤلف: " لقد اندلعت الثورة بسبب التنافس بين القائد العام (الكونت) ورئيس المستشارية ، فقد أراد الرئيس بدرو ديتا أن يزيد من اختصاصاته ويقلّص دور السلطة العسكرية التى كانت - حتى ذلك الحين - هى التى تتولى شئون الموريسكيين فى المملكة ، فأقنع الملك بجدوى إصدار قرارات تحظر على الموريسكيين أزياءهم واجتماعاتهم ، وذلك حتى تكون المستشارية هى المسئولة عن إنزال العقوبة بالمخالفين... فلما بالغت المستشارية فى اتباع سياسة الشدة مع المخالفين شعر هؤلاء بأنهم مضطهدون ، وأثارهم كون هذه الإجراءات تهدف إلى الحد من حريتهم فقرروا - من موقع اليائس - أن يموتوا دفاعًا عن حريتهم ولا يتحملوا ذلك الهوان.."[11] .

إن هذا النص - رغم أنه متحيز ، ورغم عدم دقته فى جزئية ما (فقد عُيِّن بدرو دى ديتا رئيسًا للمستشارية عندما كان الموقف قد احتدم) - إلا أنه نص هام. علينا أن نعترف فى البداية بأن حدة طباع شخصين أو ثلاثة قد أثرت كثيراً فى احتدام الموقف. كان الكونت حاد الطباع إلى أقصى حد لدرجة أنه أراد قتل بدرو دى ديتا فى أوج الحرب. وكان ديتا أيضًا حاد الطبع، وهذا نعرفه من واقع وثائق عديدة ومن خلال كتاب "تاريخ عائلة مونديخار" الذى يصوره كإنسان "خشن وغير متعقّل فى الحديث" (ولا يُحسن الكلام)"[12] بعد هذه الأحداث قضى السيد لويس أورتانو دى مندوثا عدة سنوات معتقلاً بسبب حوادث قتل اتُهم بتدبيرها ، ولم يُطلق سراحه إلا بعد موت فيليبى الثانى عام ١٦٠٤[13].

إذا تركنا الأمور الشخصية جانبًا فإن المساجلات بين الطرفين تعكس حالة من التوتر بين طبقة النبلاء والجنود والضباط التابعين لها من جهة ، وبين عناصر السلطة المدنية التى زاد نفوذها فى عصر فيليبى الثانى من جهة أخرى. علينا أن نتحدث أيضًا عن تعارض بين الشخصيات التى تربت فى عصر النهضة وعلى أخلاق متسامحة ، وبين الشخصيات التى تعبر عن التيار المناهض للإصلاح ، وهو التيار الذى سار عليه نهج منْ خلفه فى الحكم[14].

فى عصر كارلوس الأول كانت الأموال تستطيع أن تحصل على أشياء ما، ولم يعد ذلك ممكنًا فى عصر فيليبى الثانى. لاحظ أن ديتا لا تؤثر فيه العوامل الاقتصادية ،

رغم أن هذا لا يعني أن الموظفين الملكيين كانوا بمنأى عن الجشع الذى يتهمون النبلاء به[١٥]. لكن وجهة نظرهم انتصرت فى النهاية ، وهذا كل شىء .

وتتحدث الكتابات التاريخية التى نُشرت بعد مرور الأحداث عن تخبط مستشارى فيليبى الثانى وموظفى المستشارية[١٦].

إن كتابات مارمول (وهو المؤلف الذى لا يميل إلى توجيه النقد إلى الموظفين الملكيين) توحى بأن الأسباب التى أدت إلى قيام ثورة الموريسكيين ترجع إلى النزاع بين كونت تنديا والمحكمة بسبب تنفيذ قرار اتخذه المجمع الملكى المنعقد فى طُليطلة عام ١٥٦٠ يقضى بألا يكون للموريسكيين حق امتلاك عبيد من السود أو من المسلمين، وهو القرار الذى ثاروا ضده [١٧]. حاول كونت تنديا الدفاع عن الموريسكيين ، لكنهم لم يفهموا الأمر على هذا النحو. ترتب على هذه الواقعة تغيُّر فى موقف الكونت ، فطلب بدوره تأكيد قرار صدر عام ١٥٥٢ يحظر على الموريسكيين حمل الأسلحة[١٨]. تأكد القرار وزادت حدة غضب الموريسكيين . لكن هذه المسألة لم تكن هى كل شىء ، بل لم تكن أهم شىء. إن التنافس على السلطة قد أدى إلى طلب إجراء حصر للممتلكات قبل عام ١٥٦٠ . طلب المحامون تعيين قُضاة " لكى تعود إلى الملك أو إلى الخزانة العامة" الممتلكات التى استولى عليها البعض[١٩]. يقول أورتادو دى مندوثا – ذلك الملاحظ المدقق – إن هذا هو السبب الرئيسى فى اندلاع الثورة. " كان المسيحيون الجُدد – وهم أناس ليس لهم صوت ، وليس لهم منْ يُدافع عنهم – يرون أن العقوبة تحل بهم ، إذ كانت الممتلكات التى اشتروها أو ورثوها تنتزع منهم دون أن يسمعهم أحد"[٢٠] إن القرار الذى صدر بهدف التضييق على البعض قد أثار حفيظة الموريسكيين بالدرجة الأولى، فقد كان هؤلاء فى ذلة ، وكان بمقدور الموظفين الملكيين المكلفين بإجراء الحصر مهاجمتهم دون خوف ، وكان الموظفون ينفذون تعليمات الدكتور سانتياغو ، وهو القاضى المسئول عن إعادة الأملاك التى اغتصبها أفراد.

وقد أجرى الرجل – عضو محكمة بايادوليد – بين عام ١٥٥٩ وعام اندلاع الثورة حصراً دقيقًا للأراضى الزراعية فى مملكة غرناطة فزار القُرى وطلب من حائزى الأراضى تقديم عقود موثقة. كان إذا رأى أن حائز الأرض مغتصب لها ألزمه بأن يدفع

إلى صاحب الجلالة مبلغًا من المال، فإذا لم يستطع الدفع صادر الأرض وعرضها للبيع. وقد طُلب من الموريسكيين صكوك الملكية الصادرة أيام حُكم بنى نصر[٢١]. من الواضح أن ذلك الإجراء كان مُبالغًا فيه ، وكان يمكن أن يؤدى إلى اندلاع ثورة لو طُبِّق فى أى مكانٍ آخر. لقد أساء منفذو القانون استخدام سلطاتهم . هكذا استطاع نونييث مولاى – فى الفقرة التى حذفها مارمول – أن يقول : " إننا نسير كل يوم إلى أسوأ. إن الظلم الواقع بنا يزداد كل يوم فى كل شىء ، وبكافة السُّبُل ، سواء بسبب ذلك الذى ذكرته بشأن إجراءات السلطة المدنية أو بسبب إجراءات السلطة الكنسية. إن هذا واضح وليست هناك حاجة للاستعلام عنه "[٢٢].

٢ – موظفو الإدارة والمشرِّعون :

هل ندخل لمدة دقائق إلى عالم الإدارة والأوراق ؟ يبدو أن هذا الأمر مناسب. إن عالم البيروقراطية هو هو ، لا يتغير فى أى مكان ، ولو أن هناك ديكنز غرناطيًا (وهو أمر صعب) لكان قد استخرج من الأوراق مادة تكفى لكتابة روايات غامضة ومعقدة ومأساوية.

كانت مستشارية غرناطة تتكون من رئيس وستة عشر قاضيًا يفصلون فى المنازعات المدنية وأربعة عُمد يحكمون فى قضايا الجنايات ، وثلاثة أعضاء من النبلاء يفصلون فى القضايا التى يكون النبلاء طرفًا فيها، واثنين من النواب. كان بالمستشارية ست صالات: أربع للقضايا المدنية، وصالة للجنايات، وصالة لقضايا النبلاء، وكانت هذه المحكمة بمثابة درجة أولى فى التقاضى المدنى أو الجنائى، وكانت هناك محكمة استئناف كذلك[٢٣]. كان بالمستشارية جمع غفير من الكتبة والحُجاب والمدعين ... إلخ، وبين تشدد القضاة فى تطبيق القانون واستعداد الموظفين الصغار لتقاضى الرشوة وصلت الأمور إلى وضعٍ يستحيل استمراره. يقول دييغو أورتادو دى مندوثا فى إحدى رسائله:

" إن أعضاء المحكمة يتعاملون فيما بينهم كالقطط والكلاب ، وهناك مشاحنات بينهم كالمشاحنات التى توجد فى أديرة الرهبان "[٢٤] شىء معتاد فى كثير من بلاد

جنوب أوروبا أن يكون هناك أناس وضعهم متدنٍ ويُكلفون بتنفيذ قانون صارم(*). أدت قرارات حظر الأسلحة ، وحظر امتلاك العبيد السود ، بالإضافة إلى حصر الملكيات ، إلى شكوك الموريسكيين . بالإضافة إلى ذلك كانت هناك أسباب أخرى للتذمر : الرشاوى والمصائب التى كانت تحل بهم فى " دور الحظ السيئ " أى فى المحاكم ، كما كان الموريسكيون يسمونها [٢٥]. وأدى تدخل السلطة المدنية فى تطبيق العقوبة على ارتكاب الجرائم (وهو أمر كان من اختصاص السلطة العسكرية) إلى وجود حالة من عدم استتباب الأمن ، وهو أمر كان موضع شكوى ماركيز مونديخار فى المذكرة التى قدمها إلى فيليبى الثانى ونشرها موريل فاتيو. يؤكد الماركيز فى المذكرة أن تدخُّل السلطة المدنية قد أدى إلى ارتفاع نسبة الجرائم ، لأن قُطاع الطُرق أو المنفيين لم يعد يتعقبهم الجنود المتدربون على ذلك ، بل عُهِدَ بهذا الدور إلى الخدم وأقرباء الرئيس وأعضاء المحكمة ، وقد أصبح هؤلاء يتقاضون مرتبات عالية نظير عملهم. هؤلاء الجنود المدللون – بدلاً من تعقُّب المجرمين – أصبحوا يلاحقون الموريسكيين الذين ارتكبوا مخالفات فى السابق وظلوا فى قُراهم تطبيقًا لقانون كان يسمح بذلك[٢٦] . من الصعب الآن أن نعرف إلى أى مدى كان السادة مسئولين عن الجرائم التى كانت تُرتكب فى أراضيهم ، لكن من الواضح أن رجال الكنيسة كانوا يتهمون النبلاء بأنهم باعوا أنفسهم للموريسكيين.

فى ذلك الجو الذى تسود فيه الفُرقة ، فى عالم المصالح المتضاربة ذلك ، كانت الاختلافات تزداد بمرور الوقت. أدى تدخل الأسقف إلى تهدئة الوضع . كان الأسقف بدرو غيريرو – نحو عام ١٥٦٥ – مقتنعًا بأن الموريسكيين لنْ يكونوا مسيحيين مخلصين طالما يعيشون بهذه الطريقة ؛ فطالب بتغيير عادات الموريسكيين فى الأوجه التى ذكرناها سابقًا [٢٧]. وفى عام ١٥٦٦ اجتمع قساوسة غرناطة وطلبوا فى نهاية الاجتماع أن تُتخذ إجراءات صارمة ضد الموريسكيين فى مجال العقيدة[٢٨] . بعد الاجتماع وبعد عدة إجراءات شُكلت لجنة من رجال القانون وعلماء اللاهوت والعسكريين (شارك فيها دوق ألبا) لمراجعة كل التشريعات السابقة ، وأمرت اللجنة بتنفيذ القرارات

(*) لاحظ الأثر السلبى لهذا الوضع حاليًا فى كثير من الدول النامية . (المترجم)

الصادرة عام ١٥٢٦ والتي كان قد أُبطل العمل بها بعد أن دفع الموريسكيون ثمانين ألف دوقية[٢٩] . بعد اتخاذ هذا القرار مباشرة عُين السيد بدرو دى ديثا رئيسًا للمستشارية ، وهو رجل يتهمه الكثيرون بعدم المرونة وبانعدام الحس السياسى عنده[٣٠] ، لكنه ليس مسئولاً بمفرده عن كل الأخطاء التى ارتُكبت. فى المراسلات بين خوان دى أوستريا والملك فيليبى الثانى – عندما كان خوان أوستريا على رأس الجيش فى الحرب – هناك فقرات من رسائل كُتبت فى المرحلة الأخيرة للحرب يقول فيها السيد خوان بصراحة "إن عدم استسلام الموريسكيين يعود إلى بقاء بدرو دى ديثا على رأس المستشارية ". إلى هذا الحد كان الموريسكيون يكرهونه ويخشونه بسبب تصرفاته السابقة[٣١].

لكن كابريرا يبرز مسئولية الكاردينال إسبينوسا فى اندلاع الثورة باعتباره رجلاً متشدداً ومعارضًا لوجهة نظر ماركيز مونديخار[٣٢] . فى فقرة مقتضبة من الحديث عن المساعى الفاشلة التى بذلها خوان إنريكث للإبقاء على الوضع كما هو يقول: " لكن الكاردينال الذى لا يتعظ والذى يتحدث فى أمر لا يتعلق بمهنته – يعاونه الملك بهدف السيطرة على الموريسكيين بقوة القانون لا بقوة السلاح – ضغط على الشعب واضطره إلى الثورة ، وأدى إلى قيام حرب خطيرة"[٣٣]

هذان الرجلان – إسبينوسا وديثا – ومعهما آخرون ظنوا أن سلطة الملك تكفى لكى يلتزم الموريسكيون بما يلى :

١ – حظر التحدث والقراءة والكتابة باللغة العربية خلال فترة ثلاث سنوات

٢ – إلغاء كافة العقود التى تُحرر باللغة العربية

٣ – أن تُقدم الكتب العربية التى بحوزة الموريسكيين فى ظرف شهر إلى رئيس محكمة غرناطة ، وأن تُعاد الكتب إلى أصحابها بعد فحصها إذا لم يكن هناك ما يمنع من حيازة الشخص المؤمن لها ، ويتم الاحتفاظ بالكتب المعادة إلى أصحابها لمدة ثلاث سنوات.

٤ – أن يرتدى الموريسكيون ملابس قشتالية ، وألا يرتدوا السراويل ، ولا الملافح ، وأن تسير الموريسكيات فى الشوارع ووجوههن مكشوفة.

٥ – أن يتبع الموريسكيون – في زفافهم وسهراتهم واحتفالاتهم – عادات المسيحيين ، وأن يفتحوا أبواب منازلهم ونوافذها ، وألا يرقصوا رقصة السمرة ، وألا يُقيموا الليالي بأغنيات وآلات موريسكية ، حتى لو كانت الأغنيات لا تتعارض مع المسيحية.

٦ – ألا يوقر الموريسكيون يوم الجمعة.

٧ – ألا يستخدموا أسماءً وألقابًا عربية.

٨ – ألا تتخضب الموريسكيات بالحنّاء .

٩ – ألا يستحم الموريسكيون في الحمامات ، وأن تُهدم الحمامات الموجودة .

١٠ – أن يُطرد " الغُزاة " من إسبانيا ، وألا يكون للموريسكيين عبيد من الغُزاة .

١١ – أن تُراجع التصاريح الخاصة بامتلاك عبيد سود [٣٤].

نُشرَ القرار الخاص بتلك المحظورات في أول يناير عام ١٥٦٧ ، رغم أنه كان قد اتُخِذَ في ١٧ نوفمبر ١٥٦٦[٣٥] . وفي ٢٥ مايو ١٥٦٦ كان قد وصل إلى غرناطة السيد بدرو دي ديثا بعد أن شارك في الاجتماع. وصل إلى غرناطة وهو يتقلد منصبه الجديد[٣٦]. يبدو أنه قد بذل بعض المساعي من أجل تنفيذ القرارات " دون ضجة ". لكن كيف يمكن التفكير في ذلك ؟ لقد تلقى الموريسكيون نشر القرار باستياء كبير[٣٧]، وعَهِدوا إلى السيد فرانثيسكو نوييث مولاي أن يعارض القرار ، وقد قام مولاي بذلك في المذكرة التي حذف مارمول فقرات منها ، وهي منكرة عظيمة الأهمية[٣٨].

كان مولاي رجلاً مسنًا ، فهو نفسه يقول إنه كان مساعداً للراهب إيرناندو دي تالابيرا أول أسقف لغرناطة ، وإنه قد رافق الأسقف في زيارة إلى البشرات عام ١٥٠٢، وإن الأسقف كان رجلاً متسامحًا [٣٩] . في عام ١٥١٣ التقى مولاي بالملك فيرناندو حتى ينفذ رئيس المستشارية بعض طلبات الموريسكيين [٤٠]. وفي عام ١٥١٨ سافر مع ماركيز مونديخار إلى العاصمة للتفاوض بشأن المبالغ التي يجب أن يدفعها الموريسكيون مقابل إلغاء القرار الذي أصدره الملك والخاص بالملابس[٤١]. وفي عام ١٥٢٣ يظهر مولاي وهو يعترض على قرار خاص بالزواج والتعميد ، وحظر أن

يعمل الموريسكيون كجزارين. وعندما كان الإمبراطور فى غرناطة عام ١٥٢٦ كان مولاى هو المكلف بتقديم الشكر إليه لأنه أمر باتخاذ القرارات التى تحدثنا عنها مقابل دفع ضريبة باهظة (٤٢). بعد ذلك بسنوات ، وفى عام ١٥٥٩ نرى مولاى وهو يطالب بمكافأة عن خدماته التى أداها للموريسكيين لأنه كان قد أفلس(٤٣).

لم يكن الوقت مناسباً لذلك المحامى الموريسكى المسكين عندما طلبوا منه أن يُقدم آخر وأشهر مرافعاته. ذهبت الحُجج التى ساقها أدراج الرياح. يقول كابريرا دى كوردوبا إن ديثا - بعد أن سمع المرافعة - قال بجفاء : " إنها نفس الحُجج القديمة ، وليست كافية لإلغاء القرار "(٤٤).

كانت هناك مساعٍ أخرى لم تُفدْ شيئًا . لقد سافر ماركيز مونديخار نفسه إلى العاصمة لكى يطلب ألا يُنفذ القرار، ورغم أن مجلس الحرب قابله بترحاب وتفهّم وجهة نظره إلا أن الكاردينال إسبينوسا(٤٥) رفض مطلبه بشكلٍ قاطعٍ ، وكان الكاردينال أكثر فظاظة مع السيد خوان إنريكيث الذى قام هو الآخر بمسعى مماثل(٤٦). كانت هناك رغبة فى القضاء بشكلٍ تامٍ على نمط اجتماعى بأكمله، على ثقافة بأكملها. كانت الرغبة فى ذلك واضحة ، ولم يكن هناك شىء يمكن أن يقف أمامها. لا شىء إلا الحرب.

٣ - التغيير الاجتماعى :

ما هو ذلك التغيير الذى حدث حتى يظن أحد أن جرة قلم تكفى لإلغاء تُراث استمر لعدة قرون ؟ لم تكن غرناطة بالفعل هى تلك المدينة التى رآها مُنتزر ، ولا حتى ناباخيرو ، بل كانت مدينة سيطر المسيحيون القُدامى فيها على ممتلكات كثيرة.

لكى نوضح الشكل المختلط ومتعدد الثقافة لتنظيمات غرناطة يكفى أن تراجع اللوائح المنظمة الصادرة عام ١٥٥٢ ، وأن نركز بصفة خاصة على تلك البنود التى تُشير إلى الوظائف العامة .

على ضوء إجراءات ٢٠ سبتمبر عام ١٥٠٠ كانت هناك فى غرناطة مناصب بلدية عديدة. كان بها ٢٤ مراجعًا يُعرف منصب كل منهم بأنه ٢٤ ، وكان كل عضو منهم

يرث المنصب عن أبيه ، وكان يتقاضى راتبًا قدره ثلاثة آلاف مرابطى فى العام. وكان من بين هؤلاء منْ ينحدرون من أصول موريسكية مثل إيرناندو دى بالور [٤٧]. وكان هناك أيضًا عمدتان عاديان يتقاضى كل منهما خمسة آلاف مرابطى، وحاجب أكبر يعاونه خمسة مساعدين ، وعشرون مُحلّفًا موزعون على الأحياء ، وكان من بين هؤلاء أيضًا موريسكيون[٤٨] .

وكان هناك عشرون كاتبًا عامًا بالإضافة إلى كاتب خاص بالبلدية يتقاضى راتبًا قدره خمسة آلاف مرابطى. وكان هناك كبير الموظفين يُختار كل عامين ، وكان مُكلفًا بتحصيل مستحقات البلدية، وكان هناك مدعٍ[٤٩] و "عامل" يقوم بأعمال البلدية ويتقاضى مرتبًا قدره ثلاثة آلاف مرابطى فى العام. أما بوّاب المجمع الكنسى فكان منصبه ثانويًا. من المهم أن نُبرز الآن وجود أربعة مترجمين واثنى عشر مناديًا من بينهم ستة منادين باللغة العربية وستة بالإسبانية. وكان هناك جلادٌ لكل لغة. ربما يندهش الإنسان المعاصر إذ علم أن المدينة كانت تعترف بسلطة ستة سماسرة من بينهم أربعة سماسرة للعبيد والدواب ، واثنان للمتلكات الموروثة[٥٠]. بالنسبة للنشاط التجارى كان هناك مفتشون معظمهم مسيحيون ، لكن كان هناك موريسكيون أيضًا لا أستطيع تحديد نسبة عددهم. كان أعلى المراقبين من حيث الراتب هو مراقب الميزان، وكان يتقاضى خمسة عشر ألف مرابطى فى العام. وكان هناك مراقب للموازين فى البشرات يتقاضى ثلاثة آلاف مرابطى ، ومراقب للجزارة يتقاضى نفس الراتب ومراقب للتأكد من دقة الموازين يتقاضى مرتبًا قدره سبعة آلاف مرابطى فى العام. كان هناك ثلاثة مراقبين لمراجعة أوزان الدقيق يتقاضى كل منهم ستة آلاف مرابطى ، ومراقب سوق الغلال ، ومراقب الجلود ، ومراقب للخبز والخمر يتقاضى كل منهم ثلاثة آلاف مرابطى ويتم اختيارهم سنويًا[٥١] . وكان يتم اختيار محامٍ عن المسجونين الفقراء كل عام ، وكان يتقاضى أربعة آلاف مرابطى ، أما مدّعى المدينة فكان يتقاضى ثلاثة آلاف مرابطى ، وكان يجرى اختياره كل عامين. وبالإضافة إلى ما تقدم كان هناك مدّعٍ للمسجونين الفقراء براتب قدره ثلاثة آلاف مرابطى و "معالج" للفقراء براتب قدره خمسة آلاف مرابطى ورئيس للمذبح يتقاضى خمسة آلاف مرابطى ، ومراقب لأوزان اللحوم والأسماك براتب قدره أربعة آلاف مرابطى ، ويتم اختياره سنويًا [٥٢].

أما " مراقبو المدينة " – وهم مختلفون عن مراقبى الموازين والمقاييس... إلخ – فكان يتم اختيارهم سنويًا ، وكان عددهم ستة : أربعة من المسيحيين القُدامى ، واثنان من الموريسكيين ، ولم يكن لهم راتب يتقاضونه. إلا أنهم كانوا يتقاضون ثلث قيمة الغرامات المحصلة. وفى الوقت نفسه كان هناك أربعة مراقبين للحقول: اثنان من المسيحيين القُدامى ، واثنان من الموريسكيين ، ولم يكونوا يتقاضون مرتبات ، وكان هناك مراقبون للسواقى بنفس النظام(٥٣). وكان هناك أيضًا " أمناء التركات" وكانوا ثلاثة فى المناطق الريفية : اثنان من المسيحيين القُدامى وواحد موريسكى ، ولم يكونوا يتقاضون أجورًا(٥٤).

كانت غرناطة – بلاشك – تتطلب أكبر قدر من المراقبة الشرطية ، وينعكس هذا الوضع فى قرارات عام ١٥٥٢ ، وهى قرارات تستند إلى ما كان معمولاً به فى فترة حكم بنى نصر. تحتل " اللوائح المنظمة للمياه" جزءًا كبيرًا من تلك القرارات. كان هناك خمسة مسئولين عن السواقى: واحد مختص بالسواقى الموجودة فى داخل المدينة، وواحد عن سواقى الرميلة ، وواحد عن السواقى الملكية، وواحد عن سواقى مورور ، وواحد مسئول عن الرى من نهرى دارو وشنيل(٥٥). وفى أعلى ذلك التنظيم كان هناك مراقبان للمياه يتم اختيارهما من بين المحلفين الخمسة والعشرين ، ويتقاضى كل منهما أربعة آلاف مرابطى ويتم اختيارهما سنويا (٥٦).

وكان هناك مسئول عن النظافة يتولى عمله لمدة عام (٥٧). وكان هناك مسئولان عن حماية الجبال والغابات من أذى الأفراد والدواب ، وكان يتم اختيارهما كل عام ، وكان يُطلق عليهما لقب "فرسان الجبل" ، وكان هناك اثنا عشر حارسًا للجبل(٥٨). كانت القرارات الخاصة بقطع وحماية الغابات(٥٩) وحماية الجبال(٦٠) والزراعات مستمدة من الأمور المعهودة فى الشعوب المسيحية فى شبه الجزيرة. لكن كانت هناك قرارات أخرى صدرت عام ١٥٥٢ أيضًا تبين كيف كانت المدينة طوال فترة كبيرة مسرحًا لعادات تدخل فى إطار عصر الإسلام المتدهور لا فى إطار إسبانى(٦١). فعلى سبيل المثال فى ١١ سبتمبر عام ١٥٢٧ صدر قرار يحظر " أن يرتدى رجل ثياب امرأة"(٦٢) ، وهو قرار غريب ويتفق مع ما هو معلوم عن بعض المدن الإسلامية فى العصور الوسطى مثل إشبيلية ومُدن إفريقية أخرى. فى ذلك الوقت كان هناك رجال

يرتدون زى النساء ، بل وكانوا يعملون فى حرف نسائية كذلك وسط استهجان المراقبين والرحالة[٦٣]. إن القرارات الخاصة بالشباب المتشردين[٦٤] والصبية – الذين كان يقوم على شئونهم شخص يُدعى "أبوالصبية"[٦٥] – تلك القرارات تقدم لنا فكرة عن تشابه الحياة فى غرناطة فى منتصف القرن السادس عشر مع الحياة فى فاس أو فى غيرها من المدن المغربية.

هذا يفسر بروز شخصيات غامضة حينئذٍ ، كما سبق أن حدث فى أماكن أخرى اختلط فيها الموريسكيون والمسيحيون القُدامى . فى هذا الصدد تبرز قصة شخص من قرطبة يُدعى خوان ديل بوثو كان ابنًا غير شرعى ثم اعترف ببنوته بعد ذلك لمسيحى وموريسكية ، فلما سُجن فى وهران أسلم (واتخذ سليمان اسمًا له) وكان مستشار الملك فى معركة القصر الكبير. هذه القصة توضح لنا التأثير الكبير الذى تخلفه الأم فى أبنائها أحيانًا[٦٦]. لكن من الأغرب أن منْ يحكيها يخلط المعتقدات الشعبية بحكاية مؤداها أن أطفال المسيحيين القُدامى – أمًا وأبًا – الذين كانت ترضعهم موريسكية ، يرثون عنها العادات الإسلامية[٦٧]. إن الخوف من " عدوى الدين" يتضح أيضًا فى بعض القضايا التى نظرتها محكمة التفتيش ضد مسيحيين أسلموا ، وكان هؤلاء كثيرين إلى حدٍ ما[٦٨] . وباختصار فإن غرناطة فى منتصف القرن السادس عشر كانت قد أصبحت مسيحية ، لكن القرار الذى صدر عام ١٥٦٧ كان سابقًا لأوانه ، ولا نشك فى أن الآثار التى ترتبت عليه كانت واضحة جدا.

٤ – عوامل حالت دون الاندماج :

كانت الحرب التى خاضها الموريسكيون ضد المسيحيين القُدامى – والتى استمرت بين عامى ١٥٦٨ – ١٥٧٠ – فترةً ظهرت فيها بشكلٍ مبالغ فيه خصائص كل جانب. أصبح المسلم مسلمًا أكثر ، وأصبح المسيحى مسيحيًا أكثر، على الأقل من حيث إظهار المعتقدات. دأب كل جانب على استعمال الرمز الدينى عنده. شاع السلب والعنف أو أصبحا أكثر شيوعًا من ذى قبل ، ويبررهما الجانبان بأسباب دينية.

لا نستطيع أن نقول إن الجانبين لم يكن فيهما منْ يستعمل العنف قبل ذلك. فى الجانب الموريسكى كان أنصار العمل المباشر يدعمون مجموعات قُطاع الطريق الذين سنتحدث عنهم الآن.

كان قُطاع الطريق على الدوام يتخذون من جنوب إسبانيا مسرحاً لعملياتهم. منذ العصر الرومانى وحتى الآن كانت هناك مناطق ينتشر فيها قطع الطريق : سيرا مورينا والجبال الواقعة بالقرب من البحر وأشهرها منطقة رونده. من العسير أن نجد تفسيراً واحداً لعمليات قطع الطريق فى أندلوثيا، ففى كل عصر كانت هناك أسباب ظاهرة مختلفة ، ومع ذلك فقد كانت هناك دائماً ثلاثة عوامل تؤدى إليه:

١ - تذمر الطبقات الفقيرة إزاء الوضع الاقتصادى ، من العبيد قديماً إلى نصارى الأندلس والموريسكيين أو العمال فى العصر الحديث.

٢ - وعورة مساحة شاسعة من الأرض غير مسكونة.

٣ - تمركز الثروة فى المدينة ، وفى أوساط معينة ، واتصال الأثرياء بالطبقة المُعدمة. ونعلم أنه فى العصر الرومانى كان هناك قُطاع طرق فى سيرا مورينا[٦٩] ، ونعلم كذلك أن بعض قُرى الجنوب كانت تشتهر بسطوها على قبائل التجار[٧٠]. بعد ذلك عرفنا أسماء قُطاع طريق مشهورين هددوا خلفاء قرطبة، وقد نشر المستعربون نصاً لابن حوقل يوضح العلاقة بين بؤس العمال ذوى الأصول المسيحية وبنى ما عُرف بعد ذلك باسم " القلاقل الريفية"[٧١] . كان السطو فى العصور القديمة ثم الوسطى له أسباب سياسية واجتماعية . وفى عصر الموريسكيين كان لابد أن يحدث نفس الشىء ، وكان لابد أن يحدث ذلك أيضاً فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إن قاطع الطريق يُصبح قاطع طريق بعد سلسلة مراحل نلخصها فيما يلى: شاب قروى من عائلة متواضعة أو عادية يرتكب جريمةً ما ، كأن يجرح شخصاً فى مشاجرة أو أن يسرق شيئاً. قبل أو بعد أن يعاقبه القانون يهرب ويتجه إلى الجبل. يبحث عن آخرين يكونون فى مثل حالته، ويختلط بهم ثم يبدأ نشاطه. يكبر سن قاطع الطريق إلا إذا قُتِلَ فجأة . وهناك حالات - مثل حالة خوسيه ماريا تيمبرانيو الشهير - تحول فيها قاطع الطريق إلى مرشد للشرطة[٧٢]. ويمكننا أن نذكر نموذج قاطع الطريق الذى قضى حياةً

حافلة بالجـرائم ثم حوّله المجتمع - الذى عانى مـن إجـرامه - إلى شـرطى قـروى أو مـراقب طريق أو حـارس للمسـافرين. هذا النمـوذج نجده فى فـالنسـيـا فى القـرن التاسع عشـر. لكن من العجيب كذلك أن إسبانيا الإسلامية كان بها نفس النموذج ، إذ يروى المقرى أنه فى عصـر المعتمد بن عباد كان هناك قـاطع طريق يُدعى البازى الأشـهب. اعـتُقلَ البـازى الأشـهب ، وصـدر الحكم عليه ، وفـى الوقت الذى كـان فـيـه مصلوبًا ليَراه النَاس فكر فى حـيلة خدع بها شخصًا ، وأعـان بهـا أسرته التى ظلت بلا عائل، لدرجة أن المعتمد بن عباد عفا عنه ، وجعله على رأس مجموعة من الشجعان كحارس للضواحى بمدينة إشبيلية(٧٣).

كانت علاقة الشرطة - والأثرياء - بقُطاع الطريق علاقة غامضة. لقد قيل إنه فى القرن التاسع عشر كان بعض الإقطاعيين الإسبان على صلة بقطاع الطريق فى جبال ملقة ، وفى القرن السادس عشر اتُهم سادة مملكة غرناطة بنفس الشىء. حاول ماركيز مونديخار تبرير تلك العلاقة ، لكن مـارمـول قال بوضوح شديد إن سادة القرى كانوا يتـواطئـون مع المورسكيين الذين يرتكبـون جـرائم ويختـبـئـون فى أمـاكن سيـادتهم وينطلقون منها لارتكاب جرائم. كانوا يحصلون من قُطاع الطرق على فوائد جمة(٧٤). كان يطلق عليهم لقب " منفيون"(٧٥) ولعل بيرمـوديث دى بيدراثا أفضل من مارمـول فى عرضه لوضع "المنفيين" . إنه يقول فى كتـاب " تاريخ الكنيسـة" : كانت هناك فى مملكة غرناطة عـادة قديمة هى أن يـختـبئ مرتكبـو الجـرائم فى أمـاكن السـيـادة. كـان ذلك التواطؤ أمراً سيئًا ، وكان من المعتقد أن ذلك يؤدى إلى مزيد من الجرائم حيث كان يعطّل سير العدالة ؛ لهذا فقد أمر السـادة بأن يمنعوا تواجد قُطاع الطريق فى أماكن سيـادتهم" ، ويُضيف بعد ذلك : " كان أولئك المنفيون يعملون فى وظائفهم فى الأمـاكن التى يتـواجـدون بهـا . كـانوا يتـزوجـون ويزرعون الأرض ، وكـانوا يشـعـرون بمـزيد من الأمان وسط أبنائهم وزوجاتهم. ثم مُنعَتْ عنهم حصانة الاختباء فى الكنائس بعد ثلاثة أيام... فذهبوا إلى الجبال وتحصنوا بها . وكانوا ينطلقون من أماكن تواجدهم فى الجبال ليرتكبوا أعـمـال السرقة والقتل ..." (٧٦). كان من العدل أن تحاول المحكمة الحدّ من نشاطهم، لكن طريقة تنفيذ ذلك كانت متخبطة كما يقول كابريرا دى كوردوبا ، إذ يُشير إلى أنه بعد صدور قرار يحظر اختبـاء قُطاع الطريق فى أماكن السيادة قام الرئيس

ألونسو دي سانتيانا بتشكيل مجموعات من ثمانية أشخاص مسلحين " فكان كمن وضع دواءً ضعيفًا للجسم فلم يُعالج ..." [٧٧]. إن المقارنة تعكس عدم الاتفاق الذى كان سائدًا ، وكون القانون لا تحميه قوة كافية لتنفيذه.

كان قُطاع الطريق عبارة عن مجموعات كما كان الحال فى القرن السابع عشر[٧٨]. وكان لكل مجموعة قائد ، وقد اشتهر بعض هؤلاء القادة أحيانًا[٧٩] . كان أعضاء تلك الجماعات معروفين ، وكانت شهرة بعضهم فى مجالات معينة معروفة كذلك. يتحدث مارمول بإسهاب عن أخوين من بيرشول فى البشرات لوبى هما وغونثالو سنيث[٨٠] اللذان ارتكبا عددًا لا يُحصى من الجرائم ، واللذان قتلا تاجرًا يُدعى انثيسو ومسيحيين آخرين[٨١] قبل اندلاع الثورة. ولما كانت القرى التى تُرتكب فيها جرائم يُطلب منها تسليم المجرمين أو دفع تعويضات فقد اختار الأخوان مكانًا يقع بين خمسة قرى لكى ينطلقا منه ويسرقا أموال الناس[٨٢] . كان غونثالو سنيث قبل أن يصبح قاطع طريق قد قضى أربع سنوات فى سجن غرناطة لارتكابه جريمة قتل. لم يخرج من السجن إلا قبل عام واحد من اندلاع الثورة، وبمجرد خروجه من السجن ارتكب الجريمة المشار إليها[٨٣]. تضاعفت أعداد جماعات قُطاع الطريق فى ذلك الحين وتجرأ "المنفيون" – الذين شكلوا جماعات مسلحة – على فعل أى شيء. كان من النادر أن يمر يوم لا تصل فيه إلى مدينة غرناطة جثة شخص مقتول عُثِرَ عليها فى الحقول ، وقد مُثِّل ببعضها "[٨٤].

استغل أحد زعماء الثورة – وهو فرج بن فرج – فى اللحظات الأولى مائتين من قُطاع الطريق واتخذهم معاونين رئيسيين له[٨٥] . كانت جرائم " المنفيين" وضربات الموريسكيين تتم بالتنسيق مع القراصنة الأتراك والبربر الذين كانوا يهددون السواحل الإسبانية باستمرار ، وكانت سفنهم ترسو فى موانيء غرناطة غالبًا[٨٦]. ومن بين "القرارات التى أصدرها صاحب الجلالة مليكنا فيليبى مولانا والخاصة بالعقوبات التى تُطبق على من يُؤْوون المنفيين والأتراك أو المسلمين" والتى نُشرت عام ١٥٦٨ هناك قرار كان قد صدر عام ١٥١٤ [٨٧]. إننا اليوم لا نتخيل معنى ومدى التهديد البحرى التركى وكذلك التهديد الذى يمثله شمال إفريقيا – فى نفسية المواطن الإسبانى فى القرن السادس عشر ، فقد كان ذلك المواطن يفكر فى احتمال أن يقوم غير المسيحيين

بغزو إسبانيا من جديد. كانت مهاجمة القراصنة الذين كانوا ينطلقون من الجزائر وتطوان ، ومن حصون أخرى فى سواحل إفريقيا ، تثير القلق باستمرار (٨٨)، ويحفل الأدب الإسبانى فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر بإشارات إلى هجوم القراصنة وإلى المساعدة التى كان القرويون الموريسكيون الغرناطيون والفالنسيون يقدمونها لأولئك القراصنة(٨٩) . هناك نص كتبه مارمول يبين كيف كان أهل سواحل البشرات " يستقبلون الأتراك والبربر فى قراهم وبيوتهم ويرشدونهم لكى يقوموا بأعمال قتل وسرقة وأسر المسيحيين ، بل كان الموريسكيون أنفسهم يأسرون المسيحيين ويبيعونهم للأتراك "(٩٠) .

هناك عنصر ثالث كان يُثير الفزع دائمًا وهو مجموعة "الشجعان" **gandules** . لقد بقيت هذه الكلمة فى اللغة الإسبانية ولكن بمعنى "مهمل" أو انسان بمقدوره أن يعمل ، وأن يقوم بدور مفيد لكنه أخلد إلى الكسل . من هذه الكلمة اشتُقَّ فعل **gandulear** (٩١) . لكن الشباب الشجعان الغرناطيين لا يشبهون الكسالى إلا قليلاً. كان "الشجاع" عضواً فى شىء يشبه الفصيلة. فى غرناطة – كما هو الحال فى فاس ، وهذا وجه شبه آخر بين المدنيين(٩٢) – كان كل حى يميزه مسجد ، وكان لكل حى قائد وراية ، وكان القائد يجمع شباب الحى للحرب. وفى البيازين وقت الثورة يبدو أن أولئك الشباب كانوا قد استعدوا للتوجه إلى ميدان الحرب(٩٣).

كان " المنفيون" والقراصنة و "الشجعان" هم عناصر الثورة عند الموريسكيين . وعلى الجانب المسيحى كانت هناك عناصر قوة أيضًا قبل الثورة. يتحدث المسيحيون عن تجاوزات الموريسكيين ، لكن الموريسكيين بدورهم يتحدثون عن تجاوزات من قبل المسيحيين.

كان هناك فى غرناطة – بالإضافة إلى موظفى المستشارية ورجال القانون الذين ذكرناهم – موظفون آخرون يتبعون أحد المراجعين ، وكان لهذا المراجع نائبان ، أحدهما يختص بالقضايا المدنية والآخر يختص بقضايا الجنايات(٩٤). وكان هناك أيضًا قُضاة يفصلون فى قضايا التجارة والماء والأمتعة المصادرة ، وكان لهم مساعدون(٩٥). لكن لم يكن ذلك فقط هو الذى يؤدى إلى تشابك وتعقيد الحياة العامة

فى غرناطة. بالإضافة إلى كل ذلك كانت هناك " محكمة الأخوة المقدسة " التى تأسست عام ١٤٧٦ " للنظر فى قضايا السلب والسرقة والنهب التى تحدث عادة فى الحقول ". وكان أعضاء تلك المحكمة يُختارون من بين الأربعة والعشرين ، وكانوا يفصلون فى المنازعات التى تحدث خارج أسوار المدينة(٩٦). كان هناك عنصر مراقبة آخر يتمثل فى المتعاونين مع محكمة التفتيش ، وكان هؤلاء ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة من صيادلة(٩٧) وفلاحين (٩٨). ومن ناحية أخرى كان القساوسة والرهبان يقومون بدور بارز فى تعليم الدين المسيحى ، وكانوا يسيئون معاملة منْ يتخلفون عن الحضور أو منْ يتخلفون عن الدفع. حول تجاوزات القساوسة والرهبان هناك دليلان للإثبات : أولهما شهادة الموريسكيين أنفسهم ، والثانى يتمثل فى لوائح أسقفية غرناطة التى نُشرت بعد الاجتماع الكنسى بين عامى ١٥٦٥ – ١٥٦٦ . هذا القرار أدى إلى احتجاجات عارمة، وبسبب الاحتجاجات لم تُنشر مواد القانون. من بين اللوائح الخاصة بالمسيحيين الجُدد هناك أمر يقضى بألا يحصل القساوسة على أكثر من حقوقهم" وألا يتلقوا مواشى أو دواجن أو لحومًا(٩٩) (كهدية) وهناك بند آخر يقرر شيئًا مشابهًا بالنسبة للزواج(١٠٠). وهناك بند ثالث يأمر بألا يفرض القساوسة غرامات أو رسومًا أخرى على المسجلين بالكنيسة خاصة الموريسكيين وذلك بتلقى الخبز والنبيذ والطيور وورق التوت ، وألا يستخدم القساوسة الموريسكيين فى القيام بأعمال خاصة لصالح القساوسة فى أيام الراحة، وألا يطلق القساوسة ألفاظًا نابية على الموريسكيين مثل "المسلمين الكلاب"، وألا يقوم القساوسة بانتهاكات أخرى(١٠١) كانوا يقومون بها دون شك ، فلو لم يكونوا يقومون بها لما كانت تلك البنود أصلاً.

وفى رسالة كتبها باللغة العربية الزعيم ابن داود – وهو أحد منظمى الثورة – يطلب فيها العون من مسلمى البربر، وهى رسالة وقعت فى أيدى المسيحيين وترجمها كاستيو ، يشير ابن داود من جانبه إلى تلك الانتهاكات التى تعرَّض لها الموريسكيون يومًا بعد يوم بشكلٍ واضح.

وفيما يلى – على سبيل المثال – ما يذكره ابن داود عن تصرفات القساوسة بعد أن يصف القُداس وصفًا ساخرًا: "إنهم يسجلون كل الحاضرين – كبارًا كانوا أو صغارًا – فى ورقة. وبعد مرور أربعة أشهر يذهب الراهب العدو لتحصيل الرسوم من

البيوت التي يشك فيها فيمر على جميع البيوت ويكتب على كل باب بالحبر ، ومن يفقد الإيصال يجب أن يدفع غرامة قدرها ربع فضة"[١٠٢] هنا يمكن أن يقول في الرسالة نفسها إن عامة الموريسكيين كانوا في أيدي المسيحيين كالفريسة بين مخالب النسر[١٠٣].

كان وضع الموظف المسيحي الصغير قبل الثورة هو وضع من يمارس سلطة على أشخاص لا يتمتعون بالحماية . وقد خالف هؤلاء الموظفون معاهدة تسليم غرناطة التي حررها فيما يبدو شخص يعلم مواطن ضعف بني الإنسان. سنكتفي بمثلٍ واحدٍ . يقول مارمول عن كتبة وحُجاب أوخيخار " إن معظمهم كان متزوجًا في غرناطة " وإنهم كانوا يقضون أيام الأعياد والإجازات مع زوجاتهم ، وكانوا – وهم في الطريق إلى بيوتهم – يسلبون من الموريسكيين الدجاج والعسل والفاكهة والنقود[١٠٤] .

٥ – أحداث سبقت الثورة :

أدى بطء الإجراءات الروتينية في عهد فيليبي الثاني إلى تمكن الموريسكيين من القيام ببعض الاستعدادات . كانت القرارات قد نشرت في أول يناير عام ١٥٦٧ كما ذكرنا ، وكانت الفترة من هذا التاريخ وحتى ديسمبر عام ١٥٦٨ عبارة عن دسائس ومساعٍ ومؤامرات. كان للموريسكيين في غرناطة مستشفى وجمعية. وكانوا يجتمعون في المستشفى ، لا لكي يقوموا بأعمال خيرية وإنما للتخطيط وتناقل الأخبار[١٠٥] . من ناحية أخرى كانت هناك اجتماعات في بيوت الأسر المعروفة، يعقدها الزعماء ومنهم من كان يصل من البشرات . وقد قرر الزعماء – كما يروي كابريرا دي كوردوبا – أن تتناقل كل " حالة اجتماعية " الأخبار فيما بينها : " أمروا أن ينقل المتزوج الأخبار للمتزوجين ، والأرمل للأرامل والأعزب للعزاب ، وأن يتأكد كل منهم من عزيمة الآخر وكتمانه للسر"[١٠٦].

إن معرفة أن الاستعدادات كان وراءها تخطيط جعلت بيريث دي إيتا – وهو المعبر عن رأي الناس – يقول " بهذه الطريقة اندلعت الثورة في أماكن أخرى

كثيرة وامتلأت الكهوف الوعرة بالناس، وتجمّع السلاح والدقيق والزيت ومؤن أخرى تكفى لمدة ست سنوات "(١٠٧).

ويعكس أورتادو دى مندوثا التردد والشكوك التى كانت لدى البعض والبعض الآخر خلال ذلك العام ، ويرى أن موقف " الصغير " فى اجتماع ٢٧ سبتمبر ١٥٦٨ كان حاسمًا ، فقد اقترح تنصيب ملك أو شيخ أو قائد لكل الثوار لكى يتحد الجميع ولكى تكون هناك سلطة للقرارات المتخذة (١٠٨). وقد نُصّب السيد إيرناندو دى بالور – ابن أخ الصغير – ملكًا باعتباره ينحدر من نسل خلفاء قرطبة وسمى ابن أمية(١٠٩) ، لكن الانتظار استمر بعد ذلك عدة أشهر. كانوا يريدون توجيه الضربة فى عز الشتاء. فى أثناء ذلك كان التخبط والاختلاف سائدين فى أوساط السلطات المسيحية(١١٠).

هوامش الفصل الخامس

(١) Fray Antonio de Guevara: *Epístolas*, 1, pags. 121-122

(٢) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols. 166 y 277

وفى السنوات الأخيرة نُشرت مراسلات كونت تنديا (١٥٠٨-١٥٠٩) فى :

Archivo documental español (de la Real Academia de la Historia, Madrid, 1973)

وفيها ترجمة حياة الكونت (ص ٧ – ٢٤٧)

(٣) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols.278 y 329

لمعرفة تحركات الموريسكيين انظر ص ٢٨٩ – ٢٩٠ ، وفى ص ٢٩٤ إشارة إلى زيارة كارلوس الأول.

(٤) أورتانو دى مندوثا ص ، ١١ سيرة حياة دييغو الثانى (الحفيد) نجدها فى :

Historia de La Casa de Mondejar, fols. 333 -435

(٥) *Historia de La Casa de Mondejar*, fols. 141

ظلت مدينة ومملكة غرناطة منذ الاستيلاء عليها يحكمها كونت تنديا إلى أن قرر الملكان الكاثوليكيان فى أوائل عام ١٥٠٥ نقل المستشارية إليها ، وكانت قبل ذلك فى ثيوداد ريال" انظر:

Hurtado de Mendoza, pag. 115

(٦) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols. 341-344

"إن المستشارية تريد أن تتدخل فى الشئون الحربية " وفى ص ٢٤٢ نجد عبارة " لقد بدأت المستشارية فى التدخل فى أمور من صميم اختصاص القيادة العسكرية ، وقد اعترض الكونت على ذلك ..."

(٧) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols. 344-346

"بمناسبة خبر وصول ابن بارباروس أصدر الأمير تعليماته إلى الكونت بحماية السواحل. لم يطعه أهل المرية ، وقد عاقبهم الأمير"

(٨) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols. 346-349

"عرض الكونت استعداده للذهاب لنجدة بوخيا التى كانت قد سقطت ، وقد عينه الإمبراطور قائداً عامًا لوهران والبحرية والقوات التى ستذهب لاستعادة بوخيا " ، فى صفحة ٣٤٩ " رفض نواب غرناطة الأربعة والعشرون – بدعم من المستشارية – إطاعة أوامر الكونت ، وهناك قرارت ملكية تُطلن حقه فى معاقبتهم" .

(٩) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols. 367-370

(١٠) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols. 442-443

تحاول المستشارية عـزل الكونت مـن المناصب الشرقية التى تفضل بهاعليه الملكان الكاثوليكيان. الكونت لا يقبل الوضع.

(١١) *Historia de la Casa de Mondejar*, fols. 370

أصل وبدايات ثورة موريسكيي غرناطة

(١٢) *Historia de la Casa de Mondejar*, fol. 449

لقاء بين الكونت والرئيس. الملك يستدعيه إلى العاصمة ويأمر بأن يعود إلى غرناطة ويستمر فى مناصبه حتى انتهاء الحرب.

(١٣) Historia de la casa de Mondejar, fols. 452-453

يشير بعض مؤرخى القرن التاسع عشر إلى العداء الذى كانت تكنه البيروقراطية لعائلة مونديخار.

(١٤) Garrad en la edicón de Núñez Muley, pag. 202

(١٥) فى صفحة ٢١٩ يشير غارّاد إلى وثيقة يظهر فيها ديثا نفسه كمتهم بالفساد عام ١٥٧٥

(١٦) لاحظ أن تلك الكتابات لم تُنشر فى حياة فيليب الثانى. يتحدث أورتادو دى مندوثا بسخرية (ص١٢) عن المحامين ، وينسب إليهم معارف يخلعها عنهم فيما بعد أو يقلل من شأنها ... انظر كذلك

A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 446

(١٧) Marmol. Pag 159

وفى صـفـحـة ٢٥٩ يشـيـر مـارمـول إلى الـنزاع بين ديثا وعـائلة مندوثا . إن حظـر امـتـلاك الموريسكيين لعبيـد مـن السـود يرجـع إلى عام ١٥٦٠ ، وقد صـدر بناء على طلب اجتمـاع طليطـلة. بعـد ذلك تصـدق عليه فى قرارات عام ١٥٦٦ الصـادرة فى ١٧ نوفمبر ثم تحـول بعد ذلك إلى قانون. انظـر : *Nueva recopilación*, pag. 235

(١٨) توالت قرارات الحظر الخاصـة بالسلاح فقد صـدرت فى أعـوام ١٥٠١، ١٥١١، ١٥١٥ ثم تحـولت إلى قانون . انظر ٢٣٣ . *Nueva recopilación*, pag.

(١٩) Hurtado de Mendoza, pag.11

(٢٠) Hurtado de Mendoza, pags. 11-12

Marmol. Pag 159

(٢١) Núñez Muley, pag. 222

هـذا الجـزء مـن مذكـرة نونييث مـولاى لا يذكره مارمـول. إن حـصـر الممتلكات ربمـا كان له سنـد قانونى ، ففى ١٢ مـايو عـام ١٥١١ نشـر قـرار ملكى يقضى بأن يحتفـظ المسلمون ويلتزموا بالعقـود الصـادرة قبـل الاستيـلاء عـلى غرناطـة والخاصـة بالـزواج والممتلكات والوصـايا. انظـر *Nueva recopilación*, pag.233

(٢٢) Núñez Muley, pag. 212

(٢٣) Bermúdez de Pedraza: *Historia eslesiástica*, fols. 133

Henríquez de Jorquera, 1, pags. 73-74

(٢٤) A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 448

(٢٥) Hurtado de Mendoza, pag. 85

Marmol. Pag 258

يشير مارمول إلى شكوى قُدمت إلى السيد خوان دى أوستريا.

(٢٦) يقول مونديخار إن السبب فى القلاقل " يعود إلى الحد من صلاحياتى والسلطات التى تمتعتُ – وأجدادى – بها لمعاقبة قُطّاع الطرق الذين كانوا يقتلون المسيحيين فى هذه المملكة ... ويضيف مونديخار "فى العام الذى حدثت فيه وفى العام التالى له حدثت أعمال قتل وأسر وسرقة أكثر مما كان يحدث فى أعوام أخرى"يقول عن الجنود الجُدد إنهم كانوا " خدماً وأقارب للرئيس ولموظفى المحكمة ، وقد حددوا لهم راتباً قدره ثمانى دوقيات فى الشهر أما منْ كان على درجة عريف فكان راتبه عشرين دوقية ، وهذا أعلى راتب مُنحَ للجنود فى إسبانيا " ويتحدث عن نشاط الجنود فيقول " لما كانوا لا يستطيعون إلقاء القبض على قُطّاع الطريق الذين كانوا يقيمون فى الجبال ومنها يتوجهون لارتكاب أعمال القتل والسرقة ضد المسيحيين، فقد كانوا يُلقون القبض على الموريسكيين المقيمين فى قُرى سادتهم بأمر من المحكمة لارتكابهم جرائم سابقًا ، حتى لو كان قد مرّ على ارتكاب الجرائم عشرون أو ثلاثون عاماً. وكان الكثيرون من هؤلاء الموريسكيين قد تزوجوا وأنجبوا ، وقد سُمِحَ لهم بالبقاء فى تلك الأماكن تجنباً لضرر أكبر هو رحيلهم إلى بلاد البربر أو تحولهم إلى قُطّاع طرق. اعتقل الجنود سبعين أو ثمانين وثار الآخرون " . قارن ذلك بما يقوله تونييث مولاى (ص ٢٢٤)

(٢٧) Cabrera de Córdoba,1, pag. 469

(٢٨) لدراسة الاجتماع المنعقد فى عام ١٥٦٥ انظر

Tejada y Romiro, V, pags. 361-466

هناك دراسة أخرى هامة هى :

A. Gamir Sandoval y A. Gallego Burin : Los moriscos del reino de Granada según el Sínodo de Guadix de 1554 (Granada, 1968)

(٢٩) Marmol. Pag 160-161

أورتادو دى مندوثا (ص ١٤-١٥) لا يتحدث عن الاجتماع ويكتفى بالقول: "أمرهم الملك بالتخلى عن اللغة الموريسكية".

(٣٠) Cabrera de Córdoba,1, pag. 470

أورتادو دى مندوثا (ص١٨) أكثر اعتدالاً عندما يتحدث عنه ، وهذا مُخالف لما يمكن أن يُتوقع منه.

(٣١) *Correspondencia* ..., pags. 126-127

رسالة مؤرخة فى ١٤ أغسطس ١٥٧٠ . فى الصفحة الأخيرة نقرأ: "جلالتكم لابد أنكم على علم – من أكثر من جهة – بطريقة رئيس (محكمة) غرناطة مع هؤلاء الناس، وهى طريقة مخالفة جدا لما هو مناسب. هذه رسالة من توريخوس الذى أصدقه جداً لأنه رجل مثقف وضميره حى ، وسترى جلالتكم ما يقوله فى هذا الشأن. إن الرأى الشائع هنا هو أن رئيس المحكمة كان سبباً فى ثورة هؤلاء الناس ، وهذا ما ذكره لي الحبقى مرات عديدة ، وأن السبب الرئيسى فى عدم استسلامهم هو خوفهم من محاكمتهم مرة أخرى أمام رئيس المحكمة هذا ، وأنا لا أشك فى ذلك مُطلقًا ..." انظر كذلك رسالة كتبها إلى روى غوميث دى سيلبا من غواديكس فى نفس اليوم (ص١٢٨ – ١٣٠)

(٣٢) Cabrera de Córdoba,1, pag 469

(٣٣) Cabrera de Córdoba,1, pags. 552-553

يجب أن نضع فى الاعتبار أيضًا دور محكمة التفتيش ، فقد بدأت فى ممارسة ضغوط تفوق الضغوط العادية " كما يقول أورتادو دى مندوثا (ص١٤)

(٣٤) القرارات التى أصدرها فيليبى الثانى فى ١٧ نوفمبر عام ١٥٦٦ نجدها فى صورة قوانين متعددة فى *Nueva recopilación* . صفحات ٢٣٢، ٢٣٥ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ . القرارات الخاصة بقُطّاع الطريق نجدها ضمن القرارات الصادرة فى ٢٣ نوفمبر ١٥٦٧ ، وهناك قرارات أخرى صدرت فى ١٠ ديسمبر بشأن أولئك الذين يتسترون على الأتراك والبربر واليهود.

(٣٥) Marmol. Pag 161

Hurtado de Mendoza, pags. 14-15

El marquez de Mendejar: *Memoire*...pags. 17 -18

يشكو الماركيز من الطريقة الصارمة والفجائية التى نشر بها القرار الذى كان قد اتُخذ فى ١٧ نوفمبر عام ١٥٦٦ .

(٣٦) Bermúdez de Pedraza: *Historia eslesiástica*, fols. 239

(٣٧) Marmol. Pag 161 -163

Mondejar : *Memoire* ... pags. 18-19

(٣٨) Marmol. Pag 163 -165

تلخيص كابريرا دى كوردوبا (الجزء الأول ص ٥٦٠-٥٦٧) غير معبِّر. لا أدرى لماذا لا تظهر هذه الشخصية مطلقًا فى كتاب أورتادو دى مندوثا

(٣٩) Núñez Muley, pags. 215-216

انظر مقدمة غارّاد (ص٢٠١)

(٤٠) Núñez Muley, pag. 205

(٤١) Núñez Muley, pags. 205-206

كان المبلغ المطلوب دفعه ٢١,٠٠٠ دوقية

(٤٢) Núñez Muley, pag. 207 - 209

(٤٣) طبقًا لوثيقة ذكرها غارّاد فى مقدمة كتاب نونييث مولاى (ص٢٠١)

(٤٤) Cabrera de Córdoba,1, pag. 502

(٤٥) Cabrera de Córdoba,1, pag. 552

(٤٦) Cabrera de Córdoba,1, pag. 469

يرسم كابريرا صورة سيئة للكاردينال اسبينوسا. حول تلك المساعى انظر كذلك :

Marmol. Pags. 163-168 , 168 -169

(٤٧) يقول مونديخار فى مذكراته عنه إنه كان شابًا ذا ميول سيئة ، قليل الفهم رغم أنه من عائلة طيبة. قارن ذلك بما يقوله كابريرا دى كوردوبا ، الجزء الأول ، ص ٥٩٥-٥٩٦

(٤٨) Ordenancas....,fol. II

كان العُمَد يتم اختيارهم كل عام، كانوا عبارة عن فارس ورجل قانون. بالإضافة إلى ذلك كان هناك مسئولون عن المياه يتم اختيارهم من بين أربعة وعشرين كل عام ويبلغ راتبهم أربعة آلاف مرابطى، وكان هناك مسئولان عن الأخوّة بدون راتب يتم اختيارهما كل عامين. تشير إلى أن الوجيه كان يمكن أن يكون مراقباً للمستشفى الملكى والآخر يمكن أن يحتفظ بمفاتيح الأرشيف، وكان هناك شخصان آخران مسئولان عن أداء اليمين فى بعض المناسبات. كانت المدينة تعيّن شخصَين لمراقبة الأقمشة، بدون راتب، وشخصاً لمراقبة الذهب والجواهر فى القيصرية (يتم اختيارهم كل سنة) وتاجراً للذهب وتاجراً للفضة بدون راتب.

(٤٩) *Ordenancas*....,fol. III

(٥٠) *Ordenancas*....,fol. III

(٥١) *Ordenancas*....,fol. VI

(٥٢) *Ordenancas*....,fol. VII

(٥٣) *Ordenancas*....,fol. VII

(٥٤) *Ordenancas*....,fol. VII

(٥٥) *Ordenancas*....,fols. CCLXV - CCLXXXIII

(٥٦) *Ordenancas*....,fol.VII

(٥٧) *Ordenancas*....,fol. VII

(٥٨) *Ordenancas*....,fol. VII

(٥٩) *Ordenancas*....,fol. LIII- LVI

(٦٠) *Ordenancas*....,fol. LXIV

(٦١) عموماً من المفيد القيام بدراسة مقارنة بين هذه الإجراءات وكتاب عن الحسبة ككتاب ابن عبدون الذى نشره ليفى بروفنسال وغارثيا نوبييث تحت عنوان : *Sevilla a comienzos del siglo XVII*

(٦٢) *Ordenancas*....,fol. CCCXi

"يُحظر أن يسير الرجل ليلاً أو نهاراً فى زى امرأة ، سواء كان الرجل مسيحياً أو موريسكيا، وإذا ضُبِطَ منْ يفعل ذلك للمرة الأولى تُصادر منه الملابس أو يُعاقب بالجلد على مرأى من الناس" ، والقرار يمنع أيضاً أن ترتدى المسيحية ثياب الموريسكيات.

(٦٣) انظر على سبيل المثال ما يقوله مارمول عن فنادق فاس فى كتاب " وصف ..." الجزء الثالث ص٨٧ : "من المسموح عند هولاء التُعساء أن يرتدى موظفو أو أصحاب الفنادق ثياب النساء ... "انظر كذلك :

Levi ProvenCal y García Gómez: *Sevilla a comienzos del siglo XII* pags.157158

(٦٤) *Ordenancas*....,fol. CCCX

كان هناك حاجب مسئول عن المتشردين

(٦٥) *Ordenancas*....,fol. CCCXI - CCCXIII

(٦٦) *Casos notables de la ciudad de Córdoba* (1618) pags.232-239

(٦٧) *Casos notables de la ciudad de Córdoba* (1618) pags 238-239

وتأكيداً لذلك سأحكى قصة رواها قسيس وسمعتها منه. قال إن رجلاً كان يعيش فى مدينة غرناطة ، وكان مـن وجهائها ، وقـد ربته موريسكية منذ طفـولته. إن القـول بأن " ما يرضعـه الإنسان مع اللبن لا يضيع فى الكفن" قد تحقق فى قصة ذلك الرجل ، فإنه لما اشتد عوده قدموا له لحم خنزير فتقيأه ، وكان يتقيأ كلما قدم له أحد لحم خنزير. وأخيراً عندما تقدم به السن عنّفه ذلك القسيس لما عرف أمره ، فأقسم الرجل أنه يجد فى فمه طعم البندق عندما يأكل لحم الخنزير ، لكن معدته تنقلب عندما يصل إليها فيتقيأ رغماً عنه ، وهكذا اشتكى الرجل أبويه لأنهما تركاه لموريسكية تربيه ..."

(٦٨) يشير أنثار كاربونا (ص٣٧) إلى أن المسيحيين القُدامى فى أراغون ممنْ كانوا يختلطون بالموريسكيين كانوا يتعلمون منهم بعض العادات. انظر مقال ف. رويث مارتين الخاص بالنشاط السكانى والاقتصادى فى غرناطة فى منتصف القرن السادس فيمجلة :

Anuario de Historia Económica y Social (1968) pag. 127-183.

(٦٩) *Correspondencia de A. Polion con Ciceron*, X, 31, 1

(٧٠) *Tito Livio*, XXVIII, 22 (sobre Astapa, Estepa)

(٧١) نص ذكره ليفى بروفنسال . انظر : *Histoire de L'Espagne musulmane, III*, pag. 208

(٧٢) *Historia de los bandidos más celebres en Francia*, Inglatera, etc. pags. 219-225

Merimée " lettres adressés d'Espagne au directeur de la Revue de París " en mosaique, pags. 311-334.

(٧٣) Claudio Sanchez Albornoz: *La España musulmana según los autores islamitas y cristianos medievales*, II, pags. 102-103

هذا يتعارض مع رؤية الموريسكيين للسرقة. يقول ميغيل دى لونا فى كتاب " تاريخ الملك ردوريغو " (ص٢٥٢) : " كان يلحق العقاب الصارم باللصوص لدرجة أن أحداً لم يكن يجرؤ على أخذ شيء ليس له صاحب فى مدينة أو فى صحراء ، وكان خوف الناس منه شديداً لدرجة أنه لو فُقدَ شيء فى الشارع لم يكن أحدٌ يجرؤ على أخذه ، ولو أخذه كان يضعه فى أول محل يصادفه ، وكان يُعلِم الناس بذلك ، إلى أن يظهر صاحب الشيء فيأخذه " يضيف ميغيل دى لونا " كانت هذه العادة سائدة بين الموريسكيين فى مملكة غرناطة لدرجة أنها كانت طبيعة من طبائعهم "

(٧٤) Marmol. Pag 160

Hurtado de Mendoza, pag. 13

(٧٥) هناك مؤلفات كثيرة يحاول أصحابها الوصول إلى الأصل العربى لكلمة مُنفى monfi منهم بدرو دى ألكالا الذى يعتقد أنها تحريف لكلمة منفى manfi .

(٧٦) Bermúdez de Pedraza: *Historia eslesiástica*, fols. 239-240

علينا أن نعترف بوجود حالة من عدم الأمن فى جبال الجنوب . يتحدث لورينثو دى باديا (ص٧٠-٧١) عن " سود وأشقياء " كانوا يهددون الأمن فى أوائل القرن السادس عشر. ويتحدث كابريرا دى كوردوبا عن "المنفيين " بشكل خاص (ص ٦٤٢- ٦٤٤)

(٧٧) Cabrera de Córdoba,1, pag.,1,pag. 469

(٧٨) Marmol. Pag 183

(٧٩) Marmol. Pag 182

(٨٠) يبدو أن كيبيدو يشير إلى ذلك في : Los valientes y tomajones, pag. 115

(٨١) Marmol. Pag 199

(٨٢) انظر كذلك كاستيو (ص٣٥-٣٧). لا يتحدث أورتادو دى مندوثا عنهم لكنه يتحدث عن أشخاص آخرين من نفس الأسرة لعبوا دوراً حاسماً في المرحلة الأخيرة من الحرب (ص ٢٥١-٢٥٣)

(٨٣) Marmol. Pag 363

(٨٤) Marmol. Pag 175

Hurtado de Mendoza, pags. 14 y 17-18

(٨٥) Marmol. Pag 308

Pérez de Hita pag. 606

Hurtado de Mendoza, pag. 30

(٨٦) عندما علم ماركيز مونديخار أن المسيحيين كانوا محاصرين في برج أورخيبا ظن " أن بعض المسلمين البربر قد وصلوا إلى الشاطئ والتقوا بالمنفيين ... كما حدث في مرات سابقة " انظر :

Marmol. Pag 184

حول علاقة الموريسكيين بالأتراك انظر بيريث دى ايثا (ص ٥٩٦)

(٨٧) Ignacio Bauer: *Papeles de mi archivo*, pags. 5-11

(٨٨) انظر الملاحظة رقم ٦٨ في الفصل الأول

(٨٩) انظر الملاحظة رقم ٧٧ في الفصل السابع. لاحظ أن ثورة الموريسكيين اندلعت قبل معركة ليبانتو، في وقت كانت فيه القوة البحرية للأتراك في أوجها حيث وجهت ضربات موجعة إلى المسيحيين. انظر :

Jurien de la Graviere: *Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman le Grand.*

ومن بين تلك الضربات التي وجهها الأتراك ما يرويه بدرو بارانتيس مالدونادو في كتاب "حوار..." (ص١-١٢٧٩ عن عملية جبل طارق. في تلك الحالة انضم بعض العبيد المسلمين في جبل طارق إلى جانب الأتراك (ص٧٧) بينما حارب بعض العبيد الموريسكيين إلى جانب المسيحيين (ص٧٢-٧٣) وفي رواية لأحداث أخرى يذكر كيف نزل الأتراك في ساحل ايرادورا بالقرب من المنقب وأسروا ثلاثة موريسكيين (ص١٣١) . وفي كتاب خوان بالبيردى اريثا - وعنوانه " اليقظة " - الذي نشره عام ١٥٧٨ ، هناك إشارات إلى حرب الموريسكيين (ص٣٢٢) وهي إشارات هامة نفهم من خلالها أن الناس اعتقدوا في البداية أن الثورة كانت أمراً غير ذي أهمية ، وأن مساعدة الأتراك كانت قليلة ......هناك إشارة أيضاً إلى ترحيل الموريسكيين من قشتالة وإلى توطين المسيحيين القُدامى فيها.

(٩٠) Marmol. Pag 157

(٩١) Steiger, pag. 354

Corominas, II, pags. 663-664

(٩٢) أعتقد أن النص الأكثر إفادة في هذا الشأن هو نص ديبغو دي توريس (ص٤٢٨) حين يتحدث عن دخول الأتراك إلى مدينة فاس عام ١٥٥٣ .

(٩٣) Marmol. Pag 181,183, 202, 248, 255, 266, 267

(٩٤) Bermúdez de Pedraza: *Antiguedad y excelencias de Granada*, fols. 133

(٩٥) Corominas, II, pags.133

(٩٦) Corominas, II, pags. 133

(٩٧) Marmol. Pag 185

(٩٨) Marmol. Pag 193

(٩٩) Tejada y Romiro, V, pag. 389

(١٠٠) Tejada y Romiro, V, pag.389

(١٠١) Tejada y Romiro, V, pags 319-399

(١٠٢) Marmol. Pag 180

(١٠٣) Marmol. Pag 180

هناك ترجمة لرسائل لابن داود نشرها كاستيو (ص٤١-٥٢) ، والرسالة الأهم هي التي يوردها في صفحات ٤٥-٤٩ ، وهي التي يشير إليها مونديخار في مذكراته (ص١٨) ويُطلق عليه أورتادو دي مندوثا (ص٤١٩) لقب " صاحب فكرة الثورة والمخطط لها " ، ويتحدث كابريرا دي كوردوبا (ص٥٥٣) عن اتصالاته مع فاس. والدليل الأوضح على عداء القساوسة هو الذي يورده نونييث مولاى (ص ٢٠٩-٢١٠) وقد حذفه مارمول. إن كلمات مولاى هنا تشبه حسرات مسلمة أوبيدا في تفسير فتى أريبالو. انظر ريبيرا وأسين (ص ٢٢٥).

(١٠٤) Marmol. Pag 183

(١٠٥) Hurtado de Mendoza, pag. 17

(١٠٦) Cabrera de Córdoba,1, pag. 554

(١٠٧) Pérez de Hita pag. 593.

(١٠٨) Hurtado de Mendoza, pags. 19-24

الخطاب الذى يُنسبه إليه ، ويقول إنه قد ألقاه فى منزل زنزان بالبيازين يتضمن نفس بنود مذكرة نونييث مولاى. نشير إلى أن أ. فوينمايور (ص ١٤٧ - ١٥٠) يلخص مضمون الخطاب لكنه يورده بعد أن ينسب إلى موريسكى آخر يُدعى كارديناس خطاباً يقول فيه إن القيام بالثورة طيش (ص١٤٤-١٤٧) . يقول فوينمايور إن الحاضرين قد قاطعوا كلمة الصغير بصيحات " الحرية . الحرية " (ص ١٥٠).

(١٠٩) Hurtado de Mendoza, pags. 25-26

عُقدَ ذلك الاجتماع فى بيت حردون ، وقد تم التنصيب وفق مراسم قديمة كانت تُتبع عند تنصيب ملوك غرناطة المسلمين. الاجتماع الأول الذى يشير إليه أورتادو (ص١٦) عقد فى قاديار بالبشرات، وعُقدَ الاجتماع الثانى فى شوريانا (ص١٧) ، وعُقدَ الاجتماع الثالث فى بيت زنزان ، وعُقدَ الاجتماع الرابع فى بيت حردون. ويرى كابريرا دى كوردوبا (ص٥٢٣) أن أهم الزعماء الذين اجتمعوا فى بيت أبليت هم الصغير ، وفرج بن فرج ، ودييغو لوبيث ابن أبو ، وميغيل دى روخاس ، بالإضافة إلى موريسكيين آخرين من البشرات .

أما تنصيب ابن أمية ملكًا فنجده بالتفصيل فى " ما قالته بريانذا بيريث زوجة السيد فيرناندو دى بالور عندما نصّبوه ملكًا على المسلمين ، وما حدث أثناء ذلك الاختيار. غرناطة فى ٢٣ مارس ١٥٧١ " وقد نشره السيد لوكاس دى نورى (ص ٢٨٥-٣٩١) وهى وثيقة هامة جدًا. نرى هنا الموريسكيين الأكثر ثراءً وهم يحضرون الاجتماع ، ونعرف أنه بعد أن تمت عملية التنصيب قُدّمتْ الطوى والملكولات ، ونستخلص بعض البيانات من كلمات المسلمة.

(١١٠) Hurtado de Mendoza, pag. 17 -18

من الغريب (ص٢٤) أن أشخاصًا من متوسطى الحال ممنْ لا يُجيدون كتمان السر يصمتون وقتًا طويلاً..."

الفصل السادس

١ - انفجار الأوضاع فى أواخر عام ١٥٦٨

لم يعد الوضع محتملاً فى أواخر عام ١٥٦٨ . فى ٢٤ ديسمبر اجتمعت عائلة بالور فى بيثتار ونصبوا ابن أمية ملكًا ، وكان قد هرب لتوه من غرناطة. لم تخل عملية الاختيار من امتعاض فرج بن فرج الذى شغل منصب " الوزير الأكبر" والذى أصبح مكلفًا بتنفيذ المهام الأولى ومن بينها تنظيم حملة غرناطة بالاشتراك مع المنفيين فى ليلة ٢٥ ديسمبر[١] . فكر ابن فرج فى أنه عندما يكون فى غرناطة سيثور أهل البيازين ...إلخ ، إلا أن منظمى الثورة تراجعوا وقابل المسلمون الحملات مقابلة فاترة[٢]. يحكى بيريث دى إيتا أنه بينما كان الثوار يمرون فى شوارع الأحياء الموريسكية فى سكون الليل صعد موريسكى عجوز على قمة برج وغنى باللغة العربية أغنيةً [٣] قال فيها للثوار إنهم قليلون ، وإنهم جاءوا متأخرين :

جئت متأخراً يا زايد

أصحابك قليلون وقد تأخرتم كثيراً .

ويروى مارمول شيئًا مشابهًا ، إلا أن روايته للأحداث أقل شاعرية[٤]. يقول أورتادو دى مندوثا مناقضًا تلك الرواية إن الموريسكى العجوز سأل عن عددهم فأجابوه بأنهم ستة آلاف فقال لهم إنهم قليلون ، وإنهم وصلوا " قبل الأوان" أى أنهم كان ينبغى عليهم البدء بالهجوم على قصر الحمراء[٥] ، وهو رأى صائب لأن ماركيز مونديخار نفسه يعترف بأنه قضى الليلة بأكملها داخل الأسوار ، ولم يكن بصحبته سوى أربعين جنديًا وخمسين حصانًا ، وأن المراقب خوان رودريغيث لم يستطع جمع أكثر من ثلاثة وعشرين رجلاً[٦].

إن تجمّع الموريسكيين فى البيازين فى تلك الليلة قد صبغته الثورة بصبغة مختلفة عن تلك التى كان يمكن أن تحدث لو أن عشرة آلاف مواطن اشتركوا فى المعارك (هذا هو الرقم الذى يقول به ماركيز مونديخار[٧]). لقد تأكد من جديد ضعف الروح المعنوية عند سكان مدينة غرناطة ، وتأكد من جديد تعصب سكان الجبل لدينهم الإسلامى. كانت البشرات - حيث كان موريسكيو خوبيليس[٨] أعنف الناس - هى أول منْ قام بالثورة كما يقول أورتادو دى مندوثا. لقد قام الناس فى وقت واحد بثورات فى وادى لكرين وبعض قُرى المنقب ، وقُرى غواديكس وماركيزية ثينيتى وحوض نهر المرية. وتأخر اندلاع الثورة فى جبال روندة وجبل بنتوميث وشرقى ملقة ، وبابيثا ، وأويسكار ، وحوض المنصورة وجبل فيلابريس[٩]. أى أن الثورة انطلقت من مركز جبلى ثم انتشرت إلى مناطق أخرى.

وفى الأيام الأولى من عام ١٥٦٩ كان هناك ملمحان رئيسيان:

١ - الجانب الدينى المحض .

٢ - جانب إعادة القيم الإسلامية التقليدية إلى الوجود.

تأكد الجانب الأول من خلال ملاحقة المسيحية والمسيحيين ، وقد روى فصول هذا الجانب أشخاص اشتركوا فى الحرب[١٠] ، وأشخاص متعاطفون ، بالإضافة إلى المؤرخين المحليين [١١]. من الممكن أن نحلل ذلك من وجهة نظر علم الاجتماع لكى نحدد بعض الملامح ، ويمكن أن نميز أربعة أنواع من الأعمال:

١ - قتل وتعذيب المسيحيين الذين رفضوا التخلى عن المسيحية.

٢ - هدم دور عبادة .

٣ - تدمير تماثيل وصور دينية.

٤ - سخرية من شعائر ومعتقدات الكاثوليك .

لم يكد يكون هناك قسيس أو راهب فى البشرات ومجاوراتها لم يتعرض لأعمال وحشية . هناك رواية مخطوطة محفوظة فى المكتبة الوطنية تقول إنه خلال الثورة قُتِلَ تسعة وأربعون قسيساً وثلاثة عشر راهبًا فى البشرات ووادى لكرين ، بالإضافة إلى عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال(١٢) . ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين أن عدد القتلى من القساوسة والرهبان بلغ ستة وثمانين ، بالإضافة إلى مائة وأحد عشر مسيحيًا من الكبار بعضهم مجهول الاسم ، وما يزيد على خمسين طفلاً ، كما قُتِلَ عددٌ من النساء بينهن أربع موريسكيات(١٣) . ويروى مارمول تفاصيل عمليات التعذيب. كان الموريسكيون ينكِّرون القساوسة بقسوتهم فى عقوبة منْ يتخلف عن حضور الوعظ وبالغرامات التى كانوا يفرضونها لهذا السبب(١٤) ، وكانوا ينكِّرونهم بتأنيبهم للموريسكيات بسبب عدم كشفهن وجوههن(١٥) أو بسبب تمسكهن بالعادات الإسلامية. كان أكثر ما يهم الثوار - كمسلمين متمسكين بدينهم - هو تحويل الأسرى النصارى إلى مسلمين ، وفى حالة المقاومة كانوا يبدأون فى تعذيبهم(١٦) . يبدو أن فرج بن فرج والمنفيين كانوا أكثر الناس تعصبًا وقسوةً فى الملاحقة(١٧) ، وكان ابن أمية أكثر اعتدالاً أو - على الأقل - أكثر حيطةً(١٨) .

أحرقت الكنائس ونُهبت بشكلٍ تامٍ. كانت الكنائس بمثابة ملاجئ للمسيحيين فى الساعات الأولى للثورة ، ولذلك كان مجرد حصارها يؤدى إلى إلحاق أضرار بالغة. لكن لم يقتصر الأمر على مجرد الحصار بل كانت هناك عمليات سلب وإهانة للمقدسات(١٩). نهب الموريسكيون الكنائس وبيوت القساوسة وبيوت المسيحيين بشكلٍ عامٍ (٢٠) . كانت الموريسكيات يشاركن عادةً فى تلك العمليات، رغم أن بعضهن أبدين انزعاجهن إزاء إهانة المقدسات(٢١) ، وكان من بين الموريسكيات منْ وقفن إلى جانب المسيحيين ، خاصة المتزوجات من مسيحيين(٢٢).

كان رد فعل الموريسكيين تجاه الشعائر المسيحية مشابهًا لما فعله ثوار من أندلوثيا فى تاريخ حديث. يستطيع أى شخص أن يقول إن هناك فرقًا بين الموقفين : فالموريسكيون كانوا يدينون بدين ولهذا كرهوا الدين الآخر ، أما الفوضويون فلم يكن لهم أى دين. هذا صحيح مدنيًا. لكن لو تأملنا قليلاً سيتعين علينا أن نتساءل : إلى أى مدى يظهر نقص الإيمان لدى الشخص الذى يكسِّر التماثيل ويقطع رءوسها

ويحرقها(*)... إلخ. لقد استخرج الأب هيتوس من سجلات الأسقف إسكولانو أبرز الأفعال التى ارتُكبت فى هذا الجانب. ففى فقرة من كتابه نقرأ أن الموريسكيين فى بيرخا جلدوا تمثالاً للمسيح داخل الكنيسة ثم قطعوا رأسه بالسكاكين(٢٣) . وفعلوا ذلك مع تمثال العذراء ، ومع درجات المنصة وهم يقولون " ادفع الأذى عن نفسك " ، وفى بياركال أهانوا تمثالاً للعذراء بشكلٍ أكثر شناعة(٢٤) .

قد يقول قائل إن هذه الأفعال رمزية لا تعبر عن كراهية لا للقديسين ولا لله (الذى يؤمنون به) بل للمجتمع الذى يُؤمن بهذه المقدسات . لكن هنا أيضًا يمكن أن نتساءل ما إذا كانت تلك الأفعال تعبيراً عن واقع ومشاعر معقدة . ربما كان كثيرون ممنْ ارتكبوا تلك الأفعال يؤمنون بالمقدسات إلا أنهم يعتبرونها معادية لهم ولذويهم ، أى أن تلك المقدسات تحمى قطاعًا معاديًا من المجتمع.

إن انتهاك المقدسات والسخرية منها أفعال جديرة بالدراسة : " كانوا يذهبون إلى الكنيسة فى أى مكان ويُنزلون التماثيل ويجرونها ويحطمونها ويحرقونها ، كانوا يحطمون أحواض التعميد ، وكانوا يسخرون من زينة القساوسة "(٢٥) ، ونجد الكراهية نحو رموز العبادة وشعائر المسيحية مسجلة أيضًا فى المصادر العربية مثل رسالة ابن داود التى يطلب فيها المعونة من أجل الثورة (٢٦).

كانت محاولة إعادة النظام الاجتماعى الإسلامى - الذى عاش ما يربو على سبعين عامًا فى وضع حرج - هو حلم الموريسكيين الأكبر ، ففى أوخيخار بنوا مساجد(٢٧) وسعوا إلى إقامة شعائر الإسلام باحتفال عظيم . لكننا نلاحظ أيضًا أنهم كانت لهم نفس الرغبة فى ارتداء أزيائهم القديمة ، وأنهم كانوا لايزالون يعرفون تقاليد القصور فى فترة حكم بنى نصر على الأقل. وهكذا بعد إعلان ابن أمية ملكًا "أقيمت الشعائر التى كانت تتم عند اختيار ملوك أندلوثيا وغرناطة ، فيرتدى الملك عباءة

(*) لاحظ أن المؤلف ينطلق من موقف مسيحى بحت : من لا يؤمن بالمقدسات المسيحية لا يؤمن بالله . من المعلوم أن المسلم - وإن لم يقدّس الصور والتماثيل - لا يستطيع إلا أن يحترم ويجلّ عيسى بن مريم عليه السلام وأمّه السيدة العذراء . هناك فرق شاسع بين الشخص والتمثال. (المترجم)

وتوضع أربع رايات عند قدميه ، وتُطلق النبوءات "(٢٨). أعاد الموريسكيون سلطة رؤساء العائلات القديمة(٢٩) فوهبوهم الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في السابق . وهكذا اعترف مسلمو جبال بنتوميث بايرناندو دى دارا رئيسًا لهم " فقد كان في رأيهم شريفًا لأنه في زمن المسلمين كان يُختار من عائلته قادة وحُجاب فريخيليتانا" ، وقد عينوا له ثلاثة فقهاء مستشارين (٣٠)، وقد كرَّموا أحد زعماء الثورة – وهو مارتين الحاجب ، ذلك الداهية – فأركبوه بغلةً بيضاء وهو يرتدى الحرير والذهب ، وقبَّلوا يديه وملابسه(٣١) .

وأقام الموريسكيون المسابقات الرياضية والاحتفالات التي كانت سائدة في عهود قديمة أيام بني سراج والثغريين وغيرهم ، وكنموذج لتلك الاحتفالات الموريسكية نذكر تلك الاحتفالات التي أقامها ابن أمية في بورشينا والتي يصفها بيريث دى أيتا بدقة ، ويذكر أنها كانت تتضمن المصارعة والجرى والقفز ورفع الأثقال والرقص والعزف والغناء ورمى القوس(٣٢) ... ونلاحظ في تلك المؤسسات العداوة بين الموريسكيين والأتراك . إن الأمس كاليوم من حيث إن الرياضة تجمع وتفرِّق بين المجموعات المختلفة . إن الميل إلى الانفصال والفوضى كان دائمًا ملحوظًا في القوات المسلمة(*).

٢ – المرحلة الأولى : ملامحها في الجانب الموريسكى

مرت الأيام الأولى للثورة ، وكان عدم النظام أو الفوضى أهم ملامحها. يقول أورتادو دى مندوثا في أسلوب موجز معبر إن الثورة كانت لها عدة بدايات : ثورة قطاع الطرق ، وثورة العبيد ، وتمرد القرويين والتنافس والكراهية والطمع ..."(٣٣) . في هذه الكلمات وما يليها هناك انتقاد للثائرين ولأصحاب السلطة معًا وللمسيحيين

(*) ليس ذلك صحيحًا ، فمن الخطأ المقارنة بين مجتمع منظم بكل مؤسساته ، مثل مجتمع المسيحيين الإسبان في القرن السادس عشر ، وبين شعب غُلب على أمره فثار ضد الظلم وأخذ يبنى المؤسسات بشكل عشوائي تنقصه الخبرة. (المترجم)

القدامى فى غرناطة الذين – بعد دخول فرج بن فرج إلى البيازين – اتخذوا موقفًا غير متعقل ومارسوا أعمال السلب بحجة أخذ حقهم . إن السيد دييغو نفسه يرسم واقع السكان المسيحيين القدامى على هذا النحو : " مدينة جديدة ، شعب مكون من سكان من مختلف الأنحاء كانوا فقراء أو ضالين فى بلادهم فجاءوا إلى هنا أملاً فى الربح ، بقايا منْ لم يريدوا الخروج من منازلهم ..."(٢٤) ، كانوا أناسًا ينطبق عليهم لقب " سوقة " يتجرأون على الكلام إذا شعروا بأنهم أحرار ، هم خدمٌ لسادتهم ، وعلى استعداد لارتكاب عمليات سلب ونهب كبيرة .

كان دور صغار القساوسة والرهبان حاسمًا فى إثارة الناس . ورغم أن أسقف غرناطة اتخذ موقفًا متسامحًا إلا أن الرهبان فى عظاتهم الموجهة إلى الشعب كانوا متشددين فى تعبيراتهم ، وكانوا مبالغين فى كراهيتهم للموريسكيين .

إن أورتادو دى مندوثا – فى رسالة كتبها إلى الكاردينال إسبينوسا – يقول شيئًا لم يقله فى روايته : " الأسقف يُلقى الوعظ " لكن سيكون أكثر إفادة لو أنه لم يترك الرهبان يلقون المواعظ أو لو أنه رآهم وهم يوعظون .... لأن بعض هذه المواعظ مستهجنة ، وهناك خطر أن تثير الناس ، وأن ينضموا إلى الجنود فيرتكبوا أعمال النهب فى البيازين ، ولن نفلح فى منع ذلك "(٣٥) . وفى اللحظات الحاسمة للحرب برز هؤلاء وهم يحاربون بشجاعة(٣٦).

تغيَّرت طبيعة المنافسة – التى أشرنا إليها عدة مرات – بين النبلاء والمحكمة بعد أن انحاز الرهبان إلى جانب المحكمة(٣٧) . وبعد أن وقف القساوسة والرهبان إلى جانب الشعب فى مناطق كانت قضية الموريسكيين فيها مطروحة . لكن لندع المسيحيين فى تناقضاتهم ولنتأمل ما كان يحدث فى الجانب الموريسكى من وجهة النظر الحربية .

كانت خطة الثوار فى البداية تقليدية ، وإذا كانت قوات ماركيز مونديخار ثم قوات خوان دى أوستريا بعد ذلك لم تتمكن من الانتصار عليهم فإن ذلك لا يرجع إلى عدم كفاءة القادة فى إدارة الحرب بل إلى وعورة الأرض وإلى عوامل أخرى. بمجرد أن ارتكب الموريسكيون أعمال السلب والنهب فى بداية الثورة تركوا قراهم

وتوجهوا – ومعهم زوجاتهم وأولادهم وماشيتهم وثروتهم – إلى أماكن وعرة فى الجبال وتحصنوا بها. كانت الجبال معروفة بموقعها الإستراتيجي. استولى مونديخار على جبل غواخاراس الواقع فى غواخار حيث كان ماركوس الزامر قد تحصّن فيه ومعه ألف مقاتل. استولى مونديخار على الجبل بعد أن كان المسيحيون قد لحقت بهم خسائر[٣٨]. وكان جبل فريخيليانا ملجأ لمسلمى جبال بنتوميث[٣٩]. ونذكر أيضاً جبل إينوكس[٤٠] ومرتفع ريستابال[٤١] وحصن أربوتو فى جبال رونده[٤٢]. كان المسلمون ينطلقون من الجبال والحصون لتوجيه ضرباتهم، كانوا يتفادون جيوش العدو الكبيرة ويمرون من خلفها. إن وصف التخطيط الحربى الذى يقدمه أورتادو دى مندوثا[٤٣] يدعونا إلى التفكير فى الخطط التقليدية أى الهجوم المباغت الذى تقوم به مجموعة صغيرة أو الغارة أو التظاهر بالهروب سواء بالنسبة للفرسان أو للمشاة[٤٤]. إن التخلى عن الخطط القديمة كان أمراً يعتبرونه بدعة لا تليق بالمسلمين الذين كانوا مولعين بعمليات الكمائن[٤٥] كانوا يعلنون عن الهجوم بالصياح الذى يصفه ثيربانتيس[٤٦] وبالصوت الذى تحدثه الطبول والصفافير[٤٧] وهى أصوات مميزة للغارات[٤٨]. كانت أسلحتهم عبارة عن بنادق وأسلحة أخرى قديمة مثل القوس والسيف القصير المحدب والسيف العادى والحربة والنبل[٤٩]. وعندما حقق ماركيز مونديخار أول انتصار على الموريسكيين استولى على كمية كبيرة من النبل المصنوع من الحَلْفاء[٥٠]. كان أشهر رُماة النبل هم أهل المرية[٥١].

كان المقاتلون الموريسكيون يستعملون إشارات الدخان نهاراً لتبليغ رسالة ما، أما فى الليل فكانوا يستخدمون النيران فوق مكان مرتفع. وكانت هناك مجموعة متكاملة من المنصات العالية[٥٢]: من لوركا إلى بيرا، ومن بيرا إلى موخاكار، ومن موخاكار إلى الجبهة الشرقية للقتال، وكانت هناك أيضاً مجموعة تجسس أكثر تعقيداً. ومنْ كان يُظن أنه قدم معلومات للعدو كانوا يحكمون عليه بالإعدام بطريقة بشعة. كان الموريسكيون – كالأتراك – يستخدمون الخازوق للتعذيب[٥٣]. ولما رأى ابن أمية أن الوسائل القديمة لا تحقق نتائج كبيرة فى الحرب أراد أن يطبق نظام المسيحيين فى القتال، فجعل قواته تحتشد وتتشكل من مجموعات، كل مجموعة من عشرة رجال، وكل عدد من المجموعات يشكل فرقة لها قائد وراية، وأن يكون القادة

تحت إمرة قادة أكبر ، وأن يكون لكل حى قائد[٥٤] ، لكن هذا الإجراء لم يحقق النتائج المرجوة ، فبعد خمسة أشهر من بدء القتال - وفى ٥ مايو عام ١٥٦٩ - يقول أورتادو دى مندوثا فى إحدى رسائله : " إن قوات العدو كبيرة أظن أنها تبلغ سبعة آلاف لكنهم غير مسلحين وينقصهم القادة والعتاد "[٥٥] .

إلى جانب كل ذلك حدثت مجاعة[٥٦] . إن التجويع كان أحد أهداف الحرب ، ولهذا حدث ما يلى :

١ - حرق الحقول

٢ - تدمير الطواحين

٣ - سرقة المواشى

إن "إضرام النار فى الخبز" كان وسيلة حربية معروفة [٥٧]. وهناك أغنية شعبية تتحدث بإيجاز عن ذلك ، ففى أغنية رضوان هناك حديث عن ألسنة اللهب التى تأكل :

الحقول التالفة

والبيوت المتواضعة

وتكون بمثابة الضوء

فى احتفالات محزنة[٥٨]

ويروى بيريث دى إيتا من جانبه وقائع حملة قادها فرج الأسود: " كان القائد الأسود فرج مغتاظًا لأن أهل لوركا قد أخذوا منه الغنيمة وأساءوا معاملة رجاله ، فجمع فرقته ، وبجرأة متناهية خرج من كورخينا ومرّ بغويركال ووصل إلى ميناء لوركا حيث كانت هناك حقول شاسعة من القمح والشعير ، بعضها حُصِدَ وبعضها الآخر على وشك الحصاد ، فأحرقها جميعها ذلك الشرير "[٥٩] . وذكرنا أن من مكائد الحرب الأخرى كان إفساد عجلات ومحاور الطواحين التى كانت كثيرة فى المملكة[٦٠] ، وذلك من أجل منع التزود بالمؤن [٦١] . وتحكى لنا الكتابات التاريخية فى العصور

الوسطى سوابق لذلك وتشير إلى مغزاها، وهذا ما نجده أيضاً في الأغنيات الشعبية. إن أغنية رضوان تبدأ هكذا :

جاب رضوان الأراضي

بصحبة ألف مسلم

سرق كل المواشي

وهدّد الحدود(٦٢)

واصل الموريسكيون عمليات السرقة طوال فترة الحرب(٦٣) . كانت عمليات فرج المذكور شهيرة(٦٤) . إن أورتادو دى مندوثا فى ٢٧ ابريل عام ١٥٧٠ يكتب ما يلى : "جاءتنا قوات العدو من ناحية المراعى وهم يستولون فى كل يوم على الماشية والناس والدقيق والطحانين "(٦٥).

وكما كان يحدث فى الحروب بين المسلمين والمسيحيين ، كانت القوات تستولى على أعداد كبيرة من الماشية . ليس ذلك قط ، بل كانوا يستخدمون الماشية كطُعم ، ويصف أورتادو دى مندوثا فى رسالة إلى الكاردينال إسبنيوسا طريقة الموريسكيين فى التنقل من مكانٍ إلى آخر ومعهم الماشية والأمتعة(٦٦) ، ويحكى مارمول كذلك كيف أطلق الموريسكيون الأبقار إلى نهر سيدون لكى يثيروا طمع الجنود المسيحيين ثم يهجموا عليهم(٦٧).

إن تغيير أسر كثيرة لأماكن إقامتها والاضطرار إلى التخلص من الأثاث المنزلى وإلى التسلح وإلى بيع الغنائم وقدوم الأتراك والبربر، كانت كلها عوامل أدت إلى قيام نشاط تجارى ملحوظ ، كما أدت إلى توافد التجار من مختلف مدن البحر المتوسط إلى غرناطة والمرية .

كانت هناك بعض الموانى تحت سيطرة الموريسكيين . كان بعض الموريسكيين صيادين(٦٨) ، وكانوا يصنعون القوارب الجيدة ويُبحرون بها إلى بلاد البربر(٦٩) . كان مجموع تلك القوارب هو ما تُسميه الكتابات التاريخية القديمة caravas (٧٠) . خلال الثورة كانت شحنات الأرز والقمح تصل إلى الثوار أثناء الثورة(٧١) ، وبعد وصول السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة لتولى القيادة ازدهرت التجارة وذاع صيت

سوق أوخيخار. كانت تُباع فيه الأسلحة والعتاد والأغذية وكل أنواع السلع " التى كانت وفيرة كما هى وفيرة فى تطوان" كما يقول مارمول الذى كان يعرف شمال إفريقيا تمام المعرفة[٧٢] .

اختلط الجهاد أو الحرب ضد غير المسلمين بأفكار حول حياة الأعداء ومتاعهم . حدث ذلك فى الجانب المسلم ، وفى الجانب المسيحى. كان أحد فروع التجارة داخل الإسلام هو تجارة العبيد . اندلعت الثورة فى أوج نشاط القراصنة والبربر فباع الموريسكيون أسرى الحرب المسيحيين إلى التُجار المسلمين واليهود فى شمال إفريقيا، وكان هؤلاء يفدون إلى إسبانيا فى حماية القراصنة.

كانت سورباس - وهى قرية حصينة[٧٣] فى المرية ، ولا تبعد عن البحر ، كما يذكر بيريث دى إيتا - تشكل أحد مراكز التجارة. كان يفد إليها الجزائريون ، ولما كانت حاجة الثوار إلى السلاح ماسة فقد " بيع مسيحى ببندقية " . وكانت تجرى عمليات مقايضة الأسرى بالسيوف والأقواس ، وقد وصل ازدهار التجارة إلى حد أن أنشأ الموريسكيون منطقة جمركية فى بورشينا[٧٤].

نلاحظ أيضًا وجود مصالح بين الثوار الموريسكيين ، منها المصلحة الدينية ، وكانت هى المصلحة العُليا، ومنها المصالح التجارية ، وكانت هى الأدنى . كان رجل الدين يخدم التاجر، وكان التاجر يخدم رجل الدين. وإلى جوار أهل الإقدام والشجاعة كان هناك الخائفون أو الحذرون ، كما كان هناك الخونة لسببٍ أو لآخر. كان تعايش الموريسكيين مع المسيحيين القُدامى متداخلاً لدرجة أنه فى بعض الأحيان كانت هناك نماذج لعلاقات صداقة مخلصة ، لدرجة أن موريسكيا ضحّى من أجل صديق من المسيحيين القُدامى[٧٥]. لم يشترك فى الثورة من الموريسكيين أولئك الذين كانوا معادين لها لاعتقادهم أنها فاشلة[٧٦] وضعاف العقيدة والخونة [٧٧].

كان هناك موريسكيون ماتوا وهم يعارضون الثورة ، خاصة فى حوض نهر المنصورة . ففى هذا المكان مات خوان الحاجب وابنه وهما يحاولان إقناع السيد ألبارو دى لونا بتسليم حصن تحالى Tahali [٧٨] . وهناك قصص مشابهة ، فقد لجأ الزعماء أحيانًا إلى الضرب لإجبار الكثيرين على الانقياد لأوامرهم أو عدم الاستسلام فى لحظة من لحظات الحرب[٧٩].

كانت القسوة ثم انعدام التخطيط يشكلان عاملين من عوامل عدم الانتصار في الحرب. وكان هناك عامل ثالث يُلاحظ أنه سبب هزيمة المسلمين أمام المسيحيين: عدم استقرار المزاج بشكلٍ واضح، نمط من أنماط الخيانة ارتبط بالثقة القرطاجية أو الغدر، أي punica fides التي يتحدث عنها سالوستيو(٨٠). يؤكد بيرموديث دي بدراثا أن موريسكيي غرناطة " كانوا يقومون بأعمال طيبة ، كانوا صادقين في معاملاتهم وتعاقداتهم ، وكانوا يتصدقون على الفقراء ، كانوا لا يخلدون إلى الكسل ، فكلهم كان يعمل لكن تدينهم كان قليلاً (*) فيما يتعلق بتوقير يوم الأحد وأعياد الكنيسة ...." (٨١). إذا تركنا الجانب الديني فهناك أدلة تثبت أن الموريسكيين – على الأقل في أيام الحروب – كانوا يميلون إلى الخداع وتبادل الخيانة ، والعمل كجواسيس ، وكعناصر تُثير القلاقل بين صفوف المسلمين . يحكي مارمول قصة عملية تجسس مزدوج قام بها موريسكي من أورا ، ويقول : " إن هذا شيء عادي بين المسلمين"(٨٢) . كان الواحد منهم – لكي يحقق مصالحه الشخصية – يضحي بمصلحة الجماعة ، وكان يعمل كجاسوس" (٨٣) ، وكانت نتائج الصراعات بين الزعماء أكثر فداحةً : العداء بين فرج بن فرج وابن أمية ، كراهية ابن أمية لعائلة زوجته وصهره ميغيل دي روخاس ، العداوة بين ابن أبو والحبقي ...الخ . كانت تلك العداوات هي التي استوحى منها الأدباء الذين كتبوا عن الموريسكيين(٨٤) . وصلت مأساة ذلك الشعب إلى النتيجة التي كانت منتظرة حتى لو أن الجانب المسيحي كان به عناصر أقل شأنًا من الموريسكيين من حيث النسب . في أوج الحرب ذهب تاجر فضة من غرناطة ويُدعى فرانثيسكو باريدو إلى البشرات كان عادةً ما يبيع منتجات من الفضة والذهب لأهل البشرات ، وكان يثق في أنهم لن يلحقوا به أذى فذهب إلى هناك في أيام الحرب لكي يشتري منهم الذهب والفضة وأشياء أخرى .اشترك في قتل ابن أبو (٨٥). وفي لحظة وصول ماركيز مونديخار إلى بادول اكتُشف جاسوسان أحدهما كان ابنًا لمسيحيين وتربى وسط الموريسكيين منذ طفولته "(٨٦) والآخر كان قاتل فرج (٨٧).

(*) يقصد التدين المسيحي بالتأكيد ، وهذا طبيعي فقد تم تعميده قسراً. (المترجم)

٣ - الحرب عند الجانب المسيحى : النهاية

يبدو أن عناصر الحرب فى الجانب المسيحى كانت أكثر تشابكًا ، وفى بعض الأوجه كان هناك تشابه مع الجانب الموريسكى. إن الوصف الدقيق الذى يقدمه كل من مارمول وبيريث دى إيتا ، وأورتادو دى مندوثا وآخرين يمكن أن يُقارن بالوثائق الخاصة بيوميات الحرب ، ويمكن من خلاله أن نرتب الأحداث ترتيبًا زمنيًا. لن نحاول ذلك الآن بل سنكتفى بتحديد أهم مراحل الصراع .

بعد دخول المنفيين إلى غرناطة فى ٤ ديسمبر عام ١٥٦٨ [٨٨] مرت عدة أيام قبل أن يقرر ماركيز مونديخار الهجوم على البشرات . وفى ٣ يناير ١٥٦٩ توجه الماركيز إلى الجبال[٨٩] . فى خلال الوقت القصير الذى مرّ بين التاريخين حاول المسيحيون الموجودون هناك أن يقاوموا ، لكن لم يحالفهم الحظ فى أغلب الأحيان . فى داخل كل قرية كان هناك برج ، وقد احتمى المسيحيون بتلك الأبراج .

كانت هناك الأبراج العامة التى شُيدت بهدف الحماية ضد القراصنة الأتراك والبربر. كان أهم تلك الأبراج برج أورخيبا الذى كان قد أُعيد ترميمه منذ سنوات قلائل [٩٠]. وكانت أكثر تلك الأبراج ملكاً لأفراد ، كما هو وضع برج الموريسكى ميغيل دى روخاس فى أوخيخار ، وبرج الكاتب بدرو لوبيث فى أوخيخار أيضًا [٩١]، وبرج خوان رودريغيث فى قرية الحزام Alhizam على نهر مولوى [٩٢]، وبرج بدرو دى اسكالانتى فى إستان بماربيا[٩٣] . ويبدو أن عدد الأبراج الحصينة فى بيرخا كان مرتفعًا[٩٤] ، وكانت غالبية قرى حوض نهر المنصورة بها قلاع قديمة موجودة فى أماكن تصعب مهاجمتها[٩٥] ، وكانت الكنائس أيضًا تُستخدم كحصون ، كما نفهم من المجلد الرابع لكتاب مارمول . وقد أشار مارمول بالفعل إلى كنيسة موتريل فقال " إنها عبارة عن حصن " [٩٦]. وقد سقطت الأبراج العامة والخاصة والكنائس أمام هجمات الثوار .

كان الاستثناء هو صمود بعض المسيحيين القُدامى فى بعض القرى لعدة أيام ، وكان الصمود ناجحًا لدرجة أنهم حاولوا التوفيق بين حالة الحرب والحياة العادية؛

ففى توروكس على سبيل المثال كانوا يعيشون فى برج ، وكانوا " خلال النهار يذهبون إلى أعمالهم ويتركون رجلاً واحداً مع النساء" (٩٧)

فى الفترة من أوائل يناير وحتى مارس ١٥٦٩ استمرت حملة ماركيز مونديخار على البشرات ، وكانت الحملة بإمكانيات ضعيفة ، وقد انتقدها مسئولو المستشارية والعامة ، لكن الحملة فى مجملها كانت فعّالة . وبعد أن ذهب الماركيز لنجدة دوركال عبر قنطرة تابلنتى(٩٨) وصل إلى أورخيبا ومنها صعد إلى بوركيرا(٩٩) وفيريرا وغيرهما(١٠٠). ومن هناك توجه الماركيز إلى خوبيليس(١٠١) واستولى على أوخيخار(١٠٢) وأدرك الماركيز أن المسلمين قد استسلموا أو كانوا مستعدين للاستسلام(١٠٣) رغم بعض المشاكل فى مناطق متطرفة مثل جبل غواخاراس(١٠٤). لكن المستشارية كانت تعمل ضد الماركيز ؛ فجعلت ماركيز بيليث يشترك فى الحرب فى الجبهة الشرقية ، وكان ماركيز بيليث على عداء شخصى مع ماركيز مونديخار ، ولهذا كانت مشاركته فى الحرب بمثابة إهانة له(١٠٥) . وعندما أكد ماركيز مونديخار فى لحظة ما – على ضوء استسلام الموريسكيين والمفاوضات – أن الحرب قد انتهت عمليًا، أكد السيد بدرو دى ديثا أن الحرب لم تنته بعد(١٠٦). وقد استُقبِلَ مبعوثو ماركيز مونديخار فى العاصمة استقبالاً سيئًا (١٠٧)، وكانوا قد ذهبوا يطلبون العفو عن الموريسكيين . لكن اقتراح أحد المبعوثين وهو السيد ألونسو دى غرانادا بييغاس بأن يتوجه الملك نفسه إلى أندلوثيا لإحلال السلام التام قد استُغل، واستُبدل ماركيز مونديخار بالسيد خوان دى أوستريا(١٠٨). إن الرسالة المؤرخة فى ١٧ مارس ١٥٦٩ والتى يُعلن فيها عن وصول خوان دى أوستريا لتولى القيادة (وقد تزامن وصوله مع مذبحة موريسكيين رهائن) اعتُبرت بمثابة إهانة أخرى ضد عائلة مونديخار(١٠٩).

إن البغّالين المكلفين بإحضار المؤن للجنود قد أساءوا إلى الناس (١١٠) ولم يكن ذلك هو أسوأ شىء . باختفاء ماركيز مونديخار فقد الموريسكيون أى أمل فى معاملة طيبة من قِبَل المسيحيين ، فوسعوا دائرة الثورة . من ناحية أخرى حدثت فوضى فى صفوف القوات المسيحية . زادت حدة الهمجية وعدم الطاعة وقلة الأخلاق بين الجنود. إننا نعلم أن الجنود كانوا يرتكبون أفعالاً بشعة فى بيوت القرويين الذين كانوا يستضيفونهم(١١١) وأن الانشقاق والخروج من جبهة القتال كان ملحوظًا(١١٢) ، لكن

أسوأ شيء كان تصرف الجنود مع الموريسكيين أنفسهم . عندما يتحدث بيريث دي إيتا عن قوات ماركيز مونديخار يقول إن نصف هذه القوات أو ما يزيد عن النصف كانوا أكبر لصوص في العالم ، لم يكن يحركهم سوى دافع السرقة والنهب وتدمير بيوت الموريسكيين الآمنين[١١٣] ، ويُشير في موضع آخر إلى أن بعض الجنود" كانوا يسرقون حتى القطط" ، كانوا يسرقون الطل والغرابيل وأحواض العجين (المواجير) والمغازل وطاسات الشواء وأدوات أخرى لا قيمة لها كذلك حتى لا ينسوا عادة السرقة "[١١٤] . وقد أُقرت تلك الأفعال وسُمِحَ بها بمقتضى القرار الذى أصدره فيليبي الثاني في ١٩ اكتوبر عام ١٥٦٩ والذى يسمح لأى جندي مسيحي بالاستيلاء على الأثاث والنقود والجواهر والماشية دون أن يدفع الخُمس[١١٥] عن ذلك وهو ما كان يُدفع فيما مضى[١١٦]. هذه هى المرحلة "الإيطالية " للحرب كما يسميها أورتادو دى مندوثا ، والحرب الإيطالية أو على الطريقة الإيطالية هى أكثر الحروب استغلالاً ونفعية[١١٧] ، فلم يكن الجنود يكتفون بالاستيلاء على الأشياء التافهة ، بل أصبحت غنائم الحرب تشمل ما يلي:

١ – المحاصيل القابلة للتخزين كالحبوب والزبيب والتين والبندق ، وكان الجنود يبيعون تلك المحاصيل للتجار والرهبان المسئولين عن مشتريات الأديرة [١١٨].

٢ – الماشية ، وكانت تستخدم أحياناً في تغذية الجيش كما حدث عند الاستيلاء على حصن إينوكس [١١٩].

٣ – الحرير والذهب واللؤلؤ: عن هذا النوع بالتحديد يتحدث المؤرخون بإسهاب باعتباره بالغ الأهمية. عند الوصول إلى حقول بيبيون سلب الجنود من الموريسكيين " كمية كبيرة من الصناديق المليئة بالثياب والحرير والتى كان الموريسكيون يزمعون إخفاءها..." [١٢٠]. ولدى دخول ماركيز بيليث عند مسلمي فيليث " استولى على صناديق مليئة بالثياب والحرير والذهب واللؤلؤ"[١٢١]. وبعد الاستيلاء على غاليرا " عُثِرَ على كميات من القمح والشعير تكفى لمدة عام واستولى الضباط والجنود على كميات هائلة من الحرير والذهب واللؤلؤ وأشياء أخرى غالية انتفعوا بها "[١٢٢]. كنّا قد ذكرنا أن زعماء الموريسكيين كانوا يحفظون هذه الأشياء في الجبال والمرتفعات مثل جبل إليار[١٢٣] وجبل إينوكس[١٢٤] وجبل ريستابال [١٢٥] وحصن فريخيليانا [١٢٦].

٤ – الأشخاص – وكان هؤلاء من بين غنائم الحرب – إن عدد الرجال والنساء والأطفال الموريسكيين الذين أسرهم الجنود المسيحيون كان هائلاً لدرجة أن السلطات كانت تتحفظ على شرعية امتلاك تلك الغنائم. لم يكن مقبولاً أن يتحول المسيحيون من أسرى حرب إلى عبيد ، وقد كان الموريسكيون مُعَمَّدين ، ولهذا قال علماء اللاهوت إنه ليس مشروعًا أن يتحولوا إلى عبيد. لكن أعضاء المجلس الملكي وأعضاء محكمة غرناطة قرروا أنه – بمقتضى مجمع طليطلة – يمكن تحويل الموريسكيين إلى عبيد(١٢٧) - لأنهم اتخذوا اسم محمد -(١٢٨) ، وكان هذا القرار سببًا في إطالة أمد الحرب. لقد انتهك الجنود الهدنة عدة مرات بهدف الحصول على أسيرات مسلمات – كما حدث في لاروليس – وهو ما أدى إلى امتعاض الكافة (١٢٩). وقد حدث ذلك في غويخار أيضًا(١٣٠) . لكن يجب ألا نلقى تبعة السلب على الجنود وحدهم. إن كثيراً من مسلمي خوبيليس قد بيعوا نقداً في غرناطة ، ومات بعضهم في الأسر (١٣١). كان القادة والضباط يتقاسمون الأسرى ومن بينهم الأطفال (١٣٢). وكان الأسرى أوفر حظًا من الذين ماتوا في مذابح عامة كتلك التي يروى قصتها بيريث دى إيتا والتي حدثت عند الاستيلاء على فيليكس(١٣٣) ؛ فقد نزع الجنود ملابس الموريسكيات بعد موتهن وجمعوا ملابسهن وحُليهن وكل ما كان عليهن (١٣٤). وقد اشترك أهل غرناطة في أعمال السلب ، وقاموا به بعد اندلاع الثورة في البيازين (١٣٥).

كانت فظاعة الحرب ووعورة أرض المعركة وانعدام الاتصال والمنازعات الداخلية هي العوامل التي أدت إلى تأخير تحقيق المسيحيين النصر. كانت الطرق المؤدية إلى غرناطة قليلة ، وكانت وعرة. كان الجنود المسيحيون كثيراً ما يحتاجون إلى مرشد(١٣٦) . كان من السهل أن يقع هجوم على المسيحيين عند الطريق ، وقد سعى ماركيز مونديخار بالفعل إلى تحصين طريق البشرات من الناحية الشرقية(١٣٧) . في بعض الأحيان كان لا يمكن عبور الوهاد إلا على كوبرى من الحبال ، كما كان الحال في مرسية ، وهي وسائل شبيهة بالوضع في إفريقيا وأمريكا الجنوبية(١٣٨).

هيا بنا نستعرض الأحداث بالترتيب منذ تولى السيد خوان دى أوستريا القيادة العليا في ١٣ أبريل عام ١٥٦٩ . كانت الفترة التى تلت ذلك حتى قدوم الصيف فترة تدهور . مع وجود السيد خوان احتدمت المنافسات والعداوات وأصبحت الأمور أكثر

تعقيداً[١٣٩]. لقد هُزِمَ ماركيز بيليث الذى نسبت إليه فضائل كثيرة والذى كان القصر يكنّ له الحب لأنه خرج يحارب دون أن يكلفه أحد بذلك - هُزم الماركيز لدى محاولته تأمين معبر راغوا[١٤٠] . وحدثت هزائم أخرى فى ناحية ملقة ، وقد استطاع ابن أمية - الذى كان يسانده الأتراك والبربر والذى كان يتجنب المواجهة - استطاع أن يهدد معسكر ماركيز بيليث فى أدرا ، وقد وصل جيش ماركيز بيليث فى شهر أغسطس إلى وضع يُرثى له وانسحب من منطقة الساحل وتوجه إلى كالا أورا[١٤١] .

فى أثناء ذلك كانت المؤامرات تُحاك فى غرناطة ، وكان الفزع سائداً . فى ٢٤ يونيه أُخرج الموريسكيون من البيازين ، وتم توزيعهم بشكلٍ سيئ على مناطق أندلوثيا وكاستيا بعد أن نُهبت ممتلكاتهم وقُتِلَ بعضهم ، وقد عوملوا معاملة الأسرى أثناء السفر[١٤٢] . كان هناك منْ يظن أن تصرف ماركيز مونديخار هو التصرف الملائم ، لكن القصر لم يكن راضياً عنه - وقد استدعى الماركيز إلى العاصمة تجنباً للبلبلة وأجبر على البقاء فى مدريد منذ ١٣ سبتمبر وحتى انتهاء الحرب[١٤٣]. اختفت من على مسرح الأحداث أيضاً شخصيات أخرى كانت بارزة. كان ابن أمية فى الفترة من أغسطس إلى أوائل أكتوبر هو سيد الموقف . كانت منطقة المرية كلها فى حالة ثورة ، وكانت منطقة الساحل حتى باثا فى حالة ثورة . لكن الملك الموريسكى كان له أعداء كثيرون كانوا يعتبرونه طماعاً ومستبداً . أدى موت عمه " الصغير " إلى تخلصه من سلطة كانت تقيده[١٤٤] ، فظهر حبه للسلطة. قرر عدد من الزعماء الذين كانوا على صلة بالأتراك التخلص منه ، وفى إحدى الليالى ، فى ٢٠ أكتوبر ١٥٦٩ تقريباً ، قبضوا عليه فى لاوخار وأعدموه. يُقال إن ابن أمية مات وهو مرفوع الرأس ، وهو يُعلن أنه مسيحى(*) ، وأن هدفه الوحيد كان الانتقام لظلم حل بأسرته[١٤٥] . هذا الإعلان الأخير لا يخلو من تعمق . إننا نرى فيه أن ما كان يحرك المسلم الإسبانى لم يكن الدين فى حد ذاته ، بل روح العصبية التى كان ابن خلدون يرى أنها ضعيفة

(*) لا يمكن الاعتداد بما يقوله مؤرخو القرن السادس عشر الإسبان فى هذا الشأن ، فهى لا تخرج عن كونها كتابات دعائية . هذا ما نجده كذلك فى القصائد الشعبية الإسبانية ، فقد أُعيدت صياغتها بعد سقوط غرناطة الإسلامية. انظر د. جمال عبد الرحمن: "صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى"، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية (زغوان) - المجلد الثانى ، ص ١٨٥ - ٢٠٩ . (المترجم)

عند مسلمي غرناطة . عيّن ابن أبو - قريب ابن أمية - خلفًا له ، وكان قد اشترك في قتله ، وقد حقق ابن أبو بعض الانتصارات في الفترة من نهاية أكتوبر حتى ديسمبر ، فقد كان معسكر المسيحيين تعمه الفوضى . ترك كونت تنديا منصبه إثر مواجهة عنيفة مع الرئيس ديثا (١٤٦) . في النصوص التي تتعرض لتلك الفترة لا نستطيع أن نتبين خطئًا محددًا . كانت الأحداث عبارة عن فصول أو فصول صغيرة ، هزائم وانتصارات ثم البدء من جديد. في النهاية حصل السيد خوان على إذن بتوجيه حملة ، وفي ٢٩ ديسمبر ١٥٦٩ خرج لمحاصرة غاليرا ، وقد استولى عليها بعد أن قُتِلَ كثير من جنوده ، ودخلها في ١٠ فبراير ١٥٧٠(١٤٧). كان ذلك أهم حدث في المرحلة الأخيرة من الحرب. يمكننا أن نتعرف على تفاصيل تلك الأحداث من خلال المراسلة بين السيد خوان وأخيه الملك ، حيث نرى صدى لاشمئزاز السيد خوان ولاستبداد الملك. يظهر هنا السيد خوان كرجل شجاع يحب المبادرة الشخصية ، أما الملك فعلى العكس يرى أنه يكفي لحل المسألة حضور شخص عن أسرة الملك. في مرات عديدة يحذر الملك أخاه من المغامرة (١٤٨) . ومن ناحية أخرى يشكو السيد خوان من ماركيز بيليث الذي لم يقدم ما كان الناس ينتظرون منه(١٤٩) ويُبدي كراهيته نحو ديثا(١٥٠) . يوصيه فيليبي الثاني بأن يُعامل ماركيز بيليث معاملة طيبة(١٥١) ، لكن الخطابات لا يظهر منها موقف الملك من ديثا. إن ما كان يثير غضب السيد خوان هو نوعية القوات التي تعمل تحت إمرته ، فقد أودى الخوف بحياة دليله السيد / لويس كيخادا. "... الآن أستطيع أن أحدث جلالتكم عن جبن هؤلاء الناس . إنه خوفٌ لم يره أحدٌ أبدًا ممنْ خاضوا الحروب في السنوات الأخيرة ، ولم أكن أنا لأصدق ذلك إلا من خلال تجربتي ، إذ إنني رأيتهم يهربون بلا نظام أمام عددٍ قليل من المسلمين"(١٥٢) .

هناك رسائل أخرى تؤكد ما يقوله المؤرخون عن انعدام النظام والهمجية في الجنود(١٥٣) . لكن برغم هذه المساوئ وقلة النقود التي كان يشكو منها السيد خوان في رسائله(١٥٤) فإن النصر تحقق واستراح السيد خوان الذي لم يكن مرحبًا على ما يبدو بالقيام بتلك المهمة. بعد سقوط غاليرا سقطت مدن أخرى مجاورة لها ، وسار السيد خوان صوب بؤرة الثورة - البشرات - التي كانت مقاومتها عنيفة. كان يريد أن ينضم إلى قوات دوق سيسا الذي حاول السيطرة على البشرات عدة مرات دون جدوى(١٥٥) .

في الجانب الموريسكي كان انخفاض الروح المعنوية هو السائد ، وفي ١٨ أبريل عام ١٥٧٠ تقريبًا بدأت مفاوضات الاستسلام[١٥٦] التي لعب فيها إيرناندو الحبقي دورًا بارزًا . كان للحبقي أعداء هم المتطرفون في الجانبين ، وقد قتله المسلمون في يوليه ١٥٧٠ [١٥٧]. في ذلك الوقت أيضًا كانت حملة دوق أركوس على جبال روندا ، وقد انتهت بترحيل الموريسكيين كلهم في أول نوفمبر [١٥٨]. كان كل الموريسكيين الذين يقاتلون في ذلك الوقت مقتنعين بعدم وجود مخرج سوى الاستسلام ، وخلال شهر أكتوبر توالت عمليات الاستسلام حتى أن الهم الأكبر لدى قادة المسيحيين كان إخراج المسلمين من غرناطة[١٥٩] . ومع ذلك كان هناك منْ ظل يقاوم حتى ربيع عام ١٥٧١[١٦٠]. وهو التاريخ الذي قُتِلَ فيه ابن أبو[١٦١] . قُتِلَ ابن أبو في ١٥ مارس ، وفي ٢٣ مارس كتب دييغو أورتادو دي مندوثا رسالة إلى الكاردينال إسبينوسا يقول فيها : " لم يبق من المسلمين سوى عشرة آلاف وخمسمائة ... متفرقين وجائعين "[١٦٢] بعضهم حاول – كما حدث في البداية[١٦٣] – اللجوء إلى الكهوف ، وهي كثيرة في البشرات . لكن حظ اللاجئين إلى الكهوف كان عاثرًا ، فقد ماتوا مختنقين من أثر الدخان – إذ أُشعلت النيران على أبواب الكهوف – أو وقعوا في الأسر . يقول مارمول عند حديثه عن الحملات التي شنها قائد كاستيا : " في مغارة ميثينا دي بومبارون أُلقي القبضُ على مائتين وستين شخصًا ، ومات مائة وعشرون مختنقين بالدخان . وفي مغارة قريبة من بيرشول مات ستون شخصًا مختنقين ، وكان من بينهم زوجة ابن أبو وابنتاه . كان ابن أبو بالداخل لكنه خرج من فتحة سرية ومعه رجلان. وفي مغارة كاستاريس مات سبعة وثلاثون شخصًا ، وفي كهف تيار أُسر اثنان وستون شخصًا ، وقد عثر على كميات كبيرة من الأسلحة وثياب وأمتعة في كل هذه المغارات [١٦٤].

ويضيف مارمول " وعلى الساحل استولت القوات على ست مغارات كبيرة جدًا ، ففي مغارتين فقط كان هناك ثمانمائة شخص ، وفي المغارة الأخيرة – التي استسلمت في ١٠ أكتوبر وتقع في دتيار – كان هناك مائة مسلم من البلاد وثلاثون من البربر ، وتركي واحد ، وكانوا كلهم مسلحين ، وكان هناك ما يزيد على ثلاثمائة

امرأة وطفل. وفى مغارة أخرى فى مورتاس ناحية البحر استسلم السيد فرانثيسكو دى كوردوبا ". (١٦٥).

كان مصير هؤلاء الناس الذين استسلموا فى اللحظة الأخيرة هو تحولهم إلى عبيد لبعض المسيحيين القُدامى. وفى الوثائق الخاصة فى أواخر القرن السادس عشر نجد ضمن قوائم الملكية عبارات مثل هذه : قائمة بمنقولات سيباستيان دى كوردوبا ، تاجر فضة كان يعيش فى قرطبة ، ومات قبل سنوات من تحرير الوثيقة (١٩ أبريل ١٥٨٧) : " إيسابيل ، موريسكية من مملكة غرناطة ، عمرها أربعة وثلاثون عامًا تقريبًا ، " وتشمل القائمة كذلك " ستة خدم ، أحدهم عجوز ... " (١٦٦).

وقد نشر بيرنارد فنسنت عام ١٩٧٠ دراسة موثقة عن طرد موريسكيى غرناطة وتوزيعهم على مدن وقرى كاستيا ، وتؤكد الدراسة كل ما ذكره مارمول (١٦٧).

لكن بالإضافة إلى ذلك ، فهناك بيانات خاصة بالقرى والمدن التى خرج منها هؤلاء الموريسكيون وعددهم وأماكن توزيعهم وهو ما تشمله خريطتان. وهناك خريطة تبين أماكن الهجرة فى نوفمبر/ ديسمبر ١٥٧٠ ، وقد أودت عمليات الترحيل بحياة الكثيرين نظرًا لتفشى مرض التيفود حينذاك(١٦٨).

هوامش الفصل السادس

(١) Marmol. pag. 185

Hurtado de Mendeza, pag. 30

(٢) يحدد أورتادو دى مندوثا يوم ٢٣ ديسمبر تاريخًا لاندلاع الثورة فى البشرات. يبدو أنهم حاولوا أن يتحرك الفلاحون أولاً. انظر :

(٣) Cabrera de Córdoba, 1, pag. 554

Pérez de Hita pag. 595

Castillo, pags. 59-60

(٤) يترجم كاستيو رسالة فرج التى يدعو فيها إلى الهجوم على المدينة .

(٥) Marmol. Pags. 187-188 , 234

Cabrera de C?rdoba, 1, pags. 555-556

A. de Fuenmayor, pags.150-151

Hurtado de Mendoza, pags. 31-32

(٦) ترد قصة دخول الموريسكيين إلى حى البيازين فى رسالة كتبها مدّعٍ إلى الراهب فرانثيسكو دى ريبيرا بتاريخ ٩ يناير ١٥٦٩ ونشرها السيد / لوكاس دى تورى (ص ٣٩٥-٣٩٧) ، وتتفق هذه الرواية مع روايتى مارمول وبيريث دى إيتا فيما يتعلق بالكلمات التى وجهها الموريسكى العجوز إلى المنفيين. كما يقدم كذلك تفاصيل عن اللحظات الأولى لحملة مونديخار وعن انتهاكات المقدسات الدينية المسيحية. والصفحات التى يكتبها سواريث عن الحرب (ص ٢١٨ – ٢٢٥ ، ٤١٥ – ٤٢٤) تستند أساسًا إلى ما يذكره مارمول .

(٧) Mondejar: *Memoire*....pag. 20

وفى صفحة ١٦ يقول إن عدد بيوت المسلمين فى ذلك الحى وصل إلى ٧٥٠٠ . لدينا الآن دراسة دقيقة نشرها بيرنارد عن البيازين فى :

Melanges de la casa de Velázquez, VII, Par?s 1971 pags. 187-222 Marmol. (٨) Pag 193

(٩) كانت تلك الناحية هى أشد أماكن البشرات من حيث الثورة والأعمال الهمجية.

Hurtado de Mendoza, pag. 81

(١٠) كتاب ماركيز مونديخار عبارة عن يوميات عمليات حربية يحكى فيها أفعال الموريسكيين وغيرها بشكل موجز (ص٢٣) ، أما كابريرا دى كوردوبا (ص ٦٣٧ - ٦٤٠) فيتوسع فى هذه النقطة. ويلخص أورتادو دى مندوثا (ص ٣٨-٤٠) هذه النقطة ، أما مارمول فيقدم بعض التفاصيل. يشير (ص ١٩٩) إلى أن أسقف غرناطة أمر برفع تقرير ربما استند إليه.

(١١) *Bermúdez de Pedraza: Historia eclesiástica*, fols. 242,255

Diego, arzobispo de Granada: *Memorial a la Reina* 84 fols.

F.A. Hitos: *Martires de la Alpujarra.*

(١٢) *Memoria de los curas y Beneficiados que han amartirizado los moros levanta-dos de Granada en las Alpujarras y Val de Lecrin*, fols. 110 , 112

(١٣) El padre Hitos, pags. 227-231

انظر أيضًا الملاحظة رقم ٢٥

(١٤) Marmol. Pag 205

(١٥) Marmol. Pag 200

(١٦) Hurtado de Mendoza, pag. 40

Marmol. Pag 193

(١٧) Hurtado de Mendoza, pag. 39

Marmol. Pag 189 , 194

(١٨) Hurtado de Mendoza, pag. 40

Marmol. Pag 193

(١٩) Marmol. Pag 189

(٢٠) Marmol. Pag 191

(٢١) Marmol. Pag 191

(٢٢) Marmol. Pags. 192-193 y 195

(٢٣) Hitos, pags. 99-100

(٢٤) Hitos, pag. 118

Hurtado de Mendoza, pags. 68-69

(٢٥) *Bermúdez de Pedraza: Historia eslesiástica*, fols. 254

Hitos, pag. 108

يذكر هيتوس أن أفعالاً من هذا القبيل ارتُكبت فى أوخيخار وبيرخا وأويشخا. ويضيف الأسقف دييغو إسكولانو - الذى كتب مذكرة يستند فيها إلى دراسات منشورة - بعض البيانات ذات الدلالة ، فهو يذكر (ص ٤٩) أن بيرنابى مونتانوس - وهو دكتور فى علم اللاهوت - علِمَ بقيام الثورة فذهب إلى غرناطة وأخبر الأسقف لكن الأسقف لم يُعره اهتمامًا وأمره بالعودة إلى كنيسته فمات بها . يُقدر إسكولانو عدد القتلى بثلاثة آلاف (ص٧٣).

(٢٦) انظر الملاحظة رقم ١٠٣ من الفصل الخامس .

(٢٧) Marmol. Pag 335

(٢٨) Hurtado de Mendoza, pag.

Cabrera, I, pags. 595-596

حول النبوءات انظر الملاحظة رقم ١٢٢ في الفصل الخامس ، ويذكر أ. فوينمايور (ص ١٤٢- ١٤٣) بعضاً منها.

(٢٩) Marmol. Pag 267

(٣٠) Marmol. Pag 268

في عصر ملوك بني نصر كان هناك نائب الملك يُسمى الحاجب أو الحاجب الأكبر انظر:

Crónica de Alfonso XI, pags. 206-207

Miguel de Luna, pag. 91

يقارن ميغيل دي لونا هذا المنصب بمنصب رئيس كاستيا. هذا هو المنصب الذي تولاه فرج بن فرج. وكان هناك أيضاً حُجّاب يمثل كل منهم الملك في منطقة من المناطق انظر

Crónica de Juan II, pags 287 (ano 1407)

بالنسبة لمنصبي " الفقيه الأكبر " وقاضي القُضاة انظر : Marmol. Pag 132, 135

يشرح ميغيل دي لونا (ص ١٥٠) معنى كلمتي " مفتي " و " قاضي "

(٣١) Marmol. Pag 268

(٣٢) Pérez de Hita pags. 629-638

(٣٣) Hurtado de Mendoza, pags. 1-2

(٣٤) Hurtado de Mendoza, pag.128

Marmol. Pag 177

يذكر مارمول تحذيراً في ١٦ أبريل عام ١٥٦٨ . بعد ذلك يشير إلى تحذيرات أخرى.

(٣٥) A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 448

(٣٦) Marmol. Pag 221

انظر كذلك الرسالة التي نشرها غوميث مورينو في تحقيقه لكتاب أورتادو دي مندوثا (ص ٢٨٧- ٢٨٩) والتي يحكي فيها بطولات قسيس قتل أربعة من المسلمين .

(٣٧) " يقولون لي إن الرئيس يتحدث كثيراً مع الرهبان ، ولو صدقهم فستثور مشاعره مهما تحفّظ" . ورد ذلك في رسالة أورتادو دي مندوثا بتاريخ ١٦ مايو ١٥٦٩، انظر :

A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 450

(٣٨) Hurtado de Mendoza, pag. 54-60

يحكى أورتادو دى مندوثا بالتفصيل ما حدث فى غواخاراس ، وهو ما يقوله مارمول أيضًا فى صفحات ٢٤٤ - ٢٤٧ ، أما فى صفحة ٢٤٥ فهو يصف المكان. انظر كذلك كابريرا دى كوردوبا ، الجزء الأول ، ص ٦٧٠ - ٦٧٤.

(٣٩) يصف مارمول أيضًا المكان فى صفحة ٢٦٩ ، ويذكر أورتادو الأحداث (ص ١٠٥-١٠٨) .

(٤٠) Marmol. Pag 282

Cabrera de Córdoba,1, pag. 667-670

Hurtado de Mendoza, pags. 79-80

(٤١) Marmol. Pag 282

(٤٢) Marmol. Pag 357

(٤٣) يقول أورتادو دى مندوثا (ص ٥٣): بدءوا فى الاحتماء بالأماكن العالية واحتلال قمم الجبال والتحصن بها ... كانت كل آمالهم تكمن فى الانتشار والتفرّق ... كان ظاهرهم يدل على الهروب لا على الهجوم "

(٤٤) Oliver Asín : *Origen árabe de rebato* .... Pags. 372-389

يورد أوليفر أسين نصوصًا هامة عن التخطيط الحربى .

(٤٥) Marmol. Pags. 228 , 282

التظاهر بالهروب تخطيط حربى نجده فى الكتابات المسيحية. انظر: *Crónica de Alfonso XI*, pag 226

(٤٦) *Quijote*, parte II, cap. XXXIV

(٤٧) Marmol. Pag 296

(٤٨) Marmol. Pag 305

(٤٩) Mondejar: *Memoire* ....., pag. 45

Hurtado de Mendoza, pag. 54

(٥٠) Marmol. Pag 248 , 269

(٥١) فى نفس الفترة كان البربر أيضًا يتسلحون بالنبال ، كما يذكر دييغو دى توريس (ص٢٨٩) .

(٥٢) Marmol. Pags. 289, 222, 268, 290, 315

Oliver Asín : *Origen árabe de rebato* .... Pags. 496 -514

(٥٣) Marmol. Pags. 242, 238

كان القادة يستخدمون الصفارات الفضية للتنبيه طبقًا لما يذكره بيريث دى إيتا (ص ٥٩٩، ٦٧٩) .

(٥٤) Hurtado de Mendoza, pags. 74-75

Marmol. Pag 261

يذكر مارمول أسماء القادة الموريسكيين الذين تم تعيينهم بعد إعادة تنظيم القوات ويحدد منطقة نفوذ كل قائد ، ويقدم كاستيو (ص ١٣٢ - ١٤٢) قائمة بالفصائل نعرف من خلالها أن الفصيلة تتكون من عشرة أفراد .

(٥٥) A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 444

يتحدث ميغيل دى لونا (ص١٣٨) عن الحرب البدائية غير المنظمة ، وقد كانت تلك فوضى أكثر من كونها حربًا ، فقد قاتلت النساء ببسالة كما حدث فى فيليكس. انظر مارمول (ص ٢٣٧) .

(٥٦) حدثت مجاعة أيضًا فى الجانب المسيحى لدرجة أنه فى غرناطة فى أوائل عام ١٥٦٩ طبقًا لرواية نشرها غوميث مورينو (فى تحقيقه لكتاب أورتادو دى مندوثا) ص ٢٦٩ : "كانت كل محلات الموريسكيين مغلقة فلم يكونوا يجرءون على فتحها، ومن المؤسف ألا تجد شيئًا يؤكل – عدا الخبز وهو قليل – معروضًا للبيع ... إن الأفران لا تنتج الخبز من قلة الحطب ، فالحطب سعره مرتفع لدرجة أن الحمل يساوى سبعة ريالات ، ولا يوجد فحم مُطلقًا". انظر أيضًا مذكرة مؤرخة فى ٢٩ يوليه عام ١٥٧٠ (ص ٢٩٥) .

(٥٧) Marmol. Pag 283

(٥٨) Duran, 1, pag. 53

(٥٩) Pérez de Hita pag. 606

(٦٠) Marmol. Pag 264

(٦١) أراد موريسكى أن يحطِّم طاحونة فى نواحى غرناطة كانت تستخدم فى طحن الدقيق لقوات ماركيز مونديخار . انظر مارمول (ص ٢٢٠) .

(٦٢) Duran,1, pag. 53

(٦٣) Marmol. Pag. 266

(٦٤) Pérez de Hita pag. 606

دخل فرج بجرأة إلى حقول لوركا ... واستولى على أغنام كثيرة وأخذ الرعاة " .

(٦٥) A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 456

(٦٦) A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 445

النقود معهم ، ماشيتهم أغلبها ماعز ، الملابس لا يستطيعون ارتداءها بسبب الحظر. المحاصيل لأنهم لم يزرعوها ، لم يفقدوا شيئًا ، والفاكهة سيجدونها فى الأرض لوساروا وراءنا . إنهم عُمال مجتهدون ومنتجون ... ليس لهم أمل فى بلاد البربر ..."

(٦٧) Marmol. Pag 314

(٦٨) يذكر مارمول (ص ١٧٨) نحيلة وهو صياد من أدرا ..

(٦٩) Marmol. Pag 359

Pedro Barrantes Maldenado, 1, pag. 347

(٧٠) *Crónica de Alfonso XI*, pag 390

(٧١) Marmol. Pag 335

(٧٢) Marmol. Pag 261

(٧٣) Marmol. Pag 261

(٧٤) Pérez de Hita pag. 595

(٧٥) مارمول (ص١٨٨) شاهد عيان على هذه القصة . انظر كذلك صفحات ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨.

(٧٦) Marmol. Pag 216, 276

Mondejar: *Memoire* ... pag. 26

يذكر مونديخار اسم لورينثو دى سانتا ماريا ، حاجب البونوبلاس الذى كان معادياً للثورة وعميلاً له .

(٧٧) Marmol. Pag 190, 200,203

يذكر مارمول نماذج لخيانة الصداقة.

(٧٨) Marmol. Pag 276

(٧٩) Marmol. Pag 259-276

حول هذه القسوة انظر صفحتى ٢٨٢ ، ٣٠٨ ، خاصة قسوة فرج بن فرج.

(٨٠) لا توجد حتى الآن دراسة لأخلاقيات الموريسكيين .

(٨١) Bermúdez de Pedraza: *Historia eslesiástica*, fols.238

(٨٢) Marmol. Pag 178

Hurtado de Mendoza, pag. 107

(٨٣) توجد هذه الوثيقة فى المخطوطة رقم ٧٧٧٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد:

" دوق سيسا عن السيد خوان دى أوستريا . بأمر صاحب الجلالة . لما كان لورينثو دى أوبيدا وهو موريسكي من خوبيليس وهو طويل القامة وبشرته سمراء ، قد قدم خدمات لصاحب الجلالة بأن أحضر نيفو دى روخاس أوسوريو خادم صاحب الجلالة الذى كان أسيراً عند المسلمين ، وقد أفرج عنه هو ... كما قام بأعمال أخرى خدمةً لصاحب الجلالة ... فإننى آمر رجال العدل والقادة والجنود وكل الموظفين الآخرين بألا يلحقوا به أذى ، وأن يمكّنوه من الدخول دون مضايقته بالفعل أو بالقول ودون مضايقة زوجته وأولاده وأقاربه الذين يحضرهم معه وكل الأشخاص الذين يأتون معه مسالمين ، ويُعاقب منْ يخالف ذلك بالعقوبات التى توقع بمنْ ينتهك إذن الأمان. أوخيخار بالبشرات فى ١٦ أبريل ١٥٧٠" .

حول الجواسيس المسلمين بين صفوف المسيحيين انظر : Castillo, pag. 22.

(٨٤) Marmol. Pag 349 -35

(٨٥) Marmol. Pag 363

كان عربياً عظيماً مات فى تطوان بعد ذلك إثر مؤامرة أعدها له ذووه .

(٨٦) Marmol. Pag 220

(٨٧) Marmol. Pag 308-309

يتحدث أورتابو دى مندوثا (ص٤١) عن جندى خائن يُدعى ماتشين الأعور .

(٨٨) هناك محاولة لترتيب الأحداث ترتيباً زمنيًا نجدها فى تحقيق غوميث مورينو لكتاب أورتادو دى مندوثا (ص٣٧ – ٤٣) ويقدم كاسكالس (ص ٢٩٥ – ٢٩٩) موجزًا لوقائع الحرب ، وفى صفحات ٢٩٩ – ٣٠١ هناك إشادة بماركيز بيليث .

(٨٩) Hurtado de Mendoza, pag. 43

فى صفحتى ٣٢، ٣٤ إشارة إلى أكثر معاونى الماركيز إخلاصًا .

(٩٠) Marmol. Pag 190

(٩١) Marmol. Pag. 196

(٩٢) Marmol. Pag. 207

(٩٣) Marmol. Pag. 216

(٩٤) Marmol. Pag. 202

(٩٥) Marmol. Pag. 275

(٩٦) Marmol. Pag. 299

(٩٧) Marmol. Pag. 269

(٩٨) Hurtado de Mendoza, pag. 43

Marmol. Pags. 226-227

Historia de la casa de Mondejar, fols. 372, 374

Cabrera de Córdoba, 1, pags. 649-652

A. de Fuenmayor. Pags. 158-159

(٩٩) Hurtado de Mendoza, pag. 45

Marmol. Pag. 227-228

Historia de la casa de Mondejar, fols. 374, 376

كان الوصول إلى أورخيبا يوم ١٢ ، وكان الاستيلاء على بوكيرا يوم ١٤ يناير ١٥٦٩ .

(١٠٠) Hurtado de Mendoza, pags. 48-50

Marmol. Pag. 228-229

Historia de la casa de Mondejar, fols. 376,379

Hurtado de Mendoza, pag. 49-52

(١٠١) Marmol. Pag. 231-232

Historia de la casa de Mondejar, fols. 379, 381

(١٠٢) Hurtado de Mendoza, pag. 233-234

Marmol. Pag. 233-234

Historia de la casa de Mondejar, fols. 282 y 283

كان الدخول إلى أوخيخار يوم ١٨ يناير .

(١٠٣) Marmol. Pags. 238-239

Historia de la casa de Mondejar, fols. 384 y 386

عنوان الفصل معبِّر : " الماركيز يطلب من الملك العفو عن الثوار. مجلس الحرب يعترض عليه ".

(١٠٤) Hurtado de Mendoza, pags. 54-60

Marmol. Pags. 245-246

Historia de la casa de Mondejar, fols. 386,387

(١٠٥) Hurtado de Mendoza, pags. 63 y 67

Marmol. Pags. 230-231

Cabrera de Córdoba, 1, pags. 657-659

فى الصفحة الأخيرة ترد هذه الفقرة : " كان الماركيز يتعجل أن يكون برفقته ماركيز بيليث ، فهو قائد شجاع حكيم خدم الإمبراطور فى مواقف أكثر مما خدمه ماركيز مونديخار ..." ، لكن ماركيز بيليث لم يتخذ الموقف الذى كان يُنتظر منه. وقد رأى بيريث دى إيتا الحرب من نفس الموقع الجغرافى الذى كان فيه ماركيز بيليث.

(١٠٦) العداوة المتبادلة بين مونديخار وبيثا نجدها فى رسالة أورتادو دى مندوثا إلى الكاردينال إسبينيوسا : " ... كل منهما يتهم الآخر بارتكاب حماقات " انظر :

A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pags. 446-447

(١٠٧) Cabrera de Córdoba, 1, pag. 679

لم يستطع السيد ألونسو دى غرانادا بنيغاس إجراء مفاوضات كثيرة فى العاصمة ، فقد أدرك أن الوزراء ليسوا مستعدين لسماع أى حديث عن اتفاق سلام أو تخفيض عدد القوات المرسلة إلى غرناطة. كان كل ما هناك تناقضاً وحججاً ضد ماركيز مونديخار"

(١٠٨) Cabrera, 1, pag. 680

(١٠٩) هذا ما نفهمه من مذكرة ماركيز مونديخار الخامس التى قدمها إلى فيليبى الثالث والتى نُشرت كملحق للمجلد الثالث من " مذكراتى ..." ص ٦٠ . عن المذبحة المشار إليها انظر الملاحظة رقم ٦١ فى الفصل الثالث ، وقد تحدث عنها بشكل مروِّع ألونسو أونتشوا دى ريبيرا فى رسالة نُشرت فى

B.A. H., LXV, pags. 400 -402

(١١٠) Biblioteca Nacional, ms 777.3 fol.128

(١١١) Biblioteca Nacional, ms 777.3 fol. 145

(١١٢) Biblioteca Nacional, ms 777.3 fols. 141,160

(١١٣) Pérez de Hita pag.600

يعترف ماركيز مونديخار بتجاوزات جنوده فى كتابه (ص ٢٣-٢٤) ويرى أورتادو دى مندوثا أنهم كانوا " لصوصاً مغامرين " (ص٧٠).

(١١٤) Pérez de Hita pag. 666-607

(١١٥) Marmol. Pag. 292

(١١٦) Marmol. Pag. 356

(١١٧) A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 456

رسالة بتاريخ ٢٧ أبريل عام ١٥٧٠ يرد فيها : " إن صاحب الجلالة أو أى ملك آخر ليست لديه أموال ينفق منها على هذه الحرب ..." . يرد نفس الشيء فى كتاب أورتادو دى مندوثا (ص ١٠٨).

(١١٨) Pérez de Hita pags. 606 - 607

(١١٩) Marmol. Pags. 242, 423

(١٢٠) Marmol. Pag. 314

(١٢١) Marmol. Pag. 228

(١٢٢) Marmol. Pags. 237, 262

(١٢٣) Marmol. Pag. 230

(١٢٤) Marmol. Pag.244

"كانت الملابس والنقود والمجوهرات والفضة والمؤن والماشية كثيرة لدرجة أن الكثيرين قدروا قيمتها بخمسمائة ألف دوقية " .

(١٢٥) Marmol. Pag. 282

(١٢٦) Marmol. Pag. 268

"توجه الراهب مارتين الحاجب ومعه النساء والماشية والملابس إلى حصنى فريخيليانا" . استولى الجنود من موريسكيى أوهانيث على كمية كبيرة من الصناديق المليئة بالملابس والمجوهرات ، كما استولوا على الماشية " انظر مارمول (ص ٢٤١).

(١٢٧) Tejada y Ramin II, pags. 603-604

حول تفسير قرارات مجمع طليطلة انظر :

J. Amador de los Ríos: *Historia social, política y religiosa de los judíos de Espana y Portugal*,1, pags. 99-101

(١٢٨) Marmol. Pag. 247

(١٢٩) Marmol. Pag. 250

(١٣٠) Marmol. Pag. 262

(١٣١) Marmol. Pag. 248

(١٣٢) فى المخطوطة رقم ٧٧٧٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد (ص ١٢٤، ١٢٥) هناك قائمة بالأشياء التى استولى عليها الجنود فى كاستيل دى فيرو.

(١٣٣) Pérez de Hita pag. 610

(١٣٤) Pérez de Hita pag. 611, 6

(١٣٥) Marmol. Pag. 219

(١٣٦) Marmol. Pag. 285

(١٣٧) Marmol. Pag. 266

(١٣٨) Luis Zapata : *Miscelánea*, pag. 58

(١٣٩) Hurtado de Mendoza, pags. 80-90,118-119,125

Cabrera de Córdoba,II, pag. 25

(١٤٠) Hurtado de Mendoza, pag. 96

(١٤١) Hurtado de Mendoza, pags. 116-124

(١٤٢) Hurtado de Mendoza, pags. 116-124

Marmol. Pags. 277-278

(١٤٣) Hurtado de Mendoza, pags. 125-127

Cabrera de Córdoba,I, pag. 25

(١٤٤) Hurtado de Mendoza, pags. 81-82

Marmol. Pag. 285

يبدو أن ذلك حدث فى ربيع عام ١٥٦٩ .

(١٤٥) Hurtado de Mendoza, pags. 137-139

Cabrera de Córdoba,II, pags. 27-28

Marmol. Pags. 292-294

حول صفاته انظر أورتادو دى مندوثا (ص١٣٢ – ١٣٣). يتبين أنها صفات شاب عادى. لا أريد أن أرسم صوراً للشخصيات البارزة فى تلك الحرب ؛ لكننى أريد أن أنبه إلى ضعف هذا الجانب فى دراسات أخرى . " ابن أمية " كما يصوره مارتينيث دى لا روسا شخص باهت ، ونفس الشيء يُقال عن الزعيم الموريسكى فى كتابات فيرنانديث غونثاليث وكتّاب آخرين من غرناطة يتحدث عنهم إيلوى سينيان فى كتاب " ابن أمية فى كتب التاريخ والأدب ". من المؤسف أن الإسكافى المسكين بيريث دى إيتا لم يتعرّف على ابن أمية وغيره من الشخصيات ... لكن ربما كان الأشخاص فى تلك الحرب هم الأقل أهمية ، وكانت الأهمية الكبرى للطبقات الاجتماعية .

(١٤٦) Hurtado de Mendoza, pags. 204 - 55

(١٤٧) Cabrera de Córdoba,1, pags. 35-38

Marmol. Pags. 312-314

F. Caceres Pla : *Asalto de la villa de Galera* ...pag. 46

هذه الروايات أفادت المؤلفين المعروفين . انظر كذلك غوميث مورينغ فى تحقيقه لكتاب أورتادو دى منـدوثا (ص ٢١٣ – ٢٤٣)

(١٤٨) *Correspondencia*...,pags. 10-12

(١٤٩) *Correspondencia*...,pags. 22-23

(١٥٠) انظر الملاحظة رقم ٣١ فى الفصل الخامس

(١٥١) *Correspondencia* ...,pags. 23-25

(١٥٢) *Correspondencia* ...,pags. 49-50

(١٥٣) *Correspondencia* ...,pag. 81

(١٥٤) *Correspondencia* ...,pags.110-111,111-112,124-125

(١٥٥) Hurtado de Mendoza, pag. 215

Marmol. Pags. 316-318

(١٥٦) Marmol. Pag. 319-321

(١٥٧) حول مساعى هذا الرجل انظر مارمول (ص ٢٤٠-٢٥٠) وإضافات أورتادو دى مندوثا (تحقيق غوميث مورينو) ص ٥٤٥ - ٢٤٨ . انظر كذلك

Memoria del estado en que está la guerra de Granada al presente, pags. 294-286

(١٥٨) Hurtado de Mendoza, pags. 179-199

Marmol. Pag. 355-359

(١٥٩) Marmol. Pag. 360-362

(١٦٠) Marmol. Pag. 363

Cabrera de Córdoba,1, pags. 4-86

يتحدث كابريرا عن المرحلة الأخيرة للحرب وأحداث متزامنة معها.

(١٦١) سأتحدث عن هذا الشخصية الغامضة فيما بعد

(١٦٢) A. Gonzalez Palencia y E. Mele, III, pag. 461

(١٦٣) انظر مارمول (ص ٢٣٧-٢٣٨) فى الفصل الذى يتحدث عن قوات ماركيز مونديخار وكيف انتقلت إلى كابيار وأوخيخار وحاريث المسلمين فى الكهوف.

(١٦٤) Marmol. Pag. 359

(١٦٥) Marmol. Pag. 360

فى صفحة ٣٤٧ يذكر الكهف الذى ألقى القبض فيه على قاسم المؤذن

(١٦٦) Rafael Ramirez de Arellano: *Artistas exhumados*..., pag. 201

(١٦٧) *Melanges de la casa de Velázquez*, VI Paris (1970) pags. 211-246

(١٦٨) Vincent, op.cit...pags. 225-226

الفصل السابع

١ - مصير المهزومين :

انتهت الحرب وتُوجت بقرار جذرى ، على الأقل من الناحية الظاهرية : طرد المسلمين من مملكة غرناطة ، وهى الأرض التى وُلدوا وتربوا فيها ، وكان هذا يعنى أن يغادر الموريسكيون بيوتهم ، وأن يبيعوا ممتلكاتهم .

إن عمليات التهجير التى شاهدناها فى عصرنا هذا فى بعض الدول قد تم تطبيقها مع موريسكيي البيازين وفى غيرها من مناطق مملكة غرناطة فى ٢٣ يونية ١٥٦٨[١]. أدت عملية الطرد تلك إلى حزنٍ عظيم لدى أولئك الذين لم يشتركوا فى الثورة . اعتملت فكرة التهجير فى رأس ديثا وغيره فى أوج الحرب . كان ماركيز موتديخار ومعه عدد من المسئولين - بل وبعض رجال الدين - يعارضون فكرة التهجير، وقد سأل الماركيز مؤيدى الفكرة " كيف تُخلى مملكة كهذه من سكانها فتنعدم محاصيل الأراضى ، علمًا بأن الموريسكيين هم الذين تعودوا على العيش هنا على حد الكفاف ، وعلمًا بأن المملكة غير صالحة كموطن للمسيحيين؟" [٢] . كان الموريسكيون الذين طُردوا أثناء الحرب قد توجهوا إلى إشبيلية وقرطبة وجيان[٣]، أما منْ طُردوا بعد انتهاء الحرب فقد رُحِّلوا إلى الشمال طبقًا لخطة توزيع شاملة : تنص الخطة على ترحيل كل سكان غرناطة وغوطتها ووادى لكرين وجبال بنتوميث وشرق ملقة وجبال روندة وماربيا (أى المنطقة الغربية من المملكة) إلى قرطبة وعلى أن يتم توزيعهم هناك على المنطقة الممتدة من إكستريمادورا إلى غاليثيا فى الجزء الغربى. وتنص الخطة على ترحيل سكان غواديكس وباثا وحوض نهر المنصورة إلى طليطلة وكاستيا القديمة وليون . وتنص الخطة على ترحيل سكان المرية إلى إشبيلية على أن يتم توزيعهم هناك بحيث لا يتم توطينهم فى مرسيه ولا فى ماركيزية بيينا ولا فى المناطق القريبة من مملكة فالنسيا التى كان يقيم فيها الموريسكيون منذ القدم ،

كما كان من المقرر عدم توطين الموريسكيين في المنطقة الشرقية من أندلوثيا[٤]. بدأت عمليات الترحيل في يوم القديسين عام ١٥٧٠[٥] . أودع الموريسكيون في كل قرية داخل إحدى الكنائس أو داخل مبنى كبير ، وتم إخراجهم كمجموعات تتكون كل منها من ألف وخمسمائة شخص في حراسة ضابط ومائتي جندي ومراقب. كانت المجموعة الأولى تتألف من خمسة آلاف موريسكي ، وتم إخراجها بقيادة السيد فرانثيسكو ثاباتا، وكانت الثانية بقيادةالسيد لويس دي كوردوبا ، وقد خرجت المجموعتان من المستشفى الملكي بغرناطة. في نفس الوقت تم إخراج سكان غواديكس. وقد حاول الموريسكيون الذين لم يشتركوا في الثورة أن يحظوا بمعاملة أفضل ، إلا أن هذا المطلب لم يلق إجابة[٦] . وقد حاول بعض الموريسكيين الشجعان إبداء المقاومة في الجبال القريبة ، وهاجر آخرون إلى بلادالبربر وقويت بذلك الفرق المقاتلة الأندلسية التي لعبت دوراً بارزاً في تاريخ المغرب في نهاية القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر [٧]. وقد ظل في غرناطة العاصمة كثير من الموريسكيين . إن مارمول نفسه يتحدث عن موريسكي كان في غرناطة عام ١٥٧١ أطلعه على وثيقة ورثها عن أجداده[٨] . ويتحدث سابيدرا عن مخطوطة يشير فيها موريسكي إلى عقد تم إبرامه في غرناطة نحو عام ١٥٧٤ [٩]. وبالإضافة إلى ذلك فهناك وثائق أخرى سنتعرض لها فيما بعد.

كانت البشرات دون شك هي المنطقة التي ظهرت فيها آثار عملية الترحيل ، وقد رويت قصص سكانها الجُدد في مواضع كثيرة [١٠]. إنها قصص مفعمة بالتخبط والانشقاقات يُفهم منها أن الإدارة السياسية كانت مخطئة، فبدلاً من محاولة جذب الناس بعرض البيوت والأراضي الزراعية بأسعار مخفضة[١١] حاولت السلطات تحقيق مكاسب مادية كبيرة بتأجير الأراضي والبيوت بأسعار مرتفعة جداً ، وتحمّل السكان الجُدد ضرائب تفوق ما كان يدفعه الموريسكيون أنفسهم . كُلِفَ ماركيز مونديخار مرة أخرى بإدارة دفة الحكم في غرناطة فعاد إليها في فبراير عام ١٥٧١ . لم يبق في هذا الموقع البغيض إلا فترة قليلة ، ففي خريف عام ١٥٧٢ تولى منصب نائب الملك في فالنسيا [١٢]. كانت الأضرار التي لحقت بالملكة في فترة وجيزة كثيرة جداً. قلّ عدد سكان البشرات في عام ١٥٩٣ بدرجة كانت تُنذر بالخطر، أما منْ بقي

فى البشرات فقد عاش على حد الكفاف ، وأهملت الأراضى الزراعية . استمر التدهور حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر(١٣) ، وهو عكس ما حدث فى فالنسيا بعد طرد الموريسكيين ، إذ قام مسئولون أكفاء ببيع الأراضى الزراعية بطريقة تفادوا معها الآثار الضارة (١٤).

لنترك السكان الجُدد الآن ولنتحدث عن مصير الموريسكيين الغرناطيين . كانت القرارات معقدة ، ولم تصور الكتابات التاريخية ذلك التشابك . سنتحدث أولاً عن المنفيين .

فى ٦ أكتوبر عام ١٥٧٢ نُشر قرار ينظم حياتهم . كان القرار يقضى بأن يتم تسجيل الموريسكيين فى القرى التى يصلون إليها ، على أن يشمل السجل بيانات صفاتهم الجسدية ، وأن يتم تسجيل مواليدهم ووفياتهم ، وخروجهم ودخولهم ، وأن يتم منحهم تصاريح مؤقتة لكى يستمروا فى ممارسة أعمالهم وتجارتهم . كان القرار يقضى كذلك بألا يعيش الموريسكيون فى أحياء مستقلة بل بين ظهرانى المسيحيين القُدامى. وقد شمل القرار عقوبات صارمة ضد منْ يحاولون العودة إلى مواطنهم الأصلية ، وقد شمل القرار أيضًا حظر أشياء أدى حظرها فى السابق إلى إشعال الثورة وهى حمل السلاح واللغة العربية والعادات الإسلامية . أولى القرار أهمية كبيرة لتعليم الأطفال والصبية ، وفرض على منْ يعمل فى ورش المسيحيين أن يعلمهم المسيحيون أنماط معيشتهم ورؤيتهم للحياة(١٥).

كانت هناك انتهاكات ضد الأطفال لم يستطع القرار معالجتها ، فقد بيع أطفال كثيرون كعبيد بطريقة غير مشروعة ، وفى ٣٠ يولية من نفس العام صدر قرار آخر يعاقب منْ يرتكب تلك الانتهاكات (١٦).

كان هناك منْ عاش فى وضعٍ مختلفٍ تمامًا عن وضع أولئك الأطفال المساكين ، وهم أُسر بأكملها تحايلت وساقت الحُجج لكى تتمكن من البقاء فى مملكة غرناطة . كان البعض منهم يدّعى أنه من نسل مسيحيين قُدامى ، وكان البعض يقولون إنهم ليسوا " مدجنين " ، وكان البعض الآخر يقولون إنهم مضطرون للبقاء إلى أن يتمكنوا من بيع ممتلكاتهم. كان الوقت يمر دون أن يفلح رجال القانون فى تغيير شىء . إننا

نعلم مثلاً أنه فى عام ١٥٨٢ كان موريسكيون كثيرون قد عادوا إلى غرناطة وعاشوا وسط ألف وخمسمائة أو ألف وستمائة أسرة من " المدجنين " ممنْ لم يغادروا المدينة أبداً بحجة اضطرارهم إلى البقاء فيها إلى حين الفصل فى منازعات قضائية بشأن ممتلكاتهم(*) . كانت السلطات الرسمية قلقة إزاء الوضع ، فقد كان الناس يرون الموريسكيين في الشوارع وهم يتحدثون بلا مواربة عن خطط موريسكيى فالنسيا وأراغون الذين يقيمون علاقات معهم[17] ، وقد كان موريسكيو فالنسيا وأراغون يعيشون فى وضع شبيه بوضع موريسكيي غرناطة قبل ثورتهم أو ربما بدرجة أكبر من الحرية .

وبالفعل ففى تلك الفترة كانت هناك أجزاء من أراغون يشكل الموريسكيون فيها أغلبية ، خاصة فى مناطق السادة أو النبلاء ، أما فى مناطق السيادة الملكية فكان معظم سكانها من المسيحيين القُدامى ، وكانت المنازعات بين الفريقين مستمرة .

ويتحدث كوك – فى روايته لرحلة فيليبى الثانى فى عام ٨٥/ ١٥٨٦ إلى مناطق سرقسطة وبرشلونة وفالنسيا – عن قرى كان المسيحيون فيها يبنون الحصون والكنائس " لكى يحتموا بها من خطر المسلمين" [18].

وفى ٣ سبتمبر١٥٨٥ تقرر إحالة منْ يخالف القوانين العامة إلى محاكم العاصمة ، كما تقرر ألا تتلقى السلطات المحلية طلبات للإذن بحمل السلاح أو لإصدار شهادات تفيد أن أصحابها من المسيحيين القُدامى "بدعوى أن أجدادهم قد تنصروا قبل التعميد الجماعى أو بدعوى أنهم قدموا من إفريقيا خصيصاً لاعتناق المسيحية ..."[19] . من المحتمل أنه كانت هناك شبكة ضخمة من المصالح. نستطيع أن نتخيل أن الصداقات والرشاوى وغيرها كانت تُستخدم فى تغيير وضع أسرة بأكملها. كانت هناك علامات على تغيير الواقع من خلال قوانين ولوائح ، وكانت تلك التغييرات موازية للتغيرات التى سبقت الطرد النهائى للموريسكيين ، وكانت تلك

(*) هذا – فى رأينا – يفسر بقاء العادات والموروثات الإسلامية فى غرناطة حتى بعد تهجير أهلها . نضيف كذلك أن كثيراً من المسلمين المطرودين من غرناطة قد عادوا إليها فيما بعد (المترجم) .

التغيرات شبيهة بالتغيرات التى أدت إلى طرد اليهود . لدينا إحساس بأنه فى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر – بل وبعد ذلك – أدت المشاكل ذات الطابع الدينى إلى مشاكل عائلية داخل مجتمع غرناطة ، ففى الموضوع الخاص بالألواح الرصاصية فى جبل ساكرو مونتى اشترك موريسيكيون ممنْ يعرفون اللغة العربية فى كتابة الألواح الرصاصية التى عُثِرَ عليها فى جبل ساكرو مونتى(*) وتبين أن أولئك الموريسكيين – على الأقل فى الظاهر – مؤمنون بالمسيحية ، كما تبين أن تلك الكتابات المزورة – فى جزء منها – عبارة عن محاولة للتقريب بين بعض العادات الإسلامية والعقيدة المسيحية ، وكانت تلك المحاولات تعبر عن عدم طمأنينة. ويبدو أن أشخاصًا مثل ألونسو دى كاستيو (الذى عمل كمترجم للسلطات إبان الثورة) وميغيل دى لونا (الذى كان يُزَيِّف الأدب) قد وصلوا فى نهاية المطاف إلى إيجاد صيغة تديّن تجمع بين الإسلام والمسيحية ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب فى القرن السادس عشر. وقد أجرينا بحثًا فى السنوات الأخيرة يوضح هذه الحقيقة.

فى عام ١٦٠٢ نُشِرَ فى إشبيلية كتاب غريب ألّفه قسيس يُدعى لويس دى لا كويبا . حاول ذلك القسيس التحدث عن تاريخ غرناطة من خلال حوارات . الهدف ليس غريبًا للوهلة الأولى ، لكن المطالع للكتاب يُلاحظ أن هناك شيئًا ما يكمن بين السطور. أراد لويس دى لا كويبا إثبات أن غرناطة واحدة من أقدم مدن إسبانيا ، وأنه فى العصور القديمة أقام فيها أوزيريس والد هرقل . منْ الذى كان يقيم معه فيها ؟ أناس يتحدثون العربية . كان هؤلاء العرب يعيشون وسط أناس يتحدثون الإسبانية حين قدم إلى شبه الجزيرة أول أشخاص بشروا بالمسيحية ، وقد كتب أولئك الأشخاص كتبًا باللغة العربية (فقد كانت هى لغتهم الأم) وكانت تلك الكتب هى التى عُثِرَ عليها فى جبل ساكرو مونتى فى نهاية القرن السادس عشر . كان عدد الكتب تسعة عشر كتابًا ، وكانت فى ألواح رصاصية ، وكان الجبل – كما يؤكد القسيس – " يقدسه الموريسكيون منذ قديم الزمان ، ويقولون إن به كنزًا هائلاً للمسيحيين "(٢٠) .

(*) انظر هذا الموضوع فى كتاب مانويلا مانثاناريس " المستعربون الإسبان فى القرن التاسع عشر " ترجمة جمال عبدالرحمن . المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢ ، ص ٤٩٠

ويقول القسيس لكي ينفي تهمة التزييف : " ولقد سألوا شخصاً يعرف هذه اللغة هل يمكن أن تكون هذه الكتب من وضع إنسان ؟ فأجاب بأن العالم ليس به كتاب يتقن إلى هذه الدرجة العقيدة المسيحية و اللغة العربية ، وخاصة أنه من النادر أن يكون هناك منْ يجيد قراءتها "(٢١) . لندع جانباً القضية التى اهتم بها أسقف غرناطة ولنتساءل : أليس من المنطق أن تكون هناك – وراء تلك الكتب العربية المسيحية – محاولة لإثبات أصل الشعب الموريسكى وإظهاره على أنه موغل فى القدم ، وأنه من نسل المسيحيين القُدامى؟. أنا لا أدرى على وجه التحديد منْ هو لويس دى لا كويبا، لكننى لا أستبعد أن يكون من المؤمنين بالمسيحية وممنْ ينحدرون من أصل موريسكى، وأن يكون الدافع وراء كتابه هو الرغبة فى تهدئة أبناء شعبه . إن الأساطير التى يحكيها والخاصة بالعرب الذين قدموا مع أوزيريس – وهم من zenata وهم الذين تنتسب إليهم ماركيزية ثنيتى وأماكن أخرى (٢٢) – تنم عن ثقافة كبيرة. لكن قلم لويس دى لا كويبا يُشير إلى التراث الشعبى أيضاً : " من المعتقد أن موريسكيى البشرات ينحدرون من أصل مسيحى ، والدليل على ذلك هو زيهم ... وأسماؤهم ... وعندما رحل الملك أبو عبد الله الصغير إلى بلاد البربر قال له أهل البشرات : سيدنا ! أهكذا ترحل وتتركنا ؟ فأجابهم : كنتم مسيحيين وستعودون إلى المسيحية " (٢٣) .

لكن علينا أن نعترف بأن " المعارضين " الذين ظلوا فى غرناطة استمروا متمسكين بدينهم ، فعندما يتحدث إنريكيث دى خوركيرا عما حدث فى غرناطة فى أوائل القرن السابع عشر يقول إنه فى أعوام ١٦٠٦، ١٦٠٨ ، ١٦٠٩ كانت هناك مواكب المحكوم عليهم التى يظهر فيها مذنبون مؤمنون بالعقيدة الإسلامية ، وأن بعض هؤلاء كانوا يتولون مناصب هامة فى الحياة المدنية(٢٤). وبناءً على قرار الطرد النهائى – والذى نُشِرَ فى ١٩ يناير ١٦١٠ – خرج من غرناطة ستمائة موريسكى من الأثرياء(٢٥) وأدى إخراجهم إلى اندلاع أعمال عُنف(٢٦). وبعد ذلك بعام عندما تمت عملية الطرد الأخيرة كان عدد المطرودين – وفقاً لحسابات إنريكيث دى خوركيرا – ١١٫٢١٧ موريسكيًا (٢٧). من المؤكد أنه بعد عام ١٦١١ بقيت عائلات تنحدر من أصول مسلمة ، لكننا لن نتحدث عن ذلك الآن .

٢ – الموريسكى الغرناطى خارج أرضه :

لنتحدث إذن عن الموريسكى الغرناطى ، وقد أقام خارج غرناطة . أدت قرارات إخراج الموريسكين إلى تجمع موريسكيى غرناطة فى طليطلة ، وقد ظل الموريسكيون يعيشون بطريقتهم ويتحدثون العربية ، وكان نسلهم يتزايد إلى درجة أزعجت السلطات كما حدث نحو عام ١٥٨٩ (٢٨). كان الوجود الموريسكى مزعجاً لدرجة أن البعض رأى إعادتهم إلى موطنهم الأصلى على أن تكون إقامتهم فيه فى ظروف قاسية .

نلاحظ أن الفكرة لاقت تأييداً فى أوساط القيادات وفى أوساط ذوى النفوذ فى غرناطة. وقد عارض غيرا دى لوركا الفكرة قائلاً إنه يجب وضع المصلحة الدينية والسياسية فوق أى اعتبار ، رغم اعترافه بمهارة الموريسكيين فى زراعة الأراضى ، ورأى أن الموريسكيين فى غرناطة سيشكلون تهديداً(٢٩).

ورغم أن موريسكيى غرناطة المطرودين كان نسلهم يتزايد إلا أننا لا نصدق بعض الأرقام الواردة فى وثائق خاصة بالفترة التى سبقت قرار الطرد النهائى مباشرة ، ففى إحدى هذه الوثائق – مجلس الدولة المنعقد فى ٣٠ يناير ١٦٠٨ – يُذكر أن عدد موريسكى البشرات الذين قدموا إلى طليطلة كان ألفًا وخمسمائة ، وأن عددهم فى تاريخ انعقاد المجلس وصل إلى ثلاثة عشر ألفًا (٣٠). لهذا كان هناك منْ يؤيد فكرة إعادتهم إلى البشرات(٣١) ، ويُعتَقد أن عدد الموريسكيين الذين وصلوا إلى مملكة فالنسيا – مخالفين القانون فى ذلك – بلغ ثلاثة آلاف، وقد أثاروا كثيراً من القلاقل(٣٢) نحو عام ١٥٨٤ . كان كثيرٌ منهم قد تم ترحيله إلى كاستيا إلا أنهم هربوا من هناك(٣٣). هذا لا يعنى أن الموريسكيين لم يكونوا كثيرين فى كاستيا ، ففى مجلس النواب عام ١٥٩٢ أشير إلى خطرهم ، وطُلِبَ اتخاذ إجراءات ضدهم(٣٤). أشار الأشخاص الذين طلبوا اتخاذ تلك الإجراءات إلى الملامح التى اكتسبها موريسكيو غرناطة خارج أرضهم: عاشوا معزولين ، فقد حُظِرَ عليهم أن يقيموا فى أحياء إسلامية ، وكانوا أحراراً لا يتبعون أحداً من السادة(٣٥). أدى تعايش موريسكيى غرناطة مع مسيحيين قُدامى من غير أهل أندلوثيا إلى تغير فى لغة الشباب . أصبح الموريسكيون بلا لغة تميزهم ولا زى ولا مساجد ولا أماكن تجمُع ،

فاصبح من العسير السيطرة عليهم كما كان يحدث قبل ذلك . هذا ما يؤكده الأب ريبيرا فى أحد كتبه[٣٦]: كان الانطباع العام هو أن الموريسكيين ظلوا مسلمين مخلصين . لم يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم فى كاستيا وفالنسيا وأراغون أعادوا الحمية الدينية والعقيدة إلى أهل تلك البلاد ، وكان هؤلاء من المسالمين ، وقد تأثروا بالحياة الهادئة. ويتهم ماركوس دى غوادالاخارا الموريسكيين الغرناطيين بأنهم أثاروا القلاقل " حيث خرج الحنظل من أفواههم الشريرة ، وقالوا إنهم فقدوا وطنهم الغالى "[٣٧]. كان بعض المؤلفين – من بينهم بدرو دى فالنسيا – يرى أن الغرناطيين كانوا أقل خطراً وهم متفرقون وخارج وطنهم[٣٨]. لكن هناك مؤلفين آخرين رأوا العكس ، وعلينا أن نقرّ بأن كل وجهة نظر من هاتين كانت هناك أدلة تساندها .

كان الموريسكى الغرناطى – حين غادر وطنه – قد اكتسب الطابع الذى يميز كل الجماعات التى تخضع لظروف مشابهة . كان يبحث عن قوته وقوت أسرته فى الترحال . وقد عمل الموريسكى فى حرف تتطلب التنقل ، ولا تتطلب حمل متاع كثير. كانت أهم الحرف التى عمل بها الموريسكى هى الحمالة ونقل البضائع. كان حمل البضائع يجلب أرباحًا وفيرة ، وكان – بالإضافة إلى ذلك – يمكّن الموريسكيين من تبادل المعلومات وممارسة التجسس بشكلٍ أو بآخر[٣٩].

من ناحية أخرى كان الموريسكى صانعًا ماهراً أو عاملاً قويًا ، فكان بمثابة مشكلة أمام المجتمع المسيحى . كان المجتمع يستغل الموريسكيين ، ويوضح الراهب ريبيرا ذلك[٤٠]. إنه يصور لنا مشكلة تبدو لنا وكأنها حديثة : مشكلة اليد العاملة بين مجموعة تعودت على مستوى معيشة متدنٍ ، ومجموعة أخرى ذات مستوى اجتماعى أعلى . أمس كاليوم : فى المنافسة تحاول المجموعة القوية القضاء على منافسيها دون أية اعتبارات .

فى هذا النوع من المنافسات تتغير القيم التى كان المجتمع قد تقبلها ، فالشىء الذى يكون حسنًا حين تتصف به مجموعة ما ، يتحول إلى شىء سلبى إذا اتصفت به المجموعة المنافسة. كان وضع الموريسكيين يدخل فى هذا الإطار.

كان المجتمع المسيحى يرى أن النشاط فى العمل و الزهد وكثرة الإنجاب من القيم الإيجابية المحمودة . لكن نفس المجتمع هاجم هذه القيم نفسها حين اتصف بها الموريسكيون ، ليس فقط لأن النشاط فى العمل وكثرة النسل من شأنها تقوية الموريسكيين ، بل لأن " درجة " هذه الصفات كانت غير مقبولة : فالنشاط فى العمل عند الموريسكيين كان – من وجهة نظر المسيحيين – نوعاً من البخل ، والزهد كان من الطمع ، وكثرة النسل كانت نتيجة المتع الحسية .

وقد وضع الناس صفةً لكل موريسكى ، فقد وصفهم ثيربانتيس بالعباقرة ، ورأى غيره أنهم أناس أقل من الأشخاص العاديين. إننا حين نطالع صفات الموريسكيين فى قصة "حوار بين كلبين" أو كتابات أثنار كاربونا عنهم أو غيرهما لا نكاد نجد فرقاً. من المناسب أن نتعرض للصفات التى خلعها الناس على الموريسكيين . يقول الكلب عنهم فى القصة المذكورة : " ليسوا من الأطهار ، وليسوا متدينين. كلهم يتزوجون ، وكلهم يتكاثرون لأن العيش على حد الكفاف فى صالح قضيتهم . لا تفنيهم الحرب ..."(٤١) . حول صفة كثرة الإنجاب عند الموريسكيين وحياتهم الآمنة هناك إشارات فى كتاب Austriada لخوان روفو (٤٢). ونجد هذه الصفات معروضة بتعبيرات عنيفة عند أثنار كاربونا ، فهو يرى أن زيادة النسل عند الموريسكيين عبارة عن خطة ، ويُقارن أثنار كاربونا بين تزويج الموريسكيين وهم شباب صغار وبين النظام المتبع عند المسيحيين القُدامى الذين يتزوجون وهم أكبر سناً ، ويتطوع البعض منهم لخدمة الكنيسة أو لخدمة الجيش(٤٣). أنكر هنا أن هذا النظام الذى رآه أثنار كاربون ممتازاً قد هاجمه رجال الاقتصاد فى ذلك العصر ، وقالوا إنه السبب فى تدهور البلاد(٤٤).

أُطلقت صفة البخل على الموريسكيين كثيراً . إن الأب ريبيرا(٤٥) وثيربانتيس(٤٦) وأثنار كاربونا يُبرزون هذه الصفة (٤٧) ، وفى جلسات النواب فى ١٥٩٢ ، ١٥٩٨ حذر البعض من قدرة الموريسكيين الهائلة على الادخار(٤٨). فى الفصل الخامس والثمانين من محاضر الجلسات طُلب " ألا يُسمح للموريسكى بحيازة محل ولا أن يكون صاحب مستودع ولا خبازاً ولا حلوانياً ولا تاجر جملة أو تجزئة فى المواد الغذائية ، مع وضع عقوبة شديدة لمنْ يخالف ذلك ، وألا يُسمح للموريسكيين إلا بالعمل فى الزراعة وبيع

محاصيلهم فقط ...»[٤٩] ، أى أنه كانت هناك محاولات لإعادتهم إلى الأعمال التى كانوا يقومون بها فى البشرات .

إن الاعتقاد بأن بلداً ما يمكن أن يحل به الفقر نظراً لأن بعض الحرفيين يعملون أكثر من البعض الآخر ، واتهام مجموعة من الناس بجمع المال لأنهم صعّبوا الأمر على منافسيهم ... كل ذلك مبالغات واضحة أسهمت فى خلق أسطورة تقول إنه فى عهدى كارلوس الأول وفيليبى الثانى لم يكن أحد سوى الموريسكيين يعمل فى الحرف اليدوية ، وهى أسطورة أدت إلى وجود نظرية تقول إن تدهور الاقتصاد الإسبانى إنما بدأ اعتباراً من طرد الموريسكيين . كان هناك مؤلفون كثيرون إسبان وأجانب يؤيدون هذه النظرية فى القرن الثامن عشر ، ثم قل عدد المؤيدين لها فيما بعد[٥٠].

من المؤكد أن الحرف كانت تعتبر من الأعمال المهينة ، وكانت تؤدى إلى احتقار منْ يقوم بها، على الأقل فى كاستيا، فلم يُعرف أن ذلك كان يحدث فى مدن إقليم الباسك أو فى الشمال [٥١]. هناك مؤلفون قُدامى – ومن بينهم أورتادو دى مندوثا – يقولون : " المسلمون لا يحتقرون الوجهاء إذا كان آباؤهم من العمال " . ونرى أن ذلك بمثابة نقد موجه إلى الرأى العام فى كاستيا [٥٢]. لكن الموريسكيين كانوا مُتهمين أيضاً بممارسة الحرف التى تتطلب أقل مجهود وتُدر عائداً كبيراً . فكانوا – كما يقول أثنار كاردونا – نساجين وخياطين وبيطريين ومنجدين وبستانيين ، وكان منهم منْ يبيع الزيت والسمك والعسل والزبيب والسكر والبيض والدجاج ومنسوجات الأطفال الصوفية [٥٣] . إذا فحصنا هذه القائمة وقوائم أخرى مشابهة [٥٤] بعناية سنجد أن الموريسكيين كانوا يعملون فى الحرف التى توجد عادةً فى أى مركز تجارى فى بلد إسلامى فى العصور الوسطى كما تصورها كتب " الحسبة" أو الكتب التى يعمل بمقتضاها المحتسبون[٥٥]. إنها نفس الحرف التى نجدها فى أى سوق فى العصر الحالى فى مدن شمال إفريقيا[٥٦].

ومع ذلك فإن أثنار كاردونا لا يذكر حرفةً كانت معروفة أنها تميز الموريسكيين كما يُشير إلى ذلك كُتّاب كثيرون وأفراد عاديون من الشعب. فى القرن السابع عشر كانوا إذا أرادوا اتهام شخص ما بطريقة غير مباشرة أنه من أصل موريسكى ،

يقولون إن أجداده كانوا باعة عسل أو حلوانيين ، فقد كان من المشهور أن الموريسكيين يعملون في صناعة الطوى ، وكان من الثابت تواجد هذه المنتجات بكثرة بينهم . لابد أن تلك الكناية تعود إلى زمن قديم، ففي فقرة ساخرة من قصيدة ألفونسو الحادى عشر نقرأ :

إنه في مكة يلهو

ويأكل كل يوم كعكة بالزبد

يرسلها إليه الرب الأكبر(٥٧)

وفي كتاب " قروية من خيتافي " للوبي دي بيغا – لكي تحدث وقيعة بين شاب وفتاة – تُوجه رسالة مجهولة المصدر إلى الفتاة يُتهم فيها الشاب بأن أصله موريسكي مثل خادمه ، ويُذكر فيها : " هناك تحريات تجرى ترمي إلى إخراجهم من إسبانيا. كان جد السيد فيليكس يُدعى سلامة ، وكان جد لوبي الخادم هو أرامبيل مولاي ، أما لقب " كاربيو " فهو مزيف ، فقد كسب الجد أموالاً طائلة من صناعة الطوى في أندلوثيا فاشترى اللقب الذي يخدعك به "(٥٨) . كانت الطوى تُصنع من العسل والدقيق والماء . وفي مسرحية " العلم لمنْ يجهل" هناك إشارة إلى موريسكي :

كان ذلك الموريسكي الكلب

صانع الحلوى

يرتدى سروالاً أبيض

ويفكر في التآمر(٥٩)

وفي مسرحية " فليأكله بخبزه" تغني لاوريتا أغنية شعبية ساخرة تقول :

المسلم يدعو محمداً

لكن محمداً لا يسمعه

فقد كان يصنع الحلوى

ومعه ثلاثة موريسكيين(٦٠)

لنتذكر أيضاً أن إحدى الأغنيات الشعبية الساخرة تقول :

هناك داخل حانة

يفرم الحاتي اللحم

ويحذره " لا تمش في الشارع " .

ورغم أن صانع الحلوى

من نفس جنسه

يحذره من بين الزيت :

" لا تمش في الشارع "(٦١)

إذن فقد كانت هناك علامات تدل على الموريسكي من خلال المهن . لكن علينا أن نؤكد أنه في بعض الأحيان كان الموريسكي الغرناطي العضو في جماعة سرية يصعب تمييزه عن المسيحي القديم، على الأقل في بعض الأماكن في الوسط وفي الجنوب. كانت هناك تساؤلات مستمرة حول أصل الأشخاص . إن مسرحية " قروية من خيتافي " دليل على القلق الناتج عن مراقبة الملامح الجسدية وغيرها(٦٢)، وهي تدل أيضاً على أن مسلمي إسبانيا كانوا يعتبرون في مرتبة أعلى من أهل شمال إفريقيا(٦٣). هذا لا يعني عدم وجود مشاعر كراهية تجاههم ؛ ففي أثناء التعامل معهم كان يمكن التغاضي عن اتباع القواعد الأخلاقية التي يتميز بها الشُرفاء . إن كتَّاب العصر الذهبي يروون قصص خداع ونصب وغيرهما من الآثام كانت تُرتكب ضد الموريسكيين ، يرون هذه القصص كما لو كانت أموراً عادية ، بل كما لو كانت تنم عن خفة روح منْ يرتكبها. سنورد بعض الأمثلة .

في رواية "حياة ماركوس دي أوبريغون" لفيسنتي إسبينيل ترد هذه الحكاية التي حدثت لأحد وجهاء رونده وهو خوان دي لوثون. كان هناك في جبال رونده راعي غنم

مسلم يرعى أغنامه بين قريتى بالاستار وشوكر . ذات يوم اشتد به الظمأ واختفى كلبه ثم عاد يهز ذيله فرحًا وجسده كله مبتل بالماء . اندهش الراعى لذلك ، فربط كلبه وانتظر حتى يشتد به الظمأ ، وعندما شعر بأن كلبه ظمآن أطلق سراحه لكى ينطلق نحو الماء وهو يشم ويزمجر هنا وهناك وهو مربوط بحبل طويل . بهذه الطريقة اكتشف الموريسكى عينًا تنبع فى كهف مغمور. أدرك الموريسكى أنه اكتشف شيئًا مذهلاً . لما رأى العين تتفجر من الماء تسير فى اتجاهين سدَّ أحد الاتجاهين بالحجارة لكى يسير الماء فى اتجاه واحد. فى اليوم التالى لم يكن هناك ماء فى قرية شوكار . ذهب الموريسكى إلى هناك ، وقص على الناس حكاية اكتشافه بالأمس ، وقال لهم إذا دفعتم لى مالاً كثيراً فسأعيد إليكم الماء ، بل وسأزيد الكمية التى تصلكم . كان الناس فى حاجة إلى الماء ويريدون كمية أكبر منه فأعطوا الموريسكى مائتى دوقية . عاد الموريسكى إلى الكهف ، وأزال السدَّ الذى كان قد وضعه بالأمس ، وأضاف إليه الماء الذى كان يسير فى الاتجاه الآخر. انتهت مغامرة الموريسكى عند هذا الحد ؛ فقد خاف أهل شوكار من أن يذهب الموريسكى إلى قرية بالاستار ويعرض عليهم نفس العرض فقتلوه دون وازع من ضمير على ما يبدو [٦٤] . إن هذه الحكاية الريفية ليست أكثر الحكايات خُبثًا ولا أكثرها تعبيراً عما كان يحدث .

وإذا نقّبنا فى كتب الأدب فسنجد كَمًّا كبيراً من الحكايات تعبر عن عدم وجود وازع من ضمير . ويحكى الراهب ماركوس دى غواداالاخارا أن ضابطًا – هو خيرونيمو دى بوستا منتى – قدم من فلانديس ، فلما مرَّ ببيثا تعرَّف على موريسكية هى أم لموريسكى من كيسادا يعمل فى مجال النقل . ادَّعى الضابط أنه من عائلة بنيغاس ، وأنه من نسل ملوك غرناطة . هكذا تسلل إلى موريسكيى كيسادا واكتشف سلسلة من المؤامرات. أخبر السلطات فألقت القبض عليهم وعاقبتهم[٦٥].

فى كتاب " الجندى بندارو " هناك قصة لص نصاب يُدعى بيرو باثكيث. ضحية القصة تاجر ثرى يعيش فى إشبيلية لكنه من بايادوليد و" معروف أنه موريسكى " . ذهب بيرو باثكيث إلى منزل التاجر وادَّعى أنه يريد شراء قماش لحُلته. لفَّ عدة قطع

من أقمشة سيغوبيا وبابيثا ، وبين ثنايا إحدى القطع وضع علبة صغيرة. بعد ذلك غادر المكان بعد أن قال للتاجر إن الأقمشة التى رآها لا تُعجبه. فى اليوم التالى عاد ، وبدأ يفحص قطع القماش حتى عثر على القطعة التى كانت بها العلبة الصغيرة. فاجأ الموقف الموريسكى وحرَّكه الطمع فارتمى على العلبة. حاول باثكيث أيضاً فتح العلبة ، واحتدم الصراع بين الاثنين ، وأعلن الموريسكى أن العلبة ملكه ، وأنه يجب ألا يفتحها أحد. بمجرد أن أعلن الموريسكى ذلك قام باثكيث بفتح العلبة فوجد فيها صورة لمحمد والقمر عند قدمه والقرآن فى يده. أُصيب الموريسكى بالذعر ، ووبَّخه باثكيث وهدد بإفشاء أمره إلى السلطات . أخيراً وبعد توسلات من جانب الموريسكى انصرف باثكيث بعد أن حصل منه على أربعمائة دوقية(٦٦).

عندما يكون بمقدور حثالة الناس مهاجمة أشخاص ينتمون إلى أقلية عرقية فإن ذلك يدل على أن السلطات لا تحب هذه الأقلية. هذا ما كان يحدث مع الموريسكيين نحو عام ١٦٠٠، فقد وصلوا حينذاك إلى أدنى مستوى لهم فى تقدير عامة الناس . إن موقف ثيربانتيس منهم يعبرُ عما كان يحدث ، نجد ذلك فى الجزء الثانى من رواية " كيخوتى "(٦٧) وفى قصة قصيرة بعنوان " حوار بين كلبين " وفى رواية كتبها فى أخريات حياته بعنوان " حياة بيرسيليس وسيخسموندا" حيث يوجه إلى الموريسكيين عبارات مليئة بالاحتقار والكراهية ، ربما كرد فعل للمعاملة السيئة التى عُوملَ بها فى الجزائر وهو أسير. لكن المهم فى كتاب ثيربانتيس الأخير هو أنه يضع الإهانات الموجهة إلى الموريسكيين على لسان موريسكى تحول إلى المسيحية وهو شريف كان يعيش فى إحدى قرى فالنسيا ، ولجأ إلى الكنيسة مع قلة من المسيحيين القُدامى حين غادر الموريسكيون الآخرون القرية مع القراصنة الأتراك بعد أن ارتكبوا أعمالاً وحشية وبعد أن عرض عجوز استضافتهم فى بيته محاولاً بذلك إيقاعهم فى الأسر(٦٨) . إن الخلفية التاريخية لأحداث الرواية يمكن أن نجدها فى الوثائق الخاصة بالعلاقة بين الأتراك وموريسكيى فالنسيا(٦٩).

هناك نصوص أدبية أخرى تقدم لنا صوراً هامة أخرى(٧٠) ، ففى رواية " خوستينا النصَّابة " نرى صورة موريسكية من أنوخار عدوة للديانة المسيحية لأنها مسلمة ولأنها ساحرة . كانت تتكلم العربية باللهجة الموريسكية التقليدية ، فكانت

نموذجاً للإنسانة التى انتقلت مع عائلتها إلى مدن الشمال فعاشت بين أهل الشمال إلى أن جاء الوقت الذى لم يُسمح لها فيه حتى بذلك(٧١).

٣ - الطرد :

رويت قصة طرد الموريسكيين وما سبقها وما تلاها من أحداث فى مؤلفات كثيرة ، ولن نتوسع الآن فى هذا الموضوع. يكفى أن نتذكر الأحداث المهمة التى أدت إلى الطرد النهائى ، وأن نستعرض بعض أحداث الطرد(٧٢).

بعد أن انتهت حرب غرناطة بقيت مشكلة المستوطنات الموريسكية فى أراغون وفالنسيا دون حل . فى أراغون كانت هناك قرى يسكنها موريسكيون كثيرون فى أحياء منفصلة عن الأحياء المسيحية. وكانت هناك قرى صغيرة لا يسكنها إلا موريسكيون(٧٣) . يتحدث كوك فى كتابه عن قرية مويل Muel فيصف كيف يصنع سكانها الموريسكيون الخزف ويُضيف : " قالوا لى إن القرية ليس بها سوى ثلاثة مسيحيين قُدامى هم الكاتب الشرعى ، والقسيس وصاحب حانة ... أما الباقون فهم يفضلون الذهاب إلى مكة للحج عن السفر إلى كنيسة سانتياغو فى غاليثيا " (٧٤).

كان سادة أراغون من أشد المدافعين عن رعاياهم الموريسكيين ، فقد كان هؤلاء يدرّون عليهم دخلاً كبيراً . ونفس الشىء بالنسبة لسادة فالنسيا . إن حالة أدميرال أراغون - السيد سانشو دى كاردونا(*)، الذى نظرت محاكم التفتيش قضيته بسبب رعايته لدين أتباعه الموريسكيين - تعد أكثر الحالات تعبيراً عما كان يحدث(٧٥). من الملفت للنظر كذلك أن يتمتع مسيحيون جُدد بوضع اجتماعى متميز - مثل السيد كوسمى بن عامر - وقد حُوكم هذا الأخير أيضاً (٧٦).

لكن علينا أن نتصور وضع " الخطر التركى " فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، حتى يمكننا أن نتفهم أبعاد المشكلة الموريسكية(٧٧) وسير

(*) انظر ملف القضية فى كتاب " الموريسكيون الأندلسيون" الذى أشرنا إليه (المترجم) .

الأحداث في المغرب . يمكن أن نعتبر أن هزيمة سلطان فاس مولاى الشيخ على يد ملك مراكش مولاى زيدان فى ربيع عام ١٦٠٩ قد أثرت فى قرار الطرد الذى صدر بعد ذلك[٧٨] . يبدو أن موريسكيى أراغون وفالنسيا كانوا يجرون مفاوضات مع قوى كثيرة حتى يقوموا بالثورة ولهم قوة تساندهم .

وقد اكتُشفت المؤامرة التى كانت إنجلترا طرفًا فيها[٧٩] ، والمؤامرة الأخرى التى عُرض فيها على مولاى زيدان[٨٠] إمداده بستين ألف مقاتل مسلح ، والمفاوضات التى أجروها مع أنريكى الرابع ملك فرنسا[٨١]. اعتباراً من عام ١٦٠٥وحتى عام ١٦٠٩ كان القلق يتزايد ، خاصة وأن السلطة فى إسبانيا كانت متخبطة . ليس هناك كاتب لم يُشر إلى ذلك القلق فى كتاباته[٨٢].

أخيراً وفى ٢٢ سبتمبر١٦٠٩ نشر أول قرار بطرد موريسكيى فالنسيا ، رغم أن القرار كان قد اتُخذ فى شهر أبريل على ما يبدو[٨٣]. من المناسب أن نبرز البنود ٥ ، ٩، ١٠ ، ١١ ، ١٢ وهى البنود الخاصة بالأشخاص المستثنين من قرار الطرد. أولاً، وبهدف المحافظة على استمرار الأعمال والفلاحة ، فقد تقرر أن تبقى ستة أسر ، فى كل قرية بها مائة بيت ، إذا كان رب الأسرة فلاحًا ، على ألا يكون أبناؤه من المتزوجين ، ويُترك لسادة الرعايا اختيار الأسر التى يمكن أن تبقى ، وعليهم مراعاة أن يكون الباقون من أكبر الناس سنًا ، كما يجب عليهم مراعاة الناحية الدينية عند من سيبقون[٨٤] . كما تقرر أن يُستثنى من قرار الطرد الأطفال الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات إذا وافق آباؤهم أو أولياء أمورهم على تركهم[٨٥] ، والأبناء لأب مسيحى وأم موريسكية ، والموريسكيات من زوجات المسيحيين القُدامى ، والمسيحيات القديمات المتزوجات من موريسكيين ، وأبناء الزيجات المختلطة ممنْ تقل أعمارهم عن ست سنوات[٨٦] ، كما تقرر أن يستثنى من الطرد الموريسكيون " الذين ظلوا فترة عامين بين المسيحيين ، ولم يحضروا الاجتماعات الموريسكية " [٨٧]، وأولئك الذين تلقوا ماء التعميد ، وهذا يمكن الاستدلال عليه من القساوسة فى القرى التى يعيشون فيها[٨٨]. وقد أدى القرار إلى أعمال عنف وثورات وجرائم ، لكن عامة موريسكيى فالنسيا رحلوا وهم يشعرون بالارتياح على أمل أن يجدوا فى بلاد البربر معاملةً أفضل من المعاملة التى عوملوا بها أحيانًا [٨٩]. يقول ماركوس دى غواد الاخارا:

"ومن خلال سجل الدخول والخروج يتبين أن عدد الذين رحلوا إلى بلاد البربر حوالى مائة وخمسين ألفًا " [٩٠]وقد تعين اتخاذ إجراءات مع الموريسكيين الذين بقوا فيما بعد[٩١].

نُشِرَ القرار الخاص بطرد موريسكيي مرسيه وغرناطة وجيان وقرطبة وإشبيلية (عدا أورناتشوس) فى ١٢ يناير ١٦١٠ [٩٢]. ويقدم كابريرا دى كوردوبا معلومات مهمة عن الطريقة التى تم بها تنفيذ القرار وكيف كانت صارمة ، فقد شمل القرار " شخصيات ثرية جداً وتتولى أعمالاً شريفة جداً " ، وقد مُنِعوا من تحويل ممتلكاتهم العقارية إلى ذهب أو نقود أو سندات[٩٣].

هناك قصيدة شعبية موجودة فى مجموعة دوران Duran يمكن أن تُستخدم كتعليق على كابريرا. إن مؤلف القصيدة المجهول قد رأى – وهو يستنكر ، مثله فى ذلك مثل كثير من المسيحيين القُدامى – ترف وتكبر بعض العائلات الموريسكية فى إشبيلية ، ليس فقط فى الملبس[٩٤] ، وإنما فى جهاز العرائس وفى المناسبات العائلية [٩٥]. كانت المنافسة ملحوظة فى الوظائف الدنيا وفى التجارة وفى الوظائف المهمة[٩٦]. يقول المؤلف إن عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من إشبيلية يصل إلى ثلاثين ألفًا ، وأن خمسة آلاف وأربعة وعشرين موريسكيًا قد أخرجوا من أراضى الجرف Aljarafe [٩٧] . كانت الحسرات تُسمع من نساء الموريسكيين فقد كنّ – على ما يبدو – قد أحببن الكنائس والديانة المسيحية[٩٨] ، فكنّ يتضرعن إلى عذراء بيلين وعذراء روساريو [٩٩]. وكانت هناك مظاهر علنية على اتباع الموريسكيين للديانة المسيحية، فقد تبرع تاجر بأربعة آلاف دوقية لعذراء أنتيستا [١٠٠].

لو كان ذلك قد حدث بالفعل فإنه يدل على أن عملية استيعاب المسيحية بين الموريسكيين بعد قمع ثورة ٦٩–١٥٧٠ كان يمكن أن يؤدى إلى نتائج إيجابية باتباع سياسة حكيمة .

وقد رسم غاسبار أغيلار كذلك فى إحدى القصائد صورةً لخروج موريسكيي أندلوثيا من إشبيلية ، ونرى فى القصيدة سهل تابلادا وقد عجّ بالجماهير القلقة وهى تستعد للرحيل ، ونرى منظر الأرملة الشابة ومعها أبناؤها الثلاثة يثير الحزن

والشفقة[١٠١]، بينما يحتشد الموريسكيون الأثرياء والأقوياء وهم يتوعدون ويوجهون السباب ويؤكدون عودتهم إلى إسبانيا للانتقام وهم فى ذلك يثيرون القلق[١٠٢]. وعلى النقيض من صورة الفقيه المشلول الذى يُنقل محمولاً على كرسى[١٠٣] – وهى صورة تثير الشجن – هناك صورة لامرأتين موريسكيتين إحداهما شابة جميلة والأخرى عجوز. تصل الاثنتان إلى الميناء فى عربة فاخرة تصحبهما الموسيقى والرقصات[١٠٤]، لكن هذه المشاهد تختفى وسط حشود من الرجال والنساء يهتمون بمراقبة ملابسهم وأدوات العمل الخاصة بهم التى سيكسبون بها لقمة العيش فى بلاد البربر[١٠٥]. هنا يجب أن نتذكر أن بيلاثكيث نفسه عام ١٦٢٧ – معارضًا بذلك كاخيس وكاردوتشو وناردى – رسم لوحةً تعبر عن لحظة الطرد، وهى لوحة رمزية (ففيها فيليبى الثالث وإسبانيا) لكن فيها من الواقع ، إذ يستخدم فيها بيلاثكيث ذكريات طفولته فى إشبيلية[١٠٦]. وقد احترقت اللوحة أثناء الحريق الذى شبَّ فى القصر عام ١٧٣٤[١٠٧] ولم تبق نسخة منها. يقول خوسيب مارتينيث – صديق بيلاثكيث وأحد المعجبين به – إن الفنان قد رسم اللوحة بأمر من الملك فيليبى الرابع لكى يقطع الألسنة التى تهاجم بيلاثكيث فى مدريد وتقول عنه إنه لا يُجيد رسم لوحات كبرى[١٠٨](*).

بعد ذلك بعام – وفى ٢٢ مارس ١٦١١ – نُشِرَ قرار آخر توضيحى ، يقضى بأن يخرج موريسكيو أندلوثيا ممن بقوا أو ممن عادوا وادعوا أنهم مسيحيون مخلصون[١٠٩]. على أثر ذلك القرار خرج من برغوس ١١٣١٧ موريسكيًا من كاستيا ، وخرج عشرة آلاف من كارتاخينا[١١٠] معظمهم من موريسكيى غرناطة الذين أخرجوا منها، وجزء آخر منهم من الموريسكيين الذين بقوا فى غرناطة[١١١]. يُضيف القرار الثانى – بالإضافة إلى الاستثناءات السابقة – أنه لا يجوز إخراج المسلمين القادمين من بلاد البربر بمحض إرادتهم للدخول فى المسيحية ، ولا يجوز إخراج أبنائهم ، كما لا يجوز إخراج الرهبان والراهبات والقساوسة الذين ينحدرون من أصل موريسكى ،

(*) نشير هنا إلى الصداقة الحميمة التى جمعت بين الملك فيليبى الرابع وبيلاثكيث الذى كان رسامه الخاص. (المترجم)

كما لا يجوز إخراج العبيد الذين لم يخرجوا بعد ثورة غرناطة[١١٢] وكانوا كثيرين. كان هناك عبيد من الموريسكيين والبربر خلال القرن السابع عشر. هذا ما يفسر وجود إشارات عنهم في أدب عصر فيليبي الرابع وتناول طريقة كلامهم كذلك[١١٣].

لم يكن ذلك هو الإجراء الأخير الذي تعيّن اتخاذه ، إذ يقول الراهب ماركوس دى غوادالاخارا: " بين رجال القضاء وأهل السلطة فى أندلوثيا ومملكة غرناطة لم يكن هناك تصميم على طرد أولئك الذين بقوا ومعاقبة الذين عادوا بعد أن طُردوا[١١٤]. إن تكرار صدور قرارات التى تعنّف الذين لا ينتبهون إلى عودة الموريسكيين يعنى أن عودة المطرودين كانت أمراً شائعًا(*). والراهب ماركوس دى غوادالاخارا نفسه يتحدث عن عفو صادر فى ٣١ مايو ١٦١١[١١٥] وعن قرارات ١٩ سبتمبر ١٦١٢[١١٦] و ٢٠ أبريل ١٦١٣[١١٧]. يبدو أن موريسكيي ريف كالاترابا[١١٨] كانوا أكثر ميلاً إلى العودة .

وقد أُعلن قرار طرد موريسكيي أراغون فى سرقسطة فى ٢٩ مارس ١٦١٠ ، وكانت صيغة القرار شبيهة بصيغة القرارات الخاصة بموريسكيي فالنسيا وكاستيا وأندلوثيا [١١٩]. ينقل ماركوس دى غوادالاخارا صورة من التعليمات الصادرة إلى نائب الملك فى أراغون لتنفيذ القرار[١٢٠] ويُشير أيضاً إلى المذكرة التى وقّعها نواب أراغون دفاعًا عن الموريسكيين[١٢١] ، ويذكر أن الموريسكيين فى أراغون كانوا أقل رغبةً من غيرهم فى مصاهرة المسيحيين القُدامى . لم يكونوا مثل موريسكيي مرسية مثلاً حيث كانت المصاهرة منتشرة لدرجة أدت إلى اتخاذ قرارات خاصة أجلّت طردهم . [١٢٢] كانت هناك مذكرة من مدينة مرسية دفاعًا عن الموريسكيين نفهم من خلالهاأن المدينة كان بها ٩٦٨ بيتًا لموريسكيي غرناطة[١٢٣]. كان آخر قرارات الطرد هو القرار الخاص بوادى ريكوتى ، فقد صدر فى ١٩ أكتوبر عام ١٦١٣[١٢٤]بعدما أصبح مؤكداً أن الموريسكيين هناك مسلمون فى الحقيقة كغيرهم .

(*) فى هذه الفقرة ردّ على من يشكّكون فى أصالة التراث الإسلامى فى غرناطة ، إذ يتبين بوضوح أن كثيراً من مسلمى غرناطة قد عادوا إلى بلدهم بعد أن طرُدوا منه. (المترجم)

كان هناك تفاؤل ظاهرى يرحب بقرار الطرد، فالشاعر غاسبار أغيلار يُشير إلى موريسكيى فالنسيا فيقول :

لم تفقد المملكة شيئًا فى النهاية

فقد انقلب الحال

فصار الأغنياء فقراء

وصار الفقراء أغنياء

أصبح الصغار كباراً

وأصبح الكبار صغاراً (١٢٥)

هذه الأبيات جديرة بتعليقات أفضل من تلك الدراسات التى خُصصت لها. ويرسم لنا كاربونا صورة لرحيل الموريسكيين من قُرى أراغون ، يرسم ذلك بقوة فى التعبير ، وبدرجة من الفتور تُعادل قوة التعبير (١٢٦). ويقول ماركوس دى غوادالاخارا وهو أحد المؤيدين لعملية الطرد : "انخفض سعر القمح بطردهم ، وتسير البضائع فى أمان ، وتُبحر السُفُن بلا خوف ، وبفضل اعتدال الجو تحسنت المحاصيل الزراعية"(١٢٧). هذان المؤلفان ليسا الوحيدين اللذين يتحدثان بهذه الطريقة : هناك القصائد الكثيرة السيئة التى ترفع فيليبى الثالث إلى عَنان السماء كبطل(١٢٨) .

إذا تركنا هذه التعبيرات جانبًا ، علينا أن نعترف أن مُنفذى عملية الطرد والمسئولين عنها قد أحاطت بهم المشاكل ، فقد ظهرت على الفور أصوات معارضة ، بل هناك منْ يقول إن الأب ريبيرا قد مات حزنًا بعد طرد الموريسكيين وهو منْ كان أشد المتحمسين لعملية الطرد(١٢٩) .

بعد انتهاء العملية جاء دور الجدل . كان هناك فى عصر فيليبى الثالث كُتَّاب مُهتمون بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية فاعترفوا بأن طرد الموريسكيين كان سلبيًا من الناحيتين الاقتصادية والسكانية وإن كان إيجابيًا من الناحيتين السياسية

والدينية. يقول فيرنانديث دى باباريتى : " إن سبب انخفاض عدد سكان إسبانيا يعود إلى عمليات طرد المسلمين واليهود منها وهم أعداء ديننا الكاثوليكى ، فقد كان المسلمون ثلاثة ملايين ، وكان اليهود مليونين "(١٣٠) . إن إحصاء هذا المؤلف – مثل كثيرين غيره فى ذلك العصر – ليس دقيقًا . إنه بلا شك يُشير إلى عمليات الطرد بأكملها ،لا قرارات الطرد الأخيرة(١٣١) . كان رأيه هو الرأى السائد ، لكن مؤلفًا آخر هو سانشو دى مونكادا يعترف بتأثير عمليات الطرد على عدد السكان وعلى التجارة فى المملكة وعلى الزراعة والحرف(١٣٢) ، لكنه يؤكد أن رحيل الموريسكيين قد عوضه قُدُوم أجانب بنفس العدد(١٣٣). ويرى سابيدرا فاخاردو(١٣٤) وآخرون(١٣٥) أن عملية الطرد كانت ضرورية ، لكن الرحّالة الذين زارو إسبانيا فى عصر فيليبى الرابع أذاعوا فكرة أن طرد الموريسكيين كان ضاراً باقتصاد الدولة والمملكة وكان عملية وحشية(١٣٦) تنم عن عدم الكياسة . فى الوقت نفسه تحدثوا عن الموريسكيين كفلاحين مَهَرة(١٣٧) .

إن آراء فلاسفة عصر التنوير مبنية على شواهد ذلك العصر ، ويمكن أن تُلخصها عبارة فولتير: " عجز فيليبى الثالث عن تحقيق أهدافه بسبب عدد صغير من الهولنديين ، لكنه – مع الأسف – استطاع أن يطرد من مملكته ما بين ستمائة وسبعمائة ألف مسلم " (١٣٨) . ليس ذلك فقط بل محو أى تُراث قانونى أو دينى أو اجتماعى إسلامى من ذاكرة أولئك الذين بقوا فى إسبانيا ، لدرجة أن كلمة "موريسكى" نفسها لم يعد يستعملها أحد. ونلاحظ أن الموريسكيين حتى آخر لحظة كانوا يفخرون بوضعهم، أى أنهم لم يكونوا يرون أنفسهم أقل من المسيحيين القدامى، وهذا عكس ما حدث مع اليهود ؛ فهؤلاء – طبقًا لما يرويه غونثالثيث دى ثيلوريغو – كانوا لا يريدون أن يذكّرهم أحد بأصلهم ، وكانوا يحزنون إذا أطلق عليهم أحد لقب "المتحولين". لذلك فإن هذا المؤلف فى " يوميات ..." عام ١٦٠٠ يقترح حظر استخدام كلمة موريسكى ومعاقبة منْ يستخدمها(١٣٩). ومن المحتمل أن يكون قد حُظِرَ الكلام عن العائلات الموريسكية اعتباراً من لحظة الطرد نفسها ، وأن الحديث عن الموريسكيين كان مغامرة غير مرغوب فيها.

هوامش الفصل السابع

(١) Hurtado de Mendoza, pags. 93-95

Marmol, pags. 277- 278

يصف المؤلفان مشاهد دموية لعملية التهجير، ويتحدثان عن وضع البيازين بعد إخراج الموريسكيين منها.

(٢) Marmol. Pag. 255

(٣) Marmol. Pag.178, 300, 315, 323-325, 342,344

(٤) Marmol. Pag. 360

يقول كابريرا دى كوردوبا (الجزء الثانى ، ص ٦٤–٦٠) أن السيد ألونسو دى غراندادا قد لعب دوراً أساسياً فى العملية.

(٥) تدل مراسلات خوان دى أوستريا مع فيليبى الثانى وغيره (خاصة الرسالة المؤرخة فى ٣٠ سبتمبر ١٥٧٠ إلى روى غوميث دى سيلبا) على أن السيد خوان كان يأمل فى إتمام عملية إخراج الموريسكيين بحلول يوم ١٨ أكتوبر. وفى رسالة إلى الملك فيليبى الثانى (فى ٥ سبتمبر) يتحدث عن ذلك .

(٦) Marmol. Pags. 361-362

(٧) انظر الملاحظتين فى الفصل الثامن

(٨) Marmol. Pag. 129

(٩) Saavedra, pag. 251

(١٠) بالإضافة إلى كتاب تونييث دى برادو انظر:

Memoria sobre la renta de la población de Granada, en Sempre y Guarimos, IV

Reflexiones sobre la rebelión de la moriscos y censo de población, de Fernández Guerra.

La repoblación del reino de Granada después de la expulsión de los moriscos, de F.Oriol Catena.

(١١) لم يصل كتاب أورتادو دى مندوثا إلى تلك المرحلة ، والطبعة السابعة من تحقيق غوميث مورينو (ص٢٥٥) تتضمن هذه العبارة : " مُنحت كل ممتلكات الموريسكيين للمسيحيين القُدامى مقابل مبلغ صغير يُدفع اليوم ، ويتوارث الأبناء عن الآباء هذه المنحة وهذه الضريبة. هكذا تمت إعادة التوطين فى المدينة ، وهكذا يعيش المسيحيون القُدامى سعداء وأثرياء وينتجون الحرير ..." . من الملاحظ أن الفقرة تُشير إلى آمال أكثر مما تشير إلى الواقع.

(١٢) *Historia de la casa de Mondejar,* fols. 392-394

Semper y Guarinos, pags. CXXXIII-XLIII

(١٣) Semper y Guarinos, pags. CLVII-CLXVI

(١٤) Semper y Guarinos, pags. CXXIX-CXXXIII

(١٥) يرد نص ذلك القانون الخاص بالموريسكيين في كتاب باوير (Bauerص١٤١-١٥٦) .
انظر كذلك : .Nueva recopilación, pags 239-242

(١٦) *Pragmática y declaración sobre los Moriscos que fueron tomados por esclavos de edad de diez a?os y medio y las esclavas de nueve y medio, del Reino de Granada,* (Madrid, 1573)
Bauer, pags. 137-140

(١٧) Boronat y Barrachena,1, pags. 491-494, 302-304

(١٨) Cock: *Relación* .... Pags. 29-30

(١٩) " مرسوم من صاحب الجلالة خاص بشئون موريسكيي مملكة غرناطة الذين زعموا أنهم مسيحيون قدامى" (مدريد ١٥٨٥) انظر .
Bauer 157-163
Nueva recopilación, pag. 242

في الواقع كان هناك تصنيف قانوني لكل من "المسيحي القديم" و"المسيحي الجديد". كان المسيحي القديم يمكن أن يكون ابنًا لمسلمين تنصروا قبل الاستيلاء على غرناطة ، أما الذين تنصروا أثناء فترة التعميد الجماعي فليسوا كذلك. هذا ما يقرره مرسوم صدر عام ١٥٢٦ ورد في كتاب *Nueva recopilación*
انظر كذلك :
Luis de la Cueva: *Dialogos de las cosas notables de Granada*, fol.F. (di?logo VI).
ثيسار ك : كيف يكون هذا الرجل عربيًا ويقول إنه خدم الملكين الكاثوليكيين ؟
تيسيفون : نعم أنا كذلك ، فقد تنصَّر أجدادي قبل الاستيلاء على غرناطة ، أما الموريسكيون فقد تنصروا فيما بعد وزعموا أنهم تنصروا قسرًا ورفعوا شكوى إلى سلطان بابل فكتب إلى الملك فيرناندو إنه سيعامل مواطنيه المسيحيين كما يعامل هو مسلمي غرناطة ، وقد ردَّ الملكان الكاثوليكيان بأنهما لا يُرغمان أحدًا على شيء وأن الموريسكيين لما تمردوا أصبحوا رقيقًا وفقدوا ممتلكاتهم ، وأن منْ أعرب عن رغبته في دخول المسيحية أُعيدت له حريته وأمواله".

(٢٠) Luis de la Cueva : *Diálogos de las cosas notables de Granada,* fol.F. (diálogo VIII).
Darao Cabanelas: *El morisco granadino Alonso del Castillo* (Granada , 1965)

(٢١) Luis de la Cueva, fol.Gii

(٢٢) Luis de la Cueva: fol.Gii

(٢٣) Luis de la Cueva: fol.Hiii
Ménendez Pelayo: *Historia de los heteredoxos espa'noles*, II, pags. 641-644.
Henriquez de Jorquera, II, pags. 523-525, 531

يتحدث الكتاب عن اكتشافات تمت عامى ١٥٨٨ ، ١٥٩٠

(٢٤) Henriquez de Jorquera, II, pags 550

يقول عن عام ١٦٠٦ : خرج ثمانون شخصًا وأحرق شخصان من بينهما امرأة " ماتت وهى تعترف بأنها مسلمة". وفى عام ١٦٠٨(الجزء الثانى ، ص ٥٥٨) خرج حوالى مائة مذنب . بعد ذلك بعام ، أى فى ١٦٠٩ ، (ص ٥٦٣) خرج اثنان وثلاثون شخصًا ، وقد أدين دييغو دى كاثورلا وهو محلّف بالمدينة ورجل من أصحاب النفوذ والثراء ، وقد أدين أثرياء آخرون لاتباعهم الإسلام ".

(٢٥) Henriquez de Jorquera, II, pags 564-565

يقول : استُثنى من الطرد " أبناء العائلات الكبيرة من الفرسان والوجهاء ممنْ ينحدرون من أصول مسلمة " .

(٢٦) Henriquez de Jorquera, II, pags 566

(٢٧) Henriquez de Jorquera, II, pags 569

(٢٨) Boronat y Barrachena, 1, pags. 347-348

(٢٩) Boronat y Barrachena, 1, pags. 351-352

Archivo de Simancas de 1590

Danvila y Collado, pag. 222

(٣٠) Boronat y Barrachena, 1, pag. 469

(٣١) Boronat y Barrachena,1, pag 470

Danvila y Collado, pags.268

(٣٢) هذا من واقع وثيقة يوردها دانفيلا (ص ٢٠٥ – ٢٠٦) .

(٣٣) Danvila y Collado, pags. 206

(٣٤) Danvila y Collado, pags. 224-225

Nueva recopilación, pag. 242-243

(٣٥) يقول ريبيرا فى وثيقة ذكرها ماركوس دى غوادالاخارا فى كتابه حول طرد الموريسكيين (ص٨٣) : يبدو لى أنه يمكن تمييز نوعين منهم : الأول يشكّله أولئك الذين يعيشون أحرارًا لا يعترفون بسيادة أحد، وهم كل منْ طُردوا من غرناطة – حتى لو أقاموا فى أماكن سيادة – ومنْ يعيشون فى مناطق متفرقة من كاستيا مثل أبيلا وأولميدو وأورناتشوس وغيرها. الصنف الثانى يضم رعايا السادة ، وهم موريسكيو أراغون وفالنسيا " .

(٣٦) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 83

يقول ريبرا إن أصحاب الصنف الأول يعيشون مثلنا لكنهم مسلمون مثل مسلمى فالنسيا .

(٣٧) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 58

Pedro Guerra de Lorca: *Catecheses myetagogicae*...fol. 20

يقسّم عالم اللاهوت الغرناطى غيرا دى لوركا الموريسكيين الغرناطيين من حيث ثقافتهم الدينية ... هناك أشخاص يتم تعميدهم لكنهم يحافظون على كل عادات وشعائر المسلمين رغم أنهم يقولون فى العلن إنهم مسيحيون . وهناك منْ يغيرون عاداتهم لتكون مثل عادات المسيحيين . وهناك منْ

يحافظون على تقاليد عائلية تنتمى إلى الإسلام لأنهم من أصول مسلمة رغم أنهم مسيحيون. وهناك منْ هم أبناء لأب مسلم وأم مسيحية قديمة فهم يتبعون خير الأبوين ديناً ، وهذا ما يحدث كذلك مع الأبناء لأم مسلمة وأب مسيحى. انظر أيضاً :

Longas, pag. LXV

(٣٨) يقول بدرو دى فالنسيا فى خطابه حول " زيادة العمل فى الأرض الزراعية " (ص ٨٠) .

" طالما ظل الموريسكيون فى أماكن متفرقة بالملكة ولا يختلطون بأهلها ولا يصادقونهم ولا يبدو أنهم قد أصبحوا مسيحيين حقيقيين ... فمن المناسب أن تضعف قوتهم ولا نتركهم يزرعون الأرض أو يمارسون الحرف التى تجعل الرجال صالحين لحمل السلاح ، بل نجعلهم أصحاب محلات وتجاراً متنقلين بين المدن. إذا أثروا بسبب التجارة فذلك لن يضرنا لأنهم سيكون باستطاعتهم دفع ضرائب أكبر ، وسيصبحون مخنثين وجُبناء لأن الثروة تُحدث هذا الأثر " . وعلى النقيض من ذلك كتب راهبٌ رسالةً إلى فيليبى الثالث فى ٢٠ أكتوبر ١٦٠٩ يطلب فيها طرد الموريسكيين من مرسيه ، فإذا لم يُطردوا فعلى الأقل " تُنزع منهم المكاييل والموازين، ولا يُسمح لهم بممارسة التجارة بل بحرث الأرض". انظر :

Rodrigo Amador de los Ríos: *Murcia y Albacete* ... pags. 782-783

(٣٩) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 83-84

ينقل غوادالاخارا فقرة كتبها ريبيرا " لما كان الموريسكيون الذين يعملون فى النقل كثيرين ؛ فهم يتنقلون فى مدن إسبانيا. وهكذا يكون من السهل عليهم أن ينبه بعضهم بعضاً ، وهذا ما يقومون به بالفعل ويكون من السهل أيضاً اتصال موريسكيى هذه المملكة بموريسكيى مملكة أراغون ، وأن يتصل الموريسكيون فى المملكتين بموريسكيى كاستيا " . وفى صفحة ٧٤ ينقل غوادالاخارا شهادة غوميث دابيلا : " إن الطرق مليئة بالموريسكيين الذين يعملون فى مجال النقل بطريقة سهلة آمنة ". يجمع الكتّاب على هذا الجانب فى نشاط الموريسكيين. وقد عمل اليهود أيضاً فى مجال النقل لنفس الأسباب المُشار إليها. انظر :

Gonzalez de Cellorigo: *Memorial*....fol.4

"إنها حقيقة أن هذه الحرف تصلح لذلك ، فقد عاد اليهود الذين تم تعميدهم إلى شريعة موسى الميتة ... فلما لم يستطع البعض المحافظة على الشعائر اليهودية سراً بين جيرانه ؛ عمل فى مجال النقل والتجارة، وتحت هذا الستار أصبحوا متمسكين باليهودية ويمارسون شعائرها دون عوائق ، ولم يكن بمقدورهم فعل ذلك فى بيوتهم ".

إن التفاصيل التى يوردها سالاثار دى مندوثا حول موريسكيى أورناتشوس (الذين كانوا يعيشون حياة شبه مستقلة أو علاقتهم بموريسكيى غرناطة المقيمين فى كاستيا ... هذه التفاصيل جديرة بأن تُقرأ. يقول (ص ١٨٤). " هذه القرية بها ألف بيت ... وتقع فى محافظة ليون على بُعد خمسة فراسخ من يرينا ، مقر محكمة التفتيش. كان كل الذين يعيشون فى القرية من الموريسكيين واستمروا على الإسلام منذ أن تم تعميدهم فى عهد الملك فيرناندو الكاثوليكى ... وكانوا كلهم مختتنين ، وقد حاولوا إقناع محكمة التفتيش بأنهم وُلدوا هكذا ، ولكى يؤكدوا ذلك كانوا يجرون عملية الختان للطفل بمجرد ولادته ثم يبلغون القسيس بأن الطفل وُلدَ مختتناً . كانوا يعيشون وكأنهم فى دولة مستقلة ، وكان لهم مجلس دولة يعقدونه فى الأراضى الزراعية ، وكانوا يسبكون عملات. كانوا يعملون فى مجال النقل ، وكانوا

بذلك يعرفون كل ما يحدث فى إسبانيا ، بل وفى الخارج كذلك ، فقد كان لهم جواسيس ، وكانت لهم مراسلات مع الأتراك والمسلمين . وعندما قدم موريسكيو غرناطة إلى طليطلة نشأت صداقات وتحالفات بين موريسكيى غرناطة وموريسكيى طليطلة . كانوا يتصلون فيما بينهم عبر طريق يسمونه الطريق الإسلامى يمتد من طليطلة إلى أورناتشوس عبر أرض آهلة بالسكان. لقد قتل أحد الموريسكيين ثمانين مسيحيًا وارتكب موريسكيون آخرون جرائم كثيرة بالإضافة إلى إلحادهم. إذا كان هذا يحدث فى إكستريمادورا وهى فى وسط إسبانيا ، فماذا نقول عما يحدث فى الساحل ، وهم يذهبون فى كل يوم إلى الجزائر ويعودون منها ومن موانئ أخرى ، حيث يُعاملون هناك كأنهم من أهل البلاد ؟ "

(٤٠) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión*..fol. 84

لا تقل عن ذلك تلك الأضرار التى لحقت بأهل بعض الأقاليم والمدن الإسبانية مع قدوم الموريسكيين الذين طُردوا من غرناطة . يقول الأب : " ما رأيته أنا فى أندلوثيا هو أن القرى لم يبق بها سوى عدد ضئيل من السكان ، وفى بعض القرى لم يبق أحد ، وقد سمعت نفس التساؤل : ماذا يحدث فى كاستيا؟ . إن السبب فى ذلك هو أن هؤلاء الموريسكيين كانوا أصحاب حرف وتجارة ، وكانوا يعملون كأجراء ... كل ذلك كان فى صالح المسيحيين، إذ أن الموريسكيين بخلاء ولا ينفقون الكثير على المأكل والمشرب والملبس. وقد جاء بدلاً منهم المسيحيون القدامى (وهؤلاء كانوا يكسبون قوت يومهم من العمل) ولم يكن هناك منْ يعملون عنده ، وإذا عملوا كانوا يعطونهم أجراً زهيداً لا يكفى لإعاشتهم ولهذا فقد تركوا بيوتهم وأراضيهم ..."

(٤١) Cervantes : *El coloquio de los perros*, pag. 351

(٤٢) Juan Rufo, pag. 8

هم يتمتعون بحياة طويلة
فى ربوع باندالبا
ونحن نخوض المعارك
فى آسيا وإفريقيا وفرنسا
نتعرض نحن للقتل
فى الهند ، وفى إيطاليا
وهم فى أمان
ينجبون أربعة أطفال فى ثلاثة أعوام

انظر كذلك : Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,folios48,57

(٤٣) Aznar Cordona, fols 36, 37

يزوجون أبناءهم صغاراً عندما تبلغ الفتاة الحادية عشرة ، ويبلغ الصبى اثنى عشر عاماً. لا يتوقف أحدٌ منهم عن الإنجاب بأنْ يصبح راهبًا أو قسيسًا أو راهبة ، ولا ينعزل الرجال عن النساء ، وهذا معناه أنهم لا يحبون حياة العفاف. كلهم – أغنياء وفقراء، مرضى وأصحاء – يتزوجون ، ولا يتأملون كيف أن المسيحى القديم الذى يكون له خمسة أو ستة أولاد يكتفى بتزويج أكبرهم ويحاول أن يكون الباقون قساوسة أو رهباناً أو جنوداً ... والأسوأ من ذلك أن بعض المسيحيين القدامى الذين يتباهون بأنهم من الوجهاء ... يتزوجون من موريسكيات ويدنسون شرف عائلاتهم، وأدعو الله ألا يصل الدنس إلى الروح"

(٤٤) Caxa de Leruela, pags. 68-69

(٤٥) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 84

لما كان الموريسكيون جشعين وبخلاء وحريصين على كنز المال حتى عند الضرورة، فقد اختاروا المهن المربحة للإثراء ، فكان منهم صاحب المتجر و العطّار والطواني ...الخ بحيث أنهم أصبحوا كالإسفنجة التي تمتص ثروات إسبانيا ، ولهذا ففي حوزتهم الكثير من الذهب والفضة ... " تأمل النكبات التي تحل بنا وأعداؤنا مستولون على الأموال ".

(٤٦) Cervantes: *El coloquio de los perros*, pag. 351

كل همهم هو جمع المال وتخزينه ، ولجمع المال فإنهم يعملون ولا يأكلون ... إذا دخلت العملة في حوزة أحدهم فهو يودعها سجنًا أبديًا وظلمة سرمدية ، وهكذا فهم يكسبون المال دائمًا ولا ينفقونه أبدًا فيستولون على جل المال في إسبانيا .... لاحظ أنهم كثيرون ، وفي كل يوم يجمعون المال ولا ينفقونه ، وبما أنهم يتزايدون فسيزيد عدد منْ يحبسون الأموال ... إنهم يسرقون أموالنا ... ثم يبيعون لنا ما سرقوه ويتحولون إلى أغنياء ونتحول نحن إلى فقراء ...".

(٤٧) *Aznar Cardona, fols.52-54*

(٤٨) Marcos de Guadalajara: *Prodición* fol.3

يشير إلى المجلس المذكور ، ويقول : في الجلسة الماضية طُلب من صاحب الجلالة وضع علاج مناسب للأضرار التي سوف تترتب على الأعداد الكبيرة لموريسكيي غرناطة ... فهم يتزايدون، وكل تأخر في العلاج سيزيد العدد ، وبما أنهم قد استولوا على تجارة الأغنية – حيث يتركز المال – فهم يجمعون المحاصيل ويحفظونها وقت الحصاد ويحتاج الناس إلى الشراء منهم ... ولكي يستخدم الموريسكيون هذه المحاصيل استخدامًا جيدًا فقد أصبح منهم التاجر والخازن والخباز والجزار .... وهكذا فهم يستولون على المال كله. إنهم لا يشترون أبدًا ، وليس منهم منْ له عقارات ثابتة ، ولهذا فهم أثرياء وأقوياء " .

(٤٩) *Actas de las Cortes de Castilla*, XVI, pags. 674, 691

يتحدث عن هذا الموضوع بعد ذلك في ١٦٠٩ كابريرا دي كوردوبا (ص٣٧٦) .

(٥٠) Francisco de Bruno: *Reflexiones sobre las artes mecánicas*, pag.296

لا شك في أن الظلم الذي نلحقه بالصناعات الميكانيكية ، عندما نصفها بأنها أعمال دنيا ، يُسهم في انصراف الناس عنها ؛ لأنه لا أحد يريد أن يمارس عملاً يحتقره الناس. إن هذا المفهوم الخاطئ ربما كان أساسه أن الموريسكيين هم الذين كانوا يمارسون هذه الأعمال في إسبانيا ، فلما طُردوا منها قدم إلينا أجانب لكي يحلوا محلهم ".

(٥١) أدى اكتشاف أمريكا إلى نقص الأيدي العاملة. انظر : Caxa de Leruéla, pags. 66-62.

(٥٢) Hernando de Baeza, pags 9

(٥٣) Aznar Cardona, fol. 34

(٥٤) Fray Alonso Fernández: *Historia y anales de la ciudad y obispado de plascencia*, pag. 489.

يورد الكتاب صورة لحياة الموريسكيين : " كان همهم هو زراعة البساتين والعيش بعيداً عن التعامل مع المسيحيين القدامى حتى لا يكون هناك شهود على طريقة معيشتهم . كان البعض منهم يعمل بالتجارة ، فكانت لهم محلات المأكولات فى أفضل المواقع بالمدن والقرى ، وكانوا يتحكمون فى الجزء الأكبر من هذه التجارة. وكان بعضهم الآخر يعمل فى الصناعات الميكانيكية ، فكان منهم الحداد و صانع النعال وصانع الحلل وصانع الصابون والحمال ؛ فكانوا جميعًا يدفعون ضرائب عن طيب خاطر ، وكانوا مقتصدين فى المأكل والملبس . لم يكونوا يتركون ذويهم عالة على الآخرين ، فكلهم كان يعمل أو ينتج شيئًا ما. إذا ارتكب أحدهم جريمة كانوا يهرعون إلى الوقوف بجانبه والشهادة لصالحه حتى لو كانت الجريمة واضحة . كانوا لا يتشاجرون فيما بينهم ... كان طابعهم الصمت والتحمل ثم الثأر إذا استطاعوا. كانوا يعملون فى مجال النقل ... لم يُعرف عنهم أنهم أرادوا مصاهرة المسيحيين القدامى ، وكانوا لا يطلبون إذنًا من الباب لعقد الزيجات من أبناء درجات القرابة الممنوعة ..."

(٥٥) انظر الملاحظة رقم ٦١ فى الفصل الخامس .

(٥٦) إن التجول فى أحد شوارع تطوان القديمة يكفى للتأكد من استمرار صفات المسلمين .

(٥٧) *Poema de Alfonso Onceno*, pag. 505-926

(٥٨) Lope: *Obras*... X, pag. 393

فى صفحة ٣٩٤ يقول راميريث:

ولوبى الذى عاش أجداده

من صناعة المناديل

(٥٩) Lope: *Obras* ..,V, pag. 196

(٦٠) Lope: *Obras* , VI, pag. 306

(٦١) Duran , I, pag. 136

(٦٢) Lope: *Obras*, X, pag. 393

من الجائز أن يكون لوبى موريسكيًا

فذلك يبدو من شكله

أما السيد فيليكس...

وفى صفحة ٣٩٤ :

كانت خوليا تتوقع دائمًا

أن يكون لوبى موريسكيًا

لأن وجهه محروق

(٦٣) Lope: *Obras*, X, pag.398

هناك فقرات للوبى دى بيغا تتعلق بالموريسكيين نجدها فى :

Ricardo de Arco: *La sociedad espa´nola en las obras de Lope de Vega*, pags. 83-85

(٦٤) Espinel, pag. 407

(٦٥) Marcos de Guadalajara: *Prodición* ...fols. 7-9

(٦٦) Gonzalo de Cespedes y Meneses: *Fortuna varia del soldado*
Píndaro, pags. 319-320
Mateo Alem?n : *Vida de Guzman de Alfarache*, pag. 197
يقول ماتيو أليمان : " أنا شاهد على أن أحد المراجعين فى مدينة كبرى بإقليم أندلوثيا ومملكة غرناطة كانت له أغنام ، ولأن الجو كان بارداً فلم يكن يبيع اللبن ، فقد كان الناس يذهبون لشراء الحلوى ...

(٦٧) Parte II, caps. LIV y LXIII

(٦٨) Cervantes: *Trabajos de Persiles y Segismunda*, pags. 644-646

(٦٩) هناك إشارات إلى قرصنة الأتراك فى تلك الفترة ، فى كتاب إنريكيث دى خوركيرا ، الجزء الثانى (ص ١٠٨-٦٠٩ ، ٦٢٢) وبالكتاب أيضًا إشارات إلى قرصنة الموريسكيين (ص ٥٧٣). انظر كذلك الملاحظة رقم ٢٥ ، والملاحظة رقم ٨٩ فى الفصل الثامن .

(٧٠) أو مجرد إشارات. هناك إشارات إلى شهرة نساء البربر والموريسكيات كساحرات فى رواية ماتيو أليمان (ص٢١٨) وفى كتاب إنريكيث دى خوركيرا الجزء الثانى (ص٥٥٩).

(٧١) Francisco López de Ubeda: *La pícara Justina*, pags. 150-152

(٧٢) Marcos de Guadalajara: Memorable expulsión, 109,112
Danvila y Callado, pags. 274-330
Boronat y Barrachena,II, pags.189-312
Cascales, pags. 305-311

(٧٣) Aznar Cardona, fol. 63

(٧٤) Cock : *Relación* ....,pag. 31

(٧٥) Boronat y Barrachena, 1, pags. 443-469
Danvila y Callado, pag. 181

(٧٦) Boronat y Barrachena, 1, pags.540-569
Janvila y Callado, pags. 174-174

(٧٧) كان تعبير " ها قد جاء التركى" شائعاً فى المحادثات اليومية . حدث ذلك أيام كان مراد الريس يهدد السواحل . انظر : Cabrera de Córdoba : *Relaciones*.., pags. 74, 115, 153,240

(٧٨) Cabrera de Córdoba : *Relaciones*.., pags. 366
فى يومياته بتاريخ ١١ أبريل ١٦٠٩ يتحدث كابريرا عن انتصار مولاى زيدان وهو ملك أشار إليه كُتَّاب آخرون تحدثوا عن الموريسكيين .

(٧٩) Cabrera de Córdoba : Relaciones.., pags. 240
فى يومياته بتاريخ ١٦ أبريل ١٦٠٩ يقول : " فى فالنسيا ألقى القبض على موريسكيين كثيرين بسبب الرسالة التى بعث بها ملك إنجلترا ، وقد عُثر على الرسائل ضمن أوراق الملكة السابقة ، وكان الموريسكيون قد كتبوا إليه يطلبون مساعدته لهم لكى يقوموا بالثورة ، ويتعهد الموريسكيون بالسماح لملك انجلترا بنهب المدينة إذا جاء بأسطول إليها... وسيُعاقب البعض لكى يكونوا عبرة للآخرين " .

(٨٠) Cabrera de Córdoba : *Relaciones*.., pags. 867

كتب فى ١١ أبريل ١٦٠٩ " قيل إن بعض الموريسكيين قد توجهوا إلى إفريقيا كمبعوثين إلى الملك مولاى زيدان يعرضون عليه ستين ألف مقاتل بأسلحتهم فى إسبانيا ومبالغ طائلة ..." لم يهتم الملك بهذا الطلب على ما يبدو ، نفهم ذلك من فقرة فى نفس الصفحة بتاريخ ٩ مايو ١٦٠٩

(٨١) *Memoires de Vacques Nompar Caument,* ducde la Force,I, pags. 341-345

فى هذه المذكرات يعرض الموريسكيون وضعهم على إنريكى الرابع ، وهى معلومات مهمة جداً إذ تشير إلى عدد الموريسكيين :

(أ) موريسكيو غرناطة وهم موزعون على ١٣٠ ألف بيت .

(ب) موريسكيو فالنسيا وهم موزعون على ٧٧ ألف بيت أو يزيد .

(جـ) موريسكيو أراغون وهم موزعون على ٤٠ ألف بيت أو يزيد .

(د) المدجنون فى كاستيا وعددهم خمسة آلاف أسرة ، والمدجنون فى قطالونيا وهم ثلاثة آلاف أسرة. هذا الإحصاء فى عام ١٦٠٢

(٨٢) هذا ما يُلاحظه محللون مثل إنريكيث دى خوركيرا الجزء الثانى صفحات ٥٤٣ ، ٥٥١ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٨ ، ٥٨٤ . يشير إلى التوتر بين عامى ١٦٠٤ ، ١٦١٣

(٨٣) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 109-112

Danvila y Callado, pags. 274-302

Boronat y Barrachena,1, pags. 189-218

Lea : *A History of Inquisition of Spain,* III, pag. 395

يذكر كتاب *Novisima recepilación* (الجزء الرابع) قرار طرد موريسكى كاستيا وليون وغرناطة (٢٠ يوليه ١٥٠١) وإشبيلية (١٢ فبراير ١٥٠٢) ومدريد (٩ ديسمبر ١٦٠٩٩) وقرار طرد صادر عام ٢٩ سبتمبر ١٧١٢ وهو خاص بالمسلمين الأحرار.

(٨٤) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. III

Danvila y Collado, pag. 29

(٨٥) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. III

(٨٦) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. III

(٨٧) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 112

(٨٨) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 112

من بين الوثائق التى تثبت ذلك هناك وثيقة بعنوان " القرار الذى اتخذه الملك فيليبى سيدنا والخاص بالموريسكيات المتزوجات من مسيحيين قدامى حتى لا يخرجن هن أو أولادهن من الممالك " .

ترد هذه الوثيقة ضمن مجموعة وثائق كبيرة حول الموريسكيين فى كتاب باور Baur (ص ١٦٩-١٧٤)، كما يذكر باور أيضاً " رسالة جلالة الملك إلى القساوسة بخصوص الموريسكيين " (ص ١٦٧) .

(٨٩) Cabrera de Córdoba : *Relaciones..,* pags. 383-384

يقدم كابريرا معلومات مهمة عن الرحلات (٢٦ سبتمبر ١٦٠٩) وفى صفحة ٣٩١ (٢٠ ديسمبر) يقول : " كتب كونت أغيلار قائد وهران أن عدد الموريسكيين الذين بقوا فى تلك المنطقة كبير ، فهم يخشون العرب إذا توغلوا فى داخل البلاد ، فالعرب يسرقونهم ويعاملونهم بطريقة سيئة ويسلبون منهم زوجاتهم ، وهكذا يعانى الموريسكيون من الجوع ومشاكل أخرى ، وقد ذهب عشرون من زعمائهم من

فالنسيا إليه وقدموا أنفسهم على أنهم مسيحيون وأنهم لم يعرفوا حقيقة الإيمان إلا بعد أن رأوا عيوب المسلمين فى تلك الأماكن وأنهم يريدون أن يموتوا على المسيحية ، وأنهم لن يخـرجـوا من هـناك حتى لو أمروا بقتلهم . اعتقلهم الكونت وينتظر ورود تعليمات بشأنهم " .

(٩٠) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 119

(٩١) Danvila y Collado, pags. 296-308

Boronat y Barrachena,II, pags.219-249

(٩٢) Danvila y Collado, pags. 308-309

Boronat y Barrachena,II, pags. 281-312

(٩٣) Cabrera de Córdoba : *Relaciones*.., pags. 396 (13 febrero1610)

(٩٤) Duran,II, pags. 190-192

كيف ولماذا طرد الملك فيليبى الثالث الموريسكيين من إسبانيا والألم الذى حلّ بهم نتيجة لذلك " بين صفحتى ١٩٠ – ١٩١ يتحدث عن الملابس .

(٩٥) Duran,II, pags. 191

(٩٦) Duran,II, pags. 191

(٩٧) Duran,II, pags. 191

(٩٨) Duran,II, pags. 191

(٩٩) Duran,II, pags. 191

(١٠٠) Duran,II, pags. 191

(١٠١) Gaspar Aguilar, pag. 174

(١٠٢) Gaspar Aguilar, pag. 174

(١٠٣) Gaspar Aguilar, pag. 175

(١٠٤) Gaspar Aguilar, pag. 175

(١٠٥) Gaspar Aguilar, pag. 175

(١٠٦) Palamino: *Parnaso espanol*, pags. 898-899

يصف بالومينو اللوحة ويقول إنها كانت تصور " قافلة من الرجـال والنسـاء والأطفال يبكون والجنود يقتادونهم ، وعلى بعدٍ منهم كانت هناك عربات وقطعة بحرية وسُفُن لنقلهم".

(١٠٧) A.L. Mayer: *Historia de la pintura espa?ola*, pag 382

Lafuente Ferrari : *Breve historia de la pintura espa?ola*, pag. 182

(١٠٨) Jusepe Hartínez : *Discursos practicables del noblísimo Arte de la pintura* ... , pag.117

يقول الناشر إن اختفاء اللوحة حدث خلال حرب الاستقلال .

(١٠٩) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 120-122

(١١٠) Marcos de Guadalajara: *Prdición expulsión* ..fol. 34-36

(١١١) Danvila y Collado, pags. 316-320

Boronat y Barrachena,II, pags. 302-304

(١١٢) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 31-32

Bewer, pags. 165-174

(١١٣) انظر الملاحظة رقم ٨٠ وصفحة فى الفصل الثالث . انظر كذلك :

Heríquez de Jorquera, II, pag. 719

يتحدث إنريكيث دى خوركيرا عـن عبد من البربر كان موجوداً عام ١٩٣١. انظر أيضًا الملاحظة رقم ١٩ فى خاتمة الكتاب .

(١١٤) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 41

(١١٥) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 41

(١١٦) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 44-45

(١١٧) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol.47

(١١٨) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 51-53

(١١٩) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fols.136-138

Danvila y Collado, pags. 311-312

Boronat y Barrachena,II, pags.294-302

(١٢٠) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fols.132-132

(١٢١) Cabrera de Córdoba : *Relaciones*.., pags. 391

يقول كابريرا : " جاء نائبان من أراغون هما دوق بيا إيرموسا وقسيس يتحدثان عن سلبيات إخراج الموريسكيين من هذه المملكة ، وقد قيل لهما إنه حتى الآن لم يُتخذ قرار بعد فى هذا الشأن ، وإنهما سيُحاطان علمًا بما يتخذ فى حينه " (٢٠ ديسمبر١٦٠٩) بعد ذلك ، وفى صفحة ٣٩٧ (١٣ فبراير ١٦١٠) يشير إلى الاستعدادات لعملية الطرد ويشير إلى الطرد (ص٤٠٢) فى ١٠ أبريل عام ١٦١٠ ، وقد اعتبرت عملية الطرد ضارة (ص٤٠٨ : ٥ يونيه ١٦١٠) انظر أيضًا ص ٤١٠ (٣ يوليه ١٦١٠) .

(١٢٢) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fol. 132

Danvila y Collado, pags.313-315

(١٢٣) Rdrigo Amader de los R?os : *Murcia y Albacete* ...pag. 782

"مذكرة قدمتها مدينـة مرسيـة إلى الملك فيليبى الثالـث تطلـب فيها عـدم إزعـاج موريسكيى المدينـة وما حولهـا " (٧ أكتوبر ١٦٠٩)

(١٢٤) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsión* ..fols.56-60

(١٢٥) Gaspar de Aguilar, pag. 196

"فصل عن المصائب التى حلت بالمسلمين بسبب طردهم والخير الذى حل بإسبانيا لذلك " (ص ١٨٥-٢٠٥) . انظر تعليق كانوباس (ص٢٠١-٢٠٥) .

(١٢٦) Aznar Cardona, fols 5-6

اعتمدت على هذا المؤلف فى كتابى " موريسكيو أراغون " . إن وصفه لرحيل الموريسكيين شبيه بوصف غاسبار أغيلار ... يُشير غاسبار إلى دوق غانديا. يشير الشاعر إلى روح التضحية عند نبلاء فالنسيا.

(١٢٧) Marcos de Guadalajara: *Memorable expulsón* ..fol.157

(١٢٨) انظر الأشعار اللاتينية فى نهاية كتاب غاسبار أغيلار (ص ٢٠٩-٢٢٢) انظر كذلك .

Bauer, pags. 180-182

(١٢٩) Gaspar Aguilar: *Texto recordado por Canovas*, pags 202-203

(١٣٠) Fernández de Navarrete, pag. 150

(١٣١) هناك ملحوظة أوردها كليمنثين فى تحقيقه لرواية كيخوتى (ص ٢٠٠-٢٠١) ، هذه الملحوظة مهمة لدراسة عدد الموريسكيين المطرودين. هناك مؤلفون مثل رودريغو مينديث سيليا (ص٢٩٨) يقولون إن عدد المطرودين كان تسعمائة ألف ، وهو نفس العدد الذى يذكره إنريكيث دى خوركيرا (الجزء الثانى ، ص ٥٦٤) حين يتحدث عن عام ١٦١٠ فيقول " فى هذا العام تم طرد الموريسكيين من إسبانيا فخرج تسعمائة ألف رجل وامرأة وتركوا فراغاً كبيراً " ، ويقول بالومينو (ص٨٩٩) إن عددهم كان ثمانمائة ألف أو تسعمائة ألف . وهناك مؤلفون يذكرون عدداً أقل ، إذ يشير سانشو دى مونكادا إلى أن عددهم كان أربعمائة ألف ، وسالاثار دى مندوثا يقول إن العدد ٣١٣ ألفاً : ١٤٦ ألف من فالنسيا ، ٧٠ ألف من أراغون وقطالونيا ، ٧٠ ألف من لا مانشا وإكستريمادورا وثلاثة آلاف من أورناتشوس وثلاثين ألفاً من أندلوثيا. أما الراهب ألونسو فيرنانديث فيذكر أن عدد المطرودين كان ٢٧٠ ألفًا ويتفق معه كاسكاليس فى هذه النقطة. بالنسبة لمؤلفى العصر الحديث . انظر:

Danvila y Collado, pags. 339 - 340

Boronat y Barrachena,II, pags. 304-307

يقول الاثنان إن رقم خمسمائة ألف أقرب إلى الحقيقة.

(١٣٢) *Restauración política de Espana*, pag. 142

(١٣٣) *Restauración política de Espana*, pags. 71-72

(١٣٤) *Idea de un príncipe político cristiano*, pag. 182

(١٣٥) انظر مثلاً " خطاب السيد أنطونيو دى مندوثا سكرتير الملك فيليبى الرابع " ص٧٩:

" كان طرد الموريسكيين قد رويت قصته كبطولة، ثم غير البعض اسمه فقال إنه كان تخبطًا . لقد تغلبت الحمية الدينية والرغبة فى الأمن على المصلحة العامة والخاصة ، واليوم لايزال الجدل دائراً حول جدوى العملية ..."

(١٣٦) Villares : *Memoires* .....pag. 5

(١٣٧) إذا نحينا نصوص القرن السادس عشر جانبًا (انظر الملاحظات ٨٣-٨٥ فى الفصل الثالث) فإن الراهب بيرتاوت فى رحلته (ص ٦٨-٦٩) يتحدث عن أراضٍ استصلحها المسلمون لم تعد مُستصلحة عندما زار غرناطة (أى عام ١٦٥٩) . انظر كذلك .

José Garc?a Mercadal: *Espa´na vista por los extranjeros*, II, pags. 136-137

(١٣٨) Voltaire : *Essai sur les moeurs eta l'esprit des nations*, III,pag.892

(١٣٩) انظر كتاب غونثاليث دى ثيوريغو (ص ٤- ٦) إنه هو نفسه يطرح خطة كاملة لإعادة تعليم الشباب الموريسكى فى فصول ومدارس (ص٦-٧) ، وقد قدمت الكنيسة تسهيلات لكى تتجنب عملية الطرد

مستندة إلى قوانين عام ١٦٠٩ (انظر ص ٢٣٢) . وهكذا يشير كابريرا دى كوردوبا (ص ٥٤٦) إلى أنه فى ٨ فبراير عام ١٦١٤ تزوجت موريسكيات كثيرات فى وادى ريكوتى من مسيحيين قدامى حتى لا يُطردن ... وقد تحولت بعض الموريسكيات إلى راهبات ، وتحولَّ بعض الموريسكيين إلى رُهبان " ، فعم الثراء الأديرة ، وقد سمع الأسقف والرؤساء بكل شىء " ، وقد ادعى بعض الضعفاء أنهم عبيد شرعيون ، وهذا ما تشير إليه وثائق تخص سنوات لاحقة (انظر الملاحظة رقم ١٩ فى الخاتمة) .

يقول سالاثار دى مندوثا (ص ١٨٥) " لكى تكون إسبانيا نظيفة بقى أن نفعل نفس الشىء مع الغجر؛ فهناك أسباب كثيرة تدعونا إلى ذلك . إننى أدعو إلى ذلك فى مذكرة أعددتُها بهذا الشأن...".

الفصل الثامن

١ - الموريسكيون خارج إسبانيا :

بعد طرد الموريسكيين خلال الأعوام ١٦٠٩-١٦١٣ طرداً شاملاً وجذرياً ظل هناك واقع مجهول معقد لا يستطيع أحد أبداً أن يفسره . إننا لا نعلم كم موريسكياً كانوا في إسبانيا ، وكم عدد الذين طُردوا منها. لا نستطيع أن نحدد عدد الذين بقوا في إسبانيا تحت حماية السلطات المحلية ، ولا عدد الذين عادوا خُفية ، رغم أننا نعلم أن عودة الموريسكيين فُرادى وجماعات كان موضوعاً في فقرة شهيرة في الأدب الإسباني [١]. إنها الفقرة التي تتحدث عن ريكوتي صاحب دكان وصديق سانشو بانثا الذي خرج من إسبانيا بعد صُدُور قرارات الطرد وبحث عن مكان يُقيم فيه في أوروبا - وكان قد أخفى ثروته - فوجد مكاناً للإقامة في ألمانيا ، ثم عاد منها - في صورة حاج - لكي يأخذ أمواله التي أخفاها وابنته التي كانت بطلة لفصل من فصول رواية كيخوتي[٢] . إن الحوار بين ريكوتي وسانشو مهم من وجوه عديدة خاصة ما يلي :

١ - يُشير إلى أن عودة الموريسكيين كانت عامة وجماعية : " كلنا يرغب في العودة إلى إسبانيا. إن معظمهم - وهم كثيرون - يعرفون اللغة كما أعرفها ويحبون العودة إليها ويتركون أولادهم وزوجاتهم بلا عائل ".

٢ - تبدو ألمانيا كبلد "يعيش فيه الإنسان وضميره حُر" . لاحظ التعبير[٣] .

٣ - يُلاحظ أنه بين الموريسكيين رجالاً ونساءً ، هناك تفاوت في تقّبل العقيدة الكاثوليكية: ريكوتي متردد ، أما زوجته وابنته فهما مسيحيتان ، وزوج أخته مسلم .

٤ - يُشير إلى علاقات خاصة بين الموريسكيات الشابات الجميلات وبين شباب المسيحيين من الوجهاء ، وتتفاوت العلاقات المؤقتة إلى الزواج بعد قصة حب.

إن أسطورة ترك المسلمين لثروات فى قراهم قد أدت إلى كتابة روايات كثيرة، من بين هذه الروايات رواية " العمل الطيب لا يضيع " ، ويبدو فيها موريسكى من فالنسيا يتحدث الفالنسية لا العربية ، وهو يقدم المساعدة لأسير مسيحى فى الجزائر. يُخبر الموريسكى الرجل المسيحى بالمكان الذى أخفى فيه عمه ١٦ ألف دوقية " تحسبًا للحظة الثورة " (٤).

لكن هذه الطيبة لا يصورها مؤلفون آخرون. يقول الأب هايدو ، فى كتابه عن طبوغرافية الجزائر وتاريخها العام ، إنه فى عام ١٥٧٦ كان هناك فى الجزائر نحو ألف بيت للموريسكيين ، ليس فقط للموريسكيين الذين هربوا من غرناطة بعد الثورة وإنما كذلك لموريسكيي فالنسيا وأراغون ، إنهم كانوا يعملون فى حِرف تحظى بالاحترام. كان هؤلاء الموريسكيون أشد أعداء الأسرى المسيحيين(٥). كان إيمانهم عميقًا. نشأ فى أوساطهم فى الجزائر والمدن الإفريقية الأخرى فقهاء من بين مواطنى أراغون وكاستيا ، وكان هؤلاء يتحدثون الإسبانية فظلت مُستعملة هناك وقتًا طويلاً . إن أسماءً مثل : خوان ألفونسو ، وابراهيم دى بولقاد ، ومحمد الوزير هى أسماء معروفة للمهتمين بالأدب الموريسكى . كان ألفونسو مُقيمًا فى تطوان (التى كانت مركز تجمع للموريسكيين) وكتب أشعاراً ضد الدولة الإسبانية منها هذه الأبيات :

أيها الغراب الإسبانى اللعين

أيها الكلب الحارس

إنك برءوسك الثلاثة

على أبواب جهنم(٦) .

يبدو الغرناطيون أقل دراية بالكتابة وأكثر اهتمامًا بالحرب من أهل أراغون وكاستيا (يبدو هذا شيئًا غريبًا للوهلة الأولى) . كان أهل غرناطة يُسمون " الأندلسيون " ، وكان لهم تاريخ متميز وجدير بأن تروى صفحاته . اشترك الغرناطيون الذين خرجوا من غرناطة بعد الثورة فى معركة القصر الكبير(٧) .

وقد اشتركوا كذلك فى غزو ممالك نيجيريا بأمر من سلاطين المغرب على مدى سنوات طويلة. لقد وصل المغاربة حتى تمبوكتو بصحبة مسلمين يتحدثون الإسبانية وفتحوا المدينة الغامضة فى عام ١٥٩١ [٨]. لقد دخل الزعيمان الباشا جودار Yawdar والباشا محمود التاريخ[٩] .

بعد ذلك بسنوات ، وفى عام ١٦١٤ فى عملية ميناء المعمورة Maamora ، التى نفذتها البحرية الإسبانية اصطدم المهاجمون الإسبان بجيش من موريسكيى غرناطة ، كما يخبرنا أغستين دى أوروسكو[١٠]، وقد اشتهر بعض المطرودين مؤخراً كقراصنة[١١] وتوجه بعضهم إلى القسطنطينية[١٢] وسالونيك وموانىء أخرى فى الشرق الأدنى[١٣]. إن الأفعال التى قام بها الغرناطيون ترويها أشعار متعاطفة معهم تقول إن التنابذ شى ء أساسى بين مسلمى الأندلس ، وإنهم سيموتون كشهداء على يد المسيحية[١٤] . يُشير أنثار كاردونا إلى بعض هذه الأشعار ، ويقول إنها كاذبة[١٥] .

والحقيقة أن مُدن شمال إفريقيا القديمة بها عائلات مسلمة ومحافظة تفخر بأصلها الأندلسى. لنتأمل وضع تطوان على سبيل المثال . لو أن شخصًا إسبانيًا مُحبًا للتراث القديم تعرّف على أحد أبناء تطوان فسيحدثه التطوانى على الفور عن التقاليد التى تعيش بها الأسرة الواحدة فى عصر إسبانيا الإسلامية . إن بعض الأسر تؤكد أن لديها مفاتيح البيوت التى تركها ذووهم فى إسبانيا[١٦]. هذا بالضبط ماروَاه رحالة من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد اهتم السير آرثر دى كابل بروك – وهو رحالة إنجليزى من النصف الأول من القرن التاسع عشر – بدراسة الأثر الإسبانى فى سكان تطوان واعتبر أن العُنصر الإسبانى أساسى فى التركيب الاجتماعى هناك. وقد ذكر الرحالة بعض أسماء العائلات الأندلسية الموجودة فى تطوان[١٧]. وأضاف إلى هذه الأسماء قائمة بأسماء عائلات ذات أصول أندلسية تعيش فى فاس والرباط[١٨]. والآن بإمكاننا أن نضيف بيانات أخرى ، وإن كُنا نراها غير كافية حتى الآن. من بين ٤٧٥ اسمًا لعائلات تطوانية معروفة، ذكرها الرهونى فى كتاب " تاريخ تطوان " ، هناك ١٠٤ اسمًا لا يُعرف مصدرها. وهناك ١٢٠ اسمًا لعائلات اختفت ، وإن كان المؤلف يحدد النشأة . من بين أسماء العائلات المذكورة تتصدر القائمة العائلات ذات الأصل الأندلسى وعددها خمس وسبعون ، يليها

الأشراف وعددهم ٥٩ عائلة. وفي المرتبة الثالثة يأتي الجزائريون وعددهم ٢٨ عائلة ، وقد أقاموا في تطوان في القرن التاسع عشر إبان الحرب بين الجزائر وفرنسا. يأتي بعد ذلك ذكر العائلات ذات الأصل القبلي أو القادمة من مُدن مغربية أخرى أو من أماكن حضرية ، وفي آخر القائمة يأتي ذكر العائلات القادمة من أماكن بعيدة في العالم الإسلامي أو البحر المتوسط[١٩] .

للعائلات الأندلسية أسماء مختلفة ، لكن هذه الأسماء بها أثر إسباني مفصل على النحو التالي :

١ – نسب إلى بلاد patronímicos : بونثي ، بابيس ، بلاسكوت ، رويث ، راميريث ، غارسيا .

٢ – أسماء أفراد de pila : رامون ، لوكاس ، غوثمان .

٣ – أسماء بلاد : البالنسيانو (من فالنسيا) ،الرّاغون (من أراغون) ، الأويادي (من أوبيدا) ، الغرناطي (من غرناطة) ، القرطبي (من قرطبة) ، السوربي (من سورباس) .

٤ – أسماء ألقاب : بيرميّو (بيرميخو) ، لوبو ، موراتو ، السوردو ، الغايو ، الكابريرو[*] ، فارتوت .

٥ – أسماء قرى : بويرتو ، بابيسا ، ريكاينا، توريّس ، مولينا ، فونتيمايور ، مندوسا ، موراريس ، سالاس ، كاستيليو.

بالإضافة إلى ما تقدم هناك أسماء غامضة ، وهناك أسماء لعائلات عربية تذكِّرنا بتلك الأسماء التي ظهرت في أواخر فترة الوجود السياسي الإسلامي وفي أثناء الثورة . هناك مثلاً عائلة " أغزول " وهي قريبة الشبه من عائلة " غزال ". عائلة " ابن الخطيب " تذكرنا بابن الخطيب ، ذلك السياسي والمؤرخ الذي ظهر في القرن الرابع عشر. وعائلة " داود " التطوانية الأندلسية تنحدر من نسل زعيم موريسكي ،

(*) أي راعي الغنم . (المترجم)

وعائلة "الثغرى" تذكرنا "بالثغريين" ، وعائلة العطّار تذكرنا بالعطارين ، وعائلة "فرج" تذكرنا بفرج بن فرج ، وعائلة " السرّاج " تذكرنا ببني سراج. أما عائلة كاستيليو فهي تذكرنا باسم المترجم الذى عمل مع دينثا وآخرين[٢٠]. ومن الصعب الآن أن نبحث فى الأرشيفات العائلية ، وأن نتأكد من الحكايات التى يتناقلها الناس شفويًا فى محادثاتهم. يجب ألا ننسى أن هناك تنافسًا بين العائلات وهذا يؤدى إلى عدم صدق عائلة ما وهى تتحدث عن أصلها. من أبرز عائلات تطوان لوكاس ويُقال إنها من أصل أندلسى ، لكن هناك منْ يؤكد أن مؤسس العائلة مسلم ينتمى إلى فترة لاحقة لتاريخ طرد الموريسكيين . من ناحية أخرى كانت الإسبانية هى اللغة الشائعة بين موريسكيى تونس والأراضى المتاخمة لها حتى القرن الثامن عشر بل والتاسع عشر كذلك وفق ما يذكر بورو Borrow [٢١] .

لكن لندع المنحدرين من أصول موريسكية فى مدنهم الإفريقية ، فى بيوتهم الحصينة وفى قراهم وأسواقهم العامرة وبين مدافنهم الحزينة ، ولنتحدث عن إسبانيا مرة أخرى .

٢ – الإسبان أبناء الموريسكيين :

يقول المؤرخون الثقات إنه بعد ثورة البشرات حدث تغير كامل من حيث السكان. هذا ما يؤكده تحقيق لكتاب أورتادو دى مندوثا أشرنا إليه سابقًا[٢٢]. يقول غوميث مورينو[٢٣]: " لم يبق شخص واحد من ثمانية وأربعين ألف موريسكى كانوا يعيشون فى البشرات ".

ويقول مارمول عن سكان البشرات الجُدد : " تم توطين مسيحيين فى البشرات ، وكانت هناك مشاكل فى أول الأمر ، لكن الرغبة فى الحصول على الأموال التى أمر الملك بتوزيعها على السكان الجُدد سهلت الأمور "[٢٤] والواقع أنه لم يكن هناك ما يغرى الناس بالإقامة فى البشرات . من المحتمل أن يكون كل من مارمول ومن أتم كتاب أورتادو دى مندوثا قد استندا فى كتابيهما إلى القرار الصادر فى

٢٨ سبتمبر ١٧٥١ والذى يتضمن بنوداً فى صالح منْ يرغب فى استغلال ثروات البشرات[٢٥] . لكن تبين بعد ذلك أن القرارات وحدها - وإن صدرت بحُسن نية - لا تكفى لكى تسير الأمور سيراً حسناً.

قبل أن يموت الأسقف غيريرو فى عام ١٥٧٦ كان قد قَدِمَ أناس من غاليثيا وكاستيا إلى البشرات ، لكن فقر هؤلاء الناس كان مُدقعاً وحالتهم يُرثى لها ، حتى أنه نحو عام ١٥٧٥ مرض منهم ثلاثة آلاف ، رغم جهود الأسقف الحثيثة لمساعدتهم [٢٦].

أدت المساعى وإعادة التوطين إلى إعمار أندلوثيا ، ولم يكن إعمار أندلوثيا بالشيء الجديد ، فقد حدثت عمليات مشابهة فى العصور الوسطى . لكن من حيث عدد السكان الجُدد كانت عملية التوطين شيئًا جديداً لا سابق له. وطبقًا لما يذكره نونييث ديل برادو كان عدد السكان الجُدد ٨١٦٤ أسرة تم توزيعهم على ٢٨٥ قرية كانت آخرها كاستيخيا. هذا معناه أن مملكة غرناطة استقبلت دماءً جديدة مرة واحدة وأقام فيها ٨٢٠ر٤٠ شخصاً [٢٧].

والملاحظ أن توزيع السكان شَمِل المملكة بأسرها وتعدى حدود البشرات ، رغم أن البشرات هى المنطقة التى تأثرت أكثر من غيرها بذلك.

هذا لايعنى أن غرناطة لم تعد هى موطن التراث العربى فى أوروبا. ما هو السبب فى ذلك رغم حدوث عمليات طرد (من بينها عمليات طرد تمت فى عهد فيليبى الثالث) ورغم محاولات محو الآثار الإسلامية من إسبانيا التى قام بها المسئولون ؟ لعل من المناسب أن ندرس هذا الموضوع وأن نحلل كل عنصر على حدة(*) .

كانت غرناطة خلال القرن الثامن عشر تخلو مما يمكن أن نطلق عليه " التاريخ الخارجى ". كان الناس يعيشون هناك وكل همهم منْصَب على الأعمال اليومية وعلى الاحتفالات **pompas** . ازدهر الباروك **barroquismo** فى الفنون والآداب ، وهذا كل شىء . أما فى الحياة الخاصة فقد كانت التوترات القديمة تظهر بين الحين والآخر .

(*) هذا ردٌ آخر على من يقولون بانحسار التراث الإسلامى فى غرناطة بعد تهجير المسلمين منها. (المترجم)

كانت هناك عائلات أرستقراطية فى غرناطة تنحدر من أصول إسلامية ، لن نتوقف عند هذه النقطة ، لكن هناك نقطة لا يكاد يذكرها أحد[٢٨] وهى وجود العنصر الموريسكى بشكلٍ دائمٍ ، وقد أُسكِت ، واندمج بعدئذ فى المجتمع المسيحى. لا يكاد أحد يتحدث عن نسبة هذا العنصر ولا عاداته ... إلخ .

لن تتوافر لنا بيانات ثابتة عن هذا الجانب إلا إذا قمنا بأبحاث دقيقة فى الأرشيفات المحلية والعائلية ، أما ونحن لا نملك هذه البيانات فسنستعيض عنها ببيانات أخرى . إن تاريخ محكمة التفتيش مثلاً يثبت لنا أنه خلال القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر(*) أيضًا كانت هناك ملاحقة للشعائر الإسلامية وهذا شىء مهم[٢٩] . كانت قسوة محكمة التفتيش فى غرناطة مضرب الأمثال وظلت عمليات التعذيب التى كانت تقوم بها محفورة فى الذاكرة على مدى أجيال .

وبين عامى ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ كتب رحالة إنجليزى – هو هنرى سوينبورن Swin-burne - عدة رسائل من إسبانيا ضمَّن فيها ملاحظات وأخباراً عجيبة نشرها فيما بعد فى كتاب. اهتم سوينبورن – قبل أى أجنبى يزور الجنوب – بالآثار الموريسكية ووجد فرصةً فى غرناطة للاستماع إلى شهادات عن المصائب التى حلَّت بالعائلات الموريسكية الأخيرة. يقول سوينبورن إنه حتى عام ١٧٢٤ ظلت محكمة التفتيش تلاحق "بقايا ذلك الشعب"[٣٠] .

بعد ذلك بوقتٍ قليل قام رحالة إنجليزى آخر هو جوزيف تويسينبر بزيارة إلى غرناطة، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين غاردوكى المفتش العام . يقول جوزيف تويسنير إنه فى عام ١٧٢٦ تمت محاكمة ٣٦٠ أسرة منْ غرناطة بتهمة ممارسة الشعائر الإسلامية خفيةً ، وهى تهمة ثبتت فى حقهم طبقًا للشواهد " لأن محكمة التفتيش لها عيوبها لكنها جهة متميزة فى بحث الوقائع". يُضيف الرحالة الإنجليزى ديل أنه فى الوقت الحاضر هناك الكثير من اليهود والمسلمين يقيمون فى إسبانيا :

(*) من المعلوم أن السلطات الإسبانية قد ألقت القبض على قساوسة يؤدون الصلاة الإسلامية فى القرن الثامن عشر. (المترجم)

يقيم المسلمون فى المناطق الجبلية ويقيم اليهود فى المدن الكبيرة " . إنّ الغطاء الأكبر الذى يتخفون وراءه هو حرصهم على أداء الشعائر الخارجية ، وأن أكثر الناس تنفيذاً لتعاليم الكنيسة – من بين القساوسة ومن بين أعضاء محاكم التفتيش – متهمون بأنهم يهود "(٣١) .

ليس من السهل أن نتعرف على مدى صدق تلك التأكيدات. والصحيح أنه قد نُفِّذَ حكم الإعدام فى مسلمين فى غرناطة عام ١٧٢٨(٣٢) وأننا نستطيع الآن أن نرتب الأحداث.

حدث المشهد فى ٩ مايو ١٧٢٨ فى كنيسة دير ميرثيداريوس. هناك الكثير من الروايات التى تصور ذلك المشهد ، وطبقًا لتلك الروايات فقد أدين ٤٦ شخصًا بعقوبات مختلفة نظراً لممارستهم شعائر الإسلام ولأنهم " ملحدون مسلمون "(٣٣) ، وإذا كانت محكمة التفتيش فى السابق تطارد الرجال الذين يمارسون شعائر الإسلام فإنها فى ذلك اليوم عاقبت نساء مسلمات . إن الذين عاقبتهم محكمة التفتيش فى ذلك اليوم لا يزيد عددهم عن أحد عشر رجلاً: نيكولاس دياث (٦٨ عامًا ، صبّاغ) فرانثيسكو دى غيبارا (٢٠ عامًا موظف بمكتب الإيجارات) وقد عوقب أبوه أيضاً واسمه إيسيدرو (٥٣ عامًا ، كاتب) وأخوه خوان (٢١ عامًا ، معيد فى كلية الحقوق) وأمه سيرفينا إنريكيث لارا وأخواتها الست ، ومن بينهن أنخيلا (٣٠ عامًا) وإيسابيل (٢٥ عامًا) وكانت الاثنتان تملكان محلاً فى ميدان بيبارامبلا. والرجال الآخرون الذين عاقبتهم محكمة التفتيش هم لورينثو فيليبى دى مندوثا (٤٦ عامًا مدير الإيجارات الملكية ، وقد وقعت عليه أقصى عقوبة) ، كارلوس دى مندوثا (٥١ عامًا تاجر فضيات وصانع تماثيل من الفخار) ، بدرو إستيبان (٢٧ عامًا ، تاجر حرير) ، غابرييل تشابيس (٣١ عامًا نائب محام وتاجر حرير) ، غريغوريو مارشينا (٥١ عامًا ، صبّاغ) جوزيف غوميث ديل كاستيو (٤٠ عامًا صاحب محل خردوات) كريستوبال خيمينيث (٥٠ عامًا ، صبّاغ) .

هذا يعنى أنه من بين الأشخاص العاملين فى صناعة وتجارة الحرير والموظفين وذوى المكانة كان هناك (ممنْ ولِدُوا فى غرناطة بين عامى ١٥٦٨ – ١٧٠٠) منْ

يمارس شعائر الإسلام ويُخفى ذلك باتخاذه أسماءً مسيحية وألقاباً كان لها دور فى الحروب ضد المسلمين : مندوثا[٣٤] ، غيبارا ، إنريكيث ... إلخ .

ومن النساء اللاتى عُوقبن فى ذلك اليوم تبرز الأخوات السبع من عائلة إنريكيث لارا ، وأربع أخوات من عائلة دياث من بينهن واحدة (غابرييلا) زوجة لورينثو فيليبى دى مندوثا ، وأربع أخوات أو قريبات من عائلة دى لا بويرتا (هُن أنطونيا وإيسابيل وبترونيلا وأنا ماريا) . الكثيرات من أولئك النسوة كُنَّ ربات بيوت ، لكن بعضهن كُنَّ يمتلكن محلات أو إسكافيات (مثل ماريا بوركيث ٦٠ عامًا) أو ممنْ يشتغلن فى صناعة الحرير (أنطونيا دى لا بويرتا ٥٧ عامًا ، ومانويلا أنطونيا ألباريث ٥٨ عامًا ، وماريا دى كويباس ٦٠ عامًا) أو خياطات (مثل آنا ماريا دى لا بويرتا ، ٥٥ عامًا) أو صبّاغات (مثل روسا دى سيرا ، ٥٨ عامًا) أو بائعات مواد عطارة (مثل ليونور الباريث ٦٠ عامًا) أو بائعات خردوات (خاثينتا فيرنانديث) . إننا نجد الصناعات الموريسكية التقليدية ممثلة مرةً أخرى فى أولئك الأشخاص التُعساء الذين تعيَّن عليهم ارتداء لباس المذنبين ، وهو لباس يخجل منه المسيحيون ، لكن الموريسكيين كانوا يفخرون به ، فقد كان دليلاً على إيمانهم الذى لا يتزعزع[٣٥] .

إذا كانت مدينة غرناطة نفسها مقر محكمة التفتيش قد حدث فيها ذلك فماذا كان يحدث إذن فى الريف ؟ إننى أرى بوضوح أن الريف كان يعيش فيه كثير من المنحدرين من أصول إسلامية ويهودية. لكن المهم هنا هو الجانب التاريخى الحضارى والاجتماعى لاستمرار أو عدم استمرار المؤسسات والعادات والتقاليد الموريسكية .

يتمسك المؤرخون المتشددون بحرفية النصوص ، ويُنكرون إمكانية وجود أشخاص إلا المنحدرين من أسر من إكستريمادورا وغاليثيا فى البشرات. لكن فى بداية القرن التاسع عشر – ورغم كل ما سبق ذكره عن إعادة التوطين – كانت هناك أسر تعيش فى قرى البشرات (أو خيخار مثلاً) ومعروف أن أصلها موريسكى. إن الراهب مينيانو يُشير إلى تلك الأسر فى مُعجمه[٣٦] ، وإلى تلك الأسر أيضًا يُشير فورد فى " الدليل " ويُبالغ فى عددها كما هو العهد به دائمًا[٣٧].

إذا كان الأصل الموريسكى لتلك الأسر يعنى أنها تنحدر من أصول إسلامية فإن علينا أن نقبل هذا التفسير ، فقد ذكرنا[٣٨] أن كثيراً من المسيحيين القُدامى فى الجنوب كانوا أبناء موريسكيات . وإذا كُنا فى مجال الاستماع إلى شهادات رحالة إنجليز فى القرن التاسع عشر فأذكر أن روبرت سيمبل قد ذُهل فى ربيع عام ١٨٠٩ إزاء الطابع "المسلم الأكيد" لأحد العاملين فى مجال النقل فى الحامة ولأفراد أسرته ، مع أنه يزَعم أن أصله قشتالى[٣٩] . أما وجود أسر تنحدر من أب موريسكى فهو موضوع قابل للمناقشة[٤٠].

إذن فقد كانت هناك استمرارية حضارية للعنصر الموريسكى وبعد عمليات القمع كان ذلك الجانب يُنظر إليه على أنه مُهين وقليل الأهمية.

٣ – مشكلة الاستمرارية الثقافية :

إن المراقب المحايد – الذى يرى ما يوجد أمام ناظريه – إذا وصل إلى بعض أنحاء أندلوثيا سيجد أن هناك عناصر من مناظر الريف وفى مناظر المدينة تمكّنه من إصدار حكم أول . هذه العناصر خاصة بالعمارة ، وإلى جانب ذلك هناك عناصر أخرى لم تكن موضع ملاحظات دقيقة ولكنها تسهم إلى حد كبير فى تشكيل صورة محددة ، هذه العناصر الأخرى نجدها فى أعمال الزراعة وفى أنواع المحاصيل. ثم هناك مجموعة ثالثة من العناصر ، وهى خاصة بالفنون والحِرف ، وهى – للأسف – فى حالة اضمحلال حالياً ، لكنها كانت ذات دلالة قوية إلى عهد قريب .

لنحلل هذه العناصر بالترتيب المذكور. كانت القرى والمدن الإسلامية – سواء فى إسبانيا أو فى شمال إفريقيا – تبدو لمسيحيى القرنين السادس عشر والسابع عشر غير مُريحة لأنها موجودة فى منحدرات ، ولأن شوارعها ضيقة وبيوتها صغيرة وغير مناسبة ، لكن المسيحيين – مع ذلك – كانوا يعترفون بسحر تلك القرى وتلك المدن. إن سواريث دى فيغيروا مثلاً حين يتحدث عن غرناطة يستخدم تعبيرات مختلطة : يمدح مناظرها، لكنه يأسف لكثرة منحدراتها[٤١]. إن كلمات غونثالو دى ثيسبيديس عن مدينة الجزائر أشد عنفاً[٤٢].

يجب ألا يُدهشنا إذن أن المسيحيين في عهد الملكين الكاثوليكيين كانت لديهم رغبة عارمة في التشييد والبناء. يقول مُنتز " إن الملك فيرناندو قد أمر بتوسيع شوارع كثيرة وإنشاء أسواق، وتطلّب ذلك هدم بعض المنازل . وقد أمر كذلك بهدم منطقة كان يعيش فيها عشرون ألف يهودي وإنشاء مستشفى كبير وكاتدرائية على نفقته الخاصة تكريماً لمريم العذراء(٤٣).

كانت خطة التعمير المطبقة حينذاك هي التي تم تنفيذها في أندلوثيا وفي أمريكا، وهي نفس طريقة البناء التي نُفِّذَت في مُدن البحر المتوسط والتي تُنسب إلى إيبودايو دي ميليتو وهي تتلخص في تخطيط شوارع و تقاطعات في نطاق هندسي مربع. ومن نماذج العمارة المسيحية في أندلوثيا تبرز مدينة سانتا في التي شُيدت مرة واحدة كمعسكر خلال حصار غرناطة واتُّبِع في تشييدها نظام المدن المعمول به في الشمال مثل بريبيسكا ، وأظن أن ذلك النموذج مشتق من النظام الفرنسي(٤٤).

أما بخصوص البيوت فقد بدأ المسيحيون في تشييد بيوت أكثر اتساعاً . ويقول منتز إن منازل المسلمين الغرناطيين كانت صغيرة جدا ، وكانت حجراتها ضيقة ومُهملة من الخارج ونظيفة جدا من الداخل ، ومليئة بالمنحنيات . إن بيتاً واحداً لمسيحي قديم يُعادل أربعة أو خمسة منازل لمسلمين ، ولهذا فهو لا يستغرب أن عدد المنازل كان أكثر من مائة ألف (٤٥)، وتنص قرارات عام ١٥٥٢ على لوائح تتضمن حركة تجديد ، فعلى سبيل المثال هناك قرار ينص على " عدم إنشاء مناور أو بوابات أو ممرات أو ما يشابهها خارج جدران الشوارع والميادين "(٤٦) ومن ناحية أخرى فإن نصوص القرارات تتضمن وصفاً يدل على ازدهار العمارة الموريسكية بأصنافها(٤٧) المختلفة ، وقد احتفظت الأحياء القديمة طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر بطابع الازدحام والغموض . يقول إنريكيث دي خوركيرا في وصفه للمدينة إن القصبة والبيازين كان بهما شوارع كثيرة يستحيل حصرها ، بعضها له مخرج والبعض الآخر مسدود ، وكانت هناك بيوت بُنيت على " الطراز الموريسكي " وشوارع ضيقة كان بعضها لا يكاد يسمح بمرور شخصين متجاورين ، وبعضها الآخر لا يتسع لذلك "(٤٨). هذا برغم أنه من بين عشرة آلاف أسرة يقول الموريسكيون إنها كانت تُقيم في البيازين(٤٩) في أوج ازدهارها ، لم يتبق سوى ستة آلاف فقط(٥٠).

بدأت الحدائق والأفنية والنوافير والبُحيرات والأبراج المزخرفة[٥١] شيئًا فشيئًا تتخذ طابعًا مختلطًا . أصبح البيت أكثر اتساعًا ومطابقًا للنموذج المسيحى القديم. خلّفت العمارة الإسلامية أكثر من عُنصر ، اتخذ كل منها عدة أشكال. يبدو أن الشرفة كانت أهم العناصر التى خلفتها العمارة الإسلامية إذا وضعنا فى الاعتبار الشواهد الأدبية. ففى القصائد الشعبية الموريسكية ذات الطابع الروائى تظهر الشُرُفات بكثرة. من هذه الشُرُفات تنظر السيدات إلى الرجال وهم يتبارزون[٥٢]، وفى هذه الشُرُفات تحدث المنافسات بين العاشقين[٥٣]، وفى هذه الشُرُفات يحكى المحب مأساته[٥٤] ، وتعبِّر الفتاة عن شعورها بالغيرة ويعبِّر الملك عن صعوبة إدارة دفة الحكم [٥٥].

تبدو بعض تلك الشُرُفات – مثل شُرُفات المنمنمات[٥٦] – وهى معلقة فى أعلى البرج ، وتبدو مذهبةً فى بعض الأحيان ، مثل تلك الشُرفة التى فى القصيدة الثالثة للمسلم طريف [٥٧]. وفى بعض الأحيان يحّل السور الحديدى للنافذة محل الشُرفة ، والسور الحديدى كذلك يوجد فى أعلى البرج[٥٨] ولونه أزرق[٥٩]. من النافذة ترسل الإشارات إلى الحبيب[٦٠] ، كانت هناك أبراج وشُرفات وأسوار مذهبة وحدائق صغيرة تحيطها أسوار عتيقة لاتدع أحدًا يرى شيئًا بالداخل : هناك فقط نخلة تبرز ، كتلك التى نجدها فى قصيدة ابن أمية[٦١]. إن العمارة الغرناطية الفخمة فى القرن السابع عشر لم تستغن عن تلك العناصر ، ولم تستغن كذلك عن الطوب ذى الطابع المميز. يكفى أن تتجول فى غرناطة وغوطتها وتتأمل ثم ترسم ذلك فى ورقة لكى تتأكد من ذلك[٦٢] إذا زرت المراكز الكبرى فى البشرات مثل أوخيخار أو وادى أنداراكس فسوف ترى منازل كبيرة ذات طابع متميز يجب إجراء دراسة عنها[٦٣].

لكن الطابع الإسلامى أكثر وجودًا فى البناء الشعبى ، فقد بُنيت فى عصرنا الحاضر منازل فى أعلى منطقة سيرا نيبادا وفى أسفل البشرات تجعل القرى شبيهة بقرى الأطلسى والمناطق الجبلية فى المغرب[٦٤].

منْ يقارن تلك القرى المغربية بقرى المرية سيُلاحظ فروقًا طفيفة [٦٥]. أما من يقارن تلك القرى بقرى إشبيلية وقرطبة وأويلبا وقادش وخايين فسيلاحظ فروقًا

كبيرة . إن البيت الذى يغطيه سقف من الطين أو الصفيح قريب الشبه من بيوت شمال إفريقيا كما ذكرنا ، ولهذا فإن الجغرافى والمؤرخ أ. ف غوتبير اعتبر ذلك من خصائص البربر من المجموعة بوترbotr أو زناته zenata ، أما البيت ذو السقف المُنحَدِر فينسبه إلى مجموعة بيرانيس beranes أو برانس(٦٦) إننى أرى أنَّ هذه التصنيفات ينقصها التعّمق. إن أندلوثيا بها حدود بين السقوف تتطلب دراسة عنها ، وعلينا أن نتساءل لماذا ظل الناس فى البشرات وفى المرية يبنون منازلهم على الطريقة الموريسكية وليس على طراز القادمين الجُدد ، ولماذا كانت قرى كوبا حتى عهد قريب ذات طابع إسلامى ؟(*) .

إن الفنون والصناعات الشعبية الأخرى تطرح نفس مشكلة التواصل هذه .

تقدم لنا قرارات عام ١٥٥٢ أول أساس لكى نبدأ الدراسة، من خلال تلك القرارات نجد أن الامتحان فى النجارة كان يتضمن ستة نماذج : ابتداءً بنموذج الأعمال الدقيقة وانتهاءً بنموذج نجار المنمنمات مروراً بنجارة الأعمال الخارجية(٦٧). وهناك تُراث موريسكى يظهر بوضوح فى عواصم أخرى فى الجنوب الإسبانى ، وهو تراث أهمله المسيحيون ، وهو ما تؤكده " تنظيمات إشبيلية " (طبعت عام ١٥٢٧)(٦٨) ووثائق أخرى . وفى عام ١٦٣٢ بعد طرد الموريسكيين . نشر دييغو لوبيث دى أريناس كتاباً بعنوان " حول نجارة الخشب الأبيض ، وفصل عن المعماريين " يدرس فيه نجارة المدجنين ، كما لو كان الكتاب قد وضع أيام حكم بنى نصر (٦٩). وجد غوميث مورينو أصل هذا الكتاب فى محل لبيع لحم الخنزير فى غرناطة(٧٠) . وقد أُعيد طبع الكتاب عام ١٧٢٧ لأهداف تعليمية(٧١) . هذا معناه أنه فى خلال عهد فيليبى الرابع – بل وفى عصر فيليبى الخامس – كان التراث الموريسكى لايزال حيا عند أرباب الحِرف من المسيحيين القُدامى ، وعند أحفاد أولئك الموريسكيين ممن اندمجوا فى المجتمع الإسبانى المسيحى. يقول السيد إدواردو ماريا تبغى – وهو ناشر كتاب لوبيث دى أريناس عام ١٨٦٧ – إنه منذ ثمانين عاماً ، أى فى سنة ١٧٨٧ ، صنعت فى

(*) لعل باروخا أول من أشار إلى الأثر الإسلامى فى أمريكا الجنوبية ، وهو موضوع جديد تماماً فى الدراسات المعاصرة . (المترجم)

غرناطة وسرقسطة آخر الأثاث على الطراز الموريسكى[٧٢] ، وهو نفس طراز النجارين في تطوان حاليا[٧٣]

ويبدو الأمر أكثر تشابكًا فيما يتعلق بصناعة الملابس. إن قرارات عام ١٥٥٢ تتحدث كثيراً عن الملابس[٧٤] . فى الفترة التى كانت النية فيها متجهة إلى حل المشكلة الموريسكية بطريقة قانونية ، ولم يكن أحد يفكر فى الطرد الجماعى ، قرر رئيس محكمة غرناطة منح تراخيص للصناع الذين يصنعون الحلى والثياب الموريسكية لكى يصنعوا ثيابًا على الطريقة القشتالية ، ولتجنب الصعوبات قرر أن يتمتع التجار بنفس المعاملة التى كانوا يُعاملون بها حتى ذلك الحين . وقد امتد القرار ليشمل عدة حرف كان التُراث الموريسكى فيها مختلفًا عن التُراث المسيحى ، وأُعلن ذلك فى المدينة بأكملها . وذُكر أنه لن تعقد امتحانات للصناع رغم تغيير الوجهة ، كما تقرر أن تكون الامتحانات مجانية لمنْ أراد أن يُعقد له امتحان[٧٥]. كان هناك اهتمام خاص بنُسَّاج الملافح[٧٦] والميازر[٧٧] والستائر و " المنسوجات الموريسكية الأخرى " وقد أمر النساجون بالانتهاء من نسج القطع التى بدءوها فى فترة وجيزة ، وبعدم البدء فى نسج قطع جديدة إلا فى إطار القرارات الصادرة ، أى مع التخلى عن رموز وعناصر زخرفة . وبرغم ذلك فقد احتفظ السجاد والمنسوجات الغرناطية والخاصة بإقليم البشرات بطابع موريسكى خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. لقد قيل أكثر من مرة إن تدهور صناعة الحرير سببه طرد الموريسكيين [٧٨]. لكن الأبحاث الموضوعية تشير إلى عوامل اقتصادية مختلفة كانت هى السبب فى تدهور هذه الصناعة، ولم تكن صناعة الحرير مُفضَّلة عند المسلمين المتدينين. وقد نسب بعض الموريسكيين المتدينين المصائب التى حلت بهم إلى مخالفة الأوامر القرآنية وهذه الأوامر تحظر عليهم البذخ فى الملبس بارتداء ملابس حريرية والتحلى بالذهب[٧٩].

ماذا نقول عن صناعة الخزف فى فاخالاوثا ؟ إن تراث الصناعة والاستمرارية فى النهج – كما يذكر المتخصصون[٨٠] – شبيهان بما حدث فى مجالات أخرى . فقد كانت مويل على سبيل المثال قرية أراغونية ، كان كل سكانها موريسكيين فى القرن السادس عشر ، وكانوا يعملون فى صناعة الفخار . كانوا ينتجون نوعًا من الخزف اللامع يقدّره الآن هُواة جمع الأثريات[٨١] . وقد ظلت هذه الصناعة مستمرة

فى القرية حتى القرن التاسع عشر ، وفى عصرنا الحاضر قام الكثيرون بزيارة القرية[٨٢].

وفيما يتعلق بالزراعة والمحاصيل ليس لدينا الكثير الذى نضيفه إلى ما ذكرناه آنفًا[٨٣] . إن الرحّالة الذين يأسفون على طرد الموريسكيين - مثل سوينبورن[٨٤] ولوينسيند[٨٥] وآخرين - يجدون كثيراً من الآثار الموريسكية فى كل مكان ، وعلينا أن نصحح بعض المفاهيم عندهم[٨٦]. إذا جمعنا كل البيانات التاريخية المعروفة والانطباعات لدى الإسبان والأجانب فلا يدهشنا أن تكون هناك " أسطورة موريسكية " فى أندلوثيا وخاصة بأندلوثيا منتشرة بين الناس ، لدرجة توغلها فى أوساط الشعب ، ولا يُدهشنا كذلك أن يدخل هذا الموضوع فى الجدل السياسى والأنشطة الأخرى . هكذا يتحدث الناس عن " دماء مسلمة " تجرى فى عروق أهل أندلوثيا وينَسبون إلى هذا الأصل بعض المزايا والعيوب الموجودة فيهم .وقد عزا الناس إلى أصول مسلمة حسية أهل أندلوثيا وشاعريتهم وخيالهم الواسع وتخلقهم بأخلاق الفرسان[٨٧]. ونسبوا إلى الأصل المسلم أيضًا نزعة الكسل عند أهل أندلوثيا وتعصبهم ، بالإضافة إلى عيوب أخرى نُسبت إلى الإسبان عامةً[٨٨].

من العجيب أن نلاحظ سلسلة من التوازنات يقدمها مراقب ورجل دولة من أهل أندلوثيا هو أنطونيو كانوباس لكى يتعاطف مع الموريسكيين ، ولكى لا يُدين رجال الحكم الذين قاموا بعملية الطرد. (من وجهة النظر السياسية والقانونية) يدافع كانوباس عن عملية الطرد ، أما من وجهة النظر العاطفية الخاصة فهو يُبدى حُزنه إزاء وضعهم المتدهور[٨٩]. هناك معاصرون لكانوباس ينظرون إلى المشكلة كما لو كانوا من أصدقاء بدرو دى ديثا أو الكاردينال إسبينوسا (برونات إى باراتشينا على سبيل المثال) فى النهاية ، وبعد الأبحاث التى أُجريت حول هذا الموضوع فى إسبانيا منذ عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٩٢٠ . هناك جدل بين المحافظين والمتحررين ، بين اليمينيين واليساريين . فى القرن الثامن عشر وصف رجل معتدل مثل خوبيانوس طرد الموريسكيين بأنه " عملية وحشية تفتقر إلى الحس السياسى "[٩٠] ، وقد تبعه فى ذلك كل المتحررين[٩١]. بعد ذلك بفترة طويلة جاء كانوباس ووصف عملية الطرد بأنها

" لا مفر منها "[٩٢]، وهكذا تتراوح الآراء بين اتجاه واتجاه آخر. لكن هل من المفيد إجراء أبحاث طويلة لكى نصل فى النهاية إلى نتائج متوقعة ؟ ألم يكن من الأفيد إجراء دراسات اجتماعية واقتصادية ونفسية باعتبار هذه الجوانب عناصر تدخل فى تكوين المشكلة حتى نضعها فى الحُسبان إذا ما تعرضنا لظروف مشابهة ؟ فى بعض الأحيان تظل الأبحاث المفيدة فى طى النسيان[٩٣]

هوامش الفصل الثامن

(١) Cabrera de Cordoba: *Relaciones* ....pag. 522
كتب كابريرا فى ٢٩ يونيه ١٦١٣ : " بدأ الكثيرون من الموريسكيين يعودون إلى القرى التى طُردوا منها، وقد كُلفَ كونت سالاثار بمعاقبتهم وإعفاء المحاكم والقُضاة من تلك المهمة. وفى هذه الأيام سافر الكونت إلى ألماغرو وإلى قرى أخرى فى المنطقة فوجد أكثر من ثمانمائة موريسكى قد عادوا ، فأرسل بعضهم إلى السفن وأرسل بعضهم الآخر إلى المادين ديل اثوغى ، وأرسل الباقين إلى خـارج المملكة ... وهذا ما سيفعله مع كل العائدين حتى لا يبقى أحد فى هذه الممالك ". كان السبب فى طرد موريسكيى وادى ريكوتى هو استقبالهم لبعض الموريسكيين الذين عادوا (ص ٥٢٧ – ٥٢٨ : ٤ ديسمبر ١٦١٣) .

(٢) انظر الجزء الثانى من رواية " كيخوتى " يظهر ريكوتى فى الفصل رقم٢٤ ، وتوجد قصة ابنته الجميلة فى الفصل رقم٥٢ . درس أستاذنا خايمى أوليفر اسين علاقة ثيربانتييس ولوبى بالموريسكيين. انظر المقال الخاص بلاجيء تونس المعجب بلوبى فى مجلة الأندلس عام ١٩٣٣ ، ص ٤٠٩ – ٤٠٥) .

(٣) لعل من المناسب القيام بدراسة حول أول ظهور لهذه الفكرة فى اللغة الإسبانية / القشتالية .

(٤) *Noches de Placer*, pags. 252-260
هكذا يصف الموريسكى حامدى حياة أسرته " منذ غزو فالنسيا على يد الملك خايمى وأجدادى يقيمون فى بلدة تُسمى بناغواثيل ويحملون أسماء موريسكية. هناك كنا نعيش بين المسيحيين القدامى نزرع الأرض التى ورثناها بعناية ، وكنا ننظم أمورنا لدرجة أنه لم تعرف الحاجة إلى أحدنا سبيلاً ، بل كان الرخاء يعم لدرجة أننا كنا نقدم الأموال لسادة القرى ، وكنا رعاياهم ..."

(٥) Diego de Haedo: *Topografía e Historia general de Argel*, fol. 9
(عن سكان ومـواطنى الجـزائر) : " العنصـر الرابع بين المسلمين هم أبناء ممالك غـرناطة وأراغـون وفالنسيا وقطالونيا الذين قدموا إلى هذا المكان وباستمرار يرحلون مع زوجاتهم وأبنائهم عبر مرسيليا ومناطق أخرى من فرنسا ويحملهم القباطنة الفرنسيـون بسرور . كل هؤلاء ينقسمـون إلى قسمين : المدجنين (وهـم أهل غرناطة فقط وأندلوثيا) والثـغريين (ومنهم أهل أراغون وفالنسيا وقطالونيا) هؤلاء من ذوى البشرة البيضاء والجسم الرشيق مثل المولودين فى إسبانيا . هؤلاء يمارسون أعمالاً متـعددة ، فكل منهم له حرفة ، فمنهم مَنْ يصنع البنادق ومنهم مَنْ يصنـع البارود ، ومنـهم الحدَّاد ، ومنهم البنَّاء ، ومنهم الخياط ، ومنهم الإسكافى ... ومنهم مَنْ يربى دودة القز ، ومنهم صاحب الخان الذى يبيع فيه كل أنواع المنتجات ، وهم جميعاً مَنْ أشد أعداء المسيحيين فى بلاد البربر ، فلا يكادون يرتوون من دماء المسيحيين. يلبسـون كما يلبس الأتراك. لهم فى الجزائر حوالى ألف بيت " . ويذكر كانوياس (ص ٢١١) هذه الفقرة من كتاب هايدو ويعضدها بهذه الأشعار الشعبية .

غلبنى موريسكى من قشتالة
وهو عنيف جدا
إن هذا الكافر
يعيش فى جبل
قريب من الجزائر

جاءت حكاية أسر ميلشور دى باديا التى رواها ماثيو بريثويلا ونشرها فى برشلونة عام ١٥٧٦ فى:
Boletín de la Real Academia Espanola,III, (1916), pag. 357

يتحدث هايدو عن الأعمال (ص٩–١٠) . لنتذكر ما يقوله سالاثار دى مندوثا (ص١٨٤) : "إن كل مَنْ بقوا على قيد الحياة قد رحلوا إلى إفريقيا ويعيشون كمسلمين، وقد أعلنوا ذلك قبل رحيلهم من إسبانيا، بل وتزوج الواحد منهم ثلاث أو أربع زوجات ... وهكذا زالت الغشاوة عمن كانوا لا يعلمون أمرهم، فقد كان الملك لا يعلم شيئًا عن إلحادهم وخيانتهم " .

(٦) Saavedra, pag. 170, 168-172, 191, 239-240,241, 242- 243

هناك ملخص للشعر الموريسكى كتبه أدولفو كاسترو فى :

(٧) B.A.E., XLII, pags. XIII-XVI

Marmol. Pag. 362

يقول ثيربانتيس فى الجزء الأول من رواية كيخوتى إن مسلمى غرناطة الذين استوطنوا فى فاس " هم الناس الذين يعتمد عليهم الملك فى الحروب " . انظر :

Marcos de Guadalajara: *Prodición expulsión* ..fols. 81, 129

يتعرض غوادالاخارا لفصول من تاريخ المغرب حتى الاستيلاء على العرائش ، ويظهر "الأندلسيون" فى تلك الفصول . كان الجيش الذى هزم سباستيان ملك البرتغال مكونًا فى جزء كبير منه من الأندلسيين ممنْ خرجوا من غرناطة بعد الثورة أو من أبنائهم. انظر:

(٨) Juan Bautista de Morales : *Jornada de Africa del Rey Don Sebastian de Portugal* ....,pag. 351

"الباشا جودار – Yawdar ذلك الخصى الشجاع وهو مسلم من المرية " نجد إشارات إليه فى رواية بتاريخ ١٦ أكتوبر عام ١٦٤٨ . انظر:

Bauer: *Papeles de mi archiro: Relaciones de Africa (Marruecos)*, II, pag. 34

فى صفحة ٣٥ إشارة إلى غزو " جاو " و " تمبوكتو " بقيادة " جودار" ويُقال إن مولاى لبيير بن مولاى زيدان كانت أمه موريسكية من ألكالا دى إيناريس .

(٩) J.Beraud - Villars: *L'empire de Gao*...pags 127-177

Jiménez de la Espada: *Libro del conocimiento de todos los reinos* ..., Madrid, 1877 pags. 688-702

فى ملحق الكتاب هناك وثائق هامة حول تلك الأحداث . فى الوثيقة الأولى يذكر أن القائد جودار كان "مسلمًا من كويباس بمملكة غرناطة " ، وقد اصطحب معه ألفًا من حملة البنادق الأندلسيين ممن " رحلوا من مملكة غرناطة ، وهم أناس يعهد إليهم السلطان بحراسته الشخصية ، وهم أشجع المسلمين " (ص ٦٨٩) . وفى صفحة ٧٠١ يذكر أن جودار كان خصيًا وقائدًا للأندلسيين .

(١٠) Discurso historial de la presa que del puerto de la Maamora hizo el Armada real de Espa´na en el a´no 1614, en B.A.E., XXVI, pag.223

(١١) تاريخ العقد الثالث من القرن السابع عشر المنشور في ملقة وغيرها من مدن الجنوب يشير إليهم . انظر مثلاً : " التاريخ الحقيقي الذي تُروى فيه أفعال القرصان بلانكيو وهو موريسكي مسلم من مدينة أركوس في الفترة التي مارس فيها أعمال القرصنة ضد سواحل إسبانيا وأسر فيها الكثيرين " (ملقة ١٦٣٢). انظر :

Bauer: *Papeles de mi archivo: Relaciones de Africa (Marruecos),* II, pag. 239-243

في صفحات ٤٥ - ٢٤٨ هناك " حكاية الطريقة التي استولى بها جنود تاريفا - بقيادة السيد لورينثو وبصحبة خوان غالبيث - على سفينتين للمسلمين يقودهما موريسكي مسلم من أوسونا " (ملقة ١٦٢٣) انظر كذلك :

Andrés Sandrez Péres : *Los moriscos de Hornaches, corsarios de Salé* (Badajoz, 1964)

(١٢) Saavedra, pag. 288

(١٣) Marcos de Guadalajara: *Prodición expulsión* ..fol.13-74

(١٤) A. Gonzalez Palencia : *Cervantes y los moriscos,* pags. 116-120

رسالة أنطونيو دي أوكانيا (موريسكي من المطرودين من إسبانيا) وقد أرسلها من الجزائر إلى صديق له في أوكانيا يخبره فيها بالوضع " (اشبيلية ١٦١٨) . في هذه الرسالة يروى سلسلة أحداث للبحث عن كنوز كانوا قد دفنوها عندما صدر قرار الطرد، وقد مات الموريسكيون في القسطنطينية بعد السفر إليها للمرة الثانية كمسيحيين . هذه الرواية يمكن أن نقرأها بصيغتها الكاملة في :

Bauer: *Papeles de mi archivo: Relaciones de Africa (Marruecos),* II, pag. 31-38

(١٥) Aznar Cadona, fol. 7

(١٦) انظر مثلاً ما يُقال حول هذا الموضوع في :

Vesé Maria de Murga : *Recuerdos marroquies, pag.* 169

(١٧) Brooke: *Sketches in Spain and Morocco,* I, pag. 209-210

العائلات المذكورة هي: بيروس ، راغوني ، مدينة ، بايس ، فالنسيانو ، غارثيا ، غارسون ، العبادي (اللبادي) ، سالاس ، روبيروس ، قرطبي ، بوبينا.

(١٨) Brooke: *Sketches in Spain and Morocco.*

الثغري ، برغوس ، ابن عمار ، رضوان ، دياس ن مورينو ، بلانكو ، رونده ، روسكانتشي .

(١٩) سيدي أحمد رهوني : تاريخ تطوان ، ص ١١٨ - ١٣٢ .

(٢٠) من المناسب القيام بدراسة حول هذا الموضوع .

(٢١) كان مورغان - وهو ناشر ترجمة أشعار محمد ربضان - في تونس عام ١٧١٩ ونكر ما يلي : في مدينة تستور بمملكة تونس استمعت إلى بعض السكان من الجنسين وهم يغنون مقاطع مستخرجة من هذا العمل على أنغام العود والقيثارة . في تلك المملكة هناك عشر مدن أو اثنتا عشرة مدينة مبنية على الطراز الأندلسي وكان سكانها منْ مسلمي إسبانيا وكانوا يتحدثون الإسبانية فيما بينهم وكانوا لا يزوجون بناتهم للعرب ولا للأفارقة ولا حتى للأتراك إلا للضرورة ، وكانوا يحتفظون بأسماء عائلاتهم الإسبانية إلى جانب أسمائهم العربية وفي السنوات الأخيرة بدأت ثقافتهم في التدهور ، فلا يوجد من بينهم الآن من يجيد الإسبانية إلا شخصان ، أحدهما حمودة بوسيسة ، وهو الذي حصلت منه على

المخطوطة . هناك مدينة صغيرة كان سكانها من مسلمي قطالونيا وكانوا يتحدثون اللغة القطالونية . وأفضل هذه المدن التي بنيت على الطراز الأندلسي السليمانية وزغوان وتستور " .
يقدم لنا جورج بورو في كتابه George Borrow: *The Bible in Spain*, pags. 504-506 أحد أبناء طنجة المولدين، وهو سقّاء يتحدث الإسبانية ويفخر بأنه حفيد "مسلم غرناطي" وبأنه "أفضل الناس في طنجة ". في نفس الكتاب يروى المؤلف قصة حوار مع شخص من جنوفا أقام في تونس ، وينقل عنه قوله إن المنطقة التي كان يقيم فيها معظمها من أبناء غرناطة . ويقول نفس الشخص كذلك إنه أقام في بيت رجل تونسي من عائلة " الثغرى " لا يمل الحديث عن مآثر أجداده ويغنى قصائد شعبية بالإسبانية.
لدراسة مكان إقامة وطريقة معيشة الموريسكيين بعد طردهم انظر :
MiKel de Epalza y Ramón Petit : Etudes sur los moriscos andalus en Tunisie, Madrid, 1973

(٢٢) Hurtado de Mendoza, pag. 255

(٢٣) Gómez Moreno: *De la Alpujarra*, pag. 19

(٢٤) Marmol. Pag. 265

(٢٥) Núnez de Prado, fol. 32-36

(٢٦) Bermúdez de Pedraza: *Historia eslesiástica*, fols.256

(٢٧) Núnez de Prado, fol. 45-46

(٢٨) التاريخ الذى يرويه لافوينتى الكانترا (الجزء الرابع ص ٢٦-٢٨) يمر مرور الكرام على القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبعد عدة صفحات مخصصة للثقافة الغرناطية يعود إلى التقنى السابق حين يتحدث عن حرب الاستقلال . يتحدث بعض المؤلفين عن الأسر النبيلة ذات الأصل الموريسكى . انظر :
Bermúdez de Pedraza: *Antigüedad y excelencias de Granada...* , fols. 70-72

(٢٩) ومع ذلك فإن القضايا التى نظرت ضد اليهود عددها أكبر .

(٣٠) Suinburne : *Travels through Spain in the years 1775 and 1776*, pags. 154

(٣١) Towsend: *A journey through Spain in the years 1786 and 1787*, III, pags. 82-84

(٣٢) Lea: *A History of the Spanish Inquisition, III*, pag. 406
هذه القضية أشار إليها كثير من المؤلفين .

(٣٣) لكتابة الفقرات التالية استعنت بقائمة " المحاكمات التى عقدتها محكمة تفتيش غرناطة " وهى مذكورة في المراجع .

(٣٤) كان أورتادو دى مندوثا (ص ١٥٤) يقول " هذااللقب اتخذه كثير من الموريسكيين لوجود عائلة الماركيز إنييغو دى مندوثا في تلك النواحى .

(٣٥) Gerra de Lorca: *Catecheses mystagogicae*...,fol. 130

(٣٦) Mi´nano, IX, pag. 110
"يُقال إنه رغم دقة تنفيذ أمر طرد الموريسكيين لم يمكن تجنب بقاء عدد من العائلات " .

(٣٧) R. Ford: *A hand-book for travellers in Spain*, pag. 160

(٣٨) نص مذكور فى الملاحظتين ٤١-٤٥ فى الفصل الثالث .

(٣٩) Robert Semple : *A second journey in Spain, in the Spring of 1809*, pags. 199-200.

(٤٠) لاحظ أنه حتى الآن هناك عائلات في أندلوثيا تحمل لقب " الثغرى " ، " ابن أمية " ، "بن جمعة " ... إلخ .

(٤١) C. Suarez figueroa: *El pasagero*, pag. 262

"وصلتُ إلى غرناطة ذات يوم قُبيل الظلام ومتعتُ ناظريَّ بجمال الغوطة... " .

(٤٢) Gonzalo de Céspedes y Meneses: *El espanol Gerardo*, pag. 229-231

Diego de Haedo: *Topografía e historia general de Argel*, fols. 7-8

(٤٣) Munzir, pag. 135

كانت بيوت هذه المدينة متجاورة فى زمن المسلمين ، وكانت شوارعها ضيقة حتى أن المسافة بين الشباك والشباك المقابل كانت ذراعًا ..." انظر أيضًا الملاحظات ١٩-٢٤ فى الفصل الثالث .

(٤٤) Bermúdez de Pedraza: *Antigüedad y excelencias de Granada*, fol.37

يقول بيرموديث دى بدراثا : " أثناء الحصار حدث أن أوقدت إحدى الخادمات شمعة فى الخيمة فاحترقت الخيمة والخيام المجاورة فى ليلة الخميس الموافق ١٤ يوليه . هذا الحريق جعل الملكين يصدران أوامرهما بتشييد بيوت تفصل بينها شوارع منظمة اتُخذت كسور منيع ... وقد شُيدت المدينة المحاطة بالأسوار بمنتهى السرعة وزينتها الأبراج ... وقد أطلق الملكان على المدينة سانتا فى (الإيمان المقدس) ..." انظر كذلك :

(٤٥) Marmol. Pag. 146

Ponz, pag. 1685

Munzer, pag. 43

(٤٦) *Ordenanzas*. Fol. CCXXXIX

(٤٧) *Ordenanzas*. Fol. CCXL - CCXLI

(٤٨) *Henriquez de Jorquera,I,pag.* 23

(٤٩) Bermúdez de Pedraza: *Antigüedad y excelencias de Granada*,fol 21

"كان قدامى الموريسكيين يؤكدون أن المدينة كان بها عشرة آلاف أسرة وأن البيوت كانت متعة للنظر وكانت مزخرفة وبها أفنية وبساتين تزينها برك ونوافير ذات ماءٍ جارٍ ..." .

(٥٠) Bermúdez de Pedraza:*Antigüedad y excelencias de Granada*, fol.21

رغم أن حى البيازين اليوم ليس آهلاً بالسكان كما كان بالأمس ، إلا أنه ليس مهجوراً، ففيه مايزيد على ستة آلاف أسرة .

(٥١) Bermúdez de Pedraza: *Antigüedad y excelencias de Granada*, fol. 22-23

إن البيوت الخاصة رشيقة ومكلفة ، وجمالها – كما يقول شيشيرون – يرفع من قدر أصحابها ، فكل البيوت أو معظمها بها بساتين فيها أشجار البرتقال والسدر والليمون والريحان والفاكهة والحشائش والأزهار ، فتبدو البيوت كالبيوت المسحورة التى تحكى عنها الأساطير .. بحيث أنه إذا كان فى غرناطة أربعة آلاف بيت للوجهاء ، ففيها نفس العدد من البساتين ، مع العطر الذى ينبعث فيها والذى ينقى الهواء فيجعل المدينة صحية . كل البيوت بها ماء جارٍ يمر عبر قنوات بكميات كبيرة ، وفى بيوت الوجهاء ثلاث أو أربع نافورات ... وفى البيوت المتوسطة قطعة أرض كبستان ، وبعضها به شجرة برتقال أو شجرة عنب تحيط بالفناء والنافورة ، وبعض البيوت بها الزرع على السطح أو تزرع أصص الأزهار... بحيث إنك لا تجد بيتًا صغيراً أو كبيراً أو متوسطًا إلا وبه بستان أو كرمة أو أصيص به أزهار ونباتات عطرية ". انظر كذلك :

(٥٢) Enriquez de jorquera,I,pags. 35-36

Duran,I,pags. 20,47

(٥٣) Duran,I,pags. 26,83

(٥٤) Duran,I,pags. 10

(٥٥) Leopaldo Torres Balbás: *Miniaturas hispao-musulmanas*, pags196-202

(٥٦) Duran,I,pag. 53

(٥٧) Duran,I,pag.56

(٥٨) Duran,I,pag. 65

(٥٩) Duran,I,pag. 28

(٦٠) Duran,I,pag. 49,99

(٦١) صور المنازل وملحقاتها موجودة فى الطبعة الأولى للكتاب .

(٦٢) Eduardo Soler y Pérez: *La Alpujarra y Sierra Nevada*, pags. 31-32

(٦٣) Paul Voigt : *Die Sierra Nevada. Hans -Hausrat. Hausliches und gewerbliches Tagewerk*

(٦٤) لم تعد هذه الدراسة كافية لكن الصفحات ١٠ – ٢٥ تتضمن معلومات لاغنى عنها لدراسة بيوت البشرات . انظر كذلك :

(٦٥) Jacques Berque : *Structures sociales du Hant Atpas*, pags. 29-34

V. Sermet: *L'Espagne du Sud*, pags. 169-185

(٦٦) Gautier: *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siecles obscurs*, pag243

(٦٧) *Ordenanzas*, fols. CCXXII

يوجد هنا تعريف لمصطلح "نجار الأعمال الخارجية " ... لكى يكون النجار متميزاً يجب أن يعرف كيف يصنع عجلات ساقية وطاحونة ..." .

(٦٨) Santiago Montoto: *Sevilla en el Imperio* (siglo XVI),pags. 113-176

(٦٩) *Breve Compendio de la Carpintería de lo blanco, y tratado de alarifes (Sevilla 1633)*

(٧٠) Gómez Moreno: *El libro espanol de arquitectura*, pags. 19-20

(٧١) انظر مقدمة طبعة مدريد عام ١٨٦٧ ، ص ٥ .

(٧٢) Breve compendio.....pag.234

انظر أيضاً مقدمة خ. ف. خيمينيث ، ص ١١ .

(٧٣) *Mundejar Wood- carvings in the collection of the Hispanic Society of America.* *Arte y decoración en Espana*, x, láminas 28-38, 58-71, 73,76

انظر كذلك مقال أ. بريتو بيبيس عن النجارة فى إسبانيا الإسلامية ص ٢٦٥ – ٢٠٢ .

(٧٤) *Ordenancas*....,fol. CCLXXXIII, CCLXXXVI....etc

(٧٥) Marmol. Pag. 166

(٧٦) Marmol. Pag. 94

يعرفها المؤلف بأنها " ثوب من الكتان يُرتدى فوق كل الملابس ، ويقول إن النساء الموريسكيات فى غرناطة كنّ يتقطين بالملافع .

(٧٧) Covarrubias, pag. 94

يعرفها المؤلف بأنها عباءة ملونة من الحرير تتغطى بها النساء المورسكيات ، وكان المسلمون يغطون رءوسهم بهذه القطع وكانوا يتركون الأطراف تتدلى على الظهر.

(٧٨) انظر الملاحظة رقم ١٩٤ في الفصل الثالث. انظر كذلك :

Townsend: *A journey through Spain*,III,pags. 73-74

Juan Alvarez de Colmenar: Les delicas de l'Espagne du portugal.

(٧٩) Saavedra, pag. 158

(٨٠) Gómez Moreno: " La faience de Fajalanza (Granada)", en *Art populaire*...,pag. 236-237

(٨١) Cock: *Relación* ..., pags. 30-31

(٨٢) Alice Wilson Frothingham: *Aragonese lustreware from muel*, pags. 78-91

انظر كذلك رسالة الدكتوراه التى تقدم بها فيرناندو دى لا غرانخا :

La cocina ?rabigo andaluza segun un manuscrito inédito, (Madrid, 1960)

(٨٣) انظر البند الخامس فى الفصل الثالث. انظر كذلك الخطاب الذى ألقاه خوسيه فيرنانديث توريس لدى التحاقه بأكاديمية الفنون الجميلة سان فيرناندو ص ٧-٥٧, انظر أيضاً :

L.Terres Balb?s: *Ars hispaniae*...,IV,238, 244-245

(٨٤) Swinburne : *Travels through Spain* , pags. 162-163, 169

(٨٥) Townsend: *A journey through Spain*,III,pags.73-74

(٨٦) حاولت أن أقوم بذلك فى دراسات فنية كالدراسات المتعلقة بطواحين الهواء والسواقى .

(٨٧) يتحدث سيرافين كالديرون عن " خيال أهل أندلوثيا " (فى الحقيقة ميلهم إلى المبالغة). انظر "مشاهد من أندلوثيا" ص٣٣ : إن الاختلاط بالعرب ذوى الخيال الجامح قد نمّى فيهم هذه الملَكة ..." .

(٨٨) يرسم الرحالة الفرنسيون خلال القرن السابع عشر صورة قاتمة. انظر :

H.Taine: *Essais de critique et d'Histoire*, pags. 329-370

Villars: *Memoires*....,pag 115

(٨٩) Canovas, pags. 201-236

(٩٠) انظر :

Sobre el origen y costumbres de los vaqueiros de alzada (B.A.E.L.,pag. 306)

من المعلوم أن رعاة أستورياس يُنسبون – خطأً فى رأى خوبيانوس – إلى أصول موريسكية باعتبارهم أحفاد الذين طُردوا من الجنوب.

(٩١) انظر مثلاً الأسماء التى يوردها موديستو لافوينتى وفلوريتثيو خانير

(٩٢) Canovas, pag. 235

(٩٣) أرى أنه لم تتم الاستفادة بشكل كامل من كتاب :

Hermann Lautensach: *Hauriche Zuge in geographischen Bild der Iberischeu Halbinsel* (Bonn ,1960)

خاتمـــــــة

عندما أراد بعض المستنيرين فى القرن الثامن عشر تحليل القضية المورسكية بشىء من الموضوعية و بلا انفعال ، وجدوا أن المصادر التى يمكن الاعتماد عليها غير كافية ، خاصة فيما يتعلق بثورة المورسكيين فى عهد فيليبى الثانى. هذا ما عبر عنه كامبومانيس فى كتاب عجيب : إن لم يكن كامبومانيس فقد كان شخصًا يعتنق نفس أفكاره [1].

إن أشهر كتاب حول تلك الثورة هو كتاب دييغو أورتادو دى مندوثا (١٥٠٣-١٥٧٥) ، وقد كتبه كشاهد عيان من موقعه المتميز فى وسط الطبقة العُليا فى غرناطة . كان ذلك المحارب والدبلوماسى والشاعر المثقف المعروف فى أوروبا قد عاد إلى مدينته عجوزًا متدهور الصحة ، قليل الحيلة ... عاد وكاهله مُثقل بأمر نفى أصدره ضده فيليبى الثانى الذى لم يكن يحبه. حدث ذلك فى الوقت الذى كان ابن أخيه ماركيز مونديخار يجابه المحكمة وممثليها . كان فقراء المسيحيين يعادون أسرة مندوثا ويناصرون الملكيين ، وقد أشار السيد دييغو بسخرية إلى تغير شئون الحكم فى زمنه فقال عن المستشارية : " إن طريقة الإدارة هذه التى أُرسيت قد انتشرت فى البلاد المسيحية جمعاء ، وهى اليوم فى أوج سلطتها "[2]. لم يعد النبلاء هم الذين يتزعمون الحياة العامة ، بل أصبح رجال الدين والموظفون الملكيون هم الذين يقومون بذلك الدور" . رغم أن أورتادو دى مندوثا لا يعلن ذلك صراحةً إلا أنه كان لا يثق فى طريقة هؤلاء فى إدارة الشئون العامة. وعندما يبدى مندوثا احتقاره مرات ومرات للسوقة الذين تبوءوا مقاعد السلطة – لدرجة أذهلت مَنْ درسوا أعماله[3] – فإنه يعبر عن معارضته لذلك التغير. إن القوات التى كانت مشكَّلة من أصحاب السيادة كانت قوات منظمة وشريفة ، أما القوات التى يشكلها السوقة فقد كانت تغلب عليها الإباحية والهمجية[4]. لم يقل أورتادو دى مندوثا كل ما كان يعرفه ، ولم يعبر عن كل أفكاره.

هذا واضح ، لكن القارىء المعاصر يرى أن مندوثا يبدو أحياناً كرائد للمثقفين والأرستقراطيين الفرنسيين الذين هاجموا ريتشيليو ولويس الرابع عشر وهم يتحسرون على الزمن الذى كانت الأرستقراطية تتمتع فيه بحقوق أكثر وبحريات أكبر[٥]. إن الطابع الحماسى لكتاب مندوثا ليس صريحاً ، لكن لويس ترييالدوس دى توليدو[٦] وكونت بورتاليغرى[٧] أدركا هذه الحقيقة . إن عدم الصراحة ذلك هو الذى دفع كامبومانيس إلى أن يقول ما قاله .

وعلى العكس من كتاب مندوثا ، يبدو كتاب لويس ديل مارمول كارباخال (١٥٢٠ - ١٦٠٠) الذى نُشِرَ عام ١٦٠٠ متواضعًا . لقد دافع البعض عن نظرية أن يكون المؤلف قد كتب هذا الكتاب بتكليف من أحد كَرَدٍ على كتاب مندوثا الذى كان يجرى تداوله سرا ولم يُنشر إلا فى عام ١٦٢٧ [٨]. ليست لدينا أدلة تثبت هذه النظرية[٩]، لكن من الواضح أن مارمول لم يكن بإمكانه رؤية الأحداث من موقع متميز كموقع مندوثا . يقول مارمول عن القرارات التى أعقبت ثورة الموريسكيين : " فى الحقيقة كانت قرارات صدرت من فوق لاجتثاث الشعب الموريسكى من هذه البلاد "[١٠] . إنه تصريح يصدر عن رجل شارع .

تكمن قيمة كتاب مارمول فى جوانب أخرى تختلف عن الجوانب التى يتميز بها كتاب بيريث دى إيتا (١٥٤٤ ؟ - ١٦١٩)[١١]. يذكّرنا أسلوب مارمول بمؤرخى العصور الوسطى ، فهم يتبعون الدقة فى وصف تفاصيل الأماكن ، إلا أنهم لا يرسمون الشخصيات جيداً . أما بيريث دى إيتا فهو يتوسع فى رسم الشخصيات. المؤرخان لا يتحدثان عن الأسباب التى أدت إلى اندلاع الثورة. كيف يتكلم مؤلفان من عامة الشعب إذا كانت أسرة مندوثا التى تعرضت للظلم صامتةً أمام فيليبى الثانى ووزرائه ولم يشأ السيد دييغو أن ينشر كتابه وهو على قيد الحياة ، بل لم ينشر الكتاب إلا بعد ستين عامًا من اندلاع الثورة ؟[١٢].

خلال زمن طويل كان مارمول وإيتا هما الكاتبان الرئيسيان اللذان يمكن الاعتماد عليهما بالإضافة إلى فرانثيسكو بيرموديث دى بيدراثا[١٣] . ومع ذلك فهناك مؤلف كانت له وجهات نظر جديرة بالاحترام ، ووجهة نظر إنسان تابع الأحداث عن

كتب وأعجب بفيليبي الثاني لكنه لم يُعجب بكثير من وزرائه ومستشاريه. إن فكرة أن أولئك الوزراء والمستشارين كانوا هم المسئولين عن سوء إدارة المشكلة الموريسكية نراها بوضوح في الجزء الأول من كتاب " تاريخ فيليبي الثاني" الذي وضعه كابريرا دي كوردوبا (١٥٥٩ – ١٦٢٣) ونشره عام ١٦١٩ (١٤). الكتاب يتضمن الكثير من المعلومات لم يجرؤ مندوثا على البوح بها ، ولم يتمكن مارمول ولا بيريث دي إيتا من العلم بها.

هناك حرية تعبير أيضاً في كتاب " تاريخ عائلة مندوثا " ، وهو كتاب يقرظ قادة الجيش ونواب الملك في غرناطة من عائلة مندوثا في مواجهة رجال القانون والقساوسة الذين كانوا مستشارين للملك(١٥).

هذه المخطوطة التي لم تُنشر وبعض الوثائق التي نُشرت مؤخراً – مثل مذكرة السيد فرانثيسكو نونييث مولاي التي كتبها دفاعاً عن عادات وتقاليد الموريسكيين(١٦) – تفتح لنا آفاقًا جديدة وتصور لنا الخوف أو الحيطة التي تصرف بها أشخاص مثل مارمول عند عرضه لمذكرة المحامي الموريسكي العجوز. إن مارمول يحذف الفقرات التي تتضمن هجوماً عنيفًا وانتقادات حادة . إننا نجد نفس الشيء عند نشر مذكرة ماركيز موندیخار إبان وقوع الأحداث(١٧)، كما نجد نفس الشيء في مراسلات فيليبي الثاني وخوان دي أوستريا(١٨).

إن المصادر الخاصة بالفترات السابقة واللاحقة والنصوص الأدبية والدراسات حول إسبانيا الإسلامية منذ منتصف القرن التاسع عشر ... إلخ ، كل ذلك يقدم للقارىء المعاصر رؤيةً للأحداث لم تُتح لمثقفي القرن الثامن عشر ، لكن الشيء الأساسي هو تغيّر وجهات النظر ، وهناك منْ غيروا وجهة نظرهم بالفعل .

لا يقبل أحد ممَّنْ يروق لهم تلخيص التاريخ أن نعتبر أن " مؤرخي الأحداث الخاصة " أعلى شأنًا من المؤرخين العاديين. ومع ذلك فإنه في العصر الحديث هناك مَنْ يرى أن التاريخ علم يتطور بتطور تحليل الأحداث أكثر مما يتطور بعرض الأحداث .

فى الواقع هناك طريقتان يجب أن توضحا نوعين مختلفين من الأحداث : البحث عبر المراحل التاريخية الكبرى . إن السير عبر القرون وراء الأفكار والأشخاص مفيدٌ لمنْ يريد كتابة تاريخ الحضارة والمؤسسات . البحث فى فترة زمنية محددة مفيد لعالم الاجتماع و للمتخصص فى علم الأخلاق. من الصعب أن نهرب من التعميم أو من الاختصار الموجز فى الطريقة الأولى ، ومن الصعب أن نتجاهل الحادثة العادية فى الطريقة الثانية . إن مهارة الباحث تكمن فى إبراز ما هو جوهرى من حيث تاريخ الحضارة ومن حيث التاريخ الاجتماعى. إن الصراعات الكبرى والمجابهات الفكرية خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر أدت إلى اعتبار الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب موضوعًا سياسيًا تتصارع فيه الأفكار لا الأشخاص : السلطة ، المصلحة العامة ، الوحدة الوطنية ، حرية الفكر ... إلخ . إن القلائل الذين تجنبوا الجدل فى العصر الحديث قد درسوا المؤسسات الإسلامية والمسيحية كلاً على حدة. مع ذلك لم يشأ أحد إعادة ترتيب المشكلة على ضوء الوثائق المتاحة بحيث يضع فى الاعتبار كل الجزئيات الخاصة التى تصحح بعض المعلومات ، ولا يقتصر على البيانات العامة. لم يكن لى هدف سوى الإسهام على قدر طاقتى فى إعادة عرض المشكلة . وأعتقد أن القارىء اليقظ سيتمكن من الدفاع عنى إذا اتهمنى أحد بأن لى أغراضاً خفية أو إذا ما اتهمنى بأننى أكتب شيئًا بين السطور .

هوامش الخاتمـــــــــة

(١) Cartas político-económicas...,pags. 82-83

"يبدو أن محكمة التفتيش والمستشارية والملك نفسه كانوا يضيّقون الخناق حتى يتفجر الوضع، ففى النهاية فقد أولئك الموريسكيون الأمل وتيقنوا أن أخف الأضرار بالنسبة لهم هو الموت دفاعاً عن حريتهم بدلاً من العيش كعبيد . ولذلك اندلعت تلك الحرب المدمرة التى لا يعرف تفاصيلها أحد مع أن أحد المؤرخين المتميزين كان من بين رواتها . إن تلك الحرب تعلمنا ما هى النتيجة السيئة التى تترتب على عدم احترام حقوق الشعوب ..." .

(٢) Hurtado de Mendoza, pag.2

(٣) Luis Tribaldos de Toledo, edición de 1627 (BAE, XXI, pag. 65)

ينسب تكرار الإشارة إلى الأضرار التى سببها السوقة إلى عدم مراجعة النص. والحقيقة هى أن أورتادو دى مندوثا يكرر ذلك التعبير مرات عديدة (ص ٥٥، ٦٤ ، ٦٦، ٩٧، ١٩٨ ، ١٤٨، ١٥٥) .

(٤) انظر الملاحظة السابقة . انظر كذلك رأيه فى الطبقة العامة فى غرناطة (ص ٦٢ – ٦٣) .

(٥) لماذا لم يُدرس هذا الموضوع والموضوعات المتعلقة به حتى الآن ؟ .

(٦) Edición de B. A.E., XXI, pag. 65

(٧) Edición de B. A.E., XXI, pag. 67

(٨) J.Hurtado y A. González Palencia: *Historia de la literatura espanola*, pag. 376

(٩) انظر مقدمة غونثاليث أميثوا لكتاب مارمول " وصف ..." الجزء الأول ص ٢٨ .

(١٠) Marmol. Pag. 167

(١١) نُشِرَ الكتاب عام ١٦١٩ .

(١٢)" من المعلوم تماماً ومن قديم الزمان أن الناس لا تحب الحقيقة ، ومن الشائع أن الذى يقول الحقيقة يتعرض للمشاكل ، أما منْ يكتب الحقيقة فهو أكثر عرضةً للمشاكل "، هكذا يتحدث تريبالدوس . انظر : *B.A.E.*, XXI, pag. 65

(١٣) جرت حياة ذلك المؤرخ بعيدة عن الأحداث ، فقد كان لايزال حيا عام ١٦٢٨ عند نشر كتاب " تاريخ الكنيسة ..." وهو تنقيح لكتاب "عظمة غرناطة وفضائلها " الذى كان قد طُبع قبل ذلك بثلاثين عاماً .

(١٤) كابريرا من مدريد وكان عمره عشر سنوات عندما نشبت الحرب ، وقد تعين عليه أن يستعين بوثائق مكتوبة وبآراء كِبار السن ، ربما ممَّنْ كانوا معادين للكاردينال إسبينوسا .

(١٥) يبدو أن الكتاب عبارة عن مجموعة وثائق ونصوص وكتبها السيد غاسبار إيبانييث دى سيغوبيا (١٦٢٨ – ١٧٠٨) ماركيز أغروبولى ومونديخار .

(١٦) هناك نصوص لمولاى كانت معروفة قبل ذلك. انظر منيديث بيدال" قصيدة يوسف " ص ٤١ – ٤٢
نشر السيد لوكاس دى تورى رسالة منه . انظر : B.A.H.LXV,pags. 391-392
انظر رسائل ماركيز بيليث (ص ٣٩٢–٣٩٤ ، ٤٠٢ – ٤٠٤). هذه الرسائل وغيرها توضح معنويات القائد والجنود .

(١٧) هناك مراسلات للرئيس ديثا لاتزال إلى اليوم غير منشورة .

(١٨) أحياناً يكون نص موجود بين آلاف النصوص مفيداً جدا . هذا هو وضع النص الذى سأنهى حديثى بالإشارة إليه . فى جلسة النواب بمدريد فى ١٣ يوليه عام ١٦٢٦ أشار نائب غرناطة – فرانثيسكو مالدونادو – إلى أن أندلوثيا بها كثير من المسلمين المختنين وعبيد يشتغلون بالوظائف الدنيا كحمل القمح والنبيذ ، تُجار تجزئة ... الخ ، وهى أعمال لا تتطلب مجهوداً كبيراً لكنها تدر عائداً وفيراً . لهذا يرى النائب أن العبد الذى دُفع فيه مائتا دوقية يستطيع أن يشترى حريته خلال عامين ، لكن العبد يؤجل دفع جزء من المبلغ إلى أجل غير مسمى حتى يتجنب الطرد بموجب القانون . كان أشخاص كثيرون فى مدينة لوخا قد رفضوا العمل فى الحقول أو فى تربية الماشية لكنهم اندمجوا وسط العامة ، كما يشير إلى ذلك مالدونادو نفسه .

Actas de las Cortes de Castilla, XLV, pags. 222-223

ليس من ضرب الخيال أن نجد عبيداً مسلمين فى إسبانيا فى أوائل القرن الثامن عشر. انظر :
Confesions d'un roue de la Résence , de Duclos, pag. 26.

المؤلف فى سطور :

خوليو كارو باروخا (١٩١٤-١٩٩٥)

– كان عضو أكاديمية التاريخ الملكية وأكاديمية اللغة الإسبانية ، وكان أستاذا فى جامعة مدريد .

– يعد من أبرز الباحثين الإسبان فى مجال علم الاجتماع .

– له كتب عديدة وعدد هائل من المقالات والمحاضرات المنشورة فى مجلات علمية ، منها كتاب (عالم السحرة) الذى صدر عن دار نشر جامعة شيكاغو ، ومنها أيضاً : (تزييف التاريخ) و(محاكم التفتيش والشعوذة) و(اليهود فى إسبانيا فى العصر الحديث) .

– يطرق فى هذا الكتاب أبوابا لم تكن معروفة فى البحث التاريخى الموريسكى.

المترجم فى سطور :

جمال أحمد عبد الرحمن

– من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)

– حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩)

– الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا و مدريد

– حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩) .

– فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة.

– له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ديناو وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد علي
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستي	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدعيمي	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسي سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطي
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبري محمد عبد الغني
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعي
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا الرمي	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسي العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلي
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومي

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيتل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيفال (مسرحية)	ريتشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩-	الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (جـ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لوريتزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتازار	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروبكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	روميلو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١- مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدي
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥- جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٣١٦- محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتري اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفي برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامي صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩- تاريخ الأدب في إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زيادون ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلي
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسرامات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود علاوي
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافي
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللي	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	عصام حجازي
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زريرج	ناجي رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلي النعماني	جلال الحفناوي
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابي (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوي
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروينداتي روي	فخري لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوي
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. ب. ماك إيفوي وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزيورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزي وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون علماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرية السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانس روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريويذر	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جوناثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	آرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

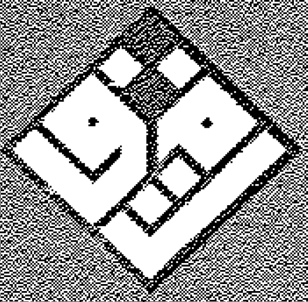
٥٣١- ما الذى حَدَثَ فى حَدَثِ ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧- الحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣- مدخل الشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- أقدم لك: چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

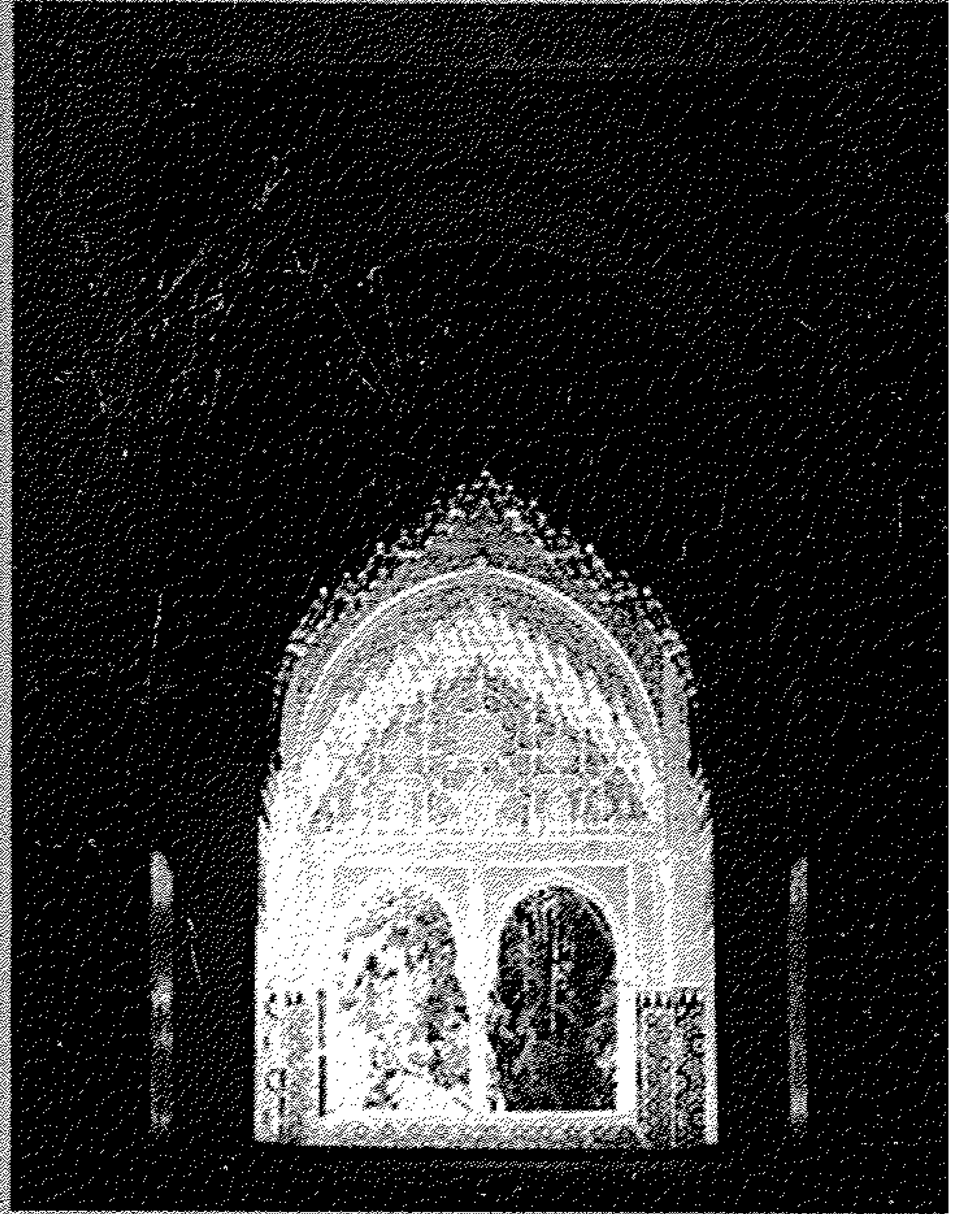
٥٦٩- موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٩١٩ / ٢٠٠٣







يمثل هذا الكتاب أحد المراجع التى لا غنى عنها للباحث فى تاريخ الأندلس بعد عام ١٤٩٢، أى بعد سقوط غرناطة الإسلامية. يتعرض المؤلف لقضية التراث الإسلامى لغرناطة رغم رحيل المسلمين عنها طوعًا أو كرهًا، ويؤكد - تفنيدًا لرأى من يرى انتفاء تلك الصلة - أن التراث الإسلامى لم يفارق غرناطة أبدًا؛ فالوثائق تبين عودة الكثيرين من أهل غرناطة إلى بيوتهم بعد طردهم منها، ويستدل فى ذلك بالتشابه الواضح بين عادات أهل غرناطة وأهل المغرب العربى فى المأكل والملبس والمعاملات والزخرفة.

لا يخشى المؤلف أن يشير إلى خطأ المؤرخين الإسبان القدامى، ويذكر - فى صراحة غير معهودة فى البحث التاريخى الإسبانى المعاصر له - أن الظروف السياسية فى القرنين الس
عشر والسابع عشر كانت تحول دو
يكتب المؤرخون بموضوعية، كم
يحاول الربط بين الواقع الاجتماع
شمال أفريقيا ووضع الموريسكيي
إسبانيا، لعل ذلك يساعده على فهم
إسبانيا بكل أبعاده.





الغلاف: أمين الصيرفي